

شرح كتاب التوحيد

من صحيح البخاري
تأليف

الشيخ عبد الله بن محمد الغنيان
رئيس قسم الدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة

الجزء الأول

المقدمة

أحمد الله الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ألوهيته وربوبيته، ولا ند له في
أسمائه وصفاته.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى، ودين الحق، فدعا إلى
توحيد الله الخالص من كل شائبة شرك، في حقه، أو فعله، أو أسمائه
وصفاته، وجاهد في هذا السبيل حتى وضح الحق، واستبان وكمل به الدين،
وتمت النعمة، فترك الأمة على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك.
وسار على نهجه صحابته، فلم يغيروا، أو يبدلوا، بل بذلوا جهدهم في
دعوة الخلق إلى عبادة الله وحده، حتى مضوا لسبيلهم.

فصلاة الله وسلامه على عبده ورسوله محمد بن عبد الله، إمام الحنفاء
وسيد الأصفياء، ورضي الله عن صحابته أجمعين، وعمن سلك نهجهم إلى
يوم الدين.

كمال الهداية وتمام النعمة على هذه الأمة

أما بعد، فقد علم أن الله - تعالى - بعث رسوله محمداً - صلى الله عليه
وسلم - على حين فترة من الرسل " وفي جاهلية لا تعرف من الحق رسماً،
ولا تقيم به في مقاطع الحقوق حكماً " ⁽¹⁾، وإنما ينتحلون ما تهواه نفوسهم،

⁽¹⁾ انتزاعاً من خطبة " الاعتصام " للشاطبي (ص 2).

وما تزينه لهم شياطينهم، وما وجدوا عليه آباءهم، فجاهدهم وجادلهم باللين والحكمة، وقارعهم باللسان والحجة، لمن كابر وعاند، وكان نصر الله حليفه، فاستقام أمره، وانتصر على عدو الله، وظهر دينه، فجاء نصر الله ودخل الناس في دين الله أفواجا، وبعد تمام نعمة الله - تعالى - عليه وعلى أمته، وظهور ما جاء به من الحق، ووضوح الطريق، توفاه الله إليه، فقام بعده صحابته بأمره خير قيام، فجاهدوا في الله القريب والبعيد، حتى تحقق ما أخبر به رسولهم - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه مسلم في "صحيحه" عن ثوبان، قال: قال رسول الله -

ص 6

صلى الله عليه وسلم:- " إن الله زوى⁽²⁾ لي الأرض فرأيت مشارقها، ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين، الأحمر، والأبيض⁽³⁾، وأني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم⁽⁴⁾، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة⁽⁵⁾، وأن لا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً"⁽⁶⁾.

فتحت بلاد الروم وفارس في عهد الخليفة الثاني، وأنفقت كنوزها في سبيل الله - تعالى - وواصلت جحافل التوحيد إلى مشارق الأرض ومغاربها، تفتح القلوب إلى معرفة الله وتوحيده قبل البلاد، حتى تمت نعمة الله على أكثر أهل الأرض، فاتجهوا إلى عبادة الله وحده، بعدما كانوا يعبدون كل شيء، وكانت تستعبدهم شياطين الجن والإنس.

ولكن كثيراً من الناس لا يعجبهم ذلك، بل يسوؤهم ويحزنهم. ومن حكمة الله - تعالى - أن جعل للباطل جنوداً يناصرونه، ويدافعون الحق ويردونه، كما جعل للحق أنصاراً يتفانون في الذياد عنه، والدعوة إليه. وقد كان ذلك منذ بآء إبليس اللعين بالطرد عن رحمة الله، والبعد عن كل خير، فأقسم بعزة الله ليغوين بني آدم أجمعين، إلا عباد الله المخلصين، كما قال الله تعالى عنه: { قَالَ قَبَّرْتُكَ لِأَعْوِيَّتِهِمْ أَجْمَعِينَ } {82} إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ }⁽⁷⁾.

(2) معناه: جمعها لي فرأيت أقصاها من الشرق ومن الغرب .

(3) المقصود بالكنزين: كنز الفرس، والروم، الأحمر: الذهب، والأبيض: الفضة .

(4) أي: يهلكهم جميعاً، ويستولي على بلادهم، وذرائعهم، وأموالهم .

(5) أي: لا أرسل عليهم عذاباً يعمهم، ويستأصلهم.

(6) "صحيح مسلم" (4/2215) رقم (2889).

(7) الآيتان 82، 83 من سورة ص.

ومن المعلوم أن الله - تعالى - لم يقبض نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - حتى أكمل له دينه، وأظهره على من عاداه بالحجج والبراهين، وبقوة القتال لمن وقف في وجهه وعاند الحق، كما قال - تعالى - في آخر ما أنزله الله عليه: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي

ص 6

وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا} ⁽⁸⁾، فإذا كان الله قد أكمل لهم دينهم، فلا بد من أنه وضحه لهم بحيث لا يبقى فيه أي التباس أو اشتباه، ولا بد من أنهم فهموه واعتقدوه على ما أريد منهم وعملوا به، ولا بد من الاستغناء به عن كل ما سواه، فلا يحتاجون معه إلى غيره، وأعظم ما يحتاجونه وأشرفه هو معرفتهم ربهم بأسمائه وصفاته، وما يجب له ويستحقه، ويحمد ويمجد به، ويشنى به عليه؛ لأن هذا من أفضل العبادات التي أوجبه الله عليهم، كما قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} ⁽⁹⁾.

قد أوضح الله ورسوله العقيدة وضوحاً جلياً

فلا بد من إيضاح الواجب لله - تعالى - والممتنع عليه، والجائز عليه، حتى يكونوا على بينة من دينهم، ومعبودهم، لأنه لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا من الوحي، إذ هو من الغيب، الذي لا يعلم بالقياس، ولا بالعقل.

وقد بين الله لنا طريقة الأنبياء التي كانوا يدعون بها أممهم، كما قص الله تعالى عنهم في القرآن، فقد اتفقت طريقتهم في الدعوة إلى توحيد الله وعبادته وحده، وخاتمهم جاء مقتفياً أثرهم في ذلك، فدعا أمته إلى ما دعت إليه الرسل قبله، من توحيد الله ومعرفته، فلم يفارقهم حتى وضح لهم الطريق، واستبان الحق من الباطل.

روى ابن ماجه عن أبي الدرداء، قال: خرج علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونحن نذكر الفقر ونتخوفه، فقال: "ألفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده لتصبن عليكم الدنيا حتى لا يزيغ قلب أحدكم إلا هيه، وايم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء".

قال أبو الدرداء: صدق والله رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "تركنا على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء" ⁽¹⁰⁾.

ص 8

⁽⁸⁾ الآية 3 من سورة المائدة .

⁽⁹⁾ الآية 180 من سورة الأعراف .

⁽¹⁰⁾ "سنن ابن ماجه" (1/4) رقم (5).

وقال الله تعالى: { وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ }⁽¹¹⁾، وقال تعالى: { وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ }⁽¹²⁾، وقال تعالى: { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ }⁽¹³⁾.

فالإيمان بالله وأسمائه وصفاته أعظم الأشياء، وكذلك عبادته، فلا بد أن يبين الكتاب - الذي هو تبيان لكل شيء - ذلك أوضح البيان.

ولا بد أن يدل على أعظم الهدى الذي هو معرفة الله - تعالى - بأسمائه وصفاته، كما أن من أعظم ما وقع فيه الخلاف في الأمة هو في هذا الباب، فلا بد أن يكون قد بينه، لأنه تعالى أخبرنا أنه نزله ليبين لنا ما اختلفنا فيه، ولا بد أن نجد فيه ما يزيل كل شك ولبس؛ لأنه هدى ورحمة، لكن ليس لكل أحد بل للمؤمنين فقط.

وأعظم ما أنزل إلينا هو الإيمان بالله، ومعرفته، وقد أخبرنا تعالى أنه أنزل الكتاب ليبين للناس ما نزل إليهم، فكيف يترك أعظم الأشياء المنزلة إلينا بدون بيان؟

فعلم بهذا ونحوه أن الله - تعالى - بين على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - للأمة كل ما تحتاج إليه في دينها، ومعرفة ربها، ولم يكل ذلك إلى عقولهم، أو قياساتهم.

قال ابن عباس في قوله تعالى: { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا }⁽¹⁴⁾: " أخبر الله نبيه والمؤمنين، أنه أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبداً"⁽¹⁵⁾.

ص 9

فإذا كان الله - تعالى - قد أكمل لهم الإيمان، فكل ما لم يقله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في باب الإيمان ولم يأمر به وببينه للأمة فهو باطل، وليس من الدين الكامل الذي جاء به.

وأصل الدين وأساسه: معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته، ومعرفة ما يجب له على عباده.

ولا يجوز لمسلم يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر أن يظن برسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه لم يبين ما يعتقد العبد في ربه؛ لأن هذا هو الذي أمر بتبليغه.

⁽¹¹⁾ الآية 89 من سورة النحل .

⁽¹²⁾ الآية 64 من سورة النحل .

⁽¹³⁾ الآية 44 من سورة النحل .

⁽¹⁴⁾ الآية 3 من سورة المائدة .

⁽¹⁵⁾ رواه ابن جرير بسنده ، انظر " تفسيره " (9/518) ط المعارف .

قال شيخ الإسلام: " من المحال في العقل والدين أن يكون الرسول الذي أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، وأنزل عليه الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، أن يكون قد ترك باب الإيمان بالله والعلم به ملتبساً مشتبهاً، ولم يميز بين ما يجب لله، من الأسماء الحسنى والصفات العليا، وما يجوز عليه، وما يمتنع عليه، فإن معرفة هذا أصل الدين، وأفضل الأعمال، فكيف يكون القرآن والرسول والصحابة - وهم أفضل الخلق بعد النبيين - لم يحكموا هذا الباب اعتقاداً وقولاً؟".

ومحال أن يعلم النبي - صلى الله عليه وسلم - أمتيه أدب الأكل والشرب، وقضاء الحاجة، ونحو ذلك، ويترك تعليمهم ما يقولونه بالسنتهم، وما يعتقدونه في قلوبهم، في ربهم ومعبودهم، مع كون ذلك غاية المعارف، وأشرف المقاصد، والوصول إليه غاية المطالب، مع قوله - صلى الله عليه وسلم: " ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم" (16).

ومحال أن يكون الذين كان فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والذين يلونهم غير عالمين للحق في باب معرفة الله، وغير قائلين به. ومعلوم أن من في قلبه حياة ومحبة للعبادة، أنه يحرص أشد الحرص على معرفة ذلك.

ص 10

وقد صح عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: (17) " خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته" (18).

بدء الانحراف

لما سيطر حكم الإسلام على أكثر البلاد، في آسيا، وأفريقيا، وغيرهما، دخل تحت حكمه أمم كثيرة، رغبة ورهبة، وكان لها أديان مختلفة، من يهودية، ومجوسية، ونصرانية، ووثنية، وغير ذلك، وقد كان لكثير من هذه الأمم سلطان كبير، مثل المجوس، والرومان، فسلبهم المسلمون ذلك، وكان عند هؤلاء من الكبر والاستعلاء ما يجعلهم يأنفون من كونهم تحت سلطان المسلمين، ولا سيما وقد كانوا يرون العرب من أحقر الأمم، وأقلها شأنًا، كما أن اليهود واجهوا الإسلام ورسوله من أول أمره بالعداء، وحاولوا القضاء عليه بأنواع من المكائد، والمؤامرات، ولما يئس هؤلاء جميعاً من قدرتهم في

(16) انظر "صحيح مسلم" (12/233) شرح النووي، في الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، وابن ماجه في الفتن، انظر (2/1306) رقم (3956)، والنسائي في البيعة (7/153).

(17) البخاري، انظر "الفتح" (7/2) و (11/244، 543).

(18) الفتوى الحموية، ملخصاً، انظر "مجموع الفتاوى" (5/706).

www.dorar.net الدرر السنية

مجابهة الإسلام بالقوة وجهاً لوجه انصرف جهدهم وكيدهم إلى الدسائس، والمؤامرات، والاعتيالات لرجاله العظام.

ودخل في الإسلام ظاهراً من هؤلاء من قصده إفساده، وتمزيق وحدة أهله، ولا بد أن يكون ذلك عن دراسة، وإعمال فكر وتخطيط. وربما يكون هناك جمعيات متعاونة، من المجوس واليهود، والنصارى والهنود، وغيرهم، وقد تكون لكل طائفة مؤسسات تعمل لإفساد عقائد المسلمين؛ لتيقنهم أنه لا يمكن هزيمة المسلمين، إلا بإفساد عقيدتهم، فبدأت آثار تلك المؤامرات تظهر، شيئاً فشيئاً، فقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب بأيد مجوسية، وربما بمؤامرة مجوسية يهودية.

ثم قتل الخليفة بعده، بأيد مشبوهة، من غوغاء، يدفعهم بعض دهاة اليهود والمجوس.

ثم ظهر القول بنفي القدر، وأول من عرف بذلك رجل مجوسي يقال له:

سيسويه، من الأساورة، وإن كان قد اشتهر أن أول من قال به

ص 11

معبد الجهني⁽¹⁹⁾.

ثم أوقدت نار الفتنة بين المسلمين، وقتال بعضهم بعضاً.

ثم خرجت الخوارج بجهلهم، وعتوهم، وتكفيرهم المسلمين، وقتلهم إياهم.

ثم نجم التشيع الشنيع، من قبل يهود ومجوس يوقدون ناره، وأظهروا القول بأن للرسول -صلى الله عليه وسلم- وصياً، هو علي بن أبي طالب، ولكن الصحابة تمالؤوا على ظلمه، وكتمان الوصية على حد زعمهم الكاذب.

ولم يزل التشيع يتطور بتطرفه، وتشعبه، حتى صار ملجأ لكل من يريد أن يحارب الإسلام والمسلمين، وظهر فيه القول بأن القرآن مبدل ومحرف، ومزيد فيه، ومنقوص منه، وأن أعظم الصحابة ارتدوا بعد إسلامهم إن لم يكونوا كلهم، ما عدا علي بن أبي طالب ونفراً قليلاً معه.

وقد يصل الضلال ببعضهم والجرأة على الله - تعالى - إلى أن يقول بخيانة جبريل للرسالة، وأنه أرسل إلى علي فعدل بها إلى محمد.

ولم يزل الرفض يبتعد أهله عن الدين والعقل والفتنة إلى يومنا هذا. ثم ظهر القول بإنكار الصفات لله - تعالى -، وأنه لا يحب أحداً من عباده ولا يحبه أحد، ولا يتكلم، وليس له يد، ولا وجه، ولا شيء مما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله.

⁽¹⁹⁾ معبد الجهني البصري: تابعي، كان داعية في ضلال، قال الدارقطني: حديثه صالح ومذهبه رديء. تكلم فيه كثير من السلف من أجل قوله بنفي القدر، قتله عبد الملك سنة ثمانين. انظر "تهذيب التهذيب" (10/225).

www.dorar.net الدرر السنية

وكان أول من عرف بذلك، رجل يقال له: الجعد بن درهم⁽²⁰⁾. قال شيخ الإسلام: " أصل مقالة تعطيل الصفات، مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين، وضلال الصابئين، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة في

ص 12

الإسلام – أعني أن الله ليس على العرش حقيقة، وأن الاستواء بمعنى الاستيلاء، ونحو ذلك – هو الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان، وأظهرها فنسبت مقالة الجهمية إليه.

وقد قيل: إن الجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت عن لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر، الذي سحر النبي -صلى الله عليه وسلم-⁽²¹⁾. وهذه سلسلة يهودية لها سوابق في محاربة الإسلام.

وقال البخاري: " حدثنا قتيبة، حدثني القاسم بن محمد، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن حبيبة، عن أبيه، عن جده، قال: شهدت خالد بن عبد الله القسري بواسط في يوم أضحى... وقال: ارجعوا فضحوا تقبل الله منكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله علواً كبيراً عما يقول ابن درهم، ثم نزل فذبحه".

قال أبو عبد الله: قال قتيبة: " بلغني أن جهماً كان يأخذ الكلام من الجعد بن درهم"⁽²²⁾.

فتبين أن هذا الإلحاد جاء من قبل اليهود الذين أرادوا إفساد دين الإسلام، كما أن الرفض أول من عرف من دعائه يهودي ماكر حاقد، وهو ابن سبأ، يقال له: ابن السوداء، واسمه: عبد الله بن وهب بن سبأ، من يهود صنعاء، ولا بد أن هؤلاء الأفراد الذين شهروا بدعواتهم المنحرفة، وراءهم من يدعمهم، ويخطط لهم، وهذا الموضوع بحاجة إلى دراسة فاحصة، تبين الأمر بوضوح، وهذا الذي أشرت إليه تدل عليه كثير من الوقائع، والآثار عن السلف، وغيرهم.

فكان هذا هو سبب التفرق الحقيقي، إذ هو تفرق في الاعتقاد، وهو منشأ الخلافات، والحروب الكلامية الممزقة، التي لم تنزل تنخر في كيان المسلمين إلى يومنا هذا.

ص 13

⁽²⁰⁾ عداة في التابعين، قتله خالد بن عبد الله القسري على الزندقة، يذكر أنه جعل في قارورة ماء وتراباً، فاستحال دوداً، فقال: أنا خلقتة. وهو فارسي، قتل سنة 124، انظر "البداية والنهاية" (9/394).

⁽²¹⁾ "مجموع الفتاوى" (5/20).

⁽²²⁾ "خلق أفعال العباد" (ص 29-30) ورواه عثمان بن سعيد في "الرد على الجهمية" (ص 25).

وقد ينضم إلى ذلك عوامل جديدة في كل فترة زمنية، من أنواع الإلحاد ومحاربة الإسلام بأساليب شتى وأسلحة مختلفة، مقروعة ومرئية ومسموعة، ولولا أن الله - تعالى - تكفل ببقاء هذا الدين إلى آخر وقت من الدنيا، لقضي عليه منذ زمن بعيد، وهذا بالإضافة إلى ما هو كامن في طباع البشر مما يبعدهم عن الحق، مثل التقليد، واتباع المألوفات، وما يكون عليه رؤساء القوم وعظماؤهم، كما ذكر الله تعالى عن الأمم السابقة مع أنبيائهم، قال تعالى:

{أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ} {21} بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ} {22} وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ} {23} قَالَ أُولُو جِنَّتِكُمْ يَأْهَدِي مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ} {23}

فهذا يدل على أن الإنسان يصعب عليه ترك المألوف له، كما أن شيخه ومن يعظمه قد يسيطر على توجيهه إلى ما يعتقده، كما هي طريقة المتكلمين حيث يأخذون بأراء شيوخهم ومعظميهم، مع مخالفتها لكتاب الله وسنة رسوله.

ومن ذلك الجهل، واتباع الهوى، كما هو حال أكثر الخوارج، فإنهم جهلوا معاني الكتاب، وأرادوا من عموم الأمة أن لا يكون لهم ذنوب، وإلا أصبح عندهم كافراً مخلداً في النار.

و أما الهوى فبابه واسع، وقد قال الله تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} {24}

وقال تعالى: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ} {25} إلى غير ذلك من الدوافع نحو الانحراف، وسأذكر شيئاً مما ذكره أهل العلم يؤيد ما ذكر هنا:

ص 14

قال شيخ الإسلام - رحمه الله تعالى - : " وقد روي أن أول من ابتدع {القول بنفي القدر} بالعراق رجل من أهل البصرة يقال له: سيسويه، من أبناء المجوس، وتلقاه عنه معبد الجهني" {26}

وقال الإمام ابن حزم: " الأصل في أكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام: أن الفرس كانوا من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم، وجملة

{23} الآيات 20-24 من سورة الزخرف .

{24} الآية 23 من سورة الجاثية .

{25} الآية 50 من سورة القصص .

{26} "مجموع الفتاوى" (7/384)، وذكره المقرئ في "الخطط" (3/360)، وسيأتي، وأما ما ذكره أبو لبابه حسين في كتابه "موقف المعتزلة من السنة" أن معبداً أخذ مقالته عن نصراني من أهل العراق أسلم ثم تنصر، نقلاً عن أدب المعتزلة، ففيه نظر، إذ هو خلاف المشهور.

الخطر في أنفسهم، حتى إنهم يسمون أنفسهم: الأحرار، والأبناء، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم، على أيدي العرب، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطراً، تعاضمهم الأمر، وتضاعفت لديهم المصيبة، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة، في أوقات شتى، ففي كل ذلك يظهر الله - سبحانه وتعالى - الحق، وكان من قائمتهم "منقاذ" و"المقنع" و"استباين"، و"دبابك"⁽²⁷⁾ وغيرهم، وقبل هؤلاء رام ذلك عمار الملقب "خداشا"، و"أبو مسلم السراج".

فأروا أن كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام، واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واستشناع ظلم⁽²⁸⁾ علي - رضي الله عنه - ثم سلكوا بهم مسالك شتى، حتى أخرجوهم عن الإسلام، فقوم منهم أدخلوهم إلى القول بأن رجلاً ينتظر يدعى المهدي، عنده حقيقة الدين، إذ لا يجوز أن يؤخذ من هؤلاء الكفار. وقوم خرجوا إلى نبوة من ادعوا له النبوة.

ص 15

وقوم سلكوا بهم المسلك الذي ذكرنا، من القول بالحلول، وسقوط الشرائع. وآخرون تلاعبوا بهم، فأوجبوا عليهم خمسين صلاة في كل يوم وليلة.

وآخرون قالوا: بل هي سبع عشرة صلاة، في كل صلاة خمس عشرة ركعة.

وهذا قول عبدالله بن عمرو بن الحارث الكندي: قبل أن يصير خارجياً صفرياً⁽²⁹⁾.

وقد سلك هذا المسلك أيضاً عبدالله بن سبأ الحميري اليهودي⁽³⁰⁾، فإنه لعنه الله، أظهر الإسلام ليكيد أهله، فهو كان أصل إثارة الناس على عثمان - رضي الله عنه - وجرق علي بن أبي طالب طوائف أعلنوا بالهيته.

ومن هذه الأصول الملعونة، حدثت الإسماعيلية، والقرامطة، وهما طائفتان مجاهرتان بترك الإسلام جملة، قائلتان بالمجوسية المحضة، ثم مذهب مزدك الموبذ، الذي كان على عهد أنوشروان بن قباد، ملك الفرس، وكان يقول بوجوب تساوي الناس في النساء، والأموال.

(27) هذه الأسماء فيها اختلاف بين النسختين من "الفصل" المحققة والمطبوعة سابقاً، ففي القديمة "ستقادة" و "استاسيس" والملقب بـ "خداش" و "أبو مسلم السراج" ولم يشر المحققان إلى هذا الاختلاف.

(28) لم يقع على علي بن أبي طالب ظلم من الصحابة كما زعمته الرافضة، وإنما هو شيء اختلق للتشيع والوصول إلى المقصد الخبيث.

(29) يجوز أن يكون عبدالله هذا يهودياً، لم يشف حقه ما فعله من إفساده دين من أفسد دينه، فدخل في الخوارج ليروي ظمناً حقه بدماء المسلمين، فإله أعلم.

(30) إن فعل هذين الرجلين يدلنا على أن هناك منظمات تتعاون على حرب الإسلام من اليهود والمجوس وغيرهم، كما أشرت إليه قبل ذلك.

قال أبو محمد: " فإذا بلغ الناس إلى هذين الشعبين أخرجوهم عن الإسلام كيف شاؤوا إذ هذا هو غرضهم فقط" (31).

وهذا الذي ذكره أبو محمد ابن حزم - رحمه الله - ظاهر في أنه كان هناك جمعيات تنظيمية تخطط لهدم عقيدة المسلمين، بشتى الوسائل.

قال البخاري - رحمه الله تعالى -: " حدثنا محمد بن عبدالله - أبو جعفر البغدادي - قال: سمعت أبا زكريا، يحيى بن يوسف الزمي، قال: كنا عند عبدالله ابن إدريس، فجاءه رجل، فقال: يا أبا محمد، ما تقول في قوم يقولون: القرآن مخلوق؟ فقال: أمن اليهود؟ قال: لا، قال: فمن النصارى؟ قال: لا، قال: فمن المجوس؟ قال: لا، من أهل التوحيد، قال: ليس هؤلاء من أهل التوحيد، هؤلاء

ص 16

الزنادقة من زعم أن القرآن مخلوق، فقد زعم أن الله مخلوق، يقول الله - تعالى -: بسم الله الرحمن الرحيم، فالله لا يكون مخلوقاً، والرحمن لا يكون مخلوقاً، والرحيم لا يكون مخلوقاً.

وهذا أصل الزندقة، من قال هذا فعليه لعنة الله، لا تجالسوهم، ولا تناكحوهم" (32).

وقال أبو سعيد الدارمي - رحمه الله تعالى -: " لم يزل {أهل الباطل} مقموعين أذلة، مدحورين، حتى كان الآن بأخرة، حيث قلت الفقهاء، وقبض العلماء، ودعا إلى البدع دعاة الضلال، فشد ذلك طمع كل متعوز في الإسلام من أبناء اليهود، والنصارى، وأنباط العراق، ووجدوا فرصة للكلام، فجدوا في هدم الإسلام، وتعطيل ذي الجلال والإكرام، وإنكار صفاته وتكذيب رسله، وإبطال وحيه، إذ وجدوا فرصتهم، وأحسوا من الرعاع جهلاً، ومن العلماء قلة، فنصبوا عندها الكفر للناس إماماً، بدعوتهم إليه، وأظهروا لهم أغلوطات من المسائل، وعمايات من الكلام، يغالطون بها أهل الإسلام، ليوقعوا في قلوبهم الشك، ويلبسوا عليهم أمرهم ويشككوهم في خالقهم، مقتدين بأئمتهم الأقدمين" (33).

وقال البخاري: " حدثني أبو جعفر، حدثني يحيى بن أيوب، قال: سمعت أبا نعيم البلخي، قال: كان رجل من أهل "مرو" صديقاً للجهم، ثم قطعه وجفاه، فقيل له: لم جفوته؟ فقال: جاء منه ما لا يحتمل، قرأت يوماً آية كذا وكذا - نسيها يحيى - فقال: ما كان أظرف محمداً، فاحتملتها، ثم قرأ سورة طه، فلما قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (34)، قال: أما والله لو وجدت

(31) "الفصل" (116-2/115) وانظر "المحققة" (274-2/273).

(32) "خلق أفعال العباد" (ص 30).

(33) "الرد على الجهمية" (ص 259) "عقائد السلف".

(34) الآية 5 من سورة طه.

سبيلاً إلى حكها لحككتها من المصحف، فاحتملتها، ثم قرأ سورة القصص فلما انتهى إلى ذكر موسى، قال: ما هذا؟ ذكر قصته في موضع فلم يتمها، ثم ذكرها هاهنا فلم يتمها، ثم رمى المصحف من حجره برجليه، فوثبت عليه" (35).

ص 17

فهذه الوقائع - ومثلها كثير جداً - تدل على حقد دفين على هذا الدين، وأنه دخل في المسلمين الدخيل ذو القلب الموتور، والصدر الموغور، والنفس التي تأكلها نار عداوة الإسلام، ونبي الإسلام، وأن هؤلاء يحاولون اجتثاث الإسلام من قلوب الناس، بالتشكيك في أصوله، وأن كثيراً من علماء السلف علموهم، وعرفوا أن مرادهم صد الناس عن الإسلام، وإفساد عقائدهم: وأن تعاوناً يهودياً، ومجوسياً، ونصرانياً، وإلحادياً لم يزل ينتهز الفرص، جاهداً في إطفاء نور الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره.

ولا شك أن الصراع بين الحق والباطل قديم، وأنه لا يخلو زمان ولا مجتمع من ذلك، وأن الله - تعالى - جعل للباطل هوة ومحيين، ينفقون أموالهم ويبدلون نفوسهم في الدفاع عنه، كما جعل للحق أنصاراً، وهذا أمر ظاهر، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} (36).

وإذا كان الإنسان متظاهراً بمساندة الباطل ونصرته، فأمره أسهل ممن يخفي ذلك، ويتظاهر بالخير والإيمان، وهو من أبعد الناس عنه، وأشدهم عداوة له، وإنما مقصده معرفة مواطن الضعف من الإسلام وأهله، والمداخل التي تنفذ سموه منها فيهم، ثم يرميهم بكل ما يستطيع.

وربما يكون هناك تنظيمات تلبس لباس العلم والمعرفة، والإصلاح، والتجديد، والمقصود منها القضاء على الدين، وهم ينوعون أساليبهم في كل وقت بما يناسبه، وإن مصائب الإسلام بهؤلاء وأمثالهم، من فجره إلى يومنا هذا تتوالى، وقد وصف ذلك المقرئ - رحمه الله - وصفاً مفيداً ألخصه فيما يلي:

قال: " لما بعث الله محمداً -صلي الله عليه وسلم- إلى الناس، وصف لهم ربهم بما وصف به نفسه، فلم يسأله أحد من العرب بأسرهم، قروبيهم وبدويهم، عن معنى شيء من ذلك، كما كانوا يسألونه عن أمر الصلاة، وشرائع الإسلام، إذ لو سأله أحد منهم عن شيء من الصفات لنقل، كما نقلت أحاديث الأحكام وغيرها.

(35) "خلق أفعال العباد" (ص 46)، وانظر: "عقائد السلف" (128-129).
(36) الآية 76 من سورة النساء.

ومن أمعن النظر في دواوين الحديث والآثار عن السلف، علم أنه لم يرد قط لا من طريق صحيح ولا سقيم عن أحد من الصحابة على اختلاف طبقاتهم، وكثرة عددهم، أنه سأل النبي-صلى الله عليه وسلم- عن معنى شيء⁽³⁷⁾، مما وصف الرب- سبحانه- به نفسه في القرآن وعلى لسان نبيه، بل كلهم فهموا معنى ذلك وسكتوا سبكوت فاهم مقتنع، ولم يفرقوا بين صفة وأخرى، ولم يتعرض أحد منهم إلى تأويل شيء منها، بل أجروا الصفات كما ودرت بأجمعهم، ولم يكن عند أحد منهم ما يستدل به سوى كتاب الله وسنة رسوله.

ومضى عصرهم - رضي الله عنهم- على هذا، وحدث القول بنفي القدر في عهد آخرهم.

وكان أول من فاه بذلك معبد الجهني، أخذه عن رجل من الأساورة، يقال له: أبو يونس سيسويه، ويعرف بالأسواري، وتبرأ من هذه المقالة الصحابة. ثم خرجت الخوارج، وكفروا بالذنوب، فقاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

وحدث التشيع لعلي، وغلا فيه طائفة بدعوة ابن سبأ اليهودي، فحرقهم في النار، كما أحدث ابن سبأ القول بالوصية لعلي بالإمامة من بعد الرسول - صلى الله عليه وسلم- والقول بالرجعية، أي رجعة علي بعد موته، وأن فيه جزءاً من الإلهية.

ومن دعوة هذا اليهودي تشعبت الغلاة من الرافضة، كالإمامية الاثنى عشرية، والإسماعيلية، والقرامطة، والنصيرية، وغيرهم، وهو الذي أثار الفتنة على أمير المؤمنين عثمان حتى قتل، ولم يزل مذهب الرفض يستفحل حتى ملأ الدنيا فساداً.

ثم حدث مذهب الجهمية، وتعطيل الرب- تعالى - عن صفاته، والقول بخلق القرآن، وغير ذلك من العظائم، وعربت كتب الفلاسفة في عهد المأمون، فعظمت الفتنة والضلال.

ثم ظهر الأشعري، وكان أخذ عن الجبائي الاعتزال، ولازمه دهرأً طويلاً، ثم سلك طريق ابن كلاب في الصفات، والقدر، وغير ذلك.

وسلك طريقه جماعة من العلماء، مثل الباقلاني، وابن فورك، والاسفراييني، والشيرازي، والغزالي، والشهرستاني، والرازي وغيرهم، ملأوا الدنيا بتصانيفهم، يحتجون، ويدعون أن طريقتهم هي طريقة أهل السنة

⁽³⁷⁾ مقصوده: أنهم لم يسألوا عن مثل اليدين والوجه والنزول والاستواء ونحو ذلك، مما يدل على أنهم فهموا أن هذه الصفات على ظاهرها المفهوم من لغتهم، مع علمهم انتفاء المماثلة فيها لصفات الخلق.

www.dorar.net الدرر السنية

والجماعة، فانتشر هذا المذهب في البلاد الإسلامية، وجاءت دولة بني أيوب، وكانوا على هذا المذهب، ثم مواليهم الأتراك، وأخذ ابن تومرت إلى المغرب، ونشره هناك، فصار هذا المذهب هو المعروف في الأمصار، بحيث نسى ما عداه من المذاهب، أو جهل، حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه، إلا أن يكون مذهب الحنابلة.

حتى جاء تقي الدين - أبو العباس ابن تيمية -، فتصدى للانتصار لمذهب السلف، ورد على الأشاعرة، والرافضة، والصوفية، فافترق الناس فيه فريقان: فريق يقتدي به، ويعول على أقواله، ويرى أنه شيخ الإسلام حقاً، ومن أجل حفاظ أهل الملة الإسلامية.

وآخر يبدعه، ويضلله، ويزري عليه إثبات الصفات وغيرها".
ثم قال المقرئ:

"فهذا - أعزك الله - بيان ما كانت عليه عقائد الأمة من ابتداء الأمر إلى وقتنا، قد فصلت فيه ما أجمله أهل الأخبار، وأجملت ما فصلوا، فدونك طالب العلم تناول ما قد بذلت فيه جهدي، وأطلت بسببه سهري وكدي، في تصفح دواوين الإسلام، وكتب الأخبار فقد وصل إليك صفواً⁽³⁸⁾.

وقال أحمد أمين في كلامه على ابن سبأ: "والذي يؤخذ من تاريخه، أنه وضع تعاليم لهدم الإسلام، وألف جمعية سرية لبث تعاليمه، واتخذ الإسلام ستاراً يستر به نيته"⁽³⁹⁾.

وذكر الطبري: "أن ابن السوداء لما وصل إلى الشام لقي أبا ذر - رضي الله عنه - فقال له: يا أبا ذر، ألا تعجب لمعاوية، يقول: المال مال الله، ألا إن كل شئ لله، يريد أن يحتجبه دون المسلمين، فذهب أبو ذر إلى معاوية وقال له: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين مال الله؟". ثم أتى ابن السوداء أبا الدرداء، فقال له أبو

ص 20

الدرداء: من أنت؟ أظنك - والله - يهودياً. وأتى عبادة بن الصامت فأخذه عبادة، وذهب به إلى معاوية، وقال له: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر"⁽⁴⁰⁾.
فإذا كان هذا اليهودي قد طمع بالصحابة، فكيف بغيرهم؟
ومن استقرأ التاريخ يرى أن أعداء الإسلام لم يدخروا وسعاً في محاولة القضاء عليه، إلى يومنا هذا.

⁽³⁸⁾ ("الخطط" للمقرئ ملخصاً (314-3/309).

⁽³⁹⁾ ("فجر الإسلام" (ص 269).

⁽⁴⁰⁾ ("تاريخ الطبري" (4/283).

www.dorar.net الدرر السننية

كبريات الفرق الإسلامية

كان من نتائج التآمر على عقيدة المسلمين من جهات متعددة، كما سبقت الإشارة إليه، أن انشطر من الأمة الإسلامية عدة فرق، انحرفت عن الطريق الصحيح، الذي رسمه لها نبيها-صلى الله عليه وسلم- وأخذت بنيات الطريق، كما سبق في حكم الله القدري الكوني، قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ} {118} إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ} (41).
روى ابن جرير عن الحسن "قال: الناس مختلفون على أديان شتى، إلا من رحم ربك، فمن رحم غير مختلفين".

وروي عن مجاهد: قال: "ولا يزالون مختلفين" أهل الباطل، "إلا من رحم ربك" أهل الحق" (42).
وقال: "معنى ذلك: ولا يزال الناس مختلفين في أديانهم، وأهوائهم، على أديان وملل، وأهواء شتى، إلا من رحم ربك، فأمن وصدق رسوله، فإنهم لا يختلفون في توحيد الله، وتصديق رسوله، وما جاءهم من عند الله" (43).
ص 21

وقال ابن كثير: "يخبر تعالى أنه قادر على جعل الناس كلهم أمة واحدة، من إيمان أو كفران، كما قال تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا} (44).

وقوله: "ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك" أي: ولا يزال الخلف بين الناس في أديانهم، واعتقاداتهم في مللهم ونحلهم، ومذاهبهم، وأرائهم، إلا المرحومين من أتباع الرسل، الذين تمسكوا بما أمروا به من الدين الذي جاءت به رسل الله إليهم، ففازوا بسعادة الدنيا والآخرة، لأنهم الفرقة الناجية" (45).

وقد أخبر النبي-صلى الله عليه وسلم- بوقوع هذا الاختلاف، محذراً منه، فروى أبو داود، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم-: "افتقرت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت النصارى على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة" (46).

(41) الآيتان 118، 119 من سورة هود.

(42) "تفسير الطبري" (15/534) ط المعارف.

(43) المصدر السابق، (ص 534).

(44) الآية 99 من سور يونس.

(45) "تفسير ابن كثير" (290-4/291) ملخصاً، ط الشعب.

(46) "السنن" (5/4) رقم (4596)، ورواه الترمذي، "التحفة" (7/397)، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (

(2/1321) رقم (3991).

ورواه أيضاً من حديث معاوية بن أبي سفيان- رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم -: "ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب، افترقوا على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين، اثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة، وهي الجماعة".⁽⁴⁷⁾ قال ابن كثير: "روي هذا الحديث في "السنن" و"المسانيد" من طرق يشد بعضها بعضاً".⁽⁴⁸⁾

وأصل الفرق الذي ترجع إليه أربع كما قال طائفة من السلف، وهم الروافض، والخوارج، والقدرية {المعتزلة}، والمرجئة، وبعض العلماء يجعلها خمسا ويدخل أهل السنة، كما قال أبو محمد بن حزم: "فرق المقرين بملة الإسلام

ص 22

خمس، وهم: أهل السنة، والمعتزلة، والشيعة، والخوارج، والمرجئة، ثم افتقرت كل فرقة من هذه على فرق".⁽⁴⁹⁾ ومراده: غير أهل السنة، فإنهم فرقة واحدة، وهم الذين تمسكوا بكتاب الله واتبعوا سنة رسوله-صلى الله عليه وسلم-.

وقال الطرطوشي: "اعلم أن علماءنا قالوا: أصول البدع أربعة، وسائر الأصناف الاثنتين والسبعين فرقة عن هؤلاء تفرقوا، وتشعبوا. وهم: الخوارج: وهي أول فرقة خرجت على علي بن أبي طالب، والروافض، والقدرية، والمرجئة".⁽⁵⁰⁾

ومن هذه الفرق تشعبت سائر الفرق، وقد أُلّف فيها وفي بيان نحلها مؤلفات قديماً وحديثاً.

وكان من أول هذه الفرق الشيعة، فإنها حدثت في آخر عصر الصحابة، ثم تطور التشيع إلى الرفض، ومبدأه من ابن سبأ اليهودي، وغيره من المجوس ممن دخل في الإسلام ظاهراً وفي الباطن هم إما يهود ماكرون، أو مجوس موتورون، قصدهم إفساد الدين الإسلامي، كما تقدم.

فكان الرفض في أوله يسمى التشيع، فاشتهروا بالشيعة-أي شيعة علي بن أبي طالب- وكانوا في زمنه ثلاث فرق:

فرقة تقول: إنه إله، وقد صرحوا له بذلك، فحرق المذنبين تمكن منهم بالنار.

⁴⁷() "السنن" (5/5)، والترمذي من حديث عبد الله بن عمرو مع بعض الاختلاف في اللفظ، وقال: حديث حسن مفسر، انظر "تحفة الأحوزي" (7/399).

⁴⁸() "تفسير ابن كثير" (4/291).

⁴⁹() "الفصل" (2/265).

⁵⁰() "الحوادث والبدع" (ص 31).

والثانية: الذين يسبون أبا بكر وعمر- رضي الله عنهما- وقد توعد علي - رضي الله عنه- من فعل ذلك بأن يقيم عليه الحد- قيل: إنه القتل.
والثالثة: المفضلة، الذين يفضلون علياً على أبي بكر وعمر، وبقية الصحابة، وقد روي عنه أنه قال: "لا أوتي برجل يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلده الحد"⁽⁵¹⁾.
ص 23

ولما خرج زيد بن علي بن الحسين في أوائل المائة الثانية، سأله الشيعة عن أبي بكر وعمر، فترضى عنهما، وبين أنه يتولاهما، تبرأ منه عند ذلك أكثرهم، فقال: رفضتموني. فسموا: الرافضة، والذين اتبعوه سموا زيدية.
وأما القدريّة: فأصلهم-فيما يبدو، والله أعلم- من المجوسية المتعاونة مع اليهودية والنصرانية على حرب الإسلام.
وحدثت هذه الضلالة أيضاً في آخر عهد الصحابة- رضي الله عنهم- ثم تطورت إلى الاعتزال.

وقد أغتر بهذا المبدأ كثير من الناس، الذين عجزت عقولهم عن استيعاب الإيمان بقدر الله، وأمره ونهيه، ووعدده ووعدده، وظنوا امتناع الجمع بين ذلك، فنفوا علم الله بالمستقبل، لظنهم أنه لا يحسن أن يأمر من يعلم أنه يعصي أمره ثم يعذبه على ذلك، حيث جعلوا هذا ظلماً لا يجوز، فقابلتهم الجبرية، الذين هم صنو منهم، ثم تطورت إلى التجهم، والتعطيل، بتغذية اليهودية المفسدة في الأرض.

وأما الخوارج: فهم الذين خرجوا عن الحق من جيش أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وهم كذلك كان ظهورهم في آخر عهد الصحابة رضي الله عنهم. وهم إنما أتوا من سوء فهمهم للنصوص، ولم يقصدوا مخالفة القرآن، ولكن فهمهم أداهم إلى ما لم يدل عليه القرآن، وهو تكفير أهل الذنوب، والقول بخلودهم في النار، ولا بد أنه اندس في صفوفهم من يضلهم من منظمات الموتورين، والحاquدين على دين الله وعباده المؤمنين.
وأما الإرجاء: فإنه وإن كان أخف هذه البدع، ومعتنقوه من أقربهم إلى أهل السنة، ففيه من الضلال والمخالفة لشرع الله تعالى ما هو معروف في مواطنه.

الأشعرية

من نتائج الافتراق والتشتت، برزت الأشعرية، وهي عبارة عن خليط من مذاهب عدة فرق، كالمعتزلة، والكلابية، والجهمية، وقد كان إمام هذه النحلة- أبو الحسن الأشعري- تلميذاً لأبي علي الجبائي، قرأ عليه أصول المعتزلة،

⁽⁵¹⁾ انظر: "فضائل الصحابة" للإمام أحمد (1/83).

ولازمه ما يقرب من أربعين عاماً، ولهذا كان خبيراً بمذاهب المعتزلة، ثم انتقل إلى طريقة

ص 24

عبد الله بن سعيد بن كلاب، وهي أقرب إلى مذهب أهل السنة من طريقة المعتزلة، وجعل يبين فساد مذهب الاعتزال ويرد عليهم، ويوضح فساد أصولهم، وتناقضهم، وبعدهم عن الحق، ومثلهم الرافضة والفلاسفة، ولهذا صار له ذكر حسن وقدر عند المسلمين.

والذين ينتسبون إليه من المتأخرين ليسوا على طريقته، مع أنه لم يكن من أهل السنة المحضة، إذ لم يستطع أن يتخلص من بعض مسائل أهل الكلام.

قال شيخ الإسلام: "لا ريب أن الأشعرية إنما تعلموا الكتاب والسنة من أتباع الإمام أحمد، ونحوه، ولهذا يوجد أكثر ألفاظه التي يذكرها عن أهل السنة والحديث، إما ألفاظ زكريا بن يحيى الساجي، التي وصف بها مذهب أهل السنة، أو ألفاظ أصحاب الإمام أحمد، وما ينقل عن أحمد في رسائله الجامعة في السنة، وإلا فالأشعري لم يكن له خبرة بمذهب أهل السنة، وأصحاب الحديث، وإنما يعرف أقوالهم من حيث الجملة، لا يعرف تفاصيل أقوالهم، وأقوال أئمتهم، وقد تصرف فيما نقله عنهم باجتهاده في مواضع يعرفها البصير.

وأما خبرته بمقالات أهل الكلام فكانت تامة على سبيل التفصيل. ولهذا لم يذكر عن أهل السنة في كتاب "مقالات الإسلاميين" إلا جملة مقالاتهم، مع أن لهم في تفاصيل تلك ما ليس لأهل الكلام. ولا ريب أن للأشعري في الرد على أهل البدع كلاماً حسناً، هو من الكلام المقبول، الذي يحمد قائله إذا أخلص فيه النية.

وله أيضاً كلام خالف به بعض السنة هو من الكلام المردود، الذي يذم قائله إذا أصر عليه بعد قيام الحجة"⁽⁵²⁾ والله يغفر لنا وله.

وقد انتسب إلى الأشعري أكثر العالم الإسلامي اليوم من أتباع المذاهب الأربعة، وهم يعتمدون على تأويل نصوص الصفات تأويلاً يصل أحياناً إلى التحريف، وأحياناً يكون تأويلاً بعيداً جداً، وقد أمتلت الدنيا بكتب هذا المذهب، وادعى أصحابها أنهم أهل السنة، ونسبوا من آمن بالنصوص على ظاهرها إلى التشبيه والتجسيم.

ص 25

هذا ولا بد لعلماء الإسلام-ورثة رسول الله صلى الله عليه وسلم- من مقاومة هذه التيارات الجارفة، على حسب ما تقتضيه الحال، من مناظرات،

⁽⁵²⁾"التسعينية" (286-5/287) من الفتاوى المصرية، ملخصاً.

أو بالتأليف، وبيان الحق بالبراهين العقلية والنقلية، وقد يصل الأمر أحياناً إلى شهر السلاح.

وقد أكثر علماء السنة من التأليف في الرد على أهل الأهواء والانحراف، كما ظهر بعض الطوائف المقابلة لتلك البدع كالسالمية والكلابية، الذين تولوا أيضاً الرد على أهل تلك الانحرافات، غير أنهم كثيراً ما يردون البدع ببدع مماثلة لما يرد أو قريباً منها، يزداد من أجل ذلك التباس الحق على كثير من الناس، بخلاف ما إذا كان الرد بما دل عليه كتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - كما هو نهج أهل السنة، بالإضافة إلى المعقول الصريح.

ومن كبار علماء السنة الذين ردوا على أهل البدع، الإمام البخاري - رحمه الله تعالى - في كتاب أفرد لذلك سماه "خلق أفعال العباد"، ولم يقتصر فيه على ما يفهم من الاسم، بل رد فيه على الجهمية والقدرية وغيرهم، كما رد على المرجئة في كتاب الإيمان من "الجامع الصحيح"، ورد على الجهمية والمعتزلة ومن سلك طريقهم في كتاب "التوحيد"، الذي ختم به كتابه "الجامع الصحيح"، وسلك فيه طريقاً واضحاً في الرد، إذ اقتصر على ذكر النصوص، من الكتاب والسنة، التي فيها بيان بطلان مذاهب هؤلاء المشار إليهم، فكانه يقول: هذا كتاب ربنا الذي أنزله علينا وأمرنا باتباعه، وحضنا على تدبره وفهمه، وجعله هدى ونوراً وشفاءً للمؤمنين به، وهذه سنة نبينا الذي كلفنا بطاعته، ومتابعته، وفيهما العصمة عن الخطأ، وهما صريحان في بيان الحق، الذي ضل عنه هؤلاء المبتدعة، ففيهما تكفلاً برد ما جاؤوا به، فلا يسع المسلم إلا الأخذ بهما، ورد ما خالفهما، ففيهما الهدى والنور، وفي تركهما الضلال والهلاك، والله - تعالى - لم يكلنا إلى عقولنا، بل أرسل إلينا رسولاً بين لنا كل ما نحتاج إليه من أمور ديننا، وأنزل عليه كتابه، فيه تبيان لكل شيء فرق فيه بين الحق والباطل، فلسنا نحتاج معه إلى غيره، فإن تمسكنا به أوصلنا إلى الله من أقرب طريق وأهداه، وإن أعرضنا عنه تخطفنا الشياطين من كل

ص 26

جانب، كما قال الله - تعالى - : { وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } {36} وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ } {37} حَتَّى إِذَا جَاءَتْ قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ } .⁽⁵³⁾

الإمام البخاري

هو أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه. (54)

قال النووي: "اتفق العلماء على أنه ولد بعد صلاة الجمعة، لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال، سنة أربع وتسعين ومائة، وتوفي ليلة السبت، عند صلاة العشاء ليلة الفطر، سنة ست وخمسين ومائتين، ودفن يوم الفطر بعد الظهر". (55)

طلب العلم من صغره، وتبينت نجابته، وذكاؤه، وفطنته، وحفظه، ونبله من صغره، وقد طوف البلاد مراراً لطلب الحديث، وأخباره مشهورة، واتفق العلماء على جلالة، وإمامته في الحديث، وفقهه، وتميز بذلك عن غيره، وقد كتب في ترجمته كثيراً، في كتب الرجال، والشروح، وأفرد لذكر فضائله وشمائله كتب خاصة، فلا نطيل في ذلك.

وأما كتابه "الجامع الصحيح" فقال النووي - رحمه الله -: "اتفق العلماء على أن أصح الكتب المصنفة: صحيح البخاري ومسلم، واتفق الجمهور على أن "صحيح البخاري" أصحهما صحيحاً، وأكثرهم فوائد". (56)

قلت: هو كتاب عظيم ونافع جداً لمن قرأه، وتدبره، وقد أودعه من التراجم التي تعين على الفهم الشيء الكثير، وهي تدل على عظيم فقهه في الحديث، ودقة استنباطه، وقد بلغت ثلاثة آلاف وثمانمائة واثنين وثمانين ترجمة، وتزيد على ذلك في بعض النسخ.

ص 28

هذا، وقد اعتنى به العلماء عناية فائقة، قراءة، وحفظاً، وتدریساً، وشرحاً. فحظي بشرح كثيرة جداً، فذكر في "كشف الظنون" ما يقرب من ثمانين شرحاً للبخاري (57)، وله أكثر من ذلك بكثير.

ومع هذا، فإن كتاب التوحيد منه بحاجة إلى شرح يبين مقاصد البخاري - رحمه الله تعالى - ووجه الرد منه على أهل البدع، لأن غالب من قام بشرحه، على المذهب الأشعري، ولا سيما الشروح المتداولة اليوم، ولهذا تجد أحدهم يوجه الكلام من النصوص، ليتفق مع ما يعتقد، ولو بالتعسف.

وكثير من الصفات التي يثبتها البخاري، مستدلاً عليها بنص من كتاب الله، أو عن رسوله، يحاولون ردها، إما بالتحريف الذي يسمونه تأويلاً، أو

(54) "هدي الساري" (2/250)، و"تاريخ بغداد" (2/4).

(55) "شرح النووي للبخاري" (ص 4).

(56) "شرح النووي للبخاري" (ص 7).

(57) انظر: "كشف الظنون" (1/545).

www.dorar.net الدرر السنية

بدعوى الإجماع على خلافها، كما ذكر الحافظ-رحمه الله تعالى- عن ابن بطال، في قوله-صلى الله عليه وسلم -: " لا شخص أغير من الله". قال: "أجمعت الأمة على أن الله-تعالى- لا يجوز أن يوصف بأنه شخص".

(58)

وذكر عن الخطابي: أنه رد وصف الرب -تبارك وتعالى- بالأصابع، كما في حديث عبد الله بن مسعود في ذكر الحبر الذي سأل رسول الله-صلى الله عليه وسلم - ونسب ذلك إلى تخليط اليهود، وتشبيههم، وقال في قوله في الحديث: "فضحك رسول الله-صلى الله عليه وسلم - تصديقاً لقوله" إنه ظن من ابن مسعود، وحسبان، وحاول عكس الأمر، وأن الضحك من جرأة اليهود على التشبيه⁽⁵⁹⁾، وأمثال ذلك كثير، مما هو خلاف ما أراد إثباته مؤلف الكتاب.

ولذلك أرى من الواجب أن يتولى شرح هذا الكتاب العظيم، الذي ألفه ذلك الرجل السلفي الفاهم للحق تمام الفهم، من هو على نهج المؤلف في العقيدة، ويفهم مقصده، وماذا يريد من إيراده للنصوص.

ولما أعوزني وجود شرح على هذا الوصف، ولم يسعفني من طلبت منه القيام بذلك من مشائخنا، تطلعت على كتب العلماء، وقمت بجمع ما أراه مناسباً لشرح

ص 29

ما أورده البخاري-رحمه الله تعالى- وأرجو من الله الإمداد بالعون والسداد، فإنه لا يخيب سائله، ولا يحرم أمله، ولست أزعم أنني أفهم من كتاب البخاري-رحمه الله- ما لا يفهمه شارحوه، أمثال ابن حجر والعيني والخطابي وابن بطال والقسطلاني وغيرهم، ولكن لكل منهم نهجه الخاص، وعقيدته التي تملي عليه مسلكاً معيناً.

وطريقتي فيه أني:

1- أذكر نص الحديث بسنده، ثم أتبعه بترجمه لراويهِ من الصحابة موجزة جداً.

2- أحاول بيان مراد البخاري-رحمه الله- من إيراده النص، وبيان وجه استدلاله بذلك، حسب المستطاع.

3- أعزو الكلام إلى قائله، مبيناً مكانه من المصدر، بالجزء والصفحة، وأذكر رقم الآية واسم السورة، ومكان الحديث في المصدر، وأما "صحيح البخاري" فغالباً أعزو ما فيه إلى "الفتح".

⁵⁸ () انظر: "الفتح" (13/400) وسيأتي-إن شاء الله- الكلام عليه وذكر من رواه.

⁵⁹ () انظر: "الفتح" (13/398) . وسيأتي-إن شاء الله - ذكر ذلك في موضعه، وإبطاله بالبراهين المعتمدة على الحق اليقيني، لا ظنون المتكلمين وشكوكهم، والله المستعان.

4- لا أتطرق إلى الكلام على رجال السند، إذ هو أمر مفروغ منه، فكل ما في البخاري ثابت، عن المصطفى-صلى الله عليه وسلم-، وقد تلقته الأمة بالقبول، فلا يطعن فيه إلا من كان له غرض، أو في قلبه مرض، خلا بعض المعلقات، وقد تولى الحافظ-رحمه الله- وصل أسانيده، والإجابة عما قيل فيها في كتابه: "تغليق التعليق".

5- أحاول جهدي بيان مذهب السلف، في أسامي الله-تعالى-، وأوصافه، ومدى تمسكهم بالكتاب والسنة، مستعيناً على ذلك بنقل ما تيسر لي من كلامهم على سبيل الإيجاز.

6- أحاول رد القول الباطل، أو الضعيف، الذي تؤيده النصوص، إذ إن مبنى أوصاف الله-تعالى- على ثبوت النص في ذلك، ولا دخل لقياس وعقل في ذلك، وكل ذلك حسب المستطاع.

ص 30

قال البخاري - رحمه الله تعالى:-

"باب ما جاء في دعاء النبي-صلى الله عليه وسلم-أتمته إلى توحيد الله-تبارك وتعالى-"

مقصده بهذا أن يبين أن النبي-صلى الله عليه وسلم- قد أوضح ما يجب على المسلم أن يعتقد في حق الله-تعالى- نفيًا وإثباتًا، وأوضح ما يجب لله على عباده، من توحيد القصد والنية، لأن قوله: "توحيد الله" يعم أنواع التوحيد، فلم يترك الأمر مشتبهًا، بل بينه، فيجب أن يتبع بيانه في ذلك، فلا يصار إلى رأي متكلم، أو عقل متفلسف، أو قول مؤول.

وقوله: "دعاء النبي-صلى الله عليه وسلم- أتمته" أي الدعوة التي كلفه الله بها وأمره بإبلاغها.

يعني: أن هذا مقصود الرسالة، فلا بد أن يبينه، ويبلغه أتمته، البلاغ المبين، بحيث لا يبقى فيه التباس، أو اشتباه.

وقد قام-صلوات الله وسلامه عليه- بهذا الواجب خير قيام، فأوضحه غاية الإيضاح، فلا عذر لمن انحرف عنه، وتلقى توحيده من الفلاسفة والمتكلمين الذين كثر في هذا الباب اضطرابهم، وغلظ عن معرفة الله-تعالى- حجابهم.⁽⁶⁰⁾

وبهذا يبين أن معرفة التوحيد، الذي جاء به رسول الله-صلى الله عليه وسلم- ودعا أتمته إليه، لا يمكن الوصول إليها إلا بما جاء به-صلى الله عليه وسلم- من كتاب الله-تعالى-، وسنته التي هي شارحة ومبينة لكتاب الله-تعالى-.

والأمة هنا يقصد بها: الأمة المطلقة، أي أمة الدعوة.

⁽⁶⁰⁾ اقتباس مكن كلام شيخ الإسلام في أول الحموية، انظر (ص 5) بتعليقات محمد عبد الرزاق حمزة.

1- "حدثنا أبو عاصم، حدثنا زكريا بن إسحاق، عن يحيى بن عبد الله بن صيفي، عن أبي معبد، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - بعث معاذاً إلى اليمن".

2- وحدثني عبد الله بن أبي الأسود، حدثنا الفضل بن العلاء، حدثنا إسماعيل ابن أمية، عن يحيى بن عبد الله بن صيفي، أنه سمع أبا معبد مولى ابن عباس يقول: سمعت ابن عباس يقول: "لما بعث النبي - صلى الله عليه وسلم - معاذاً إلى نحو أهل اليمن، قال له: إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم، إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم، تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك، فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس".

عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، الهاشمي، ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وحبر هذه الأمة، من المكثرين عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وجل ما يرويه بواسطة أحد الصحابة، دعا له النبي - صلى الله عليه وسلم - بأن يفقهه الله في الدين، ويعلمه التأويل، فظهرت عليه آثار دعوته - صلى الله عليه وسلم - حتى عرف بأنه ترجمان القرآن. توفي النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو ابن خمس عشر سنة، على الراجح.

وقد توفي سنة ثمان وستين في الطائف. (61)

ومعاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، الأنصاري، الخزرجي، من علماء الصحابة وساداتهم، قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح: "والله يا معاذ إنني أحبك" (62). وقال ابن مسعود: "إن معاذاً كان أمة قانتاً لله حنيفاً، ولم يكن من المشركين، إنا كنا لنشبهه معاذاً بإبراهيم، عليه السلام". (63)

شهد العقبة، والمشاهد كلها مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - توفي في الشام بطاعون عمواس، سنة ثمان عشرة، وكان عمره ثمان وثلاثون سنة. (64)

⁶¹(انظر: "الإصابة" (4/141)، "تذكرة الحفاظ" (1/37)، "أسد الغابة" (3/290)، "أسير أعلام النبلاء" (3/331)، وغيرها كثير.

⁶²(السنن" (2/180)، الحديث رقم (1522)، وانظر: "المجتبى" (3/53).

⁶³(انظر: "الإصابة" (6/137).

⁶⁴(سير أعلام النبلاء" (1/443)، "أسد الغابة" (5/194)، "الإصابة" (6/136).

قوله: "بعث معاذاً إلى اليمن" أي أرسله مبلغاً عنه، وداعياً إلى عبادة الله وتوحيده.

"وأصل البعث: إثارة الشيء، وتوجيهه. ويختلف باختلاف ما علق به. فبعثت البعير: أثرته من مبركه، وسيرته، وقوله تعالى: {وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ} (65) أي يخرجهم من الأرض أحياء، ويسيرهم إلى المحشر. وقوله تعالى: {وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاتَهُمْ} (66) أي: توجههم، ومضاهم معك. وقوله تعالى: {فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ} (67) أي: قيضه لذلك.

وقوله تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا} (68) أي: أرسلناهم لدعوة قومهم إلى الله تعالى، فالبعث ضربان: أحدهما: يتعلق بفعل المخلوق، كبعث البعير، وبعث الإنسان في حاجة.

والثاني: إلهي، وهو قسمان: الأول: إيجاد الأعيان، والأجناس، والأنواع، من العدم، على غير مثال سابق، وهذا خاص بالله تعالى.

والثاني: إحياء الموتى، وهذا قد أعطى، جل وعلا- بعض من يشاء من عباده شيئاً منه، كعيسى-عليه السلام- ليكون آية على صدقه (69) ولا يقع ذلك إلا بإذن الله تعالى وإرادته.

ص 33

و"اليمن" اسم البلاد المعروفة الواقعة في الجنوب الغربي من جزيرة العرب.

قال في "القاموس": "اليمن ما كان عن يمين القبلة من بلاد الغور" (70)، وفي "المراصد": "سميت اليمن لتيامنهم إليها، لما تفرقت العرب من مكة، كما سميت الشام لأخذهم الشمال" (71).

قلت: وفيه نظر، وذلك أن اليمن قديم، قبل وجود مكة على يدي إبراهيم وابنه إسماعيل-عليهما السلام- إلا أن تكون التسمية حادثة. وقال قطرب: "سمى اليمن ليمنه" (72).

قال الحافظ: "كان بعث معاذ إلى اليمن سنة عشر، قبل حجة الوداع" (73)، وعند أهل المغازي، أن ذلك في ربيع الآخر، من سنة تسع، والصحيح ما قاله

(65) الآية 36 من سورة الأنعام.

(66) الآية 46 من سورة التوبة .

(67) الآية 31 من سورة المائدة.

(68) الآية 36 من سورة النحل.

(69) "المفردات" للراغب، بتصرف (ص 52).

(70) "القاموس" (4/279).

(71) "المراصد" (03/1483).

(72) "تاج العروس" (9/371).

(73) "الفتح" (3/358).

www.dorar.net الدرر السنوية

الحافظ، وقد أشار البخاري-رحمه الله- إلى ذلك بقوله:باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع".⁽⁷⁴⁾

وقيل: كان ذلك في أواخر سنة تسع، عند منصرفه-صلى الله عليه وسلم- من تبوك، رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك، وحكى ابن سعد أنه كان في ربيع الآخر سنة عشر"⁽⁷⁵⁾ فالله أعلم.

قوله: "إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب". تقدم-بفتح الدال-لأن ماضيه ثلاثي مكسور العين، ومصدره قدوماً، لأنه يدل على معالجة.

"القوم" الجماعة من الرجال والنساء، أو من الرجال خاصة، وتدخل النساء على التبعية. قاله في "القاموس".⁽⁷⁶⁾

ص 34

"وأهل الكتاب" هم اليهود والنصارى، "والمقصود هنا اليهود، وكان ابتداء دخولهم اليمن في زمن "أسعد ذي كرب" تبع الأصغر، كما ذكر ذلك ابن إسحاق في السيرة"⁽⁷⁷⁾.

والمقصود بالكتاب: الجنس، والمراد: التوراة، والإنجيل.

وسمى اليهود، والنصارى: أهل الكتاب، لأن الله تعالى أنزل عليهم التوراة والإنجيل، فيهما أوامر الله، ونواهيه، ليعملوا بهما، وهدى من الله ونور يخرجهم من ظلمات الغي والشهوات، قال الله تعالى: {وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ {3} مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ} ⁽⁷⁸⁾. فتوارثوه جيل عن جيل، ثم إنهم حرفوه، وغيروا فيه وزادوا ونقصوا، فاختلط حقه في باطلهم، ثم نسخه الله تعالى بالقرآن الذي أنزله على خاتم الرسل-صلى الله عليه وسلم-.

قال الحافظ:"قوله: "إنك تقدم" الخ، كالتوطئة للوصية، لتستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب علم في الجملة، فلا تكون مخاطبتهم كمخاطبة أهل الجهل من عبدة الأوثان"⁽⁷⁹⁾. ولا يدل على أن كل من يقدم عليهم من أهل الكتاب، بل أغلبهم من عبدة الأوثان، كما هو معلوم.

قوله: "فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى" اللام للأمر، وإذا اقترنت بالفاء أو الواو فهي ساكنة في الغالب الأكثر.

وقوله:"إلى أن يوحدوا الله تعالى" ذكره في الزكاة بلفظ:" ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله"⁽⁸⁰⁾.

⁽⁷⁴⁾ انظر: "البخاري" (5/204).

⁽⁷⁵⁾ انظر:"الفتح" (3/358).

⁽⁷⁶⁾ انظر: "القاموس" (4/168).

⁽⁷⁷⁾ "فتح الباري" (13/348).

⁽⁷⁸⁾ الآيات 3-4 من سورة آل عمران.

⁽⁷⁹⁾ "الفتح" (3/358).

⁽⁸⁰⁾ انظر: "الفتح" (3/261).

وفي رواية " فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله فأخبرهم... " الخ⁽⁸¹⁾.
ص 35

وفي أخرى: " فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله " ⁽⁸²⁾.

وفي رواية لمسلم: " فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله- عز وجل- فإذا عرفوا الله فأخبرهم... " الخ⁽⁸³⁾.
وهذه الروايات متفقة في المعنى.

فمعنى شهادة أن لا إله إلا الله: توحيد الله بالعبادة، والبعد عن عبادة ما سواه، وهذا هو الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، الذي قال إليه تعالى فيه " { فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا } ⁽⁸⁴⁾.

والطاغوت: كل ما عبد من دون الله- كما قال مالك رحمه الله-⁽⁸⁵⁾ سواء كان من البشر، أو من الحجر، أو الشجر، أو الحيوان، أو الأضرحة والعتبات. والكفر به: الابتعاد عن عبادته، التي هي طلب البركات منه، أو الشفاعات، أو دفع البليات، أو إنالة الحاجات، أو التوجه إليه بالدعاء، ولا بد من بغضه وعداوته، وعداوة عابديه ومقاطعتهم، والتبري منهم؛ لقول الله تعالى: { لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ } ⁽⁸⁶⁾.
والإيمان بالله-تعالى- هو: إفراده بالعبادة، التي تتضمن غاية الحب ومنتهاه مع غاية الذل وأقصاه، والانقياد لأمره والتسليم له.
ص 36

وهذا هو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله، كما قال - صلى الله عليه وسلم - لوفد عبد القيس: "أمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟" قالوا: الله ورسوله اعلم، قال: "شهادة أن لا إله إلا الله... " الخ⁽⁸⁷⁾.

⁽⁸¹⁾المصدر نفسه (ص 322).

⁽⁸²⁾المصدر السابق، (ص 357)، (8/64) "الفتح".

⁽⁸³⁾انظر: "مسلم بشرح النووي" (1/199).

⁽⁸⁴⁾الآية 256 من سورة البقرة.

⁽⁸⁵⁾قال ابن جرير: "الطاغوت: كل ذي طغيان على الله لمن عبده من دونه، إما بقهره لمن عبده أو بطاعة من العباد له، إنساناً كان ذلك المعبود، أو شيطاناً، أو وثناً، أو صنماً، أو كائناً ما كان من أي شيء" انظر "تفسير الطبري" (5/419) تحقيق: أحمد ومحمود شاكر.

⁽⁸⁶⁾الآية 22 من سورة المجادلة.

⁽⁸⁷⁾انظر: "الفتح" (1/129)، و"مسلم بشرح النووي" (1/188).

وقال-تعالى:- {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} (88)،
أخذ البخاري- رحمه الله- من هذه الآية وجوب العلم قبل العمل، فقال: باب
العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ} (89).
فالعلم بمعنى هذه الشهادة التي لا بد لكل داخل في دين الإسلام أن
يشهد بها هو الإيمان المطلوب من العباد، وهو معرفة حق الله على عباده،
الذي لا يجوز الإخلال بشيء منه، وإلا استحقوا عذابه.

و أما معنى شهادة أن محمداً رسول الله، فهو: العلم اليقيني بأنه رسول
من الله كلفه إبلاغ العباد أوامر الله ونواهيه، وطاعته في كل ما أمر به،
 واجتناب ما نهاهم عنه، وأن لا يعبد الله إلا بما جاء به، وأن كل من سلك
طريقاً غير سنته فمصيره إلى النار، وأنه بلغ العباد ما أرسل به، وبين لهم
دينهم أتم بيان، وأنه عبد الله أكرمه بالرسالة، وليس له من العبادة شيء، بل
العبادة كلها لله تعالى.

وهاتان الشهادتان متلازمتان، لا تقبل إحداهما دون الأخرى، فمن شهد أن
لا إله إلا الله، ولم يشرك به شيئاً، ولم يشهد أن محمداً رسول الله، فهو كافر
بالله وخالد في النار، وإن جاء بعبادة أهل الأرض.

ومن شهد أن محمداً رسول الله، وأشرك بالله شيئاً شركاً كبيراً، فهو
كافر خالد في النار، فلا بد من اجتماع هاتين الشهادتين في العبد حتى يكون
موحداً.

و أما مجرد النطق بشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، مع
عبادة غير الله، وتعلق القلب بمن يعتقدهم أولياء، وطلب الحاجات منهم التي
لا يقدر عليها إلا الله، ومع مخالفة أوامر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
وارتكاب ما نهى عنه، فإن ذلك لا يفيد شيئاً، ولا يكون الإنسان به مسلماً.

ص 37

قال النووي- رحمه الله:- "واتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء،
والمتكلمين على أن المؤمن الذي يحكم بأنه من أهل القبلة، ولا يخلد في
النار، لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام، اعتقاداً جازماً خالياً من
الشكوك، ونطق مع ذلك بالشهادتين، فإن اقتصر على أحدهما لم يكن من
أهل القبلة أصلاً، بل يخلد في النار، إلا أن يعجز عن النطق لخلل في
لسانه" (90).

وهذه الشهادة أيضاً تتضمن الإيمان بأسماء الله وصفاته؛ لأن ذلك من
عبادة الله التي تعبد الخلق بها.

(88) الآية 19 من سورة محمد.

(89) انظر: "الفتح" (1/159).

(90) "شرح النووي للبخاري" (ص 113)، ولا بد مع اعتقاد القلب، ونطق اللسان، من العمل مع التمكن، فلا بد من
إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع، وغير ذلك من الواجبات.

وهذا الحديث دليل ظاهر على أن التوحيد الذي هو إخلاص العبادة لله وحده، والبعد عن عبادة ما سواه، والإيمان بأسمائه وصفاته، كما جاء في وحيه إلى رسوله، هو أول واجب على العباد.

لا كما يقول أهل الكلام، من المعتزلة، والأشعرية، وغيرهم: إن أول ما يجب على العبد: النظر في الأدلة العقلية على وجود الله تعالى، أو القصد إلى النظر أو الشك، فهذا الحديث وأمثاله من نصوص الكتاب والسنة يبطل هذا الزعم الخاطيء.

"وذلك أن أصل العلم الإلهي ومبدأه، هو الإيمان بالله ورسوله، والاهتداء بوجيه، كما قال - تعالى - : {يُعِيدُ} {49} قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ قَائِمًا أَوْ نَافِسًا وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ} (91). وقال تعالى - : {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرٍ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا} (92)

ص 38

وقال - صلى الله عليه وسلم - : "أمرت أن أقاتل الناس، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم، إلا بحقها". (93)

ولهذا ابتدأ البخاري - رحمه الله تعالى - "صحيحه" ببدء الوحي ونزوله، الذي يحصل به الهدى، والنور، ثم أتبعه بكتاب الإيمان، الذي هو الإقرار بالوحي والانقياد له، ثم أتبعه كتاب العلم الذي هو معرفة ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم -، وفقهه، فهذا هو الترتيب الحقيقي.

والمطلع على أقوال أهل الكلام يعجب مما جعلوه أصل الدين الإسلامي، وبنوا عليه أن من لم يعرفه فليس بمسلم.

قال القرطبي: "لو لم يكن في الكلام إلا مسألتان، هما من مبادئه، لكان حقيقاً بالذم.

إحداهما: قول بعضهم: إن أول واجب: الشك إذ هو اللازم لوجوب النظر، أو القصد إلى النظر.

والثانية: قول جماعة منهم: من لم يعرف الله بالطرق التي رتبها أهل الكلام، لم يصح إيمانه.

والقائل بهاتين المسألتين كافر؛ لجعله الشك في الله - تعالى - واجباً، ومعظم المسلمين كفاراً، حتى يدخل في عموم كلامه السلف الصالح، من

(91) الآية 50 من سورة سبأ .

(92) الآية 52 من سورة الشورى .

(93) رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر، "الفتح" (1/75)، وانظر: "مسلم بشرح النووي" (

1/212)، وروى من حديث جماعة من الصحابة في "الصحيحين" وغيرهما.

الصحابة والتابعين، وهذا معلوم الفساد من الدين بالضرورة، وإلا فلا يوجد في الشرعيات ضروري⁽⁹⁴⁾.

وقال الغزالي: "أسرفت طائفة فكفروا عوام المسلمين، وزعموا أن من لم يعرف العقائد الشرعية بالأدلة التي حرروها فهو كافر، فضيقوا رحمة الله الواسعة، وجعلوا الجنة مختصة بشرذمة يسيرة من المتكلمين"⁽⁹⁵⁾.
ص 39

وقوله: " فإذا عرفوا ذلك، فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم".

أي إذا عرفوا توحيد الله، وعملوا به، بأن أخلصوا عبادتهم لله وحده، واجتنبوا عبادة كل معبود سواه، عند ذلك يخبرون بفرائض الإسلام، ويؤمرون بها، وأعظمها - بعد التوحيد - الصلوات الخمس.

وفي هذا دليل على أنه لا يجب على العبد من الصلاة غير الخمس المذكورة.

ومعلوم أن بعث معاذ إلى اليمن في آخر حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما سبق.

كما فيه: أنه يجب على إمام المسلمين بعث الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وتعليم الناس شرائع الإسلام، وأمرهم بالتزامها، وجباية الزكاة، ودفعتها إلى مستحقيها، الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ} الآية⁽⁹⁶⁾.

وفيه: أن الإنسان لا يصير مسلماً إلا إذا وحد الله - تعالى - بالعبادة، بأن لا يقصد بعبادته غير الله، بل تكون عبادته كلها لله وحده، وهذا هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وأما معنى شهادة أن محمداً رسول الله هو: أن يعبد الله بما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم -، والإيمان بأن الله أوحى إليه أوامره، ونواهيها، وكلفه إبلاغ الثقلين ذلك.

وفيه: أن أي تعبد يتعبد به العبد غير معتبر، ولا معتد به بدون التوحيد.

وفيه: أن أخذ خيار المال في الزكاة ظلم يجب اجتنابه.

وقصد البخاري - رحمه الله - بيان أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد بين للناس التوحيد بأنواعه، وأنه أول واجب، وأول ما يدعى إليه، فلا حاجة بعد بيانه إلى بيان أحد من الناس، كما تقدم.

قال شيخ الإسلام: "وقد علم بالاضطرار من دين الرسول - صلى الله عليه وسلم - واتفقت عليه الأمة، أن أصل الإسلام، وأول ما يؤمر به الخلق شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلماً،

⁽⁹⁴⁾ من "الفتح" (13/350) بتصرف.

⁽⁹⁵⁾ نفس المصدر، (13/349) بتصرف أيضاً.

⁽⁹⁶⁾ الآية 60 من سورة التوبة.

والعدو ولياً، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال، ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان.

ص 40

وإن قال بلسانه دون قلبه، فهو في ظاهر الإسلام، دون باطن الإيمان⁹⁷⁾ والبخاري - رحمه الله - في بدئه كتاب التوحيد بهذا الحديث، يشير إلى الرد على المتكلمين الذين جعلوا عمدتهم، في إثبات ما يثبتون، ونفي ما ينفون: العقل.

فهذا الحديث دل على أن أول ما يجب على العبد: عبادة ربه تعالى بامثال أوامره، واجتناب ما نهى عنه، وأن المقصود من الدعوة: وصول العباد إلى ما خلقوا به، من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له.

ولا سبيل إلى ذلك إلا باتباع الوحي الذي جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - فيجب أن يتبع، وأن يكون هو الأصل المعول عليه في معرفة عبادة الله، والإيمان به، وبرسوله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، والإيمان بأسمائه وصفاته وعبادته بها، خلافاً لطريقة المتكلمين، الذين جعلوا عمدتهم عقولهم في إثبات وجود الله تعالى، بناء على حدوث الكون، ثم إثبات صفاته نفيًا وإثباتًا بالقياس العقلي، ثم إثبات النبوات، ثم بعد ذلك يتكلمون في السمعيات.

وهذه طريقة المعتزلة، والكرامية، والكلابية، والأشعرية، غير أن الأشعرية سلكوا هذه الطريقة في الأصول الاعتقادية العلمية، دون العملية. وأما المعتزلة فلم يفرقوا بين العقيدة والعمل في القياس العقلي، حتى إنهم ينظرون إلى القدر المشترك في الأفعال بين الرب والعباد، فما كان حسناً من العباد في نظرهم، فهو عندهم حسن من الله تعالى، وما كان قبيحاً منهم، فهو من الله تعالى قبيح، ولهذا سماهم أهل السنة: مشبهة الأفعال، نفاة الصفات.

ص 41

3- "حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن أبي حصين، والأشعث بن سليم، سمعا الأسود بن هلال، عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ " قال: الله ورسوله أعلم، قال: " أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً أتدري ما حقهم عليه؟ " قال: الله ورسوله أعلم، قال: " أن لا يعذبهم ". جاء بصيغة الاستفهام ليكون أوقع في النفس، وأبلغ في التعليم؛ لأن الإنسان إذا سئل عن شيء لا يعلمه، ثم أخبر به بعد الامتحان بالسؤال صار ذلك أدعى لفهمه وحفظه.

⁹⁷⁾ () نقلًا من "تيسير العزيز الحميد" (ص 101).

الدرر السنية www.dorar.net

وهذا من حسن تعليمه، وإرشاده -صلى الله عليه وسلم-، وهذا الأسلوب ورد عنه -صلى الله عليه وسلم- كثيراً.

يقال: درى يدري دراية: إذا عرف، فالدراية هي المعرفة.
و"الحق": كل موجود متحقق، أو ما سيوجد لا محالة، ويقال للكلام الصدق: حق؛ لأن وقوعه متحقق، لا تردد فيه، ولأنه مطابق للواقع، وكذا المستحق على الغير، إذا كان لا تردد فيه، فهو حق.
والمراد هنا " ما يستحقه الله تعالى على عباده، مما جعله متحتماً عليهم، وألزمهم إياه بخطابه" (98).

فحقه تعالى على عباده: أن يعبدوه، مخلصين له العبادة، ممثلين ما أمرهم به وأوجبه عليهم، وأعظمه التوحيد، ومجتنبين ما نهاهم عنه، وحرمه عليهم، وأعظمه الشرك، فإذا فعلوا ذلك، فحقهم عليه أن يغفر لهم، ولا يعذبهم، وأن يدخلهم الجنة، وقد وعدهم ذلك، ووعدده حق لا يخلف.
قوله: " الله ورسوله أعلم" يؤخذ منه حسن الأدب في التعلم، وأنه لا ينبغي لمن سئل عما لا يعلمه أن يتكلف الجواب بدون يقين، ولكن يكل العلم إلى عالمه.

" ذكر يعقوب بن سفيان بإسناده، عن ربيعة قال: قال ابن خلدو: إذا جاءك الرجل يسألك، فلا يكن همك أن تخرجه مما وقع فيه، وليكن همك أن تتخلص مما
ص 42
سألك عنه" (99).

قوله: " أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً " المراد بالعبادة: فعل الطاعات، واجتناب المعاصي.

والعبادة في اللغة هي: الذل، والخضوع.
قال الأزهري: " معنى العبادة في اللغة: الطاعة مع الخضوع، يقال: طريق معبد، إذا كان مذللاً بكثرة الوطاء وبعير معبد إذا كان مطلياً بالقطران" (100).

وقال الجوهري: " أصل العبودية: الخضوع والذلة، والتعبيد: التذليل، والعبادة: الطاعة، والتعبد: النسك" (101).

(98) "فتح الباري" (11/339).

(99) "تهذيب التهذيب" (7/443).

(100) "تهذيب اللغة" (2/234).

(101) "الصالح" (2/503)، هذا متفق عليه كتب اللغة.

وأما العبادة الشرعية فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة"⁽¹⁰²⁾.

وقيل: هي كمال الحب مع كمال الخضوع؛ لأن الحب الكامل مع الذل التام يتضمن طاعة المحبوب، والانقياد له، فالعبد هو الذي ذلله الحب والخضوع لمحبوبه، فطاعة العبد لربه تكون بحسب محبته وذل له. وعطف على العبادة عدم الشرك؛ لأن العبادة لا تنفع عند الله ولا تعتبر إلا إذا كانت خالصة من الشرك.

والمشركون كانوا يعبدون الله، ويعبدون معه غيره، ولهذا اشترط نفي الشرك. والجملة حالية، والتقدير: يعبدونه في حال عدم الإشراك به. قال ابن حبان: عبادة الله: إقرار باللسان، وتصديق بالقلب، وعمل بالجوارح.

ولهذا قال في الجواب: "فما حق العباد إذا فعلوا ذلك؟ فعبر بالفعل، ولم يعبر بالقول"⁽¹⁰³⁾.
ص 43

قوله: "أتدري ما حقهم عليه؟" فسرّه بقوله: "أن لا يعذبهم". وفي الرواية الأخرى: "أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً"⁽¹⁰⁴⁾، والتقدير: أن لا يعذب من يعبده، ولا يشرك به شيئاً؛ لأن عدم الشرك مع عدم العبادة لا ينفع، وهذا معلوم من نصوص الشرع.

قال الحافظ: "اقتصر على نفي الشرك؛ لأنه يستدعي التوحيد بالافتضاء، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذب رسول الله فقد كذب الله، ومن كذب الله فهو مشرك، أو هو مثل قول القائل: من توضع صحت صلاته، أي مع سائر الشروط، فالمراد: من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به"⁽¹⁰⁵⁾.

وحق العباد على الله تعالى هو من فضله وكرمه، وليس استحقاق عوض وجزاء، كما تقول المعتزلة.

والناس في هذه المسألة ثلاث فرق:

منهم "من يقول: للمخلوق على الله حق يعلم بالعقل.

فهم يقيسون الخالق تعالى على المخلوق - كما تقدمت الإشارة إليه -.

⁽¹⁰²⁾ انظر أول فقرة من رسالة العبودية .

⁽¹⁰³⁾ "فتح الباري" (11/339).

⁽¹⁰⁴⁾ انظر: "الفتح" (6/58).

⁽¹⁰⁵⁾ "فتح الباري" (1/228).

www.dorar.net الدرر السنية

ومنهم من يقول: لا حق للمخلوق على الله تعالى بحال، ولكن يعلم ما يفعله بعبدته بحكم وعده وخبره. وهذا قول أتباع جهم، وبعض من ينتسب إلى السنة.

ومنهم من يقول: بل أوجب الله تعالى على نفسه حقاً لعباده المؤمنين، كما حرم الظلم على نفسه، ولم يوجب ذلك عليه مخلوق.
ص 44

ولا يقاس بمخلوقاته تعالى، بل هو برحمته، وحكمته، وعدله، كتب على نفسه الرحمة، وحرّم على نفسه الظلم، كما في الحديث الذي في "صحيح مسلم" وغيره⁽¹⁰⁶⁾ "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا".

وقال تعالى: { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ }⁽¹⁰⁷⁾، وقال تعالى: { وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ }⁽¹⁰⁸⁾.

فمن قال: ليس للمخلوق على ربه حق، فهو صحيح، إذا أراد أنه ليس عليه حق بالاعتبار والقياس على خلقه، كما يجب للمخلوق على مثله، وكما يظن جهال العباد أن لهم على الله حقاً بعبادتهم؛ لأن النفوس الجاهلة تتخيل أن الإنسان بعبادته وعلمه يصير له على الله حق، من جنس ما يصير للمخلوق على المخلوق⁽¹⁰⁹⁾، كمن يطيع سيده ورئيسه فيجلبه له منفعة، أو يدفع عنه مضرة، ويبقى يتقاضى العوض، والمجازاة على ذلك، ويقول عند الجفاء والإعراض: ألم أفعل كذا؟ يمن عليه بما فعل معه، وإن لم يقله بلسانه، كان ذلك في قلبه، وتخيل مثل هذا في حق الله من جهل الإنسان وظلمه.

ولهذا بين الله تعالى أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه، وأن الله غني عن الخلق.

قال - تعالى - : { وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ }⁽¹¹⁰⁾

ص 45

وقال - تعالى - : { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ }⁽¹¹¹⁾.

⁽¹⁰⁶⁾ انظر: "صحيح مسلم" (4/1994) الحديث رقم (2577).

⁽¹⁰⁷⁾ الآية 54 من سورة الأنعام .

⁽¹⁰⁸⁾ الآية 47 من سورة الروم .

⁽¹⁰⁹⁾ ولهذا نجد الجهال وأنصاف المتعلمين يلهجون إلى الله تعالى بسؤاله بحق فلان وفلان ، ويعتقدون أن هذا أقرب إلى حصول مطلوبهم ، وهو من جهل الإنسان بربه ، وعدم تقديره حق قدره ، وأكثر ما يقع الشرك في المسلمين من هذا الباب .

⁽¹¹⁰⁾ الآية 40 من سورة النمل .

⁽¹¹¹⁾ الآية 46 من سورة فصلت .

ومن قال: للمخلوق على الله حق، فهو صحيح، إذا أراد به الحق الذي أخبر الله بوقوعه، فإن الله لا يخلف الميعاد، وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته⁽¹¹²⁾.

وهذا القول: هو الحق الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وأما القول الأول فهو ضلال بين، حيث لم يفرق قائله بين ما يجب على الخالق - تعالى - وما يجب على المخلوق.

"والفروق بين الخالق والمخلوق لا تخفى إلا على من عميت بصيرته"
منها: أن الرب - تعالى - غنى بنفسه عن كل ما سواه، ويمتنع أن يكون محتاجاً إلى غيره، بوجه من الوجوه، وأما الخلق فسادتهم وملوكهم ومن دونهم محتاجون إلى غيرهم، حاجة ضرورية.

ومنها: أن الرب - تعالى - وإن كان يحب الأعمال الصالحة، ويفرح بتوبة التائبين، فهو الذي يخلق ذلك، ويبسره، فلا يحصل ما يحبه ويرضاه إلا بقدرته ومشيئته، والمخلوق كثيراً ما يحصل له ما يحبه بغير فعله بل بفعل غيره.

ومنها: أن الرب - تعالى - أمر العباد بما يصلحهم، ونهاهم عما يفسدهم. قال قتادة: "إن الله لم يأمر العباد بما أمرهم به لحاجته إليهم، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاً عليهم، بل أمر بما ينفعهم، ونهاهم عما يضرهم" بخلاف المخلوق الذي يأمر غيره بما يحتاج إليه هو، وينهاه بخلاً عليه.

ومنها: أنه - سبحانه - هو المنعم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وهو المنعم بإيجاد القدرة والحواس، وغير ذلك مما يحصل به العلم والعمل الصالح، وهو الهادي لعباده، والمخلوق لا يقدر على شيء من ذلك.

ص 46

ومنها: أن نعمه - تعالى - على عباده أعظم من أن تحصى، فلو قدر أن العبادة جزاء لنعمه لم نقم بشكر قليل منها، فكيف والعبادة من نعمه؟

ومنها: أن العباد لا يزالون مقصرين في حقه، محتاجين إلى عفوه، ومغفرته، فلن يدخل أحد الجنة بعمله⁽¹¹³⁾، وما من أحد إلا وله ذنوب يحتاج فيها إلى مغفرة ربه، {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ} (114).

فمن ظن أنه قائم بما يجب عليه، وأنه غير محتاج إلى مغفرة ربه وعفوه وهدايته وتوفيقه، فهو ضال⁽¹¹⁵⁾.

⁽¹¹²⁾ ("مجموع الفتاوى" (1/213) بتصرف .

⁽¹¹³⁾ ("في" صحيح مسلم" عن جابر، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "لا يدخل أحداً منكم عمله الجنة ولا يجيره من النار، ولا أنا، إلا برحمة من الله" (4/2171) رقم الحديث (2817). وأخرجه البخاري في عدة مواضع من "صحيحه" من حديث أبي هريرة وعائشة. انظر: "الفتح" (11/294).

⁽¹¹⁴⁾ الآية 45 من سورة فاطر.

⁽¹¹⁵⁾ ("مجموع الفتاوى" (1/216).

والمقصود من الحديث هنا: بيان أن حق الله على عباده هو عبادته - تعالى - الخالصة من الشرك، وهي: طاعته بفعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، فلا يخالف ما جاء عن الله، أو جاء عن رسوله، لغرض أو منفعة عاجلة أو آجلة، وغير ذلك.

ومن ذلك - يعني حق الله على عباده -: اتباع ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله من غير تحريف، ولا إلحاد فيه، ولهذا ترجم على هذا الحديث في كتاب الرقاق بقوله: باب من جاهد نفسه في طاعة الله. ومراده: أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد بين ما يجب لله على عباده من عبادته باتباع أمره، واجتناب نهيه، وعبادته بأسمائه وصفاته، وتنزيهه عن مشابهة المخلوق، وما يستحقه من فعل ذلك.

ص 47

4- "حدثنا إسماعيل، حدثني مالك، عن عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن ابن أبي صعصعة، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري: " أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } يرددّها، فلما أصبح جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فذكر له ذلك، وكان الرجل يتقالها، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " والذي نفسي بيده، إنها لتعدل ثلث القرآن ". زاد إسماعيل بن جعفر، عن مالك، عن عبدالرحمن، عن أبيه، عن أبي سعيد: أخبرني أخي قتادة بن النعمان، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أبو سعيد الخدري هو: سعد بن مالك بن سنان بن ثعلبة بن الأجر - وهو خدرة - الذي ينسب إليه، أنصاري خزرجي، بايع تحت الشجرة، وغزا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - غزوات عدة، وكان أبوه من شهداء أحد. وأبو سعيد من علماء الصحابة وفقهائهم، والمكثرين الحديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

توفي رضي الله عنه سنة أربع وسبعين⁽¹¹⁶⁾. قوله: " أن رجلاً سمع رجلاً السامع هو أبو سعيد راوي الحديث، والقاريء هو قتادة، كما بينه البخاري بقوله: " زاد إسماعيل " الخ. وقد جاء مصرحاً به في مسند أحمد، ولفظه:

" بات قتادة بن النعمان يقرأ من الليل كله { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } فذكر ذلك للنبي - صلى الله عليه وسلم -، فقال - صلى الله عليه وسلم -: " والذي نفسي بيده: لتعدل نصف القرآن أو ثلثه "⁽¹¹⁷⁾.

" وقاتادة هو أخو أبي سعيد لأمه، وكانا متجاورين في السكن "⁽¹¹⁸⁾

⁽¹¹⁶⁾ () "الإصابة" (3/78) ، "أسد الغابة" (2/365).

⁽¹¹⁷⁾ () "المسند" (3/15) ، وانظر: "الفتح الرباني" (18/346).

⁽¹¹⁸⁾ () "فتح الباري" (9/61).

www.dorar.net الدرر السنية

قوله: " وكان الرجل يتقالها " بتشديد اللام، أي: يعدها قليلة بالنسبة إلي غيرها من سور القرآن "يقال": تقلل الشيء واستقله وقاله: إذا رآه قليلاً. والمراد أنه رآها قليلة في العمل، لا أنه عدها ناقصة" (119).

ص 48

قوله: " والذي نفسي بيده " كان- صلى الله عليه وسلم- كثيراً ما يحلف بهذه الصيغة، وقد ذكر البخاري- رحمه الله - في الأيمان والنذور في باب: كيف كانت يمين النبي- صلى الله عليه وسلم- عدة أحاديث بهذا اللفظ. وقد روى الطبراني، وابن ماجه، عن رفاعه بن عرابة: " كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا حلف قال: والذي نفسي بيده". وروى ابن أبي شيبة، عن أبي سعيد: كان النبي- صلى الله عليه وسلم- إذا اجتهد في اليمين قال: " لا والذي نفس أبي القاسم بيده". ورواه ابن ماجه من وجه آخر، بلفظ: "كانت يمين رسول الله التي يحلف بها - أشهد عند الله- والذي نفسي بيده" (120).

قلت: وحديث أبي سعيد رواه أبو داود في "السنن" (121).

فقوله: " والذي نفسي بيده " أي روعي، وحياتي وموتي، يتصرف في كيف يشاء. وسيأتي، إن شاء الله تعالى - الكلام على صفة اليد، وأنها من صفات الله الثابتة قطعاً، وأنها يد حقيقية تليق بعظمة الرب وقدره، تعالى وتقدس عن مشابهة الخلق، وعن الظنون السيئة التي أوجبت لأصحابها تعطيل الله- تعالى- عن صفاته، ودعتهم إلى الإلحاد في أسمائه وصفاته.

قوله: " إنها لتعدل ثلث القرآن " عدل الشيء بفتح العين: ما عادله من غير جنسه، والعدل بكسر العين: المثل، تقول: عندي عدل شاتك، أو عدل مالك، إذا كان عندك شاة مثل شاة من تخاطبه، ومال مثل ماله، فإن أردت ما يعادل ذلك من غير جنسه فتحت العين، ذكر ذلك بعض أهل اللغة. (122)

ومعنى كونها تعدل ثلث القرآن: أن القرآن أنزل على ثلاثة أقسام: ثلث منه الأحكام وبيان الحلال من الحرام. وثلث منه الوعد والوعيد، والجزاء، وما وقع بمن كذب الله ورسوله، وما سيقع بهم في الآخرة، وكذا من أطاعه.

ص 49

وثلث منه في أسماء الله تعالى وصفاته. وهذه السورة خالصة في الأسماء والصفات، قاله أبو العباس ابن سريج، وغيره من السلف.

(119) "المنهل العذب المورود" (8/113).

(120) "فتح الباري" (11/526).

(121) انظر: الحديث رقم (3264).

(122) انظر: "ترتيب اللسان" (3/707).

واعترض ابن عبدالبر على هذا: بأن في القرآن آيات كثيرة اشتملت على أكثر مما في هذه السورة من التوحيد، كآية الكرسي، وآخر سورة الحشر، وأول سورة الحديد، قد أجاب عنه القرطبي في شرحه لمسلم: بأن سورة الإخلاص قد اشتملت على اسمين من أسماء الله متضمنين جميع أوصاف الكمال، ولم يوجد في غيرها من السور، وهما "الأحد" و"الصمد".

" والقرآن باعتبار معانيه ثلاثة أقسام: توحيد، وقصص، وأمر ونهي، وكله كلام الله تعالى، والكلام إما إنشاء، وإما إخبار. فالإنشاء: هو الأمر والنهي، وما يتبع ذلك كالإباحة. والإخبار: أما عن الخالق - تعالى -، أو عن المخلوق، فالإخبار عن الخالق هو التوحيد وما يتضمنه من أسماء الله وصفاته.

والإخبار عن المخلوق، هو القصص، وهو الخبر عما كان، وما يكون. و{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} هي صفة الرحمن خالصة لذلك، وبهذا الاعتبار عدلت ثلث القرآن؛ لما فيها من التوحيد، الذي هو ثلث معاني القرآن، وليس معنى ذلك أنه يكتفي بها عن سائر القرآن، بمعنى أن من قرأها ثلاثاً كفاه عن قراءة القرآن؛ لأن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: "إنها تعدل ثلث القرآن".

وقد تقدم أن عدل الشيء - بالفتح - يطلق على ما ليس من جنسه، كما قال تعالى: {أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَامًا} فجعل الصيام عدل الكفارة، وهما جنسان.

فثواب قراءة {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} وإن كان يعدل ثواب قراءة ثلث القرآن في القدر، فلا يلزم أن يكون مثله في النوع والصفة؛ لأنها لا تغني عما اشتمل عليه القرآن من الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وسائر ما يحتاج إليه العباد. فالناس محتاجون إلى جميع القرآن، ومنتفعون به لا تغني عنها سورة الإخلاص، وإن كانت تعدل ثلث القرآن⁽¹²³⁾.

ص 50

وفي هذا الحديث دلالة ظاهرة على تفاضل كلام الله - تعالى -، وصفاته، وهو المأثور عن السلف، وعليه أئمة الفقهاء وغيرهم، ونصوص الكتاب والسنة تؤيد ذلك.

قال الله - تعالى -: {مَا تَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّمَّهَا أَوْ مِثْلَهَا} (124) فأخبر - تعالى - أنه يأتي بخير منها أو مثلها، فدل على أن الآيات تتماثل مرة، وتتفاضل أخرى، والتوراة، والإنجيل والقرآن كلها كلام الله - تعالى - وقد أجمع المسلمون على أن القرآن أفضلها، كما قال - تعالى - {وَأَنْزَلْنَا

(123) "مجموع الفتاوى" (208-17/207) بتصرف .

(124) الآية 106 من سورة البقرة .

إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ { (125) أَي هُوَ الْمُؤْتَمَنُ، وَالشَّاهِدُ، وَالْحَاكِمُ، عَلَى مَا سَبَقَهُ مِنَ الْكُتُبِ.

وَأَمَّا الْأَحَادِيثُ فَكَثِيرَةٌ، مِنْ جَمَلَتِهَا هَذَا الْحَدِيثُ، وَمَنْ تَأَمَّلَ كَلَامَ السَّلَفِ، وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ، عَلِمَ أَنَّ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَقَرَّةِ فِي نَفُوسِهِمْ، وَلَمْ يَعْرِفْ مِنَ السَّلَفِ مَنْ قَالَ: لَا يَكُونُ كَلَامُ اللَّهِ بَعْضُهُ أَشْرَفَ مِنْ بَعْضٍ؛ لِأَنَّهُ كَلِمَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا حَدَثَ ذَلِكَ لِمَا ظَهَرَتِ الْبِدْعُ مِنَ الْمَعْتَزِلَةِ، وَالْجَهْمِيَّةِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقَهُمْ، الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْقُرْآنِ، وَجَعَلُوهُ عَضِينَ.

وَتَفَاضُلُ الْكَلَامِ مِنْ جِهَةِ الْمُتَكَلِّمِ فِيهِ - سِوَاءَ كَانَ خَبْرًا أَوْ إِنْشَاءً - أَمْرٌ مَعْلُومٌ بِالْفِطْرَةِ، وَالشَّرْعِ، فَلَيْسَ الْخَبْرُ الْمُتَضَمِّنُ حَمْدَ اللَّهِ وَالثَّنَاءَ عَلَيْهِ بِأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، كَالْخَبْرِ الْمُتَضَمِّنِ لِذِكْرِ إِبْلِيسَ، وَفِرْعَوْنَ وَأَبِي لَهَبٍ، وَنَحْوِهِمْ، وَإِنْ كَانَ الْكَلِمَةُ كَلَامًا عَظِيمًا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهِ.

وَكَذَلِكَ لَيْسَ الْأَمْرُ بِالتَّوْحِيدِ، وَالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرِسَالِهِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الشِّرْكِ وَقَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَالزِّنَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا أَمَرَتْ بِهِ الشَّرَائِعُ كُلُّهَا، أَوْ حَرَمَتْهُ، كَالْأَمْرِ بِأَخْذِ الزَّيْنَةِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، أَوْ الْأَمْرِ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى الْحَامِلِ، وَالنَّهْيِ عَنِ قَوْلِ: "رَاعِنَا" وَإِنْ كَانَ لِكُلِّ وَاجِبًا.

وَلَيْسَ تَفَاضُلُ الْكَلَامِ بِاعْتِبَارِ نَسْبَتِهِ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ بِهِ، فَإِنَّهُ سَبَّحَانَهُ وَاحِدٌ، وَلَكِنْ بِاعْتِبَارِ مَعَانِيهِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا، وَبِاعْتِبَارِ أَلْفَاظِهِ الْمَبِينَةِ لِمَعَانِيهِ.

ص 51

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: " الْكَلَامُ لَهُ نَسَبَتَانِ: نَسْبَةٌ إِلَى الْمُتَكَلِّمِ بِهِ، وَنَسْبَةٌ إِلَى الْمُتَكَلَّمِ فِيهِ، فَهُوَ يَتَفَاضَلُ بِاعْتِبَارِ النِّسْبَتَيْنِ، وَبِاعْتِبَارِ نَفْسِهِ أَيْضًا، فَ { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } و { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } كِلَاهُمَا كَلَامُ اللَّهِ - تَعَالَى -، وَهُمَا مُشْتَرِكَانِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، وَلَكِنَّهُمَا مُتَفَاضِلَانِ مِنْ جِهَةِ الْمُتَكَلِّمِ فِيهِ، الْمَخْبَرُ عَنْهُ، فَ { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } كَلَامُ اللَّهِ وَخَبْرُهُ الَّذِي يَخْبَرُ عَنْ نَفْسِهِ، وَصِفَتِهِ الَّتِي يَصِفُ بِهَا نَفْسَهُ، وَكَلَامُهُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ.

و { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ } كَلَامُ اللَّهِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ عَنْ بَعْضِ خَلْقِهِ، وَيَصِفُ بِهِ حَالَهُ، فَهُمَا مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ مُتَفَاضِلَانِ " (126).

وَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَثْرَةِ الْحُرُوفِ أَفْضَلِيَّةٌ ذَلِكَ، كَمَا تَوَهَّمَهُ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ؛ لِأَنَّ الْفَضْلَ يَتَّبِعُ تَفَاضُلَ الْمَعَانِي.

فَحُرُوفُ الْفَاتِحَةِ لِقَارِئِهَا بِكُلِّ حَرْفٍ حَسَنَةٌ أَعْظَمُ مِنْ حَسَنَاتِ { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ }

(125) الآية 48 من سورة المائدة .
(126) " مجموع الفتاوى " (17/57).

فلا يلزم من مماثلة الشيء مساواته في الفضل، كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- " أنه لو أنفق من جاء بعد السابقين مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحد السابقين إلى الإسلام، ولا نصيفه" (127).

قال شيخ الإسلام: " فإذا قرأ الإنسان {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} حصل له من الثواب بقدر ثلث القرآن، لكن لا يلزم أن يكون الثواب من جنس الثواب الحاصل بقراءة ثلث القرآن؛ لأن الإنسان يحتاج إلى ما يحصل له من ثواب الأمر والنهي والقصص، وغير ذلك، و{قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} لا تسد مسد ذلك، ولا تقوم مقامه، مع أن فضل القراءة والذكر والدعاء وغير ذلك، يختلف باختلاف حال الإنسان، فالقراءة بتدبر أفضل من القراءة بلا تدبر، والصلاة بخشوع وحضور

ص 52

قلب، أفضل من الصلاة بدون ذلك، فإذا كانت {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} يعدل ثوابها ثواب ثلث القرآن، فلا بد من اعتبار التماثل في سائر الصفات، وإلا فقراءة غيرها مع التدبر والخشوع أفضل من قراءتها مع الغفلة والجهل.

والناس متفاضلون في فهم هذه السورة، وما اشتملت عليه، كما هم متفاضلون في فهم سائر القرآن" (128).

وهذا الحديث يدل أيضاً على تعدد صفات الرب تعالى، وتفاضلها؛ لأن القرآن كله، وكلامه من صفاته.

والتفاضل إنما يقع بين شيئين فصاعداً، إذ الواحد لا يعقل فيه شيء أفضل من شيء، وقد دلت النصوص الكثيرة على تعدد أسمائه تعالى وصفاته، وأن لها معاني متعددة، وهذا المعنى هو الذي قصده البخاري بهذا الحديث، فيما ظهر لي، ولا شك أن فضل هذه السورة لما اشتملت عليه من أوصاف الله تعالى، ولهذا أعقب ذلك بأن ترجم بقوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} (129).

وقال الحافظ: " مراده ما فيه من التصريح بلفظ الأودية في وصفه تعالى، كما في الذي بعده" (130).

وقول ابن بطال: " ومذهب الأشعري، وأبي بكر بن الطيب الباقلاني، وابن أبي زيد، والداودي، وأبي الحسن القابسي، وجماعة علماء السنة: أن القرآن لا يفضل بعضه بعضاً، إذ كله كلام الله وصفته، وهو غير مخلوق، ولا يجوز التفاضل إلا في المخلوقات."

(127) رواه البخاري في "فضائل الصحابة" ولفظه: " لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه" انظر: "الفتح" (7/21)، ورواه مسلم في "الفضائل" (4/1967).

(128) "مجموع الفتاوى" (140-17/138) بتلخيص وتصرف.

(129) الآية 110 من سورة الإسراء.

(130) "الفتح" (13/355) بالمعنى.

ومثله قول ابن الدراج: "أجمع أهل السنة على أن ما ورد مما ظاهره المفاضلة بين أي القرآن وسوره، ليس المراد به تفضيل ذوات بعضها على بعض، إذ هو كله كلام الله، وصفة من صفاته"⁽¹³¹⁾.
فهذا النقل عن ذكرهم، والزعم بأن هذا مجمع عليه من أهل السنة هو بحسب ظن هؤلاء- يعني ابن بطال ومن يقول ذلك - لأنهم ظنوا: أن هذا القول الذي هو عدم المفاضلة لازم لمن يقول: إن القرآن كلام الله، فهو من صفاته، والتفاضل لا يكون إلا في المخلوقات، والقرآن عندهم غير مخلوق. وهو ظن خطأ، فلم ينقل عن أحد من السلف أنه نفى المفاضلة بين آيات القرآن وسوره، ونحن نطالب مدعي الإجماع على نفي ذلك بالدليل، ولن يجد ذلك، والنصوص من الكتاب والسنة تبطل هذه الدعوى كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، وابن بطال - عفا الله عنا وعنه - كثيراً ما يدعي الإجماع على مسائل، الحق خلافها، كما ستأتي الإشارة إلى بعضها، إن شاء الله تعالى.

5- "حدثنا محمد، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، حدثنا عمرو، عن ابن أبي هلال، أن أبا الرجال محمد بن عبد الرحمن حدثه، عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن- وكانت في حجر عائشة زوج النبي -صلى الله عليه وسلم - عن عائشة: " أن النبي -صلى الله عليه وسلم - بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاته، فيختم بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي-صلى الله عليه وسلم - فقال: "سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟" فسألوه، فقال: لأنها صفة الرحمن، وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي-صلى الله عليه وسلم - "أخبروه أن الله يحبه".

عائشة بنت أبي بكر الصديق، وزوجة رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وحببته، كانت فقيهة ربانية، وعالمة بأشعار العرب وأنسابهم، وأيامهم. أكثرت عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم - الرواية، فلذلك صارت مرجعاً للصحابة في كثير من أمور الدين، فهي من حفاظ الصحابة وعلمائهم. روى عنها خلق كثير من الصحابة والتابعين.

ولدت-رضي الله عنها- سنة أربع من البعثة النبوية، وتزوجها رسول الله-صلى الله عليه وسلم - بعد موت خديجة-رضي الله عنها- بثلاث سنوات، ودخل بها في المدينة، وهي ابنة تسع سنوات، وتوفي عنها ولها من العمر ثماني عشرة سنة، ومات-صلى الله عليه وسلم - وهي حاضنته على صدرها.

⁽¹³¹⁾ انظر "مجموع الفتاوى" (17/73).

مناقبها كثيرة، توفيت في المدينة سنة سبع-أو ست- وخمسين، وقيل: ثمان وخمسين، وصلى عليها أبو هريرة، ودفنت في البقيع، -رضي الله عنها-⁽¹³²⁾

قوله: "بعث رجلاً على سرية" هذا غير الرجل المتقدم ذكره في باب الجمع بين السورتين في ركعة واحدة؛ للفروق الواضحة بين القصتين. والسرية قطعة من الجيش، يقال: خير السرايا أربعمئة رجل، وفي "اللسان" "ما بين خمسة أنفس إلى ثلاثمئة، سميت سرية؛ لأنها تسري ليلاً في خفية؛ لئلا ينذر بهم فيحذر الأعداء ويمتنعوا"⁽¹³³⁾.

ص 55

قوله: "فيختم بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}" قال ابن دقيق العيد: يدل على أنه كان يقرأ بغيرها، والظاهر أنه كان يقرأ: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} مع غيرها في ركعة واحدة، ويختم بها في تلك الركعة، وإن كان اللفظ يحتمل أن يكون يختم بها في آخر ركعة يقرأ فيها السورة"⁽¹³⁴⁾.

وقوله: "لأنها صفة الرحمن" قال ابن دقيق العيد: "يحتمل أن يراد: أن فيها ذكر صفة الرحمن، كما إذا ذكر وصف، فعبر عن ذلك الذكر بأنه الوصف، وإن لم يكن ذلك الذكر نفس الوصف، ويحتمل أن يراد به غير ذلك، إلا أنه لا يختص ذلك بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} ولعلها خصت بذلك لاختصاصها بصفات الرب-تعالى- دون غيرها"⁽¹³⁵⁾.

قلت: يريد بيان قول الصحابي لها بما ذكر، أنها خالصة لذكر وصف الرحمن تعال وتقدس.

وقوله: إلا أنه لا يختص ذلك بـ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}. يعني أن أوصاف الرحمن-تعالى- موجودة في آيات كثيرة من القرآن.

وهذه السورة وسائر سور القرآن هي صفة الرحمن؛ لأنها كلامه، وكلامه من صفاته، ولكن تميزت هذه السورة بأنها خالصة لذكر أوصاف الرحمن-تعالى- وهذا هو المتبادر إلى الفهم من مراد الصحابي-رضي الله عنه- أي أنها خالصة لوصف الرحمن-تعالى- دون غيره.

"قال ابن التين: إنما قال: لأنها صفة الرحمن؛ لأن فيها أسماؤه مشتقة من صفاته. وقال غيره: يحتمل أن الصحابي قال ذلك مستنداً إلى شيء سمعه من النبي-صلى الله عليه وسلم- إما بالنص، أو بالاستنباط. وروى

¹³²() انظر: "الحلة" (2/43)، "أسد الغابة" (7/188)، "الاستيعاب" (4/1881)، "الإصابة" (4/359)، "سير أعلام النبلاء" (2/135).

¹³³() "ترتيب اللسان" (2/141).

¹³⁴() "شرح العمدة" (1/246).

¹³⁵() المصدر نفسه (1/247).

البيهقي في الأسماء والصفات، عن ابن عباس-رضي الله عنهما- أن اليهود أتوا النبي-صلى الله عليه وسلم - فقالوا: صف لنا ربك؟

ص 56

فأنزل الله-عز وجل- {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} إلى آخرها، فقال: "هذه صفة ربي-عز وجل-"⁽¹³⁶⁾

وفي الحديث حجة لمن أثبت أن لله صفات، وهو قول الجمهور، وشذ ابن حزم فقال: " هذه لفظة اصطلح عليها أهل الكلام، من المعتزلة، ومن تبعهم، ولم يثبت عن النبي-صلى الله عليه وسلم - ولا عن أحد من أصحابه، فإن اعترضوا بحديث الباب، فهو من أفراد سعيد بن أبي هلال، وفيه ضعف، وعلى تقدير صحته ف {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} صفة الرحمن، كما في هذا الحديث، ولا يزداد عليه، بخلاف الصفة التي يطلقونها، فإنها في لغة العرب لا تطلق إلا على جوهر، أو عرض"⁽¹³⁷⁾.

وسعيد متفق على الاحتجاج به، فلا يلتفت إلى تضعيفه، وكلامه الأخير مردود، باتفاق الجميع على إثبات الأسماء الحسنى، قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا} ⁽¹³⁸⁾، وقال تعالى: {لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ} ⁽¹³⁹⁾، والأسماء المذكورة فيها صفات، ففي إثبات أسمائه إثبات صفاته"⁽¹⁴⁰⁾.

قلت: كلام ابن حزم - رحمه الله - باطل، ولا حجة له فيما ذكر، لأن الصفة: مصدر و صفت الشيء أصفه وصفاً، و صفة، مثل: وعد، وعداً، وعدة. فإذا قيل: إن الله بكل شيء عليم، وهو رحمن رحيم، وعلى كل شيء قدير، فالمعاني القائمة بالرب - تعالى - التي دل عليها هذا الكلام، من العلم، والرحمة والقدرة، هي الصفات المقصودة، وإنكار ذلك مكابرة، أو عناد وضلال، وإلحاد.

وقد دلت نصوص كتاب الله -تعالى - وسنة رسوله -صلي الله عليه وسلم- والفطرة والعقل على ذلك، قال الله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} ⁽¹⁴¹⁾.

وقال - تعالى - : {أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ} ⁽¹⁴²⁾، وقال -تعالى-: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} ⁽¹⁴³⁾. وقال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} ⁽¹⁴⁴⁾.

¹³⁶() انظر " الأسماء والصفات " للبيهقي (ص 279)، وفيه تسمية بعضهم، وقد ذكر عدة أحاديث بمعناه.

¹³⁷() انظر: " الفصل " (2/284)، وقد أطال الكلام على هذا المعنى، واحتج بأشياء لا تدل على مراده.

¹³⁸() الآية 180 من سورة الأعراف .

¹³⁹() الآية 8 من سورة طه .

¹⁴⁰() " فتح الباري " (356-13/357).

¹⁴¹() الآية 255 من سورة البقرة .

¹⁴²() الآية 166 من سورة النساء .

¹⁴³() الآية 58 من سورة الذاريات.

¹⁴⁴() الآية 8 من سورة المنافقون .

وقال - تعالى:- { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا } (145).
وفي الحديث الصحيح: " اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك" (146).

وفي حديث عمار بن ياسر، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: " اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق" (147).
وفي "صحيح البخاري" في قصة أيوب: " قال: بلى وعزتك، ولكن لا غنى بي عن بركتك" (148).

وقال البخاري: " باب الحلف بعزة الله وصفاته، وكلماته"، وقال ابن عباس: كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: أعوذ بعزتك، وقال أبو هريرة: عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: " يبقى رجل بين الجنة والنار، فيقول: يارب، اصرف وجهي عن النار، لا وعزتك
ص 58

لا أسألك غيرها. ثم ذكر حديث أنس: " لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فتقول: قط قط، وعزتك" (149).
وفي هذا الحديث الذي نحن بصدد الكلام عليه: " لأنها صفة الرحمن".
وقال الله - تعالى - : { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ } (150) وهذا من إضافة الموصوف إلى صفته.

فثبت بهذه النصوص، وغيرها كثير، أن لله صفات، وأن كل اسم تسمى الله به يدل على الصفة؛ لأن الأسماء مشتقة من الصفات.
وبهذا يتبين بطلان قول المعتزلة، الذين ينفون أن يكون لله علم وقدرة ومشية، ويجعلون هذه الصفة هي الأخرى، أو الصفة هي الموصوف، كما يتبين بهذا أيضاً الفرق بين الأسماء والصفات.

1- فالأسماء تدل على الذات، والصفات تدل على معان قائمة بالذات، وهذه المعاني القائمة بالذات هي الصفات.
2- وتقدم أن الأسماء مشتقة من الصفات.
وقوله: " أخبروه أن الله يحبه" قد يكون سبب محبة الله له: محبته لهذه السورة، أو لمحبته ذكر صفات الرب - عز وجل -، وحسن فهمه وعقيدته. في ذلك، أو لمجموع الأمرين، وهو الأولى.

(145) الآية 7 من سورة غافر.
(146) هو حديث جابر، انظر "البخاري" (2/50) وسنن "أبي داود" رقم (1538)، والترمذي رقم (480)، وسيأتي

(147) انظر: " سنن النسائي" (55، 3/54) في السهو في باب نوع آخر من الدعاء.
(148) "صحيح البخاري" كتاب التهجد، باب (20)، (1/54) وفي مواضع أخرى، وسيأتي.
(149) "الصحيح"، كتاب الأيمان والنذور، باب (12)، (8/114)، وسيأتي ذلك.
(150) الآية 180 من سورة الصافات.

وفيه ثبوت محبة الله - تعالى - لأهل طاعته من عباده، والأدلة عليه كثيرة جداً، فلذلك صار إنكاره ضللاً بيناً.

قال المازري، ومن تبعه: محبة الله لعباده: إرادته ثوابهم، وتنعيمهم. وقيل: هي نفس الإثابة، والتنعيم.

ومحبتهم له، لا يبعد فيها الميل منهم إليه، وهو مقدس عن الميل. وقيل: محبتهم له: استقامتهم على طاعته.

والتحقيق: أن الاستقامة ثمرة المحبة.

وحقيقة المحبة له: ميلهم إليه؛ لاستحقاقه سبحانه المحبة من جميع الوجوه.

قال الحافظ: " وفيه نظر، لما فيه من الإطلاق في موضع التقييد "⁽¹⁵¹⁾.

ومقصده من الإطلاق، قوله: " لاستحقاقه - سبحانه - المحبة من جميع الوجوه " لأنه قد يدخل فيه الحب المتضمن للشهوة، ونحو ذلك.

وقول المازري: إن محبة الله لعباده: إرادته ثوابهم، وتنعيمهم، أو هي

نفس الثواب والنعيم، ظاهر البطلان، والنصوص فيه لا تقبل هذا التأويل؛ لكثرتها، وتواطئها على أن الحب فيها هو ما يفهمه المخاطب الذي لم تفسد

فطرته بالعقائد المنحرفة عن الحق.

وهذه طريقة أهل التأويل في صفات الله - تعالى - المستلزمة للثواب أو

العقاب؛ إما أن يجعلوها إرادة الثواب أو العقاب، أو هي نفس الثواب والعقاب.

ومعلوم أن الثواب والعقاب ونحوهما مخلوق.

والإرادة التي يرجعون المحبة والرحمة ونحوهما من صفات الله - تعالى -

إليها، يلزمهم فيها نظير ما فروا منه في المحبة والرحمة، حيث قالوا: إن المحبة هي: الميل إلى المحبوب، فيقال: والإرادة هي: ميل المرید إلى ما

يوافقه في إرادته.

وأما تفسيرها بالثواب والعقاب، فيلزم منه أن تكون صفته - تعالى -

مخلوقة، ثم نقول: لسنا بحاجة إلى مثل هذا التأويل السخيف البارد؛ لأن الله - تعالى - ليس كمثل شئ في صفاته، كما أنه لا مثل له في ذاته.

ومحبته - تبارك وتعالى - لعبده المؤمن شئ فوق إنعامه، وإحسانه،

وعطائه، وإثابته، فإن هذا أثر المحبة وموجبها، أما هي فأعظم من ذلك، وهي التي يتسابق إليها أنبياءه وملائكته وأوليائه، وعباده الصالحون، وكم في

كتاب الله وسنة رسوله - من نص صريح بأنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه،

كقوله - تعالى - { قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ

{ دُتُوبِكُمْ } (152) ، وقوله -تعالى- { اللّهُ يُحِبُّ التّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } (153) ،
{ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللّهَ يُحِبُّ

ص 60

{ الْمُتَّقِينَ } (154) ، { وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } (155) ، { إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ
الْمُتَوَكِّلِينَ } (156) ، والآيات في هذا كثيرة.

و أما الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- التي تنص على أن الله يحب عباده المؤمنين فأحداؤها عسير، كقوله - صلى الله عليه وسلم-: " لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحب الله ورسوله " (157) ، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: " إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي " (158).

وأما محبة العباد لربهم فعجيب إنكارها، إذ هي من الضروريات الثابتة بالشرع، والعقل، والفطرة، وإنكارها إنكار للواقع المحسوس. كما أن تأويل المحرفين بأنها الاستقامة على الطاعة، كما ذكره المازري، أو أنها إرادتهم أن ينفعهم، كما نقله الحافظ عن ابن المتين (159)، مخالف للشرع، والعقل، والواقع المحسوس، بل قد يؤول ذلك إلى إنكار أصل دين الإسلام؛ لأن مبنى دين الإسلام على شهادة لا إله إلا الله.

ومعنى الإله: المحبوب الذي تأله القلوب، وتحبه، وتعظمه، وتجله، وتقصده بالإنابة والخضوع والذل، والافتقار إليه، والخوف منه، ورجائه. فمن أنكر ميل القلوب إليه تعالى بالحب والتأله، فقد أنكر حقيقة الإسلام، وهل الشرك - الذي حرمت الجنة على صاحبه - إلا أن يجعل للمخلوق نصيباً مع الله -تعالى- في هذا الحب؟ كما قال -تعالى-: { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ } (160)

ص 61

فبين - تعالى- أن الذي يحب المخلوق كحب الله أنه مشرك قد اتخذ لله نداً، وأخبر - تعالى- عن هؤلاء أنهم سيقولون لأندادهم وهم في النار: { تَاللّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } {97} إِذْ نُسَوِّبُكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ } (161) ، ولا يجوز أن

(152) الآية 31 من سورة آل عمران .

(153) الآية 222 من سورة البقرة .

(154) الآية 76 من سورة آل عمران .

(155) الآية 134، 148، من سورة آل عمران ، و الآية 93 من سورة المائدة .

(156) الآية 159 من سورة آل عمران .

(157) رواه صاحب "الصحيحين" ، انظر: "الفتح" (6/111) وأماكن أخرى، و "مسلم" (4/1871، 1872).

(158) رواه مسلم في "الزهد" (4/2277) رقم (2965).

(159) انظر: "الفتح" (13/357).

(160) الآية 165 من سورة البقرة .

(161) الآية 97-98 من سورة الشعراء .

تكون تسويتهم لهم برب العالمين إلا في الحب؛ لأنه لا يمكن أن يقول عاقل إن أحداً من الخلق يساوي الله -تعالى- في الفعل والتصرف.

وقول ابن التين الذي نقله الحافظ: "إن معنى محبة المخلوقين لله: إرادتهم أن ينفعهم"⁽¹⁶²⁾ من أبطال الكلام المخالف للواقع وللشرع والعقل ولولا أن هذا مسجل في الكتب المتداولة بين المسلمين، لم يجز ذكره، وهل يوجد أحد من الخلق لا يريد أن ينفعه الله، حتى إبليس، ومن دونه من دعائم الكفر والإلحاد، من الأولين والآخرين؟ بل كلهم يريد أن ينفعهم الله، فهل يقال: إنهم يحبون الله المحبة المأمور بها شرعاً؟ ولا شك أن مثل هذا القول نتيجة نقص العلم بكلام الله وكلام رسوله، ونقص الإيمان بذلك.

"وإلا فإن من يتقن أن الله أصدق القائلين، وأن قوله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وأن قوله الفصل، ليس بالهزل، وأنه الهدى، والنور، والشفاء لما في الصدور من الجهل والشكوك، وأنه -تعالى- أعلم بنفسه وبغيره من خلقه.

وعلم أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أعلم الخلق بالحق، وأفصح الخلق في النطق والبيان، وأنه أنصح الخلق للخلق - من علم ذلك يتقن أنه قد اجتمع له كمال العلم بالحق، وكمال القدرة على بيانه، وكمال الإرادة له، ومع كمال العلم والقدرة والإرادة، يجب وجود المطلوب على أكمل وجه. فيجب أن يعلم أن كلام الله ورسوله، أبلغ ما يمكن، وأتم ما يكون وأعظمه بياناً لأمر الدين، من حقوق الله وأسمائه، وصفاته، وغير ذلك.

فمن وقر هذا في قلبه لم يجرؤ على تحريف النصوص بمثل هذه التأويلات التي إذا تدبرها العاقل المنصف، وجدها أبعد شيء عن كتاب الله، وعن صفات الرسول

ص 62

-صلى الله عليه وسلم- وعلم أن من سلك هذا المسلك فإنما هو لنقص في علمه، وإيمانه بكلام الله، وكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم-⁽¹⁶³⁾. وقد علم المؤمنون أن محبة العباد لربهم هي حياة القلوب، ونعيم الروح، بل هي أعلى نعيم في الدنيا والآخرة، وهي فوق كل محبة تفترض، ولا نسبة لسائر المحاب إليها، وهي حقيقة لا إله إلا الله، وبتمامها وكمالها تتفاوت منازل العباد عند الله في الدنيا والآخرة، وقد جاء في الحديث عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "أحبوا الله من كل قلوبكم"⁽¹⁶⁴⁾. يعني: لا يبقى في القلب موضع لغير محبة الله تعالى.

⁽¹⁶²⁾ () "الفتح" (13/357).

⁽¹⁶³⁾ () "مجموع الفتاوى" (17/129) بتصرف وزيادة.

⁽¹⁶⁴⁾ () رواه ابن إسحاق في "السيرة" مختصرها لابن هشام (2/147).

وفي "الصحيحين": مرفوعاً: "ثلاث من كن فيه، وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار"⁽¹⁶⁵⁾.

و أصل التأله: التعبد، والتعبد هو آخر مراتب الحب، يقال: عبده الحب وتيممه: إذا ملكه، وذلك لمحبوبه.

فالمحبة هي حقيقة العبودية، ولا يمكن وجود العبادة التي يريدتها الله ويأمر بها عباده بدونها أبداً، بل لا يوجد أي نوع من أنواع العبادة المطلوبة شرعاً بدونها، مثل الإنابة، والخشية، والخوف، والرجاء، والحمد، والشكر، والصبر، والدعاء، والاستغاثة، والاستعانة، وغير ذلك من أنواع العبادة، فمنكر المحبة في الحقيقة منكر لجميع مقامات الإيمان والإحسان، وهؤلاء المحرفون مثل هذا النص في المحبة، يغالطون أنفسهم. وهذا الحديث يدل على حسن فهم الصحابة لمعاني القرآن، حيث قالوا عن سورة الصمد: أنها صفة الرحمن، ووجه ذلك: أن هذه السورة تضمنت أنواع التزيه لله - تعالى - والتحميد، ونفي النقائص كلها، وإثبات الكمال جميعه، ولهذا عدلت ثلث القرآن - كما تقدمت الإشارة إليه.

ص 63

¹⁶⁵() انظر: " الفتح " (1/72) ، (10/463) و "مسلم" (1/66).

(الكلام على معنى أحد وصمد)

فالصمدية تثبت الكمال المنافي لكل نقص وعيب، والأحدية تثبت الانفراد بذلك الكمال، فهي تدل على أنه - تعالى - أحد، ليس من جنس شيء من المخلوقات، " وأنه صمد ليس من مادة، بل هو صمد لم يلد ولم يولد، وإذا نفى عنه أن يكون مولوداً من مادة الوالد؛ فلأن ينفي عنه أن يكون من سائر المواد أولى وأحرى، فإن المولود من نظير مادته أكمل من المولود من مادة أخرى " (166).

وقال شيخ الإسلام: " وقد فسر السلف الصمد بأنه: الذي لا جوف له، كما فسروه: بأنه السيد الذي يصمه إليه في الحوائج؛ والأول قول أكثر السلف، من الصحابة والتابعين وطوائف من أهل اللغة، والثاني: قول جمهور أهل اللغة، وطوائف من السلف والخلف.

قال الجوهري: صمده يصمده صمداً إذا قصده، والصمد بالتحريك: السيد؛ لأنه يصمد إليه في الحوائج (167).
وقوله - تعالى -: { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {1} اللَّهُ الصَّمَدُ } (168) أدخل اللام في "الصَّمَد" ولم يدخلها في "أحد" لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحداً في الإثبات مفرداً غير مضاف إلا الله - تعالى -، بخلاف النفي وما في معناه، كالشرط، والاستفهام.

قال أهل اللغة: تقول: لا أحد في الدار، ولا تقول: فيها أحد.

ص 64

و أما "الصَّمَد" فأدخل عليه الألف واللام، ليبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه، فإنه المستوجب لغايته على الكمال.
فالمخلوق وإن كان قد يطلق عليه بأنه صمد، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه، فإنه يقبل التجزئة، وهو محتاج إلى غيره، فإن كل ما سوى الله فقير محتاج إلى الله، وليس أحد يصمد كل شيء إليه (169) وهو لا يصمد إلى شيء إلا الله - تعالى -. وليس في المخلوقات شيء إلا ويقبل التجزئة، ويتفرق، وينفصل بعضه من بعض؛ والله سبحانه هو الصمد، الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة ولازمة، لا يمكن عدمها

(166) "مجموع الفتاوى" (17/452).

(167) انظر: "الصحاح" (2/499) وتامه: " قال:

علوته بحسام ثم قلت له: خذها حذيف فأنت السيد الصمد

وبيت مصمد - بالتشديد - أي: مقصود."

(168) الآيتان 1-2 من سورة الإخلاص.

(169) الصمود هنا هو: الطلب والقصد والتوجه إلى المصمود إليه بالحاجة.

بوجه من الوجوه، كما لا يمكن تشية أحديته بوجه من الوجوه؛ فهو أحد لا يماثله شيء من الأشياء بوجه من الوجوه⁽¹⁷⁰⁾.
فقوله -تعالى-: "أحد" مع قوله: "لم يكن له كفواً أحد" ينفي المماثلة، والمشاركة.

وقوله -تعالى-: "الصمد" يتضمن إثبات جميع صفات الكمال، فالنقائص منتفية عن الله -تعالى-، وكل ما يختص له المخلوق فهو من النقائص التي تنزه ربنا عنها -جلا وعلا-.

وأما ما يوصف به العبد من بعض الكمالات، مثل العلم، والقدرة، والرحمة، ونحو ذلك، فالذي يثبت لله -تعالى- من هذه المعاني يكون على وجه لا يقاربه فيه أحد من الخلق، فضلاً عن أن يماثله فيه.

وقد ثبت أن ما خلقه الله في الجنة من المأكول وغيرها، لا يماثل ما خلقه في الدنيا، وإن اتفقا في الاسم، مع أن كليهما مخلوق، فالخالق -تعالى- وتقدس-، أبعد عن مماثلة المخلوقات.

والمعنى الصحيح الذي هو نفي المثل، والشريك، والند، قد يدل عليه قوله - سبحانه-: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} ⁽¹⁷¹⁾، وقوله: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} ⁽¹⁷²⁾.

ص 65

وقوله -تعالى-: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا} ⁽¹⁷³⁾، وأمثال ذلك، فالمعاني الصحيحة لصفات الله نفيًا وإثباتًا، ثابتة بالكتاب والسنة، والعقل يدل على ذلك. وقول بعض أهل الكلام: الأحد، والصمد، هو الذي لا ينقسم، ولا يتفرق، أو ليس بمركب، ونحو ذلك من العبارات، إن عني بها أنه لا يقبل التفرق والانقسام فهو حق، وإن عني بها أنه لا يشار إليه بحال، فهذا يمتنع وجوده، وإنما يقدر وجوده في الذهن تقديراً.

وقد علمنا أن العرب حين أطلقوا لفظ الواحد والأحد، نفيًا وإثباتًا، لم يريدوا هذا المعنى.

ولهذا لما قالوا الذين جادلوا الإمام أحمد، في نفي الصفات -مستدلين باسم الواحد-: لا تكونون موحدين أبداً حتى تقولوا: كان الله ولا شيء.

قال أحمد: "قلنا: نحن نقول: كان الله ولا شيء، ولكن إذا قلنا: إن الله لم يزل بصفاته كلها، أليس إنما نصف إلهاً واحداً؟

⁽¹⁷⁰⁾ ("مجموع الفتاوى" (17/237) ملخصاً.

⁽¹⁷¹⁾ (الآية 4 من سورة الإخلاص .

⁽¹⁷²⁾ (الآية 1 من سورة الإخلاص .

⁽¹⁷³⁾ (الآية 65 من سورة مريم.

وضربنا لهم في ذلك مثلاً، فقلنا: أخبرونا عن هذه النخلة، أليس لها جذع، وكرب، وليف، وسعف، وخصوص، وجمار؟ واسمها شيء واحد؟ سميت نخلة بجميع صفاتها؟ فكذلك الله-وله المثل الأعلى- بجميع صفاته إله واحد. ولا نقول: إنه كان في وقت من الأوقات ولا قدرة له، حتى خلق لنفسه قدرة، أو كان ولا علم له، حتى خلق له علماً، ولكن نقول: لم ينزل عالماً قادراً، مالكاً، لا متى، ولا كيف" انتهى⁽¹⁷⁴⁾.
وقال أيضاً: "ودل قوله-تعالى:- {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ {1}اللَّهُ الصَّمَدُ} على أنه لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ولهذا فسر الصمد بأنه الذي لم يلد، ولم يولد.

ص 66

فإن الصمد: هو الذي لا جوف له، ولا أحشاء، فلا يدخل فيه شيء؛ فلا يأكل ولا يشرب، كما قال -تعالى-: {وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ} ⁽¹⁷⁶⁾، وفي قراءة بفتح الياء الأخيرة".

وفسر بعض السلف "الصمد" بأنه الذي لا يخرج منه شيء، وليس مرادهم أنه لا يتكلم، فإنه يقال في الكلام: خرج منه، كما في الحديث: "ما تقرب العباد إلى الله بشيء أفضل مما خرج منه" انتهى⁽¹⁷⁷⁾.
ودل الحديث على استحباب قراءة الآيات التي تشتمل على صفات الله تعالى، خلافاً للمبتدعة الذين يكرهون آيات الصفات عند العامة، وفيه التصريح بأن الله يحب ذلك ويحب من يحبه.

ص 67

¹⁷⁴(")مجموع الفتاوى" (17/449)، وانظر: رد الإمام أحمد، في "مجموع عقائد السلف" (ص 91).

¹⁷⁵() الآيتان 1-2 من سورة الإخلاص.

¹⁷⁶() الآية 14 من سورة الأنعام.

¹⁷⁷()المصدر السابق، والحديث خرجه الترمذي (4/249)، وعبد الله ابن الإمام أحمد في "السنة" (ص 20).

"باب قوله -تعالى-: {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} (178)".

قال الطبري-رحمه الله تعالى-: "يقول -تعالى ذكره- لنبيه: قل يا محمد لمشركي قومك المنكرين دعاء الرحمن: {ادْعُوا اللَّهَ} أيها القوم، {أو ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} بأي أسمائه-جل جلاله- تدعون ربكم فإنما تدعون واحداً، وله الأسماء الحسنی، وإنما قيل ذلك له- صلى الله عليه وسلم - لأن المشركين، فيما ذكر- سمعوا النبي-صلى الله عليه وسلم - يدعو ربه: يا ربنا الله، ويا ربنا الرحمن، فظنوا أنه يدعو إلهين، فأنزل الله الآية، ثم روي ذلك عن ابن عباس، وعن مكحول" (179).

قال ابن حجر: "كأنه لمح في هذه الترجمة بهذه الآية إلى ما ورد في سبب نزولها، وهو ما أخرجه ابن مردويه بسند ضعيف، عن ابن عباس: أن المشركين سمعوا رسول الله-صلى الله عليه وسلم - يدعو: يا الله، يا رحمن، فقالوا: كان محمد يأمرنا بدعاء إله واحد، وهو يدعو إلهين. فنزلت، وأخرج عن عائشة بسند آخر نحوه" (180).

قلت: يظهر لي أن مقصود البخاري-رحمه الله- بالترجمة بهذه الآية، بيان اختصاص الله-تبارك وتعالى- بالأسماء الحسنی، وأن أسمائه كاملة المعاني، لا يلحقها نقص، أو عيب، وأن اتصاف المخلوق ببعض ما يتصف الرب تعالى به من المعاني، لا يلزم منه نقص أو عيب في أسمائه وصفاته-تعالى- لأنها حسنی كاملة تناسب عظمته، فلا يتوهم أن في ذلك تشبيهاً كما يتزعمه أهل البدع الذين ظنوا أن مجرد المشاركة في الاسم أو المعاني يفيد التشبيه، فنفوا صفات الله-تعالى- من أجل ذلك.

وأما المخلوق فأسمائه وصفاته ليست حسنی، ولا كاملة، فهي تناسب ضعفه وعجزه، والذي يوضح مراد البخاري بذلك الحديثان اللذان ذكرهما "لا يرحم من لا يرحم الناس"، وفي الآخر "إنما يرحم الله من عباده الرحماء"، فإذا كان المخلوق يرحم، ويسمى رحيماً، والله-تعالى- يرحم ويسمى رحيماً، فليس ما

ص 68

يخص الله-تعالى- من هذا الاسم أو الفعل مماثلاً أو مقارباً لما يخص المخلوق، فلا يجوز تأويل أو نفي رحمة الله-تعالى- وغيرها من صفاته، من أجل توهم أن مجرد المشاركة في المعنى يلزم منها التشبيه، والله أعلم.

(178) الآية 110 من سورة الإسراء.

(179) "تفسير الطبري" (15/182).

(180) "الفتح" (13/360).

www.dorar.net الدرر السنوية

قال ابن القيم: "أسماءه-تعالى- كلها مدح وثناء وتمجيد، ولذلك كانت حسنى وصفاته كلها صفات كمال"⁽¹⁸¹⁾.

وما ذكره بعض الشراح: مم أن البخاري ذكر هذا الباب ليكون كالأصل لما بعده من الأبواب، وما بعده كالفرع عليه، وقال: إنه قصد الاسمين المذكورين في الآية، وهما "الله"، "والرحمن"؛ لأنهما خاصان بالله-تعالى-، فليس بظاهر، وهذان الاسمان جاء ذكرهما كثيراً فيما بعد، والظاهر لي - والله أعلم- ما أشرت إليه فيما سبق قبل قليل، يوضح ذلك ما جاء في سبب النزول كما قال الحافظ، "والرحمن" يأتي تابعاً "لله" كغيره من الأسماء الحسنى.

فهو أراد بهذا الباب ما دلت عليه الآيات الأخرى كقوله-تعالى-: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} ⁽¹⁸²⁾، وقوله: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} ⁽¹⁸³⁾، وقوله: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} ⁽¹⁸⁴⁾.

¹⁸¹ () "مدارج السالكين" (1/125).

¹⁸² () الآية 24 من سورة الحشر.

¹⁸³ () الآية 180 من سورة الأعراف.

¹⁸⁴ () الآية 8 من سورة طه.

6- قال: "حدثنا محمد، أخبرنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن زيد بن وهب، وأبي ظبيان، عن جرير بن عبد الله، قال: قال رسول الله-صلى الله عليه وسلم -: "لا يرحم الله من لا يرحم الناس".

جرير هو: أبو عمرو، جرير بن عبد الله بن جابر البجلي، الأحمسي، وأحمس بطن من بجيلة، وبجيلة وختعم أخوان، وهما من قحطان، وقيل: من ربيعة بن نزار.

قدم جرير على النبي-صلى الله عليه وسلم - في آخر حياته، فبشر به أصحابه، وبسط له رداءه.

وكان -رضي الله عنه- صادق الإيمان، صادقاً بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان يقول كما في "الصحيحين"، وغيرهما: "بايعت النبي-صلى الله عليه وسلم - على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم"⁽¹⁸⁵⁾. وبعثه النبي-صلى الله عليه وسلم - لهدم ذي الخلصة، وهو صنم كبير كان لدوس، فهدمه.

ودعا له النبي-صلى الله عليه وسلم - ولخيل أحمس ورجالها. وكان حسن الوجه، حيث كان يقال له: يوسف هذه الأمة، وكان طويلاً إذا ركب الفرس تكاد تخط رجلاه في الأرض.

نزل الكوفة، فأرسله علي رسولاً إلى معاوية، ثم اعتزل الحروب بينهما وتحول إلى جزيرة ابن عمر، توفى بقرقيسيا سنة إحدى وخمسين، وقيل: بعدها، -رضي الله عنه-⁽¹⁸⁶⁾.

"قوله: "لا يرحم الله من لا يرحم الناس" في رواية لمسلم: "من لا يرحم الناس، لا يرحمه الله".

وعند الطبراني: "من لا يرحم من في الأرض، لا يرحمه من في السماء" ورواته ثقات.

ولأبي داود، والترمذي، والحاكم: "ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".

وفي الطبري: "من لا يرحم المسلمين لم يرحمه الله"⁽¹⁸⁷⁾.

قلت: ومعنى هذه الروايات واحد، ففي هذه الأحاديث وأمثالها كثير، دليل على أن الرحمة صفة تقوم بمن يشاء الله من عباده، الذين يريد-جل وعلا- رحمتهم، وتتخلف عن الأشقياء، الذين لا يرحمهم الله -تعالى-.

⁽¹⁸⁵⁾ انظر "الفتح" (1/137) وغيره، و"مسلم" (1/75) في "الإيمان" رقم (56).
⁽¹⁸⁶⁾ انظر: "أسد الغابة" (333/3)، و"الاستيعاب" (1/236)، و"الإصابة" (1/475)، و"سير أعلام النبلاء" (2/530).
⁽¹⁸⁷⁾ "الفتح" (10/440).

www.dorar.net الدرر السننية

وقد روى البخاري في " الأدب المفرد"، من حديث أبي هريرة، أن النبي- صلى الله عليه وسلم - قال: " لا تنزع الرحمة إلا من شقي" (188).

وقد علم من دين الرسل، وكتب الله تعالى، أن الله متصف بالرحمة، وليست رحمته ثوابه وجزاءه، كما يقوله أهل التحريف والمؤولة، من الأشعرية وغيرهم.

وقد قال الله-تعالى-: { قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ قَبْدَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ } (189).

فعطف الرحمة على الفضل يدل على المغايرة، وفضل الله-تعالى- الذي هو الثواب والجزاء-مخلوق، ليس من صفات الله - تعالى- القائمة به، وإن كان الفضل في الآية غير متعين إرادة الثواب به، بل يجوز أن يراد به التفضل الذي هو فعل الله -تعالى-.

وإذا كان الإجماع حاصلًا بين الأمة، بأن الله - تبارك وتعالى- ليس كمثله شيء في ذاته المقدسة، فيجب أن تكون صفاته كصفات خلقه؛ لأن الصفة تتبع الموصوف، فصفات الله-تعالى- من الرحمة، والرضا، والغضب، وغير ذلك، تليق بعظمته، وتناسبه، وصفة المخلوق من ذلك وغيره تليق بضعفه، وعجزه وفقره.

وإن من الضلال، والبعد عن كتاب الله، وهدى رسوله، وسبيل المؤمنين حقًا، نفي صفات الله -تعالى- وتعطيله منها اعتلالًا بأنها تشبيهه؛ لأن المخلوق

ص 71

يوصف بتلك الصفات، وهل هذا إلا مثل من يقول: أنا لا أقر بوجود الله-تعالى- لأن المخلوق موجود؟

وقد تقدمت الإشارة إلى أن مجرد الاشتراك في الاسم أو في المعاني العامة لا يقتضي تشبيهاً، وسيأتي لذلك مزيد إن شاء الله-تعالى-.

¹⁸⁸() انظر: "الأدب المفرد" (ص 136)، قال محققه: أخرجه الترمذي (25)، كتاب البر والصلة (16) بابك ما جاء في رحمة المسلمين، وأبو داود، كتاب الأدب(58)، باب في الرحمة، وأحمد في " المسند" رقم(7988، 9700، 9941، 9946، 1064) وغيرهم، وسنده صحيح.

¹⁸⁹() الآية 58 من سورة يونس.

7- قال: حدثنا أبو النعمان، حدثنا حماد بن زيد، عن عاصم الأحول، عن أبي عثمان النهدي، عن أسامة بن زيد، قال: كنا عند النبي -صلى الله عليه وسلم - إذ جاءه رسول إحدى بناته تدعوه إلى ابنها في الموت، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم -: "ارجع فأخبرها، أن لله أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر، ولتحتسب".

فأعادت إليه الرسول، أنها أقسمت لتأتينها، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم - وقام معه سعد بن عبادة، ومعاذ بن جبل، فدفع الصبي إليه، ونفسه تقعقع كأنها في شن، ففاضت عيناه، فقال له سعد: يا رسول الله، ما هذا؟ قال: "هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء".

أسامة بن زيد بن حارثة بن شراحيل، الكلبي، حب رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وابن حبه ومولاه، وابن مولاته أم أيمن.

أمره رسول الله -صلى الله عليه وسلم - على جيش فيه كبار المهاجرين، والأنصار، منهم أبو بكر وعمر، وقال فيه -صلى الله عليه وسلم -: "وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة"⁽¹⁹⁰⁾.

وفي البخاري، وغيره أنه -صلى الله عليه وسلم - قال له، وللحسن: "اللهم إني أحبهما، فأحبهما"⁽¹⁹¹⁾.

وزوجه فاطمة بنت قيس - وهو ابن خمس عشرة سنة، وتوفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو ابن تسع عشرة سنة، وفضله عمر - رضي الله عنهما - في العطاء على ابنه عبد الله، وحين راجعه قال له: إنه أحب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منك.

واعتزل الحروب بين أهل الشام وأهل العراق، ومات بوادي القرى سنة أربع وخمسين، وقيل غير ذلك⁽¹⁹²⁾.

قوله: "إحدى بناته" قال الحافظ: "هي زينب، كما جاء في "مصنف ابن أبي شيبة"⁽¹⁹³⁾.

قلت: يشير إلى ما رواه ابن أبي شيبة بالسند المذكور هنا، قال: "دمعت عين رسول الله -صلى الله عليه وسلم - حين أتى بابنة زينب، ونفسها تقعقع

¹⁹⁰() أخرجه البخاري في مواضع من "الصحيح"، انظر: "الفتح" (86، 7/498) و (11/521).

¹⁹¹() انظر: "الفتح" (94، 7/88) و (10/434).

¹⁹²() انظر: "الإصابة" (1/49) تحقيق الجاوي، و"سير أعلام النبلاء" (2/496) وغيرها.

¹⁹³() انظر: "الفتح" (3/156).

www.dorar.net الدرر السنية

كأنها في شن، قال: فبكى، قال: فقال له رجل: تبكي وقد نهيت عن البكاء... " فذكر بقية الحديث كما ذكره البخاري⁽¹⁹⁴⁾.
ثم قال الحافظ: "ووجدت في الأنساب للبلاذري، أن عبد الله بن عثمان بن عفان من رقية بنت النبي-صلى الله عليه وسلم - لما مات، وضعه النبي-صلى الله عليه وسلم - في حجره وقال: "إنما يرحم الله من عباده الرحماء".

وفي "مسند البزار"، عن أبي هريرة، قال: ثقل ابن فاطمة، فبعث إلى النبي-صلى الله عليه وسلم - ... فذكر نحو الحديث المذكور هنا، فعلى هذا، فالابن هو محسن بن علي بن أبي طالب، وقد اتفق أهل العلم بالأخبار أنه مات صغيراً، في حياة النبي-صلى الله عليه وسلم -، فهذا أولى أن يفسر به الابن، لكن الصواب أن المرسلة؛ زينب، وأن الولد صبية، كما ثبت في "مسند أحمد" بالسند المذكور، ولفظه: "أتي النبي-صلى الله عليه وسلم - بأمامة بنت زينب، ونفسها تقعق كأنها في شن... " وذكر بقية الحديث⁽¹⁹⁵⁾. ومثله في "معجم الطبراني"، وقد شفاها الله- تعالى- فعاشت زمناً بعد وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتزوجها علي ابن أبي طالب، بعد وفاة فاطمة، وقتل وهي عنده، -رضي الله عنهم- جميعاً"⁽¹⁹⁶⁾.

قوله: "إن لله ما أخذ، وله ما أعطى"، قال النووي-رحمه الله-: "هذا أحسن ما يعزى به" ثم قال: "وهذا الحديث من أعظم قواعد الإسلام؛ لاشتماله على مهمات كثيرة من أصول الدين، وفروعه، والآداب، والصبر على النوازل كلها، والهموم، والأسقام وغير ذلك، ومعنى قوله: "إن لله ما أخذ" أن العالم كله ملك لله -تعالى-، فلم يأخذ ما هو لكم، بل أخذ ما هو له عندكم، في معنى العارية.

ومعنى: "وله ما أعطى" أن ما وهبه لكم ليس خارجاً عن ملكه، بل هو له يفعل فيه ما يشاء، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فلا تجزعوا فإن من قبض فقد

ص 74

انقضى أجله المسمى، فمحال تأخره أو تقدمه عنه، فاعلموا ذلك، واصبروا، واحتسبوا ما نزل بكم"⁽¹⁹⁷⁾.
وقوله: "وكل شيء عنده بأجل مسمى" من فقد محبوب، أو حصول مرغوب، وتصرف في هذا الكون الذي هو بأسه ملك لله يفعل فيه ما يريد، وأجل المسمى: هو المقدر بوقت معين لا يتأخر عنه، ولا يتقدم.

¹⁹⁴() انظر: "مصنف ابن أبي شيبة" (3/392).

¹⁹⁵() انظر: "المسند" (5/204).

¹⁹⁶() "الفتح" (3/156).

¹⁹⁷() انظر: "الأذكار" (ص 212-213).

وفي هذه الجملة من الحديث دليل واضح على أن الله تعالى قدر كل شيء وكتبه، وعلم وقته وحاله، وأن الحوادث كلها تقع على تقدير دقيق، لا تتأخر عن ذلك لحظة ولا تتقدم، وهذا أصل عظيم من أصول الدين الإسلامي، يجب أن يعلم. والإيمان به من أركان الدين لا بد منه، والأدلة عليه من الكتاب والسنة كثيرة.

قوله: "فلتصبر، ولتحتسب" الصبر: حبس النفس عن الجزع، والتسخط، وحبس الجوارح عما نهى عنه الشرع من شق الثياب، وخمش الوجوه ولطمها، والكلام الذي ينافي التسليم لرب العالمين، وما أشبه ذلك مما يدل على تسخط الأقدار، والاعتراض على القضاء الذي قضاه الله قبل وجود الخلق.

والاحتساب: هو نية طلب الثواب من الله على الإيمان بالقدر، والتسليم لأمر الله -تعالى-، والإيمان بوعد الله -تعالى-، فإنه وعد على الصبر الجزاء. قال ابن القيم: "حقيقة الصبر: أنه خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن، ولا يجمل"⁽¹⁹⁸⁾.

قوله: "فأعادت إليه الرسول، أنها أقسمت لتأتينها" جاء في بعض الروايات أنها راجعته ثلاث مرات، وإنما ذهب إليها بعد الثالثة. والحامل لها ما علمت من أن حضور النبي -صلى الله عليه وسلم- فيه الخير والبركة، وأنه يتوقع أن يرفع الله ببركة دعائه وحضوره ما هي فيه وابنتها من ألم وتوجع، وقد حقق الله -تعالى- أملها ورغبتها، فشفا مريضها كما سبق.

ص 75

ولا يعترض على هذا أن القدر لا بد من وقوعه، فكيف يتخلف من أجل الدعاء أو غيره، فإن الله تعالى جعل لكل شيء سبباً، ورتب المسببات على أسبابها، فقدر أن هذا الشيء يقع في وقت معين مع سببه، فالدعاء المأمور به لا يلزم أن يكون قدراً مكتوباً، بل إذا أمر الله عباده بالدعاء، فمنهم من يطيعه فيستجيب له دعائه إن شاء الله أو يمن عليه بما طلبه، فيدل ذلك على أن المعلوم لله -تعالى- المقدر له هو الدعاء والإجابة.

ومنهم من يعصي أمر الله تعالى فلا يدعوه، فلا يحصل ما علق على الدعاء، فيدل على أن المعلوم لله -تعالى- المقدر: عدم الدعاء وما رتب عليه من الإجابة.

فما يحصل بالدعاء قدر الله حصوله بالدعاء لا بدونه، وهو -جل وعلا- يتلى خلقه بالمصائب، تأديباً لهم، وتكفيراً لذنوبهم، رحمة منه بهم.

¹⁹⁸(")عدة الصابرين" (ص 12).

قوله: "ونفسه تققع كأنها في شن" القعقة: صوت الشيء اليابس الجاف الخفيف إذا حرك، يعني بذلك: صوت نفسه عند صعوده ونزوله في صدره من شدة الألم.

والشن: بفتح الشين وتشديد النون: القرية الخلقة اليابسة.
قوله: "ففاضت عيناه" أي ذرفت عينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالدموع رحمة لهذا الضعيف، وتوجعاً لما نزل به من ألم شديد.
"فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا؟" كان -صلى الله عليه وسلم- ينهى عن البكاء على الميت، فظن سعد-رضي الله عنه- وغيره أن النهي يدخل فيه دمع العين، وحزن القلب، فبين لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- أن المنهي عنه هو التسخط من المقدور، ودعوى الجاهلية من العويل والنوح، وتعداد محاسن الميت، وما أشبه ذلك من لطم الوجه وشق الثياب ونحوه، مما يدل على السخط من الواقع، وعدم الصبر.
وأما دمع العين وحزن القلب، فهو من الرحمة للضعفاء التي هي سبب رحمة أرحم الراحمين-جل وعلا-.

قوله: "هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده" أي "الدمع الذي رأته من أثر الرحمة التي جعلها الله -تعالى- في قلوب عباده، الذين أراد -تعالى- رحمتهم؛ لأن الجزاء من جنس العمل، والإضافة هنا خاصة، أي الذين عبدوه باتباع أمره، واجتناب نهيه، وقد تكون عامة، فإن الكافر قد يرحم الصغير، فيبكي عليه رحمة.

ص 76

قوله: "إنما يرحم الله من عباده الرحماء" أي: رحمة الله-تعالى- للمحسنين إلى عباده برحمتهم، والرحماء من صيغ المبالغة، ولهذا قال بعض الشراح: "المعنى: أن الله -تعالى- لا يرحم من عباده إلا كثير الرحمة، فالرحماء جمع رحيم، وهو من صيغ المبالغة"⁽¹⁹⁹⁾.

قلت: هذا الحصر لا ينبغي، وإن كان التركيب في الحديث يفيد، ولكن فيما يظهر لي-والله أعلم- أنه غير مقصود؛ للأدلة على أن رحمة الله وسعت كل شيء، وإنما المقصود هنا رحمة خاصة بمن هذه صفتهم.

وهذا القدر من الحديث هو محل الشاهد الذي سيق الحديث من أجله، مع قوله "هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده" وذلك أن القدر المشترك بين أسماء الله -تعالى- وصفاته، وبين أسماء المخلوقين وصفاتهم في اللفظ والمعنى لا يقتضي المشابهة؛ لأن أسماء الله -تعالى- حسنى، لا يلحقها نقص، ولا عيب، بخلاف أسماء المخلوقين-وإن كان منها الحسن- فليست بحسنى، ولأن الصفات تابعة للموصوف، وكذلك الأسماء، فالرحمة

⁽¹⁹⁹⁾ ("المنهل العذب المورود" (8/277).

اسمه-تعالى-، والرحمة صفته، والمخلوق يتصف بالرحمة التي يرحم بها، وهي تابعة له في الخلق والمعنى، فهي مخلوقة فيه؛ لأنه مخلوق فصفاته مخلوقة، وهو ضعيف فقير محتاج، وصفاته تناسبه في ذلك مع أنه يسمى "رحيماً" و"راحماً" والله-تعالى موصوف بالرحمة ويسمى "رحيماً"، ولا يكون في ذلك تشبيه؛ لأن المخلوق اسمه وصفته يختص به، والله-تعالى- اسمه وصفته يختصان به، فرحمة الله صفه له عليا، صفة الكمال، وسالمة من كل نقص أو عيب يمكن أن يلحق المخلوق، فليست رحمته-تعالى- عن ضعف أو عجز، بل عن كمال فضله وإحسانه، ولا يجوز أن تؤول بالثواب أو العطاء، أو إرادة ذلك، وما أشبهه مما يقوله أهل التأويل، كما ذكر الحافظ ابن حجر عن شرح البخاري وغيرهم، كقول ابن بطال: "إن المراد برحمته: إرادته تقع لمن سبق في علمه أنه ينفعه، وأما الرحمة التي جعلها في قلوب عباده، فهي من صفات الفعل⁽²⁰⁰⁾ =

ص 77

وصفها بأنه خلقها في قلوب عباده، وهي رقة على المرحوم، وهو سبحانه منزه عن الوصف بذلك، فتأول بما يليق به⁽²⁰¹⁾. وذكر من هذا النوع أشياء تخالف نصوص كتاب الله، ونصوص سنة رسوله، صلى الله عليه وسلم - كما هي عادته؛ لأنه- عفا الله عنا وعنه- على المذهب الأشعري الذي يعتمد على تأويل صفات رب العالمين، وإن كان أحيانا يذكر مذهب السلف فيما ينقله، ولكنه لا يتبناه، بل يخلط بينه وبين ما يخالفه.

وهذا المذهب- أعني مذهب الأشعرية الذي عليه أكثر المتأخرين- مخالف لما عليه رسل الله صلى الله عليهم وسلم، ومخالف لكتبه، ولما عليه أتباع الرسل، كما أترف بذلك بعض كبار علماء هذا المذهب، كالفخر الرازي، والجويني، والغزالي، والشهرستاني، وغيرهم، كما يأتي ذكر ذلك، إن شاء الله-تعالى-.

وهكذا تبرر الأشعرية تأويل صفات رب العالمين بما تعرفه من صفات المخلوقين، فكأنهم لم يعرفوا من الرحمة إلا أنها العطف والرقّة على المرحوم، ولا من الغضب إلا أنه غليان دم القلب ثم طلب الانتقام، وما أشبه ذلك، ولهذا لجأوا إلى التحريف الذي يسمونه تأويلاً، وجعلوه واجباً ضرورياً، حتى لا يلزم التشبيه، فيسلم المسلم من التشبيه والتجسيم على ما زعموا. هذا مع أنهم ينكرون على الفلاسفة تأويلهم نصوص المعاد، وعلى الباطنية تأويلهم الشرائع أشد الإنكار، فما الذي سوغ لهم تأويل نصوص

⁽²⁰⁰⁾ صفات الفعل عند الأشعرية: ما فعله-تعالى- منفصلاً عنه- يعني مخلوقاته التي وجدت بصفة الخلق-وليس هناك اشتباه بين ما يسميه ابن بطال صفات فعل، وبين صفات الله، حتى يلزم ما ذكره.
⁽²⁰¹⁾ "الفتح" (13/358).

الصفات مع كثرتها ووضوحها؟ وما ادعوه أن العقل يوجب ذلك، بإمكان كل مبطل أن يدعيه.

فليس هناك عاصم من الضلال، إلا الوقوف مع نصوص كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك في المقدمة. قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى اليماني -رحمه الله تعالى-: "الأمر الثاني: وهو النقص في الدين، برد النصوص والظواهر، ورد حقائقها إلى المجاز، من غير حجة قاطعة، تدل على ثبوت الموجب للتأويل، إلا مجرد التقليد لبعض أهل الكلام في قواعد لم يتفقوا عليها، وأفحش ذلك مذهب القرامطة الباطنية في تأويل الأسماء الحسنى كلها، وفيها عن الله -تعالى-، على سبيل التنزيه
ص 78

له عنها، وتحقيق التوحيد بذلك، ودعوى أن إطلاقها يقتضي التشبيه، حتى قالوا: لا يقال "إنه موجود، ولا معدوم.

فكما أن كل مسلم يعلم أن هذا كفر صريح، فكذلك المحدث الذي طالت مطالعته للآثار، وقد يعلم أن تأويل بعض المتكلمين مثل ذلك.

ومن الضروري ورود أسماء الله الحسنى في كتابه على سبيل التمدح بها والثناء العظيم عليه بها، ألا ترى -مثلاً- أن الرحمن الرحيم متلوان في جميع الصلوات، مذكوران في أكثر محافل المسلمين، مجتمعين على أنهما أحسن الثناء على الله -تعالى- متقربين إلى الله -تعالى- بمدحه بهما؟

وكرر -تعالى- التمدح بالرحمة في كتابه أكثر من خمسمائة مرة، باسم الرحمن أكثر من مائة وستين مرة، وباسمه الرحيم أكثر من مائتي مرة، وجمعهما مائة وستين مرة. وجاء الرحيم مقترناً مع التواب مراراً، ومراراً مع الرؤوف، والرأفة أشد الرحمة، مراراً مع الغفور، وهي كثيرة، عرفت منها سبعة وستين موضعاً.

وقد فطر الله العقول على معرفة رحمة الله، وسعة علمه، وكمال قدرته.

فما هو المانع من إثبات صفة الرحمة ونحوها مما أثبتته الله ورسوله، مع نفي النقائص المتعلقة بصفات المخلوقين في حياتهم، وكذلك كل صفة يتصف بها الرب -تعالى- ويوصف بها العبد. فإنه -جل وعلا- يوصف بها على أكمل وجه، خالية عن جميع النقائص، والعبد يوصف بها على ما يناسبه، من نقص وضعف، وبهذا فسر أهل السنة نفي التشبيه، ولم يفسروه بنفي الصفات كما فعل المعطلة.

ومما يدل على بطلان التأويل: كون المعتزلة يسخرون من تأويل الأشعرية للحكيم، والأشعرية تسخر من تأويل بعض المعتزلة للسميع البصير،

وأهل السنة يسخرون من تأويل الفريقين للرحمن الرحيم، وما أشبههما، والكل يسخر من تأويل القرامطة. فيجب إثبات ما وصف الله به ذاته الكريمة، من غير تأويل، ولا تعطيل.

ولا يجوز القول بأن ظاهر هذه الأسماء كفر، وضلال، وأن الصحابة والسلف الصالح لم يفهموا ذلك، أو أنهم فهموه ولم يقوموا بالواجب من نصح المسلمين وبيان التأويل الحق؛ لأمرين:

ص 79

الأول: قاطع ضروري، وهو أن العادة توجب أن ما كان كذلك أن يظهر التحذير منه، من رسول الله- صلى الله عليه وسلم - ومن أصحابه، ويتواتر أعظم من تحذيرهم من الدجال الكذاب، ولا يجوز- مع كمال عقولهم وأديانهم- أن يتركوا صبيانهم ونساءهم وعامتهم يسمعون ما ظاهره كفر، منسوباً إلى الله- تعالى- ورسوله ويسكتون عليه، مع بلادة الأكثرين.

ولو تركوا بيان ذلك، ثقة بنظر العقول الدقيق، لتركوا التحذير من فتنة الدجال، فإن بطلان ربوبيته أظهر في العقول من ذلك، ألا ترى أن المتكلمين لما اعتقدوا قبح هذه الظواهر، تواتر عنهم التحذير عنها، وتأويلها، فصنفوا في ذلك، وأيقظوا الغافلين، وعلموا الجاهلين، وكفروا المخالفين، وأشاعوا ذلك بين المسلمين، بل بين العالمين، فكان أحق منهم بذلك سيد المرسلين وقدماء السابقين، وأنصار الدين، لو كان ذلك حقاً.

الثاني: أنه ثبت تحريم الزيادة في الدين، فلا يصح سكوت الشرع عن النص على ما يحتاج إليه، من مهمات الدين، فالإسلام متبع، لا مخترع، ولذلك كفر من أنكر شيئاً من أركان الدين؛ لأنها معلومة ضرورة، فأولى وأحرى أن لا يجيء الشرع بالباطل منطوقاً متكرراً من غير تنبيه على ذلك، لاسيما إذا كان ما سموه باطلاً، هو المعروف في جميع كتب الله، ولم يأت ما يعارضه من طريق شرعي، ولا عقلي، حتى يجب التأويل.

وكثير منهم يزعم أنه ما جاء التصريح بالحق في آية واحدة تكون هي المحكمة التي رد إليها جميع المتشابه، والله- تعالى- ذكر أنه أنزل في كتابه آيات محكمات، ترد إليها المتشابهات، ولم يذكر أن جميع كتابه متشابه، فبطل ما يقولون.

وقد اعترف الرازي- في كتابه "الأربعين"⁽²⁰²⁾- وهو من أكبر خصوم أهل السنة- أن جميع الكتب السماوية جاءت بصفات الله- تعالى- ولم ينص الله- تعالى- في آية واحدة على أنه منزه عن الوصف بالرحمة والحلم والحكمة، وما أشبه ذلك. والأمر ظاهر وإن لم يعترف به، وهذه الكتب السماوية موجودة.

⁽²⁰²⁾ كتاب "الأربعين في أصول الدين في علم الكلام".

وهبك تقول: هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء" (203)
 قلت: دعوى المجاز في اسمه -تعالى- "الرحمن" وغيره من الأسماء
 الحسنى، من أبطل الدعاوى؛ لأن ذلك يتضمن إنكار حقيقة صفة الرحمة،
 وهو أعظم من إنكار الكفار لاسمهم تعالى "الرحمن"، كما ذكر الله -تعالى-
 عنهم ذلك، قال -تعالى-: {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ
 لَتَلَوَّ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا
 هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ} (204)
 وقال -تعالى-: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟ (205)
 فهؤلاء الذين كفروا بالرحمن، وأنكروه، لم يكفروا بذاته -تعالى- وربوبيته،
 ولم ينكروا ما يدعيه المؤولة أن معنى اسمه الرحمن هو الإحسان والإنعام
 إلى خلقه، وإنما أنكروا اسمه -تعالى- "الرحمن" أن يسمى به.
 وإنكار صفة الرحمة أعظم من إنكار الاسم، وهو من أعظم الإلحاد في
 أسمائه -تعالى-؛ لأن وضع الاسم مقصود به الدلالة على المعنى المراد منه،
 وهو الرحمة، كما هو معلوم في جميع أسمائه تعالى.
 وتعليهم لنفي الرحمة عن الله -تعالى- بأنها رقة القلب التي تحمل الميل
 إلى المرحوم.

جوابه: أن هذه رحمة المخلوق، ووصفه، وأما رب العالمين، فليس كمثله
 شيء في ذاته وصفاته، فليست رحمته -تعالى- من جنس رحمة خلقه -جل
 وعلا-.

ومما يعجب منه أن أهل التأويل (206) يجعلون الرحمة بالنسبة للمخلوق
 حقيقة، وبالنسبة لله -تعالى- مجازاً، فكيف تكون رحمة أرحم الراحمين التي
 وسعت كل شيء مجازاً، ورحمة المخلوق الضعيف حقيقة؟

وكل العقلاء يدركون آثار رحمة الله -تعالى- في الخلق، كما يدركون آثار
 ربوبيته أو أعظم، وهذا من أظهر الأشياء وأوضحها.
 ومعلوم أن الأسماء التي تسمى الرب -تعالى- بها -وهي كلها حسنى-
 لها معان يستدل بها عليها؛ لأنها مشتقة من تلك المعاني، وهذه المعاني هي
 الصفات، وليست أسماءه تعالى مجرد أعلام، فالرحمن يدل على الرحمة،
 والعليم يدل على العلم، والحكيم يدل على الحكمة، وهكذا جميع أسمائه
 تعالى.

(203) "إيثار الحق على الخلق"، بتلخيص وتصرف (ص 129-139).

(204) الآية 30 من سورة الرعد.

(205) الآية 60 من سورة الفرقان.

(206) أقصد الذين يؤولون الصفات كما هي طريقة أكثر الأشعرية.

قال: باب قول الله-تعالى:- (أنا الرزاق ذو القوة المتين).

8- "حدثنا عبدان، عن أبي حمزة، عن الأعمش، عن سعيد بن جبير، عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن أبي موسى الأشعري، قال: قال النبي-صلى الله عليه وسلم -: "ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يدعون له الولد، ثم يعافيه، ويرزقهم".

أبو موسى الأشعري: هو عبد الله بن قيس بن سليم الأشعري. وأمه ظبية بنت وهب بن عك، هاجر إلى الحبشة قديماً، ثم قدم على النبي-صلى الله عليه وسلم - في خيبر، مع جعفر وأصحابه، وهو من سادات الصحابة وعلمائهم، عرف بالشجاعة والاجتهاد في طلب الخير، وكان قارئاً حسن الصوت، حتى قال فيه النبي-صلى الله عليه وسلم -: "لقد أعطي مزمراً من مزامير آل داود"⁽²⁰⁷⁾

توفي -رضي الله عنه- بمكة، وقيل: بالكوفة، سنة اثنتين، أو أربع وأربعين، عن ثلاث وستين سنة⁽²⁰⁸⁾.

أما الآية فهكذا قرأها ابن مسعود، وقال: إنه أقرأه إياها رسول الله -صلى الله عليه وسلم - كما رواه الإمام أحمد بسند صحيح⁽²⁰⁹⁾، وأبو داود، والنسائي، والترمذي، وقال: حسن صحيح⁽²¹⁰⁾.

وهذه الآية مرتبطة بالآية قبلها في المعنى، وهي قوله-تعالى: {وَوَقَّا خَلَفْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ} {56} مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ} {57} إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} {211}، والمعنى: أنه -تعالى- خلق العباد ليعبدوه، ولا يشركوا به شيئاً، فمن أطاعه في ذلك جازاه أتم الجزاء وأحسنه، ومن أبى وعصاه عذبه أشد العذاب.

وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، فهو خالقهم ورازقهم"⁽²¹²⁾.

فهو-جل وعلا- لم يخلقهم ليستعين بهم أو ليقوى بهم، كما يقصد السادة من عبدهم.

قوله: {إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} هذه القراءة المجمع عليها، المتواترة، وقراءة ابن مسعود تتفق معها في المعنى.

⁽²⁰⁷⁾ انظر: "البخاري" (6/161) "فضائل القرآن".

⁽²⁰⁸⁾ انظر: "الاستيعاب" (3/979)، "أسد الغابة" (3/367)، "الإصابة" (6/194).

⁽²⁰⁹⁾ انظر: "السند" (1/394).

⁽²¹⁰⁾ "تفسير ابن كثير" (7/402)، وانظر: "سنن أبي داود" (4/291) وفيه: "إني أنا الرزاق" الخ، ومثله في الترمذي (4/262).

⁽²¹¹⁾ الآيات 56-58 من سورة الذاريات.

⁽²¹²⁾ "تفسير ابن كثير" (1/402).

والمعنى: أن الله -تعالى- هو المتكفل بأرزاق الخلق وحاجاتهم؛ وأكد الجملة بـ "إن" والضمير؛ لقطع توهم من يعتمد على قوته، أو علمه وصنعتة، أو غير ذلك، في أمور الرزق؛ ليصرف اعتمادهم إلى الله وحده.

{ذُو الْقُوَّةِ} أي القوة العظيمة التي لا تضاهي، ولا تقاس بقوة خلقه مهما بلغت قوتهم، فهو-تعالى- على كل شيء قدير، لا يمتنع عليه شيء.

{وَالْمَتِينُ} الشديد القوة، الذي لا يطرأ عليه عجز أو ضعف، تعالى وتقدس، وهذا المروي عن ابن عباس كما ذكره الطبري⁽²¹³⁾.

قال ابن الجوزي: "والمتين: الشديد القوة الذي لا تنقطع قوته، ولا يلحقه في أفعاله مشقة"⁽²¹⁴⁾.

ورفع "المتين" على أنه وصف "الرزاق" أو لذو، أو خبر مبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر، وهذه قراءة الجمهور، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش بجر "المتين" على أنه صفة للقوة.

وهذه الآية ونظائرها تدل بوضوح على أن الله -تعالى- موصوف بالصفات العليا، كما أنه مسمى بالأسماء الحسنى، فالقوة صفته، والرزاق اسمه، وتقدم أن كل اسم لابد أن يتضمن الصفة، وبذلك وغيره يرد على المنكرين للصفات، كما سبقت الإشارة إليه، والله أعلم.

ص 84

وأما معنى الحديث: فقال النووي: "قال العلماء: معناه: أن الله -تعالى- واسع الحلم حتى على الكافر الذي ينسب إليه الولد والند، قال المازري: حقيقة الصبر: منع النفس من الانتقام أو غيره، فالصبر نتيجة الامتناع، فأطلق اسم الصبر على الامتناع في حق الله -تعالى-.

قلت: هذا الكلام فيه نظر فقد جاء في أسمائه تعالى: الصبور، وفي هذا الحديث: "ما أحد أصبر على أذي سمعه من الله -تعالى-".

قال القاضي: والصبور من أسماء الله -تعالى-، وهو: الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام، وهو بمعنى الحليم في أسمائه - سبحانه وتعالى -، والحليم: هو الصفوح مع القدرة على الانتقام"⁽²¹⁵⁾.

قلت: قول المازري: "فأطلق اسم الصبر على الامتناع في حق الله -تعالى-".

فيه نظر، وذلك أن رسوله -صلى الله عليه وسلم- أطلق على ربه الصبر، وأنه ما أحد أصبر منه، وهو -صلى الله عليه وسلم- أعلم الخلق بالله -تعالى- وأخشاهم له، وأقدرهم على البيان عن الحق، وأنصحهم للخلق، فلا استدراك عليه، فيجب أن يبقى ما أطلقه -صلى الله عليه وسلم- على الله

⁽²¹³⁾ انظر: "تفسير الطبري" (27/13).

⁽²¹⁴⁾ "تفسير ابن الجوزي" (8/44).

⁽²¹⁵⁾ "شرح النووي على مسلم" (17/146).

- تعالى - بدون تأويل، إلا إذا كان يريد بذلك تفسير معنى الصبر، ولكن الأولى أن يبقى كما قال؛ لأنه واضح ليس بحاجة إلى تفسير.

قوله في الحديث: " اصبر " أفعل تفضيل من الصبر، ومن أسمائه الحسنی "الصبور"، ومعناه: الذي لا يعاجل العصاة بالعقوبة، وهو قريب من معنى الحلیم، والحلیم أبلغ في السلامة من العقوبة⁽²¹⁶⁾.

وقال الزجاج: " أصل الصبر في الكلام: الحبس، يقال: صبرته على كذا صبراً: إذا حبسته، ومعنى الصبر والصبور في اسم الله - تعالى - قريب من معنى الحلم"⁽²¹⁷⁾.

وقال ابن الأثير: " الصبور: هو الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام منهم، بل يؤخر ذلك إلى أجل مسمى، فمعنى الصبور في صفة الله - تعالى - قريب من معنى

ص 85

الحلیم، إلا أن الفرق بين الأمرين أنهم لا يأمنون العقوبة في صفة الصبور، كما يأمنون منها في صفة الحلیم"⁽²¹⁸⁾. يقصد أن صفة الحلم أكثر رجاء ورحمة وأوسع لعباده، من صفة الصبور، والله أعلم.

قوله: " على أذى سمعه من الله " لفظ الأذى في اللغة هو لما خف أمره، وضعف أثره من الشر والمكروه، وذكره الخطابي، قال شيخ الإسلام: " وهو كما قال، بخلاف الضير، فقد أخبر - سبحانه - أن العباد لا يضرونه، كما قال تعالى: { وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئاً }"⁽²¹⁹⁾، فبين أن الخلق لا يضرونه، لكن يؤذونه"⁽²²⁰⁾.

فابن آدم يؤذي الله - تعالى - ويسبه، بإضافة ما يتعالى ويتقدس عنه، مثل نسبة الولد إليه - تعالى - والند، والشريك في العبادة، التي يجب أن تكون خالصة له وحده، ومثل إسناده نعمه وأفعاله إلى غيره، من الدهر، والطبيعة، والكون والمخلوقات، وغير ذلك، ثم يسبون ما أسندوا تلك الحوادث إليه، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادتهم حوادثه، وأهلكتهم كوارث الطبيعة، ويا خيبة الدهر، وهذا زمان سوء، وما أشبه ذلك.

⁽²¹⁶⁾ "فتح الباري" (13/361).

⁽²¹⁷⁾ " تفسير أسماء الله الحسنی " (ص 65).

⁽²¹⁸⁾ "جامع الأصول" (4/183).

⁽²¹⁹⁾ (1) الآية 176 من سورة آل عمران.

⁽²²⁰⁾ "تيسير العزيز الحميد" (ص 542).

وفي "الصحيحين" عن أبي هريرة-رضي الله عنه- قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "يقول الله-تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب ليله ونهاره"⁽²²¹⁾.
وأذية الله-تعالى- بنسبة الحوادث، والكوارث إلى الدهر، أو الطبيعة، وتوجيه اللوم والقدح والسب إلى ذلك كثيرة في كلام أهل الأدب وغيرهم، مع أن ذلك

ص 86

صنع الله وفعله، ولذلك يرجع السب إليه، تعالى عن قولهم علواً كبيراً، كقول ابن المعتز:

يا دهر ويحك ما أبقيت لي أحداً
وقال أبي الطيب المتنبي:

قبحاً لوجهك يا زمان فإنه
وقول الطرقي:

إن تبلى بلئام الناس يرفعهم
عليك دهر لأهل الفضل قد

خانا

وقول التهامي:

ليس الزمان وإن حرصت مسالماً
وقول الآخر:

وغاض رزقي وعاداني الزمان ولم
ينظر لما بي من العليا ولا

حسبي

وقول الحريري:

ولا تأمن الدهر الخؤون فكم عالم أخنى عليه

وقوله أيضاً:

ولما تعامى الدهر وهو عن الرشيد، في إيجابه
تعاميت حتى قيل: إني ولا أغرو أن يجذو الفتى

وقوله أيضاً:

ولو أنصف الدهر في لما ملك الحكم أهل

وقول موفق الدين، عبدالله بن عمر الأنصاري، في تخميسه مقصورة

ابن دريد:

يا زمني ماذا العمى فوقت لي من الرزايا

²²¹() انظر: "البخاري" (6/166) وتفسير سورة الجاثية (8/574)، و (10/564) الأدب، و (9/179) التوحيد، و"مسلم"، الأدب (7/45).

²²²()"ديوان المتنبي" (ص 393).

يا دهر كم هذي الحقود و الإحن (223)

ص 87

وقال تميم بن المعتز:

يا دهر ما أقساك من في حالتك وما أقلك
أتروح للنكس الجهول وعلى الجر اللبيب
وإذا صفوت كدرت وإذا وفيت نقضت
لا أرتضيك وإن كرمت أدري بأنك لا تدوم
زمن إذا أعطى استرد وإذا استقام بدا له
ما قام خيرك يا زمان أولى بنا ما قل منك

وقال عبد الرحيم الاسطنبولي:

أرى الدهر يسعف وأوفر حظ به الجاهل

ومثل هذا كثير جداً في أشعار أهل الأدب قديماً وحديثاً، وهو لا يجوز؛ لما دل عليه هذا الحديث الذي نحن بصدد شرحه، وللأحاديث الأخرى الصحيحة الصريحة في النهي عن ذلك، كحديث أبي هريرة الآتي: يقول الله تعالى: "يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، اقلب ليله ونهاره" (224).

يعني: أن الدهر-الذي هو الليل والنهار- مخلوق لله مسخر، وهو مؤتمر بأمر الله -تعالى- مطيع له، فإذا سبه الساب، فإن السب يعود إلى فاعل الدهر وخالقه.

ومعلوم أن توجيه الخطاب والملام إلى الأيام والليالي لأنها ظرف لوقوع الحوادث، وما يؤلم، فوجه اللوم إلى الدهر لذلك، وإلا فغالب هؤلاء، إن لم يكن كلهم، لا يعتقدون أن الليل والنهار هو المصرف المدبر، والموجد لما يقع فيه، فرجع اللوم في الحقيقة إلى تلك الحوادث الواقعة في الليل والنهار، فبذلك يعلم أن اللوم والسب يعود إلى مقدرها وموجدها، وهو الله-تعالى- خالق كل شيء، فليحذر المسلم من مجارة هؤلاء الذين سلكوا طريق أهل الجهل من الكفار، وغيرهم، في القدح في أفعال الله -تعالى-، وسخط أقداره وتدابيراته.

ص 88

قال ابن الجوزي -رحمه الله تعالى-: "ما رأيت عيني مصيبة نزلت بالخلق أعظم من سبهم للزمان، وعيبتهم للدهر، وقد كان هذا في الجاهلية، ثم نهى

(223) انظر: " تخميس مقصورة ابن دريد " (ص 42).

(224) سيأتي هذا الباب في قول الله " يريدون أن يبدلوا كلام الله ".

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عنه، فقال: "لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر" (225).

ومعناه: أنتم تسبون من فرق شملكم، وأمات أهليكم، وتنسبونهم إلى الدهر، والله - تعالى - هو الفاعل لذلك.

وهؤلاء إن أرادوا بالدهر، مرور الزمان، فذلك لا اختيار له، ولا مراد، ولا يعرف رشداً من ضلال، ولا ينبغي أن يلام، فإنه زمان مدبر، ولا يعقل أن يكون ذم هؤلاء يقصد به الزمان الذي لا تصرف له، فلم يبق إلا أن القوم خرجوا عن ربقة الإسلام، ونسبوا القبائح إلى الله - تعالى - فاعتقدوا قصور حكمته، وأنه يفعل ما لا يصلح كما اعتقده إبليس في تفضيل آدم، وهؤلاء لا ينفعهم مع هذا الزيغ اعتقاد إسلام، ولا فعل صلاة، بل هم شر من الكفار" (226).

قلت: أكثر هؤلاء من الشعراء والأدباء لا يقصدون نسبة القبائح إلى الله - تعالى - من الجور والظلم، وإنما ساروا في ذلك على سبيل المتابعة لأهل الجاهلية والتقليد، بدون تبصر لذلك، والله أعلم.

وكذلك يؤذي ابن آدم ربه بمخالفته وأوامره - تعالى - وارتكابه نهيته، والإصرار على ذلك، وأذية رسله، وعبادة الصالحين، بعيبتهم، وتنقصهم، كما في "مسند الإمام أحمد"، من حديث عبد الله بن مغفل المزني - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "اللهم، الله، في أصحابي، لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم، فمن أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه" (227).

ص 89

وقد قال الله - تعالى -: { إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا } (228).

قال ابن جرير - رحمه الله تعالى -: "أي الذين يؤذون ربهم بمعصيتهم إياه، وركوبهم ما حرم عليهم" (229).

وفي قوله: "ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله" دليل واضح على تسميته - تعالى - بذلك، أعني "الصبور"، كما جاء في حديث الأسماء الحسنى. قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -: "فقد أطلق عليه - تعالى - أعرف الخلق به، وأعظمهم تنزيهاً له، هذه الصفة: "وما أحد أصبر على أذى سمعه

(225) رواه مسلم في الألفاظ من الأدب وغيره (4/1762) رقم الحديث (2246) وله عدة طرق عنده.

(226) "صيد الخاطر" (ص 490) باختصار وتصرف يسير.

(227) "المسند" (4/87).

(228) الآية 57 من سورة الأحزاب.

(229) "تفسير الطبري" (21/44).

من الله "، كما أن ما ورد في الأسماء الحسنى "الصبور" من أمثلة المبالغة، فهو أبلغ من "الصابر" والصبار. ومعنى الصبر معلوم في اللغة، والشرع، والعرف، فلسنا بحاجة إلى تأويلات المتكلمين، التي تبعد عن المعنى المقصود من الخطاب.

وصبر الله -تعالى- لا يماثل صبر المخلوق، بل يختلف عنه من وجوه: منها: أنه عن قدرة تامة. ومنها: أنه لا يخاف الفوت، والعبد إنما يستعجل لخوف الفوت. ومنها: أنه -تعالى- لا يلحقه بصبره ألم، ولا حزن، ولا نقص بوجه من الوجوه. وظهور أثر هذا الاسم الكريم مشهود في العالم بالعيان، كظهور اسمه -تعالى- الحليم. والفرق بين الصبر والحلم: أن الصبر ثمرة الحلم، وموجبه، والحلم في صفاته -تعالى- أوسع من الصبر، ولهذا جاء في القرآن في مواضع كثيرة، وجاء مقروناً مع اسمه العليم، كقوله -تعالى: {وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} ⁽²³⁰⁾، وقوله -تعالى-: {وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ} ⁽²³¹⁾ ⁽²³²⁾، وحلمه -تعالى- من لوازم ذاته.

ص 90

وأما صبره -تعالى- فمتعلق بكفر عباده، وشركهم، ومسبتهم له -تعالى- وتقدس- وسائر معاصيهم، وفجورهم، فلا يدعو ذلك إلى تعجيل عذابهم، بل يصبر عليهم ويمهلهم، ويرفق بهم، ويستصلحهم بحلمه وصبره ونعمه، حتى إذا لم يبق فيهم موضع للصنعة ولا يصلحون على الإمهال، ولم ينبؤوا إليه، لا من باب الإحسان والنعم، ولا من باب البلاء والنقم، أخذهم أخذ عزيز مقتدر، بعد غاية الإعذار إليهم، وبذل النصيحة لهم، ودعائهم من كل باب.

وهذا كله من موجبات صفة حلمه، وهي صفة ذاتية له لا تزول. وأما الصبر فإذا زال متعلقه كان كسائر الأفعال التي توجد لوجود الحكمة وتزول بزوالها، فتأمل، فإنه فرق لطيف قل من تنبه له.

وقد أشكل على كثير من العلماء مجيء هذا الاسم في أسماء الله الحسنى، وقالوا: لم يأت في القرآن، فأعرضوا عن الاشتغال به. ولو أنهم أعطوه حقه لعلموا أن الرب -تعالى- أحق به من جميع خلقه، كما هو أحق باسم العليم، والرحيم، والقدير، والسميع، وسائر أسمائه الحسنى من المخلوقين، وأن التفاوت الذي بين صبره -تعالى- وبين صبرهم، كالتفاوت الذي بين حياته وحياتهم، وعلمه وعلمهم، وهذا في سائر صفاته -تعالى-، ولهذا قال أعرف خلقه به: " لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله " -تعالى- فعلم أرباب البصائر بصبره -سبحانه- كعلمهم برحمته وعفوه وستره،

⁽²³⁰⁾ الآية 51 من سورة الأحزاب.

⁽²³¹⁾ الآية 12 من سورة النساء.

⁽²³²⁾ وقد جاء اقتراحه باسمه الغفور في مواضع عدة من القرآن كقوله تعالى: {ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلیم} {سورة آل عمران: آية 155}.

مع أنه صبر مع كمال علم وقدرة، وعظمة وعزة، وهو صبر على أعظم مصبور عليه، فإن مقابلة أعظم العظماء، وملك الملوك، وأكرم الأكرمين، ومن إحسانه فوق كل إحسان بغاية القبح، وأعظم الفجور، وافحش الفواحش، ونسبته -تعالى- إلى كل ما لا يليق به، والقدح في كماله، وفي أسمائه وصفاته، والإلحاد في آياته، وتكذيب رسله -عليهم السلام- ومقابلتهم بالسب والشتم والأذى، وتحريق أوليائه، وقتلهم وإهانتهم -أمر لا يصبر عليه إلا الصبور الذي لا أحد أصبر منه، ولا نسبة لصبر جميع الخلق من أولهم إلى آخرهم إلى صبره -سبحانه وتعالى-.

ومما يعين على معرفة صبره -تعالى- وحلمه، والفرق بينهما: تأمل قوله -تعالى-: {إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} (233)،

ص 91

وقوله -تعالى-: {اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا} {88} لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا {89} تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا {90} أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا} (234) وقوله -تعالى-: {وَإِنْ كَانَ مَكْرَهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} (235)، على قراءة فتح اللام.

فأخبر -تعالى- أن حلمه ومغفرته يمنعان زوال السماوات والأرض، فالحلم وإمساكهما أن تزولا هو الصبر، فبحلمه صبر عن معاجلة أعدائه. وفي الآية إشعار بأن السماوات والأرض تهم وتستأذن بالزوال؛ لعظم ما يأتي به العباد، فيمسكهما بحلمه، ومغفرته، وذلك حبس عقوبته عنهم، وهو حقيقة صبره -تعالى-.

فالذي صدر عنه الإمساك، هو صفة الحلم، والإمساك هو الصبر، وهو حبس العقوبة، ففرق بين حبس العقوبة، وبين ما صدر عنه حبسها، فتأمله" (236).

قال ابن المنير: "وجه مطابقة الحديث للآية (237): اشتماله على صفتي الرزق، والقوة الدالة على القدرة، أما الرزق، فواضح من قوله: "ويرزقهم"، وأما القوة فمن قوله: "أصبر" فإن فيه إشارة إلى القدرة على الإحسان إليهم، مع إساءتهم، بخلاف طبع البشر، فإنه لا يقدر على الإحسان إلى المسيء إلا من جهة تكلفه ذلك شرعاً، وسبب ذلك أن خوف الفوت يحمله

(233) الآية 41 من سورة فاطر.

(234) الآيات 88-91 من سورة مريم.

(235) الآية 46 من سورة إبراهيم.

(236) "عدة الصابرين" (ص 236-237).

(237) "الفتح": (مطابقة الآية للحديث) والمناسب ما أثبتته.

على المسارعة إلى المكافأة بالعقوبة، والله -سبحانه- قادر على ذلك حالاً، ومالاً، لا يعجزه شيء ولا يفوته" (238).

قلت: ليس عجز الإنسان عن الصبر من أجل خوف الفوت فقط، بل ولأنه لا يستطيعه ولا يتحملة، لأن ذلك يضره في نفسه، أو غير ذلك.

ص 92

والذي يظهر أن ما أراده البخاري -رحمه الله- من الحديث، هو البيان بأن الله -تعالى- مسمى بالأسماء الحسنى، ومتصف بالصفات العليا، حقيقة على ما يليق به -تعالى-، وعلى ما يفهم من اللفظ الموضوع للمعنى المتعارف عليه من ظاهر اللغة، الذي أطلقه -تعالى- على نفسه أو أطلقه عليه رسوله، دون تكلف تأويل، أو رجوع إلى اصطلاح متكلم، أو متفلسف، كما بين ذلك قوله: "ما أحد أصبر على أذى سمعه من الله، يدعون له الولد، ثم يعافيههم ويرزقهم" فهذا هو حقيقة الصبر المعروف في اللغة، ونصوص الشرع، فلا يجوز العدول عن ذلك بالتأويلات التي تبعد المعنى عن مقصود المتكلم من اللفظ، ودل قوله: "ثم يعافيههم، ويرزقهم" على فضله على عباده بالعافية والرزق، وأن كل ما يقع بأيديهم من رزقه، فهو الذي هيا أسبابه ويسر طرقه. وقوله: "ثم يعافيههم ويرزقهم" أي أنه -تعالى- يقابل إساءتهم بالإحسان، فهم يسيئون إليه -تعالى- بالعيب والسب، ودعوى ما يتعالى عنه ويتقدس، وتكذيب رسله ومخالفة أمره، وفعل ما نهاهم عنه فعله، وهو يحسن إليهم بصحة أبدانهم، وشفائهم من أسقامهم، وكلاءتهم بالليل والنهار مما يعرض لهم، ويرزقهم بتسخير ما في السماوات والأرض لهم، وهذا غاية الصبر والحلم والإحسان، والله أعلم.

قال: "باب قول الله -تعالى-: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا} (239) {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} (240)، و{أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} (241)، و{وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} (242)، و{إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ} (243).
قال يحيى: الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء علماً".
أراد البخاري -رحمه الله- بيان ثبوت علم الله -تعالى- وعلمه -تعالى- من لوازم نفسه المقدسة، وبراهين علمه -تعالى- ظاهرة مشاهدة في خلقه، وشرعه، ومعلوم عند كل عاقل أن الخلق يستلزم الإرادة، ولا بد للإرادة من العلم بالمراد، كما قال تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (244).

والخالق هو: المبدع بتقدير سابق الوجود في الخارج، وهذا يتضمن تقدير المخلوقات في العلم قبل إيجادها في الخارج، وهو أيضاً يستلزم الإرادة والمشئنة، والإرادة مستلزمة تصور المراد والعلم به.
ووصف نفسه - تعالى- في هذه الآية بأنه (لطيف) يدرك الدقيق، (خبير) يدرك الخفي.

والأدلة على وصف الله بالعلم كثيرة، ولا ينكرها إلا ضال أو معاند مكابر. وفي هذه الآيات التي ذكرها البخاري مدح الله - سبحانه وتعالى- فيها نفسه بأنه عالم الغيب، وأنه استأثر به دون خلقه، فكان ذلك دليلاً على أنه لا يعلم الغيب سواه، فعلمه -تعالى- وسع كل شيء في الماضي، والمستقبل، والحال. وفي الآية الأولى استثنى -تعالى- من ارتضاه من رسله، فأطلعهم على ما يشاء من غيبه، عن طريق الوحي إليهم، وإعلامهم به، وجعل ذلك معجزة لهم، ودليلاً على نبوتهم وصدقهم.

وليس المنجم والكاهن، ومن ضاهاهما، كالضارب بالحصى، والناظر في الكتب والأكف، وما أشبه ذلك، ممن ارتضاه الله من الرسل، حتى يطلعهم على ما يشاء من الغيوب، بل هم مفترون على الله، يصطادون أموال الجهلة من الناس بالتلبيس والحدس والتخمين الكاذب والادعاء الفارغ.
"والغيب" مصدر غاب، إذا استتر عن العين، قال -تعالى-: {أَمْ كَانَ مِنَ الْعَائِبِينَ} (245)، واستعمل في كل غائب عن الحاسة، وعماً يغيب عن علم

(239) الآية 26 من سورة الجن.

(240) الآية 34 من سورة لقمان.

(241) الآية 166 من سورة النساء.

(242) الآية 11 من سورة فاطر، والآية 47 من سورة فصلت.

(243) الآية 47 من سورة فصلت.

(244) الآية 14 من سورة الملك.

(245) الآية 20 من سورة النمل.

الإنسان، قال -تعالى-: { وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ }⁽²⁴⁶⁾، ويقال للشيء: غيب، وغائب، باعتبار تعلقه بالناس.

أما الله -تعالى- فإنه لا يغيب عنه شيء. وقوله -تعالى-: { عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ }⁽²⁴⁷⁾، أي: ما يغيب عنكم، وما تشهدونه. والغيب في قوله -تعالى-: { يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ }⁽²⁴⁸⁾: ما لا يقع تحت الحواس، ولا يقتضيه بدائه العقول، وإنما يعلم بخبر الأنبياء عليهم السلام⁽²⁴⁹⁾.

وقوله: { عَالِمُ الْغَيْبِ } قال الحلبي: "معناه أنه يدرك الأشياء على ما هي عليه، وإنما وجب أن يوصف -عز اسمه- بالعالم؛ لأنه قد ثبت أن ما عداه من الموجودات فعل له، وأنه لا يمكن فعل إلا باختيار وإرادة، والفعل على هذا الوجه لا يظهر إلا من عالم، كما لا يظهر إلا من حي"⁽²⁵⁰⁾.

فقوله: { عَالِمُ الْغَيْبِ } أي المختص بعلم الغيب، فلا يشاركه فيه أحد. قال ابن جرير: عالم ما غاب عن أبصار خلقه، فلم يروه { فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا } فيعلمه أو يريه إياه { إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ } فإنه يظهره على ما يشاء من ذلك⁽²⁵¹⁾.

ص 95

وقال القسطلاني: "عالم الغيب فلا يطلع على غيبه أحداً من خلقه إلا من ارتضى من رسول لإطلاعه على بعض الغيب؛ ليكون إخباره عن الغيب معجزة له"⁽²⁵²⁾.

وقوله: { إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ } الواو ليست من الآية، إنما جاء بها للعطف.

والمعنى: أن علم وقت مجيء الساعة - الذي هو النفخ في الصور - لا يعلمه إلا الله -تعالى- وحده، فهو خاص به -تعالى- لا يشاركه فيه أحد.

قال الخازن: "ومعنى الآية: أن الله عنده علم الساعة، فلا يدري أحد من الناس متى تقوم، في أي سنة، أو أي شهر أو أي يوم، ليلاً أو نهاراً"⁽²⁵³⁾.

وقوله: { أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ } أي: أنزل القرآن، عالماً بما يترتب على إنزاله من الخير والفلاح وغير ذلك، وعالماً بمن يؤمن به ويقبله، ويسعد بذلك، ومن يكفر به ويرده ويشقى بذلك.

⁽²⁴⁶⁾ الآية 75 من سورة النمل.

⁽²⁴⁷⁾ الآية 22 من سورة الحشر.

⁽²⁴⁸⁾ الآية 3 من سورة البقرة.

⁽²⁴⁹⁾ "المفردات" للراغب (ص 366).

⁽²⁵⁰⁾ "المناهج" (1/191).

⁽²⁵¹⁾ "تفسير الطبري" (29/121).

⁽²⁵²⁾ "إرشاد الساري" (10/363).

⁽²⁵³⁾ "تفسير الخازن" (5/220).

أو المعنى: أنزله فيه علمه الذي أراد أن يطلع عليه من يشاء من عباده، من الإيمان به، ومعرفة -تعالى- بأسمائه وصفاته، وما رتب على ذلك من الجزاء في الدنيا والآخرة، ومعرفة حقه، وأمره ونهيه، والآية تدل على كلا المعنيين.

وقال ابن الجوزي: "فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنزله وفيه علمه، قال الزجاج.

الثاني: أنزله من علمه، ذكره أبو سليمان الدمشقي.
الثالث: أنزله إليك بعلم منه أنك خيرته من خلقه، قال ابن جرير⁽²⁵⁴⁾.
وقال الخازن: "يعني أنه -تعالى- لما قال: لكن الله يشهد بما أنزل إليك، بين صفة ذلك الإنزال، وهو أنه -تعالى- أنزله بعلم تام، وحكمة بالغة.
وقيل: معناه: أنزله وهو عالم بأنك أهل لإنزاله عليك، وأنتك مبلغه إلى عباده"⁽²⁵⁵⁾.

ص 96

وقال ابن كثير: {أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ} أي فيه علمه الذي أراد أن يطلع العباد عليه، من البنات والهدى والفرقان، وما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيوب، من الماضي والمستقبل، وما فيه من ذكر صفاته تعالى المقدسة التي لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، إلا أن يعلمه الله به، كما قال -تعالى-: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ} ⁽²⁵⁶⁾، وقال -تعالى-: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا} ⁽²⁵⁷⁾ ⁽²⁵⁸⁾.

قوله: {وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ} ⁽²⁵⁹⁾ اقتصر البخاري -رحمه الله تعالى- على محل الشاهد من الآية والآية بتمامها:
{وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} ⁽²⁶⁰⁾.

يخبر -تعالى- العباد بأنه ابتداء خلقهم بخلق أبيهم آدم من تراب، ثم جعل خلق ذريته من نطفة -من ماء مهين- وجعلهم أزواجاً، أي ذكراً وأنثى، رحمة منه تعالى ولطفاً، ثم أخبر -تعالى- أنه عالم بأطوار خلقهم، لا يخفى عليه شيء من مبتدئه، ووضعه، ونوعه، وعمره، وعمله، وزيادة عمره، ونقصانه،

⁽²⁵⁴⁾ ("زاد المسير" (2/257)، وانظر "تفسير الطبري" (6/31).

⁽²⁵⁵⁾ ("تفسير الخازن" (1/625).

⁽²⁵⁶⁾ الآية 255 من سورة البقرة.

⁽²⁵⁷⁾ الآية 110 من سورة طه.

⁽²⁵⁸⁾ ("تفسير ابن كثير" (2/428).

⁽²⁵⁹⁾ الآية 11 من سورة فاطر.

⁽²⁶⁰⁾ ("وقال -تعالى-: *إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه [سورة فصلت: آية 47].

وَأَنَّ ذَلِكَ عِنْدَهُ فِي كِتَابٍ، وَهُوَ سَهْلٌ عَلَيْهِ يَسِيرٌ {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ
اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (261)، ففي هذه الآية بيان شمول علمه -تعالى- لكل شيء،
فلا تكون حياة، ولا موت، ولا حركة، ولا سكون إلا بعلمه وتصريفه ومشيئته.
قوله: {*إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ} أي هو تعالى المختص بعلم الساعة أي
وقت مجيئها.

ص 97

قال ابن جرير -رحمه الله تعالى-: "إلى الله يرد العالمون به علم
الساعة، فإنه لا يعلم قيامها غيره" (262).

ففي هذه الآيات ونحوها دلالة ظاهرة على ثبوت صفة العلم لله، بحيث لا
ينكر ذلك إلا معاند مكابر يجادل بالباطل، ليدحض به الحق، أو جاهل قد تنهى
جهله، ومن أوجه البيان في ذلك أنه تعالى أضاف العلم إلى نفسه الكريمة،
إضافة حقيقية، والمضاف إلى الله -تعالى- إما أن يكون أعياناً قائمة بنفسها،
كبيت الله، وناقية الله، ورسول الله، وعرش الرحمن، وما أشبه ذلك وهذا
النوع من إضافة المخلوق إلى خالقه؛ لتفضيلها على غيرها من المخلوقات.
وإما إضافة معان، كعلم الله وقدرته الله، وحياة الله، وسمع الله وبصره،
وما أشبه ذلك، وهذا النوع لا يكون إلا إضافة صفة إلى من تقوم به؛ لأنها لا
تقوم بنفسها كما هو معلوم.

ومراد البخاري -رحمه الله- في إيراده هذه الآيات إثبات هذه الصفة لله -
تعالى-، والرد على من ينكرها من المعتزلة، ونحوهم ممن عميت بصائرهم،
فابتعدوا عن الحق، مغترين بعقولهم.

قوله: "قال يحيى: الظاهر على كل شيء علماً، والباطن على كل شيء
علماً".

قال الحافظ: "يحيى هو ابن زياد الفراء النحوي المشهور، ذكر ذلك في
كتاب "معاني القرآن له" (263).

قلت: هو يحيى بن زياد بن عبد الله، بن مروان المدلمي، أبو زكريا،
المعروف بالفراء، إمام العربية، وصفه مترجموه بأنه كان متديناً ورعاً، وكان
ثقة، له مصنفات كثيرة، ضاع أكثرها، توفي سنة 207 سيع ومائتين.

وقول الفراء هذا، جزء من معنى هذين الاسمين الكريمين، وقد كان من
عادة السلف أنهم يفسرون الشيء بجزء من معناه، وإلا فهو -تعالى- الظاهر
على كل شيء ذاتاً، وقوة وقهراً، وعلماً وحكماً، والباطن على كل شيء
إحاطة وقرباً

ص 98

(261) الآية 14 من سورة الملك.

(262) "تفسير الطبري" (25/2).

(263) "فتح الباري" (13/362)، وانظر: "معاني القرآن" للفراء (3/132).

www.dorar.net الدرر السننية

وعلماء، وقد صح عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما في "صحيح مسلم" من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يقول: "اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء"⁽²⁶⁴⁾.

فهذا أحسن ما يفسر به هذه الأسماء، وأوضحه، وأقربه إلى معنى الكلام، مع كونه من المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، فلا ينبغي العدول عنه إلى كلام الناس، الذي هو عرضة للخطأ.

²⁶⁴(انظر: "مسلم" (4/2084) رقم (61)).

9- قوله: "حدثنا خالد بن مخلد، حدثنا سليمان بن بلال، حدثني عبد الله بن دينار، عن ابن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله، لا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله -تعالى-".

ابن عمر: هو أبو عبد الرحمن، عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل، القرشي، العدوي،. وأمه: زينب بنت مضعون الجمحية، ولدت سنة ثلاث من البعثة النبوية، وهاجر إلى المدينة وهو ابن عشر سنين، وأول مشاهدته مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الخندق، وكان من سادات الصحابة، وعبادهم المجدين، وهو من المكثرين في الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، عرف بالعزوف عن الدنيا، والاستعداد للآخرة، كما عرف بشدة تمسكه بسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وتتبع آثاره، له في "الصحيحين" مائتان وثمانون حديثاً، توفي سنة ثلاث وسبعين في مكة، وقد بلغ من العمر سبعا وثمانين سنة، -رضي الله عنه-⁽²⁶⁵⁾.

"قوله: مفاتيح الغيب" ذكر البخاري ذلك الحديث في الاستسقاء بلفظ "مفتاح" وفي بعض النسخ "مفتاح" وفي تفسير سورة الأنعام وسورة الرعد بلفظ "مفتاح" وفي بعض النسخ "مفتاح".

والمفتاح جمع مفتاح، بكسر الميم، اسم الآلة التي يفتح بها، مثل منجل، ومناجل، وهي لغة قليلة، والمشهور: مفتاح، وجمعه "مفاتيح"، وقد قرأ بها ابن السميغ، ويطلق المفتاح على ما كان محسوساً مما يحل غلقاً، كالقفل، وعلى ما كان معنوياً، كما جاء في الحديث الذي صحه ابن حبان: "إن من الناس مفاتيح للخير" الخ⁽²⁶⁶⁾.

قوله: "مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله"، قد بين هذه الخمس، بأنها: ما يغيض من الأرحام -أي ما ينقص-، وما يكون في الغد من الحوادث والأعمال وغيرها، ومجيء المطر، والمكان الذي يموت به الإنسان، ووقت مجيء الساعة.

وعبر عن هذه الأمور الخمسة بالمفاتيح، لتقريب الأمر من السامع؛ لأن كل شيء جعل بينك وبينه حجاب، فقد غيب عنك، والتوصل إلى معرفته في العادة من باب الحجاب، فإذا كان المفتاح الذي لا يمكن الوصول إلى ما في داخل الحجاب إلا بمعرفته لا يعلم، فكيف بما في داخل الحجاب؟

(²⁶⁵) "الإصابة" (4/181) والرياض النضرة (ص 194).

(²⁶⁶) "فتح الباري" (8/291).

ودل الحديث على أن هذه الأمور ليست هي الغيب، وإنما هي منه؛ وأن علم الغيب من خصائص الله تعالى.

وأما ما جاء عن الأنبياء من الأخبار ببعض المغيبات، كإخبار الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما يقع بعده من الفتن؛ والفتوح على أمته؛ وبعض أشرط الساعة، وإخبار عيسى - عليه السلام - بما يأكله بنو إسرائيل، وما يدخرونه في بيوتهم؛ ونحو ذلك، فإن هذا مما استثناه الله تعالى بقوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَيَّ غَيْبِهِ أَحَدًا} {26} إِلَّا مَنْ إِزْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} {27} لِيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ} {267}، وهو من معجزاتهم التي تدل على صدقهم.

وبهذا وغيره يتبين ضلال الذين يزعمون أن فريقاً من الناس - ممن يدعون لهم الولاية - أنهم يعلمون الغيب، وكذا الذين يدعون ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإنه لا يعلم الغيب إلا الله - تعالى -، وقد أمره الله أن يعلم الناس أنه لا يعلم الغيب، فقال تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ} {268}، فنفى - تعالى - علم الغيب عن الخلق عموماً، من في السماوات كالملائكة، ومن في الأرض كالأنبياء، فكيف يدعى علم ذلك لغيرهم؟

وأما أصحاب الدجل والتمويه، الذين يحتالون على أكل أموال الناس بالباطل، كالذين يزعمون معرفة ما في المستقبل، بواسطة النجوم، أو بقراءة الكف، أو فنجان القهوة، ونحو ذلك، فهؤلاء لا يخفى ضلالهم وكذبهم إلا على أجهل الناس، والمغفلين منهم.

وأما الإخبار عما يسمى "بالطقس" أحوال الجو من أمطار، أو رياح أو غيوم أو صحو أو غير ذلك، فهي توقعات مبنية على مقدمات مستفادة من مرصد

ص 101

الأحوال الجوية التي تتأثر بالرطوبة واليبوسة ونحو ذلك، ولهذا كثيراً ما يكون الأمر على خلاف ما قالوا.

"وأراد بالغيب في الحديث المذكور: الغيب الحقيقي؛ إذ لبعض الغيوب علامات ومقدمات يستدل بها على شيء من ذلك، وهذا ليس غيباً حقيقياً؛ فالغيب الحقيقي لا يعلمه إلا الله - تعالى -.

ثم الغيب نوعان: أحدهما: ما يتعلق بذات الله - تعالى - وحقائق صفاته.

267() الآيات 26-28 من سورة الجن.
268() الآية 65 من سورة النمل.

والثاني: يتعلق بمخلوقاته، وهي كلها لديه معلومة، وقد قال -تعالى-: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (269).

فلما كان كل شيء محصى في كتاب كتبه الله -تعالى- عنده، وعلمه محيط وسابق كل شيء، شبه الرسول - صلى الله عليه وسلم - ذلك بالمخازن التي لها أبواب، والباب له مفتاح، فإذا كان المفتاح لا يعلمه أحد ولا يصل إليه، فكيف بما وراءه؟

وقد قال -تعالى-: {وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ} (270)، وحصر -صلى الله عليه وسلم- مفاتيح الغيب بالخمس لأنها تشمل العوامل كلها.

فقوله: "ما تغيض الأرحام" إشارة إلى ما يزيد في النفوس، وما ينقص منها؛ وذكر الأرحام؛ لأن للناس عليها عوائد يعرفونها؛ وتجارب أدركوها، وقد قرر عليها أحكام شرعية، ومع ذلك لا يعلم حقيقتها، ومتى تزيد ومتى تنقص إلا الله -تعالى-، فغيرها مما هو أخفى أولى بأن لا يعلمه الخلق.

وأشار بقوله: "ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله تعالى" إلى أمور العالم العلوي، فذكر منه المطر؛ لأن له مقدمات، وعلامات يستدل بها عليه عادة، أجراها الله -تعالى-، ومع ذلك لا يعلم حقيقة الحال إلا الله -تعالى-، فكيف بما وراء ذلك مما في السماوات وما بينهما، وما يجد هناك من المخلوقات، والحوادث، والأوامر التي يريدتها الله -تعالى-، ويأمر بها؟

ص 102

وأشار بقوله: {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ} (271)، إلى الحوادث الأرضية، وذكر موضع الموت من الأرض، مع أن العادة قد جرت في الغالب أن الإنسان يموت في الأرض التي يستقر فيها؛ ومع ذلك لا أحد يتيقن أنه يموت في مكانه الذي يعيش فيه، ولا يدري أين موضعه الذي يوارى فيه.

فإذا كان الأمر في مثل هذا غير معلوم، فكيف بالأمور الأخرى التي لا علامات لها، ولا مقدمات يستدل بها عليها؟

وأشار بقوله: "ولا يعلم ما في غد إلا الله" إلى أنواع الزمان، وما فيه من الحوادث والتقلبات الطارئة، وخص منه غداً؛ لأنه أقرب الأزمنة من المخاطب، فإذا خفي ما فيه فما بعده أخفى، وأبعد عن معرفته.

وأشار بقوله: "ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله" إلى أمور الدار الآخرة، وذكر منها يوم القيامة؛ لأنه أولها إلى الدنيا، ولا يعلم وقت مجيئه إلا

(269) الآية 59 من سورة الأنعام.

(270) الآية 21 من سورة الحجر.

(271) الآية 34 من سورة لقمان.

www.dorar.net الدرر السننية

الله، فما بعده أولى بأن لا يعلم، فهذا من أبداع الكلام، وأبلغه، فقد حصر فيه جميع أنواع الغيوب، وأبطل جميع الدعاوى الفاسدة⁽²⁷²⁾.
ويقصد بالدعاوى الفاسدة: كل من يدعي شيئاً في علم الغيب، وهذا الحديث إيضاح لقوله -تعالى-: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (273).

⁽²⁷²⁾ انتهى ملخصاً من "بهجة النفوس" (4/272).
⁽²⁷³⁾ الآية 34 من سورة لقمان.

10- "حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن إسماعيل، عن الشعبي، عن مسروق، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: من حدثك أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - رأى ربه فقد كذب، وهو يقول: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ} ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب، وهو يقول: (لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ).
"كان سبب هذا القول من عائشة - رضي الله عنها - ما أخرجه عبد الرزاق في هذا الحديث من طريق مجالد عن الشعبي، قال: لقي ابن عباس كعباً، فقال ابن عباس: إنا بنو هاشم نقول: إن محمداً رأى ربه مرتين، فكبر كعب، وقال: إن الله قسم رؤيته وكلامه بين موسى ومحمد، فكلم موسى مرتين، ورأه محمد مرتين، قال مسروق: فدخلت على عائشة، فقلت: هل رأى محمد ربه؟" فذكر الحديث.

قال النووي - تبعاً لغيره -: لم تنف عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع، ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرته من ظاهر الآية، وقد خالفها غيرها من الصحابة، والصحابي إذا قال قولاً، وخالفه غيره منهم، لم يكن ذلك حجة اتفاقاً.

والمراد بالإدراك: الإحاطة، وهو لا ينافي الرؤية.

وهذا عجيب من النووي - رحمه الله - فإن في "صحيح مسلم" الذي شرحه هو: "قال مسروق: وكنت متكئاً فجلست، فقلت: ألم يقل الله: {وَلَقَدْ رَأَهُ نَزَلَةً أُخْرَى} (274).

فقلت: أنا أول هذه الأمة سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك، فقال: إنما هو جبريل".

وأخرجه ابن مردويه بسند مسلم، فقال: "أنا أول من سأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن هذا، فقلت: يا رسول الله، هل رأيت ربك؟ فقال: "لا، إنما رأيت جبريل منهبطاً" (275).

قلت: أعجب من كلام النووي ما قاله ابن خزيمة - رحمه الله - فإنه ذكر هذا الحديث بعينه - أعني قول عائشة -: "أنا سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن هذا، قال: "رأيت جبريل نزل في الأفق، علي خلقه، وهيئته، ساداً ما بين الأفق" ثم بعد أسطر قال: "إن عائشة لم تحك أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أخبرها أنه لم ير ربه" (276).
فهذا ونحوه هو ما غر النووي - رحمه الله - ودعاه إلى رد قول عائشة من غير تأمل للأدلة؛ والله المستعان.

(274) الآية 13 من سورة النجم.

(275) "الفتح" (8/607).

(276) انظر: كتاب "التوحيد"، لابن خزيمة (ص 226).

وكثير من العلماء يذكر الخلاف في أن النبي -صلى الله عليه وسلم- رأى ربه ليلة المعراج، "وليس في الأدلة ما يقضي بأنه رآه بعينه، ولا ثبت ذلك عن أحد من الصحابة صريحاً، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك، بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل، كما في "صحيح مسلم"، عن أبي ذر، قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هل رأيت ربك؟ فقال: "نور أنى أراه" (277).

وقد قال -تعالى-: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا} (278)، ولو كان قد رأى ربه بعينه لكان ذكر ذلك أولى، وكذلك قوله -تعالى-: {لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى} (279)، ولو كان رآه لكان ذلك أولى. وفي "الصحيحين" عن ابن عباس، في قوله -تعالى-: {وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ} (280)، قال: هي رؤيا عين، أريها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليلة أسرى به، وهذه رؤيا الآيات؛ لأنه أخبر الناس بما رآه بعينه ليلة المعراج، فكان ذلك فتنة لهم، حيث صدقه قوم، وكذبه قوم، ولم يخبرهم بأنه رأى ربه بعينه، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة ذكر ذلك، ولو كان قد وقع ذلك لذكره كما ذكر ما دونه "أهـ" (281).

ص 105

وبهذا تبين أن قول عائشة -رضي الله عنها- هو الراجح، الذي تؤيده الأدلة -والله أعلم-، وظاهره أن مرادها أنه -تعالى- لا يرى في الدنيا. قوله: "وهو يقول: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} استدلّت عائشة -رضي الله عنها- بظاهر الآية على نفي الرؤية، وقد قال بذلك بعض المفسرين، كما رواه ابن جرير بسنده، عن السدي، قال: "لا يراه شيء وهو يرى الخلائق" (282).

وذكر ابن كثير ما رواه ابن أبي حاتم بسنده إلى إسماعيل ابن علي أنه قال: "هذا في الدنيا، وعن هشام بن عبيد الله نحوه" (283). وذكر السيوطي: أن الحسن قال مثل ذلك، قال: أخرجه أبو الشيخ، والبيهقي في كتاب: الرؤية (284).

(277) انظر: "صحيح مسلم" (3/12) بشرح النووي.

(278) الآية 1 من سورة الإسراء.

(279) الآية 18 من سورة النجم.

(280) الآية 60 من سورة الإسراء.

(281) "مجموع الفتاوى" (6/580).

(282) انظر: "تفسير الطبري" (7/301) قال السيوطي: أخرجه ابن أبي حاتم، "الدر المنثور" (3/335).

(283) انظر: "تفسير ابن كثير" (3/303).

(284) "الدر المنثور" (3/335).

وبهذه الآية تعلق المعتزلة في نفي رؤية الله -تعالى- في الآخرة، ووجه ذلك أنه جعل متعلق الإدراك البصر، فلما نفاه عنه كان ظاهر ذلك نفي الرؤية. والحق ثبوت رؤية المؤمنين لله -تعالى- في الآخرة، كما تواترت النصوص في ذلك.

والجواب عما استدلوا به: أن الرؤية ثبتت في آيات أخر، كقوله -تعالى-: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ} {22} إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} (285)، وقوله: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ} (286)، والأخبار بذلك ثابتة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بل متواترة، كما سيأتي، إن شاء الله -تعالى-.
فيتعين أن المراد بالإدراك المنفي في الآية هو الإحاطة، وبذلك فسره ابن عباس -رضي الله عنهما- وغيره من السلف.

ص 106

قوله: "ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب، وهو يقول: "ولا يعلم الغيب إلا الله" الضمير في قوله: "إنه يعلم" يعود على محمد -صلى الله عليه وسلم- أي: من زعم أن محمداً -صلى الله عليه وسلم- يعلم الغيب، فقد كذب، لأن علم الغيب يختص بالله -تعالى-، كما قال -تعالى- مخاطباً نبيه -صلى الله عليه وسلم- وأمرأ له أن يقول: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} (287)، والآيات في هذا كثيرة.

وعلم الغيب من خصائص الرب -تعالى- التي بعث رسله وأنزله كتبه لبيانها، ونفي ذلك عن سواه -تعالى-.

وأما قول -تعالى-: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا} {26} إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ} (288)، فهي كقوله -تعالى-: {وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ} (289)، فهي تبين أن الله -تعالى- يطلع من يشاء من رسله على ما يشاء من المغيبات، وذلك بوحيه إليهم، مثل إخباره عما جرى من الأمم الماضية، وما أصبوا به من العذاب وغيره، كما قال -تعالى-: {تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا} (290)، وكذلك الإخبار عن المستقبل من المعاد، والجنة والنار، التي أطلع الله عليها رسوله فأمن بها المؤمنون، وعرفوها من كتاب الله تعالى، ومن سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- إجمالاً.

وأما الإحاطة بالمعلومات كلياتها وجزئياتها ما كان منها، وما يكون، فهذا إلى الله وحده لا يضاف إلى غيره من الخلق، فمن ادعى شيئاً من ذلك لغير

(285) الآية 22-23 من سورة القيامة.

(286) الآية 15 من سورة المطففين.

(287) الآية 50 من سورة الأنعام.

(288) الآيتان 26-27 من سورة الجن.

(289) الآية 255 من سورة البقرة.

(290) الآية 49 من سورة هود.

الله -تعالى-، فقد أعظم الفرية على الله -تعالى-، وعلى رسوله -صلى الله عليه وسلم -.

"فعلم الغيب لله وحده، ولا يقال لغيره: عالم الغيب، ومن أطلع على شيء منه بواسطة الوحي أو غيره، يقال "أطلعه الله عليه، كالإخبار عن حال البرزخ، والحساب، والجنة والنار، وما أشبه ذلك، وما يدعيه المتصوفة في مشايخهم هو من تلاعب الشيطان بهم، وكذا ما يسمونه الكشوف لا أصل له" اهـ⁽²⁹¹⁾.

ص 107

"وقول الداودي: (ما أظن قوله: "من حدثك أن محمداً يعلم الغيب" محفوظاً، وما أحد يدعي أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - يعلم من الغيب إلا ما علمه الله تعالى) متعقب بأن بعض من لم يرسخ إيمانه يظن ذلك، حتى ظن بعضهم أن صحة النبوة تستلزم إطلاع النبي -صلى الله عليه وسلم - على جميع المغيبات، كما في مغازي ابن إسحاق، أن ناقة النبي -صلى الله عليه وسلم - ضلت، فقال ابن الصليب: يزعم محمد أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقتة، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم -: "إن رجلاً يقول: كذا وكذا، إني والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في شعب كذا، قد حبستها شجرة، فذهبوا فجاؤوا بها" فأخبر -صلى الله عليه وسلم - أنه لا يعلم من الغيب إلا ما علمه الله"⁽²⁹²⁾.

قلت: قد ادعى كثير من المتصوفة والغلاة أن مشايخهم ومعبودهم من دون الله -تعالى-، يعلمون الغيوب، وكتبهم مشحونة بذلك، مثل الطبقات الكبرى للشعراني، وجامع الأولياء للنبهاني، وغيرهما من الكتب الخرافية.

²⁹¹(")غاية الأمانى" بتصرف، (1/34).
²⁹²(")القسطلاني، ببعض التصرف (10/365).

قال: باب قول الله -تعالى-: {السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ} (293).
 أي أن ذلك من أسماء الله -تعالى- التي سمي بها نفسه، ومعناه: السالم
 من كل نقص وعيب. وسيأتي بيان ذلك.
 "قال ابن بطال: غرضه بهذا الباب: إثبات اسمان من أسماء الله -
 تعالى-، قال الحافظ: وفيما ذكره نظر، ولو سلم له ذلك، فإن وظيفة الشارح
 بيان وجه تخصيص هذه الأسماء بالذكر (294) دون غيرها، وإفرادها بالترجمة،
 ويمكن أنه أراد بهذا القدر جميع الآيات الثلاث، في آخر سورة الحشر، فإنها
 ختمت بقوله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} وقد قال في
 سورة الأعراف: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا} (295)، وكأنه رحمه الله
 -تعالى- بعد إثبات القدرة، والقوة، والعلم، أشار إلى أن الصفات السمعية
 ليست محصورة في عدد معين، بدليل الآية المذكورة. (296)
 أو أراد الإشارة إلى ذكر الأسماء التي تسمى الله -تعالى- بها، وأطلق
 بعد ذلك على المخلوقين، والسلام ثبت في القرآن (297)، وفي الحديث "أنه
 من أسماء الله -تعالى-".

وقد أطلق على التحية الواقعة بين المؤمنين.
 والمؤمن يطلق على من اتصف بالإيمان، وقد وقعا معاً من غير تخلل
 بينهما في الآية المشار إليها، فناسب أن يذكرهما في ترجمة واحدة
 " (298) اهـ.

قلت: ما ذكره من أن السلام أطلق على المخلوقين، كالتحية الواقعة
 بين المؤمنين، غير ظاهر؛ لأن السلام الذي جعل تحية للمؤمنين اسم من
 أسماء الله -تعالى-، كما رواه البخاري -رحمه الله تعالى- في "الأدب
 المفرد"، من حديث أنس، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:
 "إن السلام اسم من أسماء الله -تعالى-، وضعه الله

في الأرض، فأفشوا السلام بينكم" (299)، وإسناده صحيح، وترجم به
 البخاري في الصحيح فقال: {باب: السلام اسم من أسماء الله -تعالى-} (300)

(293) الآية 23 من سورة الحشر.
 (294) يعني أنه قصر في بيان وجه إيراد البخاري هذين الاسمين من بين الأسماء الأخرى.

(295) الآية 180 من سورة الأعراف.
 (296) هي قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ} [سورة الأعراف: آية 180].

(297) كما في الآية المترجم بها.

(298) "فتح الباري" (13/366).

(299) "الأدب المفرد" (ص 343).

(300) انظر: "الفتح" (11/13).

www.dorar.net الدرر السننية

وفي حديث عبد الله بن مسعود المتفق عليه: "إن الله هو السلام، فإذا جلس أحدكم في الصلاة فليقل: التحيات لله... " وسيذكره في الباب. وقال ابن عباس: "السلام اسم الله، وهو تحية أهل الجنة" أخرجه البيهقي في "الشعب" (301).

ويدل على ذلك حديث المهاجر بن قنفذ، لما سلم على النبي -صلى الله عليه وسلم - لم يرد حتى توضع، وقال: "إني أن أذكر الله إلا على طهر" رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه (302).

قال الحافظ: صححه ابن خزيمة وغيره (303). قال الخطابي: "وفيه دليل على أن السلام الذي يحيي به الناس بعضهم بعضاً اسم من أسماء الله -تعالى- " (304).

وقد اختلف في معناه، فنقل عياض أن معناه: اسم الله، أي: كلاءته عليك وحفظه، كما يقال: الله معك ومصاحبك.

وقيل: معناه: أن اسم الله يذكر على الأعمال، توقعاً لاجتماع معاني الخيرات فيها، وانتفاء عوارض الفساد.

وقيل: معناه: السلامة، كما قال تعالى: { فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ }³⁰⁵ أن المسلم أعلم من سلم عليه أنه سالم منه، وألا خوف عليه منه (306).

ص 110

قلت: هذه المعاني متلازمة؛ لأنه إذا حصل حفظ الله لعبده وكلاءته، وكان معه، فقد حصل له الخير والبركة والسلامة.

قال ابن دقيق العيد: "السلام يطلق على معان، منها السلامة، ومنها التحية، ومنها أنه اسم من أسماء الله -تعالى-، قال: وقد يأتي بمعنى التحية محضاً، وقد يأتي بمعنى السلامة محضاً وقد يأتي متردداً بين المعنيين، كقوله -تعالى-: (ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم) (307)، فإنه يحتمل التحية والسلامة، وقوله -تعالى-: { وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ } {57} سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ { (308) (309) ا.هـ.

³⁰¹() انظر: "الفتح" (11/12).

³⁰²() انظر: "سنن أبي داود" (1/23) الحديث السابع عشر، النسائي (1/37)، ابن ماجه رقم (350).

³⁰³() انظر: "الفتح" (11/13).

³⁰⁴() "معالم السنن على هامش السنن" (1/23).

³⁰⁵() الآية 91 من سورة الواقعة.

³⁰⁶() "الفتح" (11/13).

³⁰⁷() في الآية قراءتان، في إحداهما: السلم، بمعنى الاستسلام والانقياد، أي استسلم وانقاد لطاعة الله وتوحيده، والأخرى: السلام، وفسرت بالتحية بأن يقول: السلام عليكم.

³⁰⁸() الآيتان 57-58 من سورة يس.

³⁰⁹() "الفتح" (11/13).

قلت: يمكن إرجاع هذه الإطلاقات إلى معنى واحد، إذ كلها في الحقيقة تدور على طلب السلامة، والخلاص من الشر والأذى، وهذا ما تضمنته التحية المشروعة بين المسلمين.

فالصواب: أن السلام أسم من أسماء الله -تعالى- كما تقدم، وقد أمر المسلمون أن يفشوه فيما بينهم، فعندما يلقي المسلم على أخيه ذلك، فإنه يذكر الله -تعالى-، طالباً منه السلامة، متوسلاً إليه بذكر اسمه -تعالى- المناسب لطلبه، فكأنه يقول: أنا مسالم لك أيها الأخ محب، وداع لك، وطلب حصول البركة والخير، والسلامة من كل مؤذ، ممن يملك ذلك، متوسلاً إليه في حصول ذلك باسمه السلام.

فتضمن ذلك ثلاثة أشياء:

أحدها: ذكر اسم الله -تعالى-.

الثاني: إعلام المسلم عليه: أنه مسالم له لا يناله منه أذى.

الثالث: طلب السلامة والخير له، وبهذا يظهر أن قول من قال: إنه يطلق على التحية بين المخلوقين، أنه لا يخالف كونه اسماً من أسماء الله، أي أنه ليس قسيماً له، بل التحية الواقعة بين المؤمنين هي ذكر اسم الله -تعالى-، المطلوب به حصول السلامة، وذلك أن السائل يسأل في كل مطلوب من الله بالاسم المناسب لمطلوبه،

ص 111

كما يعلم ذلك عند تأمل الأدعية الواردة في كتاب الله -تعالى-، وفي أحاديث رسوله -صلى الله عليه وسلم-، والله أعلم.

والصواب: أن مراد البخاري -رحمه الله تعالى- بهذه الترجمة: تنزيه الله -تعالى- عن مشابهة المخلوق، وأن اشتراكه -تعالى- مع المخلوق في الاسم، أو في معنى من المعاني، لا يكون فيه تشبيه، نحو اليد، والرجل، والاستواء، والمجيء، والضحك، والسخط، والعلم، والسمع، والبصر، وغير ذلك مما أثبتته -تعالى- لنفسه، وأثبتته له رسوله: لأنه -تعالى- السلام، أي: السالم من كل عيب ونقص يلحق المخلوق.

"قال ابن قتيبة: سمي نفسه سلاماً؛ لسلامته مما يلحق المخلوق من العيب والنقص والفناء، وقال الخطابي: معناه ذو السلام، والسلام في صفة الله تعالى هو: الذي سلم من كل عيب، وبراً من كل آفة ونقص يلحق المخلوقين، وقد قيل: هو الذي سلم الخلق من ظلمه" اهـ⁽³¹⁰⁾.

قلت: هذا القول الأخير لا يخالف الذي قبله، بل كلاهما يدخل في اسمه تعالى: السلام. قال ابن كثير: "السلام من جميع العيوب والنقائص، بكماله في ذاته وصفاته وفي أفعاله"⁽³¹¹⁾.

فالسلام من الكلمات الجامعة، وحقيقته: البراءة الخلاص والنجاة من الشر والعيوب، وعلى هذا المعنى تدور تصاريف هذا اللفظ، فمن ذلك: سلمك الله، وسلم فلان من الشر، ومنه دعاء الرسل على الصراط: "اللهم سلم سلم" وسلم الشيء لفلان، أي: خلص له وحده من ضرر الشركة فيه، قال تعالى: {صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ} ⁽³¹²⁾ أي: خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره. والسلام ضد الحرب، قال تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا} ⁽³¹³⁾؛ لأن كل واحد من المتحاربين يسلم من أذى الآخر ويخلص منه، والقلب السليم هو:

ص 112

النقي من الغل والمدغل، الذي قد سلم لله وحده، فخلص من دغل الشرك وغلّه، ودغل الذنوب والمخالفات، فاستقام على حب الله وحسن معاملته، ولذلك ضمن له النجاة من عذابه، والفوز بكرامته. والإسلام أخذ من هذا المعنى، فإنه: الاستسلام لله والانقياد له، والتخلص من شوائب الشرك، والبدع المضلة.

والجنة دار السلام، أي: دار السلامة من كل آفة ونقص وشر، بإطلاق السلام على الله تعالى اسماً من أسمائه، أولى من هذا كله، وهو أحق بهذا الاسم من كل مسمى به؛ لسلامته تعالى من كل عيب ونقص من كل وجه، فهو -تعالى- السلام الحق بكل اعتبار، سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم.

وسلام في صفاته من كل عيب ونقص، وسلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة، فهو السلام الحق من كل وجه وبكل اعتبار، وهذا هو حقيقة التنزيه الذي نزه به نفسه، ونزّهه به رسوله، فهو السلام من الصاحبة والولد، والسلام من النظير والكفء والسمي والمماثل، والسلام من الشريك.

ولهذا إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله وجدت كل صفة سلاماً مما يضاف كمالها.

فحياته -تعالى- سلام من الموت والسنة والنوم، وقيوميته وقدرته سلام من الحاجة والتعب واللغوب، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه أو عروض نسيان أو حاجة إلى تذكر أو تفكر، وإرادته -تعالى- سلام من خروجها عن

⁽³¹¹⁾ ("تفسير ابن كثير" (8/105).

⁽³¹²⁾ (الآية 29 من سورة الزمر.

⁽³¹³⁾ (الآية 61 من سورة الأنفال.

الحكمة والمصلحة، وكلماته -تعالى- سلام من الكذب والخلف والظلم، بل تمت كلماته صدقاً وعدلاً، وغناه - تعالى - سلام من الحاجة إلى غيره في وجه من الوجوه، بل كل ما سواه فقير إليه محتاج، ومملكه - تعالى - سلام من منازع فيه أو مشارك، أو معاون مظاهر، أو شافع عنده بدون إذنه، وإلهيته - تعالى - سلام من مشارك له فيها، بل هو الله الذي لا إله إلا هو، وحلمه، وعفوه، وصفحه، ومغفرته، وتجاوزه، سلام من أن تكون عن حاجة، أو ذل، أو مصانعة، كما يكون من غيره، بل هو محض جوده وإحسانه وكرمه.

ص 113

وكذلك عذابه، وانتقامه، وشده بطشه، وسرعة عقابه، سلام من أن يكون ظلماً، أو تشفياً، أو غلظة أو قسوة، بل هو محض حكمته وعدله، ووضع الأشياء مواضعها، فهو يستحق عليه الحمد والثناء، كما يستحق على إحسانه ونعمه.

وقدره وقضاؤه سلام من العبث والجور والظلم.

وشرعه ودينه سلام من التناقض والاختلاف والاضطراب وعدم مصلحة العباد ورحمتهم⁽³¹⁴⁾.

وهكذا جميع صفاته وأفعاله سلام من كل ما يتوهمه معطل أو يتخيله مشبه، تعالى ربنا السلام عما يضاد كماله.

و أما ذكره "المؤمن" مع السلام فليبان أن ما تسمى الله به، وأطلق على غيره من خلقه، فإنه لا يكون بينه وبين من أطلق عليه مشابهة، فالله - تعالى - سمي نفسه: المؤمن، ومن اتصف بالإيمان من عباده يسمى: مؤمناً، ولكن الله - تعالى - سالم من النقائص والعيوب التي تلزم الخلق؛ لأنه - تعالى - هو السلام.

وهكذا كل ما يطلق على غيره -تعالى- مما سمي به نفسه أو اتصف به، نحو العزيز، والكريم، والرؤوف، والرحيم، والسميع، والبصير، والعليم. وهو كثير.

فله - تعالى - ما يليق به من المعاني الكاملة السالمة من النقائص والعيوب، وللمخلوق ما يناسبه ويليق بضعفه، فهو محل كل عيب ونقص. والله أعلم.

المؤمن من أسمائه - تعالى - وهو على أحد التفسيرين: المصدق الذي يصدق الصادقين بما يقيم لهم من شواهد صدقهم، فهو الذي صدق رسله وأنبياءه فيما بلغوا عنه، وشهد لهم بأنهم صادقون للدلائل التي دل بها على صدقهم - قضاء وخلقاً - فإنه - سبحانه - أخبر - وخبره الصدق وقوله الحق، أنه لا بد أن يري عباده من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحي

(314) "بدائع الفوائد" ملخصاً (136-2/132)

www.dorar.net الدرر السننية

الذي بلغته رسله حق، كما قال -تعالى-: { سَتْرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمَ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ }⁽³¹⁵⁾ فشهد لرسوله أن ما جاء به حق، ووعدته أن يري العباد من آياته الفعلية والخلقية: ما يشهد بذلك أيضاً، ثم ذكر ما هو أعظم من ذلك وأجل، وهو شهادته -تعالى- على كل شيء، فإن من

ص 114

أسمائه "الشهيد": الذي لا يغيب عنه شيء، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، بل هو مطلع على كل شيء وشاهد له، عليم بتفاصيله، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته، والأول استدلال بقوله وكلماته، والاستدلال بالآيات الأفقية والنفسية استدلال بأفعاله ومخلوقاته "⁽³¹⁶⁾.

وقال ابن الجوزي: "فأما المؤمن ففيه ستة أقوال:

أحدها: أنه الذي أمن الناس ظلمه، وأمن من أمن به عذابه.

الثاني: أنه المجيب.

الثالث: أنه الذي يصدق المؤمنين إذا وحدوه.

الرابع: أنه الذي وحد نفسه؛ لقوله -تعالى-: { شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ }⁽³¹⁷⁾.

الخامس: أنه الذي يصدق عباده وعده.

السادس: أنه الذي يصدق ظنون عباده المؤمنين؛ ولا يخيب

أعمالهم "أ.هـ"⁽³¹⁸⁾.

قلت: هذه الأقوال كلها حق، ويدل عليها اسمه -تعالى- "المؤمن" فهو المصدق الذي يصدق رسله بما يقيمه من الدلائل التي تدل على صدقهم فيما جاؤوا به وبلغوه عنه -تعالى-، ويصدقهم وعده بنصره إياهم على عدوهم، وبصدق عباده ما أخبرهم به من توفيتهم ما يستحقونه جزاء أعمالهم، ولا يضع أجر أحد منهم ويؤمنهم من الظلم، فلا يخافون ظلماً ولا هضمًا، فهو الذي يجير عباده وينجيهم من المهالك والمخاوف، وهو الذي شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

11- قال: "حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا مغيرة، حدثنا شفيق

بن سلمة قال: قال عبد الله: كنا نصلي خلف النبي -صلى الله عليه وسلم-

فنقول: السلام على الله، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: "إن الله هو

السلام، ولكن قولوا: التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها

⁽³¹⁵⁾ الآية 53 من سورة فصلت

⁽³¹⁶⁾ "مدارج السالكين" (3/466).

⁽³¹⁷⁾ الآية 18 من سورة آل عمران .

⁽³¹⁸⁾ "زاد المسير" (8/225).

www.dorar.net الدرر السنية

النبي، ورحمة الله وبركاته، السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

ص 115

عبدالله، هو عبدالله بن مسعود بن غافل، الهذلي، من أهل السوابق، هاجر قديماً إلى الحبشة، وقد شهد مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جميع غزواته، ولازمه، وخدمه، فكان يقال له: صاحب السواك، والنعل؛ لأنه كان يحمل سواك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ونعله.

وفي "الصحيحين" أن أبا موسى قال: "قدمت أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حيناً وما نرى ابن مسعود وأمه إلا من أهل بيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؛ لما نرى من كثرة دخولهم على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولزومهم له".

وقال حذيفة: "ما نعلم أحداً أقرب سمياً ودلاً وهدياً برسول الله -صلى الله عليه وسلم- من عبد الله بن مسعود، ولقد علم المحظوظون من أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة".

وهو من علماء الصحابة، وفقائهم، توفي في الكوفة، وقيل: في المدينة، سنة اثنتين - أو ثلاث - وثلاثين، وله بضع وستون سنة أ.هـ. (319)

قوله: "فنقول: السلام على الله"، كأنهم رأوا السلام من قبيل الحمد، والشكر، فجوزوا ثبوته لله -تعالى-، وهو تعالى السلام، والسلام منه بدأ وإليه يعود، إذ هو -تعالى- واهب السلام لعباده، الذي به يسلمون من شرور أنفسهم، وشرور أعدائهم من الجن والإنس، وهو -تعالى- السالم من كل ما فيه نقص أو شين، فلا يطلب له السلام، ولهذا قال معلم الهدى -صلى الله عليه وسلم-: "إن الله هو السلام" أي السالم من أن يلحقه حاجة، أو يناله تغير أو آفة، بل هو الكامل في أوصافه العليا، وأسمائه الحسنی، وهو الغني بذاته عن كل ما سواه.

وهذا الجزء من الحديث هو محل الشاهد الذي سيق من أجله؛ لأنه يدل على أن الله -تعالى- سالم من جميع العيوب والنواقص التي تلحق الخلق، فإذا سمى نفسه باسم قد يتسمى به بعض خلقه، أو وصف نفسه بصفة قد يتصف بها بعض خلقه، فالمعاني التي يدل عليها اسمه أو صفته تخصه -تعالى- لا يشاركه فيها المخلوق.

ص 116

(319) "الرياض المستطابة" ملخصاً، وانظر: "الإصابة" (4/233)، و"تهذيب التهذيب" (6/27)، و"سير أعلام النبلاء" (1/461).

www.dorar.net الدرر السنية

وكل نقص في المخلوق فهو -تعالى- سالم منه، وممتنزه عنه، كما تقدم، فهو السلام المؤمن.

قوله: "التحيات لله، قال في "اللسان": "التحيات لله" معناه "البقاء لله، والسلامة من الآفات كلها التي تلحق العباد من العناء، وأسباب الفناء"⁽³²⁰⁾. وكذا قال غيره من أهل اللغة.

وجيء بلفظ الجمع ليدل على أن الله -تعالى- يستحق جميع الكمالات، من العظمة، والبقاء، والملك، والسلامة من الآفات والنقص، وغير ذلك.

قال الخطابي: "لم يكن في تحياتهم شيء يصلح به الثناء على الله -تعالى-، فلماذا أبهت ألفاظها، واستعمل منها معنى التعظيم، فقال: "قولوا: التحيات لله" أي: أنواع التعظيم له" اهـ.⁽³²¹⁾

وقوله: "لله" يفيد وجوب الإخلاص في العبادة، أي أن ذلك لا يجوز أن يكون لغير الله منه شيء.

"والصلوات" أي جميع العبادات له استحقاقاً بمقتضى العقل، وبالشرع، وذلك مثل الركوع، والسجود، والقيام، والدعاء، وأنواع العبادة له وحده لا شريك له في ذلك.

"والطيبات" أي الأعمال الطيبات له -تعالى- يتوسل بها إليه، وهو -تعالى- لا يقبل إلا طيباً، "وما طاب من الكلام وحسن أن يثنى به على الله، دون ما لا يليق بصفاته"⁽³²²⁾، والوصف بالطيب يفيد خلوصها من الشرك، وشوائبه، وسلامتها من البدع.

ص 117

"السلام" اسم الله -تعالى- الدال على سلامته من كل نقص وعيب، فيدعى الله -تعالى- به؛ ليسلم من ذكر عليه هذا الاسم الشريف، من المكاره والمخاوف.

"عليك أيها النبي" أمرهم أن يفردوه بالسلام، ويقدموه على أنفسهم، لوجوب حقه عليهم، ووجوب محبته التي يجب أن تكون مقدمة على النفس، وما دونها.

والأحاديث متقفة على لفظ الخطاب، وذكر حرف النداء "عليك أيها النبي" وقد عدل بعض الصحابة بعد وفاته -صلى الله عليه وسلم- إلى لفظ

⁽³²⁰⁾ "لسان العرب" (1/775) المرتب.

⁽³²¹⁾ "فتح الباري" (2/313) ولفظ الخطابي لما ذكر ألفاظ تحياتهم لمعظمهم قال: "وهذه الألفاظ ونحوها مما يتحيا به الناس فيما بينهم لا يصلح شيء منها للثناء على الله -عز وجل-، فتركت أعيان تلك الألفاظ، واستعمل منها معنى التعظيم، فقيل: قولوا: التحيات لله، أي الثناء على الله والتحميد وأنواع التعظيم له كما يستحقه ويجب له".
"أعلام الحديث" (2/545).

⁽³²²⁾ المصدر نفسه.

www.dorar.net الدرر السنية

خطاب الغائب فقالوا: "السلام على النبي" كما ذكره البخاري في الاستئذان⁽³²³⁾، وأبو عوانة في مسنده⁽³²⁴⁾، وغيرهما.

وقال عبدالرزاق: "عن ابن جريج، عن عطاء: أن أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- كانوا يسلمون والنبي -صلى الله عليه وسلم- حي: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فلما مات قالوا: السلام على النبي ورحمة الله وبركاته"⁽³²⁵⁾.

وبهذا السند أيضاً: "سمعت ابن عباس، وابن الزبير، يقولان في التشهد في الصلاة: التحيات المباركات لله، الصلوات الطيبات لله، السلام على النبي ورحمة الله وبركاته"⁽³²⁶⁾.

و الأولى: اتباع لفظ الحديث كما عليه الجمهور من الصحابة، ومن بعدهم من أهل العلم، وكما أنه لا فرق بين الحاضر معه في وقت حياته، وبين من كان غائباً، فكذلك بعد وفاته.

والنداء لطلب استحضر المنادي في القلب، فيخاطبه كأنه شاهد في قلبه، ومثل هذا معروف في كلام العرب، وأشعارهم، يخاطب أحدهم من يتصوره في نفسه، وإن لم يكن في الخارج من يسمع خطابه، قال حسان بن ثابت- رضي الله عنه- في رثائه لرسول الله- صلى الله عليه وسلم:-

ص 118

ما بال عينك لا تنام كأنها	كجئت مآقيها بكحل
جزعاً على المهدي أصبح	يا خير من وطيء الحصى
وجهي يقيق لهفي ليتني	غبيت قبلك في بقيع
أقيم بعدك بالمدينة بينهم	الأسود ⁽³²⁷⁾

وقال امرؤ القيس:

يا أيها الساعي ليدرك	قـــتيلاً ⁽³²⁸⁾
----------------------	--

وقالت الخنساء في أخيها صخر:

ألا يا صخر إن أبكيت عين	لقد أضحكنتي دهرًا طويلًا
بكيتك في نساء معولات	وكنت أحق من أبدي
دفعت بك الجليل وأنت	فمن ذا يدفع الخطب

⁽³²³⁾ انظر: "الفتح" (11/56).

⁽³²⁴⁾ انظر: "مسند أبي عوانة" (ص 229).

⁽³²⁵⁾ انظر: "المصنف" (2/204).

⁽³²⁶⁾ المصدر نفسه، (ص 203).

⁽³²⁷⁾ انظر: "ديوان حسان" (ص 97).

⁽³²⁸⁾ انظر: "ديوان امرؤ القيس" (ص 178).

وهذا كثير جداً، ولا يحتاج إلى ذكر الشواهد عليه؛ لشهرته، وبهذا وأمثاله يتبين ضلال المغرورين الذين يستغيثون بالأنبياء، والأولياء، ويتعلقون بشبه واهية، مثل استدلالهم بلفظ النداء، والخطاب المذكور في هذا الحديث، على حضور النبي -صلى الله عليه وسلم- عند كل من يناديه، ويخاطبه؛ ولذلك جوزوا التوجه إليه، ومناداته، في كل ملمة، فضلوا بذلك وأضلوا كثيراً.

مع أن هذه الصيغة هي التي كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقولها في تشهده والأمة تبع له، تقول مثل ما كان يقول، كما في شرح الأثر للطحاوي بسنده إلى عبدالله بن الزبير، قال: "إن تشهد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذي كان يتشهد به: بسم الله، وبالله، خير الأسماء، التحيات، الطيبات، الصلوات لله، أشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالحق بشيراً، ونذيراً، وأن

ص 119

الساعة آتية لا ريب فيها، السلام عليك أيها النبي، ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، اللهم اغفر لي واهدني " اهـ.⁽³³⁰⁾ وهو أيضاً عند البزار⁽³³¹⁾.

قال الحافظ: " فإن قيل: لم عدل عن الوصف بالرسالة إلى الوصف بالنبوة، مع أن الوصف بالرسالة أعم في حق البشر؟ أجاب بعضهم: بأن الحكمة فيه أن يجمع له الوصفين؛ لأنه وصفه بالرسالة في آخر التشهد، وإن كانت الرسالة تستلزم النبوة، لكن الجمع بينهما أبلغ"⁽³³²⁾، ولأنها وجدت في الخارج مقدمة على الرسالة في الوحي كما في قوله -تعالى-: { أَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ }⁽³³³⁾.

ص 120

قال: "باب قول الله -تعالى-: { مَلِكِ النَّاسِ } فيه ابن عمر عن النبي -صلى الله عليه وسلم-".

الملك هو: المتصرف بالأشياء حسب إرادته، ومشئته، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه.

وخص الناس؛ لأنهم الذين يملكون بعض الأشياء، وفيهم ملوك فهو -تعالى- ملك من يملك، وملك الملوك، فدخل غيرهم في المعنى، وملكه -تعالى- - دائم لا يزول.

⁽³²⁹⁾ انظر: "ديوان الخنساء" (ص 120)

⁽³³⁰⁾ "شرح معاني الآثار" (1/265).

⁽³³¹⁾ انظر: "كشف الأستار" (1/272).

⁽³³²⁾ انظر: "الفتح" (2/314).

⁽³³³⁾ الآية 1 من سورة العلق.

قال الطبري: أخبر أنه ملك الناس "وهو ملك جميع الخلق، إنسهم وجنهم وغير ذلك، إعلماً منه بذلك من كان يعظم الناس تعظيم المؤمنين ربهم، أنه ملك من يعظمه، وأن ذلك في ملكه وسلطانه، تجري عليه قدرته، وأنه أولى بالتعظيم، وأحق بالتعبد له ممن يعظمه، وتعبد له من الناس" اهـ. (334)

قال الراغب: "الملك هو: المتصرف بالأمر والنهي" (335).
وقال الزجاج: "قال أصحاب المعاني: الملك: النافذ الأمر في ملكه، إذ ليس كل مالك ينفذ أمره وتصرفه فيما يملكه، فالملك أعم من المالك، والله -تعالى- مالك المالين كلهم، إنما استفادوا التصرف في أملاكهم من جهته -تعالى-" (336).

وقال الطبري: "ولا خلاف بين جميع أهل المعرفة بلغات العرب أن الملك من الملك مشتق؛ وأن المالك من الملك" (337) مأخوذ، فتأويل قراءة من قرأ "مالك يوم الدين" أن لله الملك يوم الدين خالصاً؛ دون جميع خلقه الذين كانوا قبل ذلك في الدنيا ملوكاً جبابرة، ينازعونه الملك، ويدافعونه الانفراد بالكبرياء والعظمة والسلطان والجبرية، فأيقنوا بقاء الله يوم الدين أنهم الصغرة الأذلة، وأن له -دونهم ودون غيرهم- الملك والكبرياء، والعزة والبهاء، كما قال -جل ذكره-

ص 121

وتقدست أسماؤه -: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنَ الْمُلْكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} (338)، فأخبر -تعالى ذكره- أنه المنفرد يومئذ بالملك، دون ملوك الدنيا، الذين صاروا يوم الدين من ملكهم إلى ذلة وصغار، ومن دنياهم في معادهم إلى خسار" (339).
قوله: "فيه ابن عمر" أي يدخل في هذا الباب حديث ابن عمر، وهو كحديث أبي هريرة المذكور في هذا الباب سواء، وسيأتي إن شاء الله -تعالى-.

ص 122

12- قال: "حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، عن سعيد- هو ابن المسيب- عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: "يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟".

(334) "تفسير الطبري" (30/354).

(335) "المفردات" (ص 472).

(336) "تفسير الأسماء الحسنى" (ص 30).

(337) الأول بضم اليم والثاني بكسرها.

(338) الآية 16 من سورة غافر.

(339) "تفسير الطبري" (148-1/149).

أبو هريرة عرف بكنيته، واختلف في اسمه واسم أبيه اختلافاً كثيراً، وصح البخاري والنووي وغيرهما من الحفاظ أن اسمه عبد الرحمن بن صخر.

قدم على النبي -صلى الله عليه وسلم- مسلماً وهو يقسم غنائم خيبر، ثم لازم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حضراً وسفراً، فلم يشغله عن ملازمته أهل ولا مال.

وهو أحفظ الصحابة، بل أحفظ الأمة، ولهذا صار هدفاً لأهل الإلحاد بسبب كثرة ما يغضبهم من مروياته.

قال الشافعي: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث دهرًا. (340)

جاء في "صحيح مسلم" في قصة إسلام أمه، أنه قال: "قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يحبني الله أنا وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحبهم إلينا؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: اللهم حب عبدك هذا وأممه إلى عبادك المؤمنين، وحب إليهما المؤمنين".

قال أبو هريرة: "فما خلق الله مؤمناً يسمع بي، ولا يراني، إلا أحنيني" (341).

ولهذا صار حبه علامة الإيمان، وبغضه علامة النفاق والكفر.

توفي -رضي الله عنه- في المدينة، وقيل: بالعقيق، سنة سبع -أو تسع- وخمسين عن ثمان وسبعين سنة. (342)

قوله: "يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه"، القبض هو: أخذ الشيء باليد وجمعه، والطي هو ملاقة الشيء بعضه على بعض، وجمعه -ولفه- وهو قريب من القبض، وهذا من صفات الله -تعالى- الفعلية -التي تتعلق

ص 123

بمشيئته وإرادته، وهي ثابتة بآيات كثيرة وأحاديث صحيحة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وهي مما يجب الإيمان به؛ لأن ذلك داخل في الإيمان بالله -تعالى-، ويحرم تأويلها المخرج لمعانيها عن ظاهرها، وقد دل على ثبوتها لله -تعالى- العقل أيضاً، فإنه لا يمكن لمن نفاها إثبات أن الله هو الخالق لهذا الكون المشاهد، لأن الفعل لا بد له من فاعل، والفاعل لا بد له من فعل، وليس هناك فعل معقول إلا ما قام بالفاعل، سواءً كان لازماً كالنزول والمجيء، أو متعدياً كالقبض والطي، فحدث ما يحدثه -تعالى- من المخلوقات تابع لما يفعله من أفعاله الاختيارية القائمة به -تعالى-.

(340) انظر: "تهذيب الأسماء واللغات" (1/270).

(341) "صحيح مسلم" (4/1939).

(342) انظر: "الإصابة" (7/425)، "سير أعلام النبلاء" (2/578)، "الاستيعاب" (4/1768)، "أسد الغابة" (6/318) وغيرها.

وهو -تعالى- حي قيوم، فعال لما يريد، فمن أنكر قيام الأفعال الاختيارية به - تعالى-⁽³⁴³⁾ فإن معنى ذلك أنه ينكر خلقه لهذا العالم المشاهد، وغير المشاهد، وينكر قوله: إنه على كل شيء قدير، فالعقل دل على ما جاء به الشرع.⁽³⁴⁴⁾

وما صرح به في هذا الحديث من القبض والطي، قد جاء صريحاً أيضاً في كتاب الله -تعالى-، كما قال -تعالى-: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} ⁽³⁴⁵⁾

والأحاديث والآثار عن السلف في صريح الآية، والحديث المذكور في الباب، كثيرة وظاهرة جلية، لا تحتمل تأويلاً ولا تحتاج إلى تفسير، ولهذا صار تأويلها تحريفاً وإلحاداً فيها، وسيأتي - إن شاء الله تعالى - ذكر ما تيسر من ذلك في باب قوله - تعالى - : {لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}.

وقوله: " ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ " أي: أنه -تعالى- ينفرد بالملك، فهو الملك حقاً الذي لا منازع له، ولا معاون، ولا ظهير، ولا شريك، وفي ذلك اليوم، عندما يقبض الأرض بيده، ويطوي السماوات بيمينه، ويصبح كل شيء في قبضته، ينادي الذين كانوا ينازعونه في الدنيا ملكه، ويتعدون على سلطانه، من المتكبرين، والمتجبرين، من ملوك الدنيا، وقد انفرد مالك الملك الواحد القهار، ذي

ص 124

السلطان - وهو منفرد به في كل آن، غير أنه في ذلك اليوم ينكشف جلياً - فيناديهم بما يتضمن توبيخهم وتهديدهم: أين ملوك الدنيا؟ فهل يستطيعون منعاً أو رداً؟ وهل لديهم قوة أو حيلة أو فدى؟ لقد ذهب منهم كل شيء، وبقيت التبعات والذل والحسرات.

قال بعض شراح البخاري: " قوله: {مَلِكِ النَّاسِ} داخل في معنى التحيات لله، أي: الملك لله، وكأنه -صلى الله عليه وسلم- أمرهم بأن يقولوا التحيات، امثالاً لأمر {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ {1} مَلِكِ النَّاسِ} ".

ثم قال: " وفي الحديث إثبات اليمين صفة لله - تعالى -، من صفات الذات، وليست جارحة خلافاً للمجسمة "⁽³⁴⁶⁾

قلت: قوله: " وليست جارحة " من كلام أهل البدع، الذين عدلوا عما جاء في الكتاب والسنة من الألفاظ إلى ما ابتدعوه من الألفاظ الموهمة للنقص

⁽³⁴³⁾ قلنا : الاختيارية ؛ لأنها تقع باختياره -تعالى- وإرادته ومشئته .

⁽³⁴⁴⁾ أنصح القارئ بالرجوع في هذه المسألة العظيمة : إلى كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، كدرء تعارض العقل والنقل والرسالة الكمالية ، وغيرهما من كتبه .

⁽³⁴⁵⁾ الآية 67 من سورة الزمر .

⁽³⁴⁶⁾ "فتح الباري" (13/368).

-تعالى الله-، توهماً منهم أن تلك الألفاظ الواردة في كتاب الله، وسنة رسوله، يتضمن ظاهرها التشبيه لصفات الخلق، وهذا من ظن السوء بالله وبكتابه وبرسوله، الذي أرداهم فضلوا سواء السبيل، وأضلوا كثيراً من عباد الله.

وقوله: "خلفاً للمجسمة" يقال له: من هم المجسمة الذين تقصدهم؟ وهل تستطيع أن تعين طائفة تؤمن بكتاب الله وسنة رسوله تقول: إن يمين الله جارحة؟ أو أن الله جسم؟⁽³⁴⁷⁾ فهؤلاء لا وجود لهم، ولكن مراده: الذين آمنوا بمثل هذا النص على ظاهره، وقالوا: إن لله يدين حقيقتين بدون تأويل، كما هو الواجب على المسلم؛ لأنه صريح النصوص، وأيقنوا أن تأويل اليد واليمين، ونحوها من صفات الله، بالقوة، أو القدرة، أو النعمة، أو ما أشبه ذلك، تحريف كتحريف اليهود الذين حرفوا الكلم عن مواضعه.

ص 125

فهذا الشارح ومن على نهجه إلى اليوم يسمون هؤلاء مجسمة، ظناً منهم أن من أثبت هذه الصفات على ظاهرها، لزمه أن يكون مجسماً لربه، ومشبهاً له بأجسام الخلق، تعالى الله أن يكون له مثل أو شبيه.

قال شيخ الإسلام: "وليس هناك من أطلق لفظ الجسم، لكن نفاة الصفات يسمون كل من أثبتها مجسماً، بطريق اللزوم، إذ كانوا يقولون: إن الصفات لا تقوم إلا بالجسم، وذلك أنهم اصطالحوا في معنى الجسم على غير المعنى المعروف في اللغة، فإن الجسم في اللغة هو البدن، وهم يسمون كل ما يشار إليه جسماً، فيلزم على قولهم أن كل ما جاء به الكتاب والسنة وما فطر الله عليه عباده، وما {عليه} سلف الأمة، وأئمتها، تجسماً، فهم يطلقون لفظ المجسمة والمشبهة، على أتباع السلف"⁽³⁴⁸⁾.

وقال: "لفظ الجسم لم يتكلم به أحد من الأئمة والسلف، في حق الله - تعالى - لا نفيًا ولا إثباتًا، ولا ذموا أحداً ولا مدحوه بهذا الاسم، ولا ذموا مذهباً ولا مدحوه بهذا الاسم، وإنما تواتر عنهم ذم الجهمية، الذين ينفون الصفات، وذموا طوائف منهم، مثل المشبهة، وبينوا مرادهم بالمشبهة"⁽³⁴⁹⁾.

قال الحافظ: "الذي يظهر لي أنه أشار {بهذه الترجمة} إلى ما قاله شيخه نعيم بن حماد: "يقال للجهمية: أخبرونا عن قول الله -تعالى- بعد فناء خلقه، {لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} فلا يجيبه أحد، فيرد على نفسه:

⁽³⁴⁷⁾ الذين نسبوا إلى التجسيم وذكرهم أصحاب المقالات بأسمائهم: هشام بن الحكم، وهشام ابن سالم الجواليقي، ومقاتل بن سليمان، وداود الجواربي، وكلهم رافضة، ما عدا مقاتل بن سليمان فإنه لم يثبت أنه قال بالتجسيم، وليس هو من الرافضة.

⁽³⁴⁸⁾ "بيان تلبيس الجهمية" (1/626).

⁽³⁴⁹⁾ نفس المصدر (1/47)، ومراد السلف بالمشبهة: الذين يمثلون صفاته تعالى بصفات خلقه، نحو اليد والوجه، فيجعلون يده تعالى كيد المخلوق، ووجهه كوجه المخلوق، تعالى الله عن ذلك.

{لِلَّهِ الْوَّاحِدِ الْقَهَّارِ} وذلك بعد انقطاع ألفاظ خلقه بموتهم، أفهذا مخلوق؟⁽³⁵⁰⁾

قلت: يظهر لي أن مراده بهذا الباب كالباب الذي قبله، أن هذا الاسم الكريم (الملك) من أسماء الله الحسنى، وقد أطلق على بعض خلقه، ولم يكن في ذلك ص 126

تشبيهه، إذ المعنى الذي يختص به الله -تعالى- لا يشاركه فيه أحد من خلقه، فهو مالك الملك، وله الملك التام المطلق، وهو الذي يهب للمخلوق الملك، مع أن ملك المخلوق ناقص يناسب نقصه، قال -تعالى-: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} ⁽³⁵¹⁾.

وأما التوفيق بين الحديث، والترجمة فظاهر، وهو أن الناس الذين يوجد منهم الملوك والجبابة، والذين يذل لهم ويخضع بعض العباد، وقد يصرفون لهم ما هو خالص حق الله من العبادة، هؤلاء ملك له، تحت قهره، أخذ بنواصيرهم، يتصرف فيهم كيف يشاء، ويظهر ذلك جلياً لكل أحد، يوم يقبض الله الأرض ويطوي السماوات بيمينه، ويقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ فيعرف قدرهم وقدر ملكهم الذي أورثهم الذل والصغار، والله أعلم.

⁽³⁵⁰⁾ () "الفتح" (13/368).
⁽³⁵¹⁾ () الآية 26 من سورة آل عمران .

قَالَ: " باب قول الله -تعالى-: { وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }⁽³⁵²⁾ ، { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ }⁽³⁵³⁾ ، { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ }⁽³⁵⁴⁾ ، ومن حلف بعزة الله، وصفاته .

{العزیز} هو الذي له العزة التامة، والقوة الكاملة، فلا يعجزه شيء، القاهر لكل شيء فلا يمتنع من قوته شيء، المنيع الذي لا ينال ولا يغالب. "فالعزة تتضمن القوة، ولله القوة جميعاً، يقال: عزيز - بفتح العين- إذا اشتد وقوى، ومنه الأرض العزاز - الصلبة الشديدة - ويعز يعز - بكسر العين- إذا امتنع ممن يرومه، ويعز يعز - بضم العين - إذا غلب وقهر. فأعطوا أقوى الحركات - وهي الضمة- لأقوى المعاني، وهو الغلبة والقهر للغير، وأضعفها - وهي الفتحة - لأضعف هذه المعاني، وهو كون الشيء في نفسه صلباً، والحركة المتوسطة - وهي الكسرة - للمعنى المتوسط، وهو القوي الممتنع عن غيره، ولا يلزم منه أن يقهر غيره، ويغلبه. والعز ضد المذل، والمذل أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة، ولهذا يوصف به المؤمن، ولا يكون ذماً له، بخلاف الكبير. قال رجل للحسن البصري: إنك متكبر، فقال: " لست بمتكبر، ولكني عزيز".

وقال تعالى: { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ }⁽³⁵⁵⁾ .
وقال ابن مسعود: " ما زلنا أعزة، منذ أسلم عمر"⁽³⁵⁶⁾ .

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- " اللهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين، عمر بن الخطاب، أو أبي جهل بن هشام"⁽³⁵⁷⁾ .
وفي بعض الآثار: " إن الناس يطلبون العزة في أبواب الملوك، ولا يجدونها إلا في طاعة الله - عز وجل - ".
وفي الحديث: " اللهم أعزنا بطاعتك، ولا تذلنا بمعصيتك".
وقال بعضهم: " من أراد عزاً بلا سلطان، وكثرة بلا عشيرة، وغنى بلا مال، فلينتقل من ذل المعصية إلى عز الطاعة".

⁽³⁵²⁾ الآية 4 من سورة إبراهيم ، و الآية 60 من سورة النحل ، و الآية 26 ، 42 من سورة العنكبوت أيضاً ، و الآية 27 من سورة الروم ، و الآية 9 من سورة لقمان ، و الآية الثانية من سورة فاطر ، و الآية الأولى من سورة الحديد ، و الآية الأولى من سورة الحشر ، و الأخيرة منها ، و الآية الأولى من سورة الصف ، و الآية الثالثة من سورة الجمعة .

⁽³⁵³⁾ الآية 180 من سورة الصافات .

⁽³⁵⁴⁾ الآية 8 من سورة المنافقون .

⁽³⁵⁵⁾ الآية 8 من سورة المنافقون .

⁽³⁵⁶⁾ رواه البخاري وغيره ، انظر: "الفتح" (7/41).

⁽³⁵⁷⁾ قال الهيثمي: رواه الطبراني في "الكبير" و "الأوسط" ، انظر: "مجمع الزوائد" (9/61).

فالعزة من جنس القوة" اهـ⁽³⁵⁸⁾.

قال الحافظ: "العزير الذي يقهر ولا يقهر، فإن العزة التي لله -تعالى- هي الدائمة الباقية وهي العزة الحقيقية الممدوحة، وقد تستعار العزة للحمية والأنفة، فيوصف بها الكافر والفاسيق، وهي صفة مذمومة، ومنه قوله -تعالى-: {أَخَذْتَهُ الْعِزَّةَ بِالْإِثْمِ} ⁽³⁵⁹⁾، وأما قوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا} ⁽³⁶⁰⁾، فمعناه: من كان يريد أن يعز، فليكتسب العزة من الله، فإنها لا تنال إلا بطاعته، ومن ثم أثبتها لرسوله وللمؤمنين، فقال -تعالى-: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ} ⁽³⁶¹⁾، وقد ترد العزة بمعنى الصعوبة، كقوله -تعالى-: {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ} ⁽³⁶²⁾، وبمعنى الغلبة ومنه {وَعَزَّيْنِي فِي الْخِطَابِ} ⁽³⁶³⁾، وبمعنى القلة: كقولهم: شاة عزوز، إذا قل لبنها، وبمعنى الامتناع، ومنه قولهم: أرض عزاز، بفتح أوله مخففا" اهـ⁽³⁶⁴⁾.

ص 129

{الحكيم} هو الذي يضع الأشياء مواضعها التي يحسن أن توضع فيها، ولا يدخل تدبيره خليل ولا زلل، وهذا من أسمائه -تعالى- الحسنى التي كثر ذكرها، في القرآن، وما جاء عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو -تعالى- موصوف بالحكمة، وقد دل علي ذلك شرعه -تعالى- وخلقه، فمن الضلال إنكار ذلك، وكفى بالمرء ضلالاً أن ينفي عن الله -تعالى- ما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله.

{سُبْحَانَ رَبِّكَ} " أصل التسييح عند العرب: التنزيه لله عن إضافة ما ليس من صفاته إليه، والتبري من ذلك، كما قال أعشى بني ثعلبة:
أقول لما جاءني فخره سبحان من علقمة الفاخر
أي: سبحان الله من فخر علقمة، أي تنزيها لله مما أتى علقمة من الافتخار على وجه التكبر منه لذلك" ⁽³⁶⁵⁾.

وقال أيضاً: "وسبحان: اسم مصدر، لا تصرف له، ومعناه: نسبحك" ⁽³⁶⁶⁾.
وفي "تاج العروس": "وسبحانه: تنزيها لله عن كل ما لا ينبغي أن يوصف به، قال الزجاج: سبحان في اللغة: تنزيها لله - عز وجل - عن السوء" ⁽³⁶⁷⁾.

⁽³⁵⁸⁾ ("طريق الهجرتين" (ص 109)

⁽³⁵⁹⁾ الآية 206 من سورة البقرة .

⁽³⁶⁰⁾ الآية 10 من سورة فاطر .

⁽³⁶¹⁾ الآية 8 من سورة المنافقين .

⁽³⁶²⁾ الآية 128 من سورة التوبة .

⁽³⁶³⁾ الآية 23 من سورة ص .

⁽³⁶⁴⁾ ("الفتح" (13/369) وذكر أن هذا كلام الراغب ، ولكن الحافظ تصرف فيه وغير وزاد ونقص، ولهذا أضفته إليه .

⁽³⁶⁵⁾ ابن جرير الطبري في "تفسيره" (1/211).

⁽³⁶⁶⁾ المصدر نفسه (1/221).

⁽³⁶⁷⁾ "تاج العروس" (2/156).

فالتسبيح: تنزيه الله - تعالى - عما لا يليق بعظمته، مأخوذ من السبح، وهو الإبعاد والسرعة في السير، يقال: فرس سبوح، إذا كانت تسرع في السبح الذي هو السير والجري، ومنه قوله -تعالى-: {وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا} فسرت بالخيل، وبالسفن، وبالنجوم، وكلها تسبح وتبعد في سبحها. وقوله {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ} أي ذي العزة وصاحبها، فرب هنا بمعنى ذي وصاحب، والعزة صفته، فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، وأخذ اسمه تعالى "العزیز" منها.

وقوله: {عَمَّا يَصِفُونَ} أي: تنزيها وتقديساً لذي العزة التي لا ترام، عن الذي يصفه به المشركون، من أن له صاحبة أو وليداً، أو شريكاً، أو ولياً من الذل، أو أن أحداً يشفع عنده بدون إذنه، أو أن أحداً يتصرف في ملكه بدون إرادته ومشيئته.

ص 130

وتنزيهاً لذي العزة التي غلب بها كل شيء عما يقوله المعطلون لصفاته، حيث أنكروها أو أولوها تأويلاً يؤول إلى إنكارها، وتنزيهاً له -تعالى- عما يقوله المحرفون الملحدون في صفاته الظانون بالله ظن السوء، حيث توهموا أن اتصافه -تعالى- بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله -صلى الله عليه وسلم- يقتضي التشبيه، فحرفوا صفاته عما أراده بناء على أوهامهم الباطلة.

وقوله: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} أي: لله القوة والغلبة والقهر. والعزة من صفات ذاته -تعالى- التي لا تنفك عنه، بعزته وقهر بها كل شيء، وكل عزة حصلت لخلقه فهي منه، وكل من كان إليه أقرب وله أطوع كانت عزته أتم وأكمل من غيره، ولهذا قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ} وسبب نزول هذه الآية الكريمة قول رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول الذي ذكره الله عنه: {لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَهَا الْأَذْلَ} (368)، كما ثبت في "الصحيحين" وغيرهما (369)، يقصد بالأعز: نفسه وذويه، وبالأذل: رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأصحابه.

وقوله: "ومن حلف بعزة الله وصفاته". وصفاته: من عطف العام على الخاص، ومراده: أنه قد ثبتت النصوص بالحلف بعزة الله وبصفاته، نحو كلماته، وقد تقرر في دين الإسلام، أنه لا يحلف بغير الله -تعالى- وأن الحلف بغيره شرك كما صح عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "من حلف بغير الله، فقد كفر أو أشرك" (370) وعند أبي داود، "من حلف بغير الله فقد أشرك" (371).

(368) الآية 8 من سورة المنافقون.

(369) انظر: البخاري مع "الفتح" (8/644)، و"مسلم" (4/1998).

(370) رواه الترمذي وقال: حسن، انظر: الترمذي مع "تحفة الأحوذى" (2/371).

(371) "السنن" (3/570)، ورواه أحمد في "مسنده" (2/34).

وعنده أيضاً عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم -: "لا تحلفوا بأبائكم ولا بأمهاتكم، ولا بالأنداد، ولا تحلفوا إلا بالله، ولا تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون" (372).

ص 131

وفي "الصحيحين" عن عبد الله بن عمر، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - أدرك عمر بن الخطاب وهو يسير في ركب، يحلف بأبيه، فقال: "ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم، من كان حالفاً بالله أو ليصمت" (373). وبهذا يتبين أن الحلف بقدره الله وعزته وسائر صفاته، أنه كالحلف به -تعالى-، وأن صفاته ليست مخلوقة؛ لأنه لا يجوز الحلف بالمخلوق، ولا منفصلة عنه -تعالى-.

وبهذا يظهر مراد البخاري -رحمه الله- بهذا الباب وهو إثبات الصفات لله -تعالى-، والرد على من أنكرها كالمعتزلة، ومن تابعهم، وقد تقدم الكلام في ذلك.

قال الحافظ: "والذي يظهر أن مراد البخاري بالترجمة: إثبات العزة لله، راداً على من قال: إنه عزيز بلا عزة، كما قالوا: العليم بلا علم" (374). قلت: لا يقصد إثبات العزة بخصوصها، بل مع سائر الصفات كما هو ظاهر.

قوله: "وقال أنس: عن النبي -صلى الله عليه وسلم -: "تقول جهنم: قط قط وعزتك".

وقال أبو هريرة: عن النبي -صلى الله عليه وسلم -: "يبقى رجل بين الجنة والنار، وهو آخر أهل النار دخولا الجنة، فيقول: رب أصرف وجهي عن النار، لا أسألك غيرها".

قال أبو سعيد: إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم - قال: "قال الله - عز وجل -: "لك ذلك وعشرة أمثاله".

وقال أيوب: "وعزتك، لا غنى بي عن بركتك".

هذه المعلقات قد رواها موصولة، فحديث أنس سيذكره في هذا الباب موصولاً، وحديث أبي هريرة يأتي كذلك، وقد تقدم أيضاً في الرقاق، وقول أيوب عليه السلام قد رواه في الوضوء، وفي أحاديث الأنبياء.

والمراد من هذه الأحاديث هنا ظاهر، إذ فيها الحلف بعزة الله -تعالى- ولا يحلف إلا بالله أو بصفاته، ولكن حديث أبي هريرة لم يذكر محل الشاهد منه، وإنما أشار إليه، وهو قول الرجل يخاطب رب العالمين: "وعزتك، لا أسألك غيرها".

(372) "السنن" (3/569).

(373) انظر: "البخاري مع الفتح" (11/530)، و"مسلم" (4/1239).

(374) "الفتح" (13/370).

13- قال: "حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث، حدثنا حسين المعلم، حدثني عبد الله بن بريدة، عن يحيى بن يعمر، عن ابن عباس، أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يقول: "أعوذ بعزتك، الذي لا إله إلا أنت، الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون".

قوله: "كان يقول" يدل على أنه سمع ذلك من النبي -صلى الله عليه وسلم - مراراً، لما يفهم من لفظة "كان".

وقوله: "أعوذ بعزتك" أعوذ: هو الالتجاء والاعتصام، وحقيقته: الهرب من المخوف إلى المجير العاصم، فالعائد بالله -تعالى- قد هرب مما يخافه ويؤذيه، أو يهلكه، إلى ربه ومالكة العزيز الذي لا يغالب، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويجير من احتوى به.

فالاستعاذة هي: الالتجاء إلى الله، والاحتماء من شر كل ذي شر، والعود يكون لدفع الشر، واللوذ يكون لطلب الخير، كما قال بعض الشعراء:

يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به فيما أحاذره

وعزة الله -تعالى- صفته، كما تقدم، فالنبي -صلى الله عليه وسلم وهو أعلم الخلق بالله وأتقاهم له -يتعوذ بصفاته تعالى؛ لأن ذلك من عبادة الله، بل هو من أفضلها، امثالاً لقوله -تعالى-: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا}. ومثل الاستعاذة بصفات الله -تعالى- الحلف بها، كما مر قريباً.

وقوله: "الذي لا إله إلا أنت" أي أنت الإله الحق، الذي تجب عبادته على عباده، وكل تأله لغيره فهو ضلال، يوجب الشقاء الأبدي، والخلود في النار، فلذلك لا أتوجه بتألهي إلا إليك يا رب، فلا إله لي غيرك، فبك أعوذ، وإليك ألوذ.

"الذي لا يموت" أي فأنت -يا إلهي- الحي القيوم، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، لا مبدأ لوجودك ولا منتهى لبقائك، وأنت الغني بذاتك عن كل ما سواك، والخلق كلهم فقراء إليك، وكانوا عندما قبل إيجادك إياهم، وهم عرضة للأمراض، والآفات والتغيرات والفناء، وأنت يا رب الباقي وحدك، والخلق كلهم يموتون، فلا رب سواك يتصرف بالخلق كيف يشاء، ويغير ولا يتغير، -جل وعلا-.

قوله: "والجن والإنس يموتون" المقصود بذكر الجن والإنس: جنس الخلق، والمعنى: أن الخلق كلهم يموتون، ولا يبقى إلا الحي القيوم، كما قال -تعالى-:

{ كُلُّ مَنْ عَلَيَّهَا فَإِنَّ {26} وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ { (375)،
وسمي الجن جنًّا لاستتارهم عن أعين الناس، من الاجتنان، كما قال-تعالى:-
{ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ } (376)، وأما الإنس فسموا بذلك لأن
بعضهم يأنس ببعض غالباً، أو أنهم يرون ويأنسون، أي يحس بهم ويشاهدون،
وذكر الجن والإنس لا ينفي عن الملائكة الموت؛ لأن هذا خاص بقصد به الجن
والإنس، أو على ما تقدم ذكر الجنس، والمقصود عموم الخلق. وقد جاء ما
يدل على هلاك عموم الخلق كقوله-تعالى:- { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ }
(377)

وقد قيل: إن الملائكة يدخلون في الجن؛ لاجتنانهم واستتارهم عن أعين
الناس، والله أعلم.

³⁷⁵() الآيتان 26، 27 من سورة الرحمن.
³⁷⁶() الآية 27 من سورة الأعراف.
³⁷⁷() الآية الأخيرة من سورة القصص.

14- قال: "حدثنا ابن أبي الأسود، حدثنا حرمي، حدثنا شعبة، عن قتادة عن أنس، عن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال: "يلقى في النار... ح" وقال لي خليفة: حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا سعيد، عن قتادة، عن أنس، ح.

وعن معتمر، سمعت أبي، عن قتادة، عن أنس، عن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال: لا يزال يلقي فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع فيها رب العالمين قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، ثم تقول: قد قد، بعزتك وكرمك، ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ الله لها خلقاً، فيسكنهم فضل الجنة".

أنس هو ابن مالك بن النضير بن ضمضم، الأنصاري، الخزرجي، خادم رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وأحد المكثرين من الرواية عنه؛ قدم النبي -صلى الله عليه وسلم - المدينة وهو ابن عشر سنين، فأتت به أمه إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وعرضت عليه أن يخدمه، فقبل ذلك النبي -صلى الله عليه وسلم - فلزم النبي في السفر والحضر عشر سنين، ودعا له رسول الله -صلى الله عليه وسلم - بأن يكثر ماله وولده، وأن يدخل الجنة، قال أنس: "قد رأيت أثنين، وأنا أرجو الثالثة".

توفي في البصرة سنة ثلاث وتسعين، وله مائة وثلاث سنوات، وهو آخر من مات في البصرة من الصحابة. (378)

قوله: "لا يزال يلقي فيها" الضمير "فيها" يعود إلى جهنم، والمعنى أنه يستمر إلقاء من يستحق النار فيها، وهي تطلب الزيادة منهم، قال الله تعالى: {يَوْمَ تَقُولُ لِيَجْهَنَّمَ هَلْ امْتَلأتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ} (379).

قال ابن كثير: "يخبر -تعالى- أنه يقول لجهنم: هل امتلأت؟ وذلك أنه وعدّها أن سيملؤها من الجنة والناس أجمعين، فهو -سبحانه- يأمر بمن يأمر به إليها، ويلقى {فيها} وهي تقول: هل من مزيد؟ أي: هل بقي شيء تزيدني؟ هذا هو الظاهر من سياق الآية، وعليه تدل الأحاديث" (380).

يقصد بالأحاديث مثل هذا الحديث، فإن ظاهره أن الاستفهام لطلب الزيادة، وهو الصحيح الذي يدل على ظاهر القرآن، والأحاديث الصحيحة.

قوله: "حتى يضع فيها رب العالمين قدمه"، في رواية: "حتى يضع رب العزة فيها قدمه" وهذه الرواية هي المناسبة لهذا الباب، ولكن البخاري اكتفى بالإشارة إليها على عادته، وفي رواية أبي هريرة: "يقال لجهنم: هل

(378) "الإصابة" (1/127).

(379) الآية 30 من سورة ق.

(380) "تفسير ابن كثير" (7/381).

امتلت؟ وتقول: هل من مزيد؟ فيضع الرب -تبارك وتعالى- قدمه عليها"، وفي رواية: "حتى يضع فيها قدمه فتمتلئ"، وفي أخرى: "حتى يضع رجلاه، فتقول: قط قط" وهذه الروايات كلها في البخاري، واتفق معه مسلم عليها⁽³⁸¹⁾.

وعند الدارقطني في "الصفات": "فأما النار فيلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ -ثلاث مرات- حتى يأتيها -تبارك وتعالى- فيضع قدمه عليها، فتنزوي، وتقول: قدني قدني"⁽³⁸²⁾.

وفي رواية: "لا تزال جهنم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الجبار -تبارك وتعالى- فيها قدمه، فهناك تنزوي"⁽³⁸³⁾. وأخرج حديث أنس هذا أبو نعيم في "المستخرج" بلفظ: "حتى يضع الله فيها قدمه"⁽³⁸⁴⁾.

ففي مجموع هذه الروايات البيان الواضح بأن القدم والرجل-وكلاهما عبارة عن شيء واحد-صفة لله- تعالى- حقيقة على ما يليق بعظمته. كما فيها إبطال تأويل المؤولة، نحو قولهم: "إن القدم: عبارة عن إذلال جهنم إذا بلغت في الطغيان، وقولهم: إن المراد بالقدم: الفرط السابق من المعذبين، أي يضع الله فيها ما قدمه لها من أهل العذاب، وقولهم: المراد بالقدم: قدم بعض المخلوقين، وقولهم: يجوز أن يكون مخلوقاً اسمه القدم، وقولهم: المراد بالقدم: الأخير من أهل النار، وقولهم: إنه اسم مكان عصي الله فيه، فيلقى في النار.

ص 136

وقول الداودي: إن المراد بالقدم: قدم صدق، وهو محمد -صلى الله عليه وسلم- والإشارة بذلك إلى شفاعته، وقال بعضهم: إن المراد بالقدم: قدم إبليس، إلى غير ذلك من السخافات المضحكة، الدالة على ضلال قائلها.

وزعم ابن الجوزي، وابن فورك: أن لفظ الرجل محرف من بعض الرواة عن القدم، وذهب مرة إلى تحريف المسمى بالتأويل، فقال: يحتمل أن يراد بالرجل: الجماعة"⁽³⁸⁵⁾، فهذه التأويلات الباردة يكفي العاقل المنصف مجرد ذكرها عن تكلف ردها بالدليل لظهور بطلانها، فهي في الحقيقة تحريف للكلام الواضح البين، كتحريف اليهود حينما قيل لهم: "ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة" فدخلوا يزحفون على أعجازهم وقالوا: حبة حنطة.

⁽³⁸¹⁾ انظر "مسلم" (2188، 4/2187).

⁽³⁸²⁾ ("الصفات" (ص 14، 17).

⁽³⁸³⁾ ("الصفات" للدارقطني (ص 15).

⁽³⁸⁴⁾ ("الفتح" (13/370).

⁽³⁸⁵⁾ انظر: "الفتح"، فقد ذكر جميع هذه التأويلات، وسكت عليها (8/596).

فبطلان قول هؤلاء المعطلة –الذين جعلوا صفات الله-تعالى- نوعاً من المخلوقات، وحاولوا إبطالها بالتأويلات البعيدة السخيفة-واضح وظاهر، وذلك من وجوه:

"الأول: أن النبي -صلى الله عليه وسلم - قال: حتى يضع، ولم يقل: حتى يلقى {فيها} كما في قوله: "لا يزال يلقى في النار".

الثاني: أن قوله: "قدمه" لا يفهم منه هذا {الذي قالوه} لا حقيقة، ولا مجازاً، كما تدل عليه الإضافة.

الثالث: أن أولئك المؤخرين، إن كانوا من الأصغر المعذبين، فلا وجه لانزوائها واكتفائها بهم، فإن ذلك إنما يكون بأمر عظيم، وإن كانوا من الأكابر المجرمين، فهم في الدرك الأسفل من النار، وفي أول المعذبين، لا في أواخرهم.

الرابع: أن قوله: "فينزوي بعضها إلى بعض" دليل على أنها تنضم على من فيها فتضيق بهم، من دون أن يلقى فيها شيء.

الخامس: أن قوله: "لا يزال يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع فيها قدمه" جعل وضع القدم الغاية التي إليها ينتهي الإلقاء، ويكون عند ذلك الانزواء، فيقتضي أن تكون الغاية أعظم مما قبلها، وليس في قول {هؤلاء} المعطلة معنى للفظ {قدمه} إلا وقد اشترك فيه الأول والآخر، والأول أحق به من الآخر⁽³⁸⁶⁾.

ص 137

يضاف إلى ذلك: أن هذا الكلام الواضح البين الذي إذا سمعه السامع لم يتبادر إلى ذهنه إلا ظاهره اللائق بجلال الله-تعالى-؛ فلو كان ظاهره غير مراد للمتكلم، وأن المراد منه ما ذكره هؤلاء المحرفون، لصار إلى الألباس والتعمية أقرب، ولا يكون المتكلم بذلك قد أدى ما وجب عليه من البلاغ والبيان؛ وهذا من أبطل الباطل.

وقد علم أن المتكلم بهذا الكلام أفصح الناس وأقدرهم على الإيضاح والبيان لما يريد، وهو أيضاً أنصحهم لأمتهم، وأعلمهم بالله وبما يجب له، وما يمتنع عليه، وهو أيضاً أحرصهم على إيصال الخير والنفع إلى الخلق، ودفع الشر عنهم، فيستحيل مع هذه الأمور أن يكون ظاهر كلامه باطلاً يدل على الكفر والتشبيه –كما زعم المعطلة المؤولة {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا} ⁽³⁸⁷⁾، فظهر بذلك بطلان قول المعطلة، والحمد لله رب العالمين.

⁽³⁸⁶⁾ () "مختصر الفتاوى المصرية" (ص 647).

⁽³⁸⁷⁾ () الآية 5 من سورة الكهف.

قال أبو سعيد الدارمي: "وما دعوى المعطل بأن القدم: أهل الشقوة الذين تقدم في علم الله أنهم يلقون في جهنم، وإستدلاله بما روي عن ابن عباس، في قوله-تعالى-: { وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ }⁽³⁸⁸⁾ قال: ما قدموا من أعمالهم.

فيقال: من المشهور عن ابن عباس، أنه قال: "الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله"، وهذا صحيح مشهور عن ابن عباس⁽³⁸⁹⁾، ودعوى المعطل أنها لا تمتلئ حتى يلقى الله فيها الأشقياء، الذين هم قدم الجبار-عند أهل التأويل- دعوى باطلة، وهل استزادت إلا بعد مصير الأشقياء إليها؟ أفيلقيهم فيها ثانية؟ أو أنه -تعالى- حبس عنها الأشقياء، وألقى فيها السعداء، فلما استزادت ألقى فيها أهل الشقوة؟

ص 138

وأما ردهم الحديث بقوله - تعالى: { لَأْمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ }⁽³⁹⁰⁾، قالوا: إن جهنم لا تمتلئ بغير الجن والإنس، ومن زعم غير ذلك فقد كفر.

فيقال: إن هذه الآية لا تخالف قوله: { يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ }⁽³⁹¹⁾، ويصح في الكلام أن يقال للممتلئ: استزاد، كما يمتلئ الرجل من الطعام، والشراب، وهو يقدر أن يستزيد، ويقال: امتلأ المسجد من الناس، وفيه فضل وسعة، وامتلا الوادي ماء، وهو يحتمل أكثر مما فيه، وكما في الحديث: "يخرج المهدي، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت جوراً وظلماً" وفي الأرض سعة لأكثر من ذلك، فكذلك جهنم تمتلئ بما يلقى فيها من الجن والإنس، وتقول هل من مزيد؟ لفضل فيها، غضباً لله-تعالى- على الكفار، حتى يفعل الجبار بها ما أخبر به رسوله، من وضعه قدمه فيها كما يشاء، وكما عنى رسول الله، فحينئذ تقول: حسبي حسبي، ولها خزنة يدخلونها غير معذبين بها، وفيها حيات، وعقارب.

وقال-تعالى-: { عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ }⁽³⁰⁾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا {⁽³⁹²⁾ .
فقوله-تعالى-: { لَأْمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ }⁽³⁹³⁾، لا يخالف هذه الآية، كما أنه لا يخالف قول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: "يضع

⁽³⁸⁸⁾ الآية الثانية من سورة يونس.

⁽³⁸⁹⁾ رواه أبو سعيد الدارمي في "الرد على المريسي" (ص 425)، "مجموع عقائد السلف"، والحاكم في "المستدرک"، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي (2/282)، وابن جرير في "التفسير" (5/398).

⁽³⁹⁰⁾ الآية 119 من سورة هود.

⁽³⁹¹⁾ الآية 30 من سورة ق.

⁽³⁹²⁾ الآيتان 30 و31 من سورة المدثر.

⁽³⁹³⁾ الآية 119 من سورة هود.

الجبار فيها قدمه"، وإذا كانت جهنم لا تضر الخزنة الذين يدخلونها، ويقومون عليها، فكيف يستنكر وضع رب العالمين عليها قدمه؟" (394).

وقد جاءت الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تدل على أن كلامها حقيقة، فلا وجه للعدول عن ذلك، كقوله -صلى الله عليه وسلم-: "تحتاج الجنة والنار، فقالت الجنة: ما لي

ص 139

لا يدخلني إلا الضعفاء؟ وقالت النار: ما لي يدخلني الجبارون، والمتكبرون؟" (395) أخرجاه في "الصحيحين".

وفي "مسند الإمام أحمد" بسند فيه عطية العوفي -وهو ضعيف- عن أبي سعيد عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "يخرج عنق من النار يتكلم يقول: وكلت اليوم بثلاثة، بكل جبار، وبمن جعل مع الله إلهاً آخر، وبمن قتل نفساً بغير نفس، فينطوي عليهم، فيقذفهم في غمرات جهنم" (396).

وفيه أيضاً من طريق ابن لهيعة -وفيه كلام معروف- عن عائشة -رضي الله عنها- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "يخرج عنق من النار، فينطوي عليهم، ويتغيظ عليهم، ويقول ذلك العنق: وكلت بثلاثة، وكلت بمن دعا مع الله إلهاً آخر، ووكلت بمن لا يؤمن بيوم الحساب، ووكلت بكل جبار عنيد، فتنطوي عليهم، وتطرحهم في غمرات جهنم" (397).

وقد ذكر ابن رجب أحاديث بهذا المعنى (398)، وقد صح عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أن حجراً كان يسلم عليه (399)، كما صح أن الصحابة كانوا يسمعون تسبيح الطعام وهم يأكلون، ومن المشهور حين الجذع الذي كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يخطب عليه حين تركه، فكيف يستنكر كلام جهنم؟

قوله: "فينزوي بعضها إلى بعض" أي يلتئم بعضها على بعض، وتتضايق على من فيها، فلا يبقى فيها متسع لغير من فيها.

قوله: "وتقول: قد قد" بفتح القاف، وسكون المدال، وفي رواية: "قط قط" وهو اسم فعل، ومعناه: حسبي وكفاني ما ألقى في، فلا متسع لغيرهم، أي قد امتلئت.

ص 140

(394) رد عثمان بن سعيد على بشر المريسي، ملخصاً بتصرف.

(395) انظر: "البخاري مع الفتح" (13/434)، (8/595)، و"مسلم" (4/2186).

(396) "المسند" (3/40).

(397) "المسند" (6/110).

(398) انظر: "التخويف من النار" (ص 130).

(399) انظر: "فتح الباري" (13/371).

قوله: "بعزتكم وكرمكم" هذا محل الشاهد من الحديث لما ترجم به، وهو قسم من النار بعزة الله وكرمه، أنها قد امتلأت، وأصبحت ليس فيها متسع، وقد تقرر عند المسلمين أن القسم بغير الله لا يجوز.

قوله: "لا يزال يلقي فيها، وتقول" هذا القول من جهنم حقيقة، فالله- تعالى- ينطقها بكلام مسموع منها، كما ينطق-جل وعلا- الجوارح وغيرها، والله على كل شيء قدير، وأمور الآخرة أعظمها على خلاف ما يعرفه الناس في الدنيا، والقسم بأسماء الله وصفاته قسم به-تعالى-والمقصود أن الله تعالى متصف بالصفات، فأراد أن يبين ذلك بما ثبت منها في كتاب الله- تعالى- ومنها العزة، وبالأحاديث التي تبين ذلك وتوضحه، وقد تقدم البحث فيها في الباب الأول.

قال الحافظ: "يؤخذ منه مشروعية الحلف بكرم الله، كما شرع الحلف بعزة الله"⁽⁴⁰⁰⁾.

قوله: "ولا تزال الجنة تفضل، حتى ينشئ الله لها خلقاً، فيسكنهم فضل الجنة".

أي أن أهل الجنة الذين يدخلونها ينتهون، وفيها فضل مساكن لم يصيبها أحد؛ لعظم سعتها، قال الله-تعالى-: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} ⁽⁴⁰¹⁾، وقال-تعالى-: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} ⁽⁴⁰²⁾.

وقد وعد الله -تعالى- الجنة والنار أن يملؤهما من الجنة والناس، ومما يشاء، فأما النار: فإن الله -تعالى- لا يدخل فيها إلا من يستحقها، ولا يظلم أحداً، ولسعتها أيضاً ينتهي أهلها دخولاً فيها مع كثرتهم، وهي تطلب الزيادة، وتسال الله وعده، فعند ذلك يضع عليها -تعالى- قدمه، فتتضايق على أهلها، فينزوي بعضها إلى بعض -أي تجتمع- فتصبح ليس فيها موضع لأحد، فيحصل بذلك ملؤها.

ص 141

وأما الجنة: فإن الله -تعالى- يخلق لها خلقاً جديداً فيسكنهم فضلها، أي المساكن التي فضلت عن دخلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، لا راد لفضله، ولا مانع لعطائه.

⁽⁴⁰⁰⁾ ("الفتح" (13/371)).

⁽⁴⁰¹⁾ (الآية 133 من سورة آل عمران .

⁽⁴⁰²⁾ (الآية 21 من سورة الحديد.

قال: "باب قول الله -تعالى-: { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ } (403)

قال القرطبي: "بالحق-أي بكلمة الحق- يعني: قوله: "كن" (404).
ومثله قال القسطلاني، ثم قال: "وقال ابن عادل في لبابه: قيل: الباء بمعنى اللام، أي إظهاراً للحق؛ لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته، فهو نظير قوله - تعالى -: { مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا } (405).

وقال الخازن: "يعني إظهاراً للحق، فعلى هذا تكون الباء بمعنى اللام، لأنه جعل صنعه دليلاً على وحدانيته، وقيل: خلقها بكمال قدرته، وشمول علمه، وإتقان صنعه، وكل ذلك حق.

وقيل: خلقها بكلامه الحق، وهو قول "كن" وفيه دليل على أن كلام الله - تعالى - ليس بمخلوق؛ لأنه لا يخلق مخلوق بمخلوق" (406).

وقال ابن الجوزي: "فيه أربعة أقوال:
أحدها: خلقهما للحق. والثاني: خلقهما حقاً.
والثالث: خلقهما بكلامه، وهو الحق.
والرابع: خلقهما بالحكمة" (407).

قلت: هذه الأقوال ليس فيها اختلاف، وهي داخلة في معنى الآية، إلا أن الطبري جعل القول الثاني والرابع قولاً واحداً، كما سيأتي، وهو الأظهر.
وقال ابن جرير: "واختلف أهل التأويل في قوله: "بالحق": فقال بعضهم: معنى ذلك: وهو الذي خلق السماوات والأرض حقاً وصواباً، لا باطلاً وخطأً، كما قال تعالى: { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا } (408)، وأدخلت الباء والألف، كما في

قولك: فلان يقول بالحق، يعني أنه يقول الحق، أي يصيب في قوله، فالحق صفة للقول، فخلق السماوات والأرض حكمة من حكم الله -تعالى-، والله موصوف بالحكمة في خلقهما، وخلق ما سواهما من سائر الخلق.
وقال آخرون: معنى ذلك: خلق السماوات والأرض بكلامه، وقوله لهما: {إِنِّي طَوْعًا أَوْ كَرْهًا} (409) فالحق في هذا الموضع معنى به كلامه.

(403) الآية 73 من سورة الأنعام.

(404) "تفسير القرطبي" (6/19).

(405) الآية 191 من سورة آل عمران، "هدى الساري" (10/369).

(406) "تفسير الخازن" (2/147).

(407) "زاد المسير" (3/67).

(408) الآية 27 من سورة ص.

(409) الآية 11 من سورة فصلت.

واستشهد لذلك بقوله: { وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ }⁽⁴¹⁰⁾، فالحق هو قوله وكلامه، فالله -تعالى- خلق الأشياء بكلامه وقوله، فما خلق به الأشياء فهو غيرها، فكلام الله -تعالى- الذي خلق الخلق غير مخلوق⁽⁴¹¹⁾. قلت: وبهذا يظهر مراد البخاري - رحمه الله تعالى - فقول الله -تعالى- حق، وهو صفة له، وما وجد بقوله فهو غير القول، بل هو المفعول المخلوق، فقوله -تعالى- الذي خلق به الأشياء، لا يجوز أن يكون مماثلاً لها، فلا بد من التفريق بين قوله الذي هو صفته، وبين مفعولاته التي وجدت بقوله، كما سيأتي - إن شاء الله تعالى - في باب: ما جاء في تخليق السماوات والأرض وهو -تعالى- خلق السماوات والأرض وغيرهما بقوله لها: كوني، كما قال -تعالى: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ }⁽⁴¹²⁾.

قال الحافظ: " كأنه أشار بهذه الترجمة إلى ما ورد في تفسير هذه الآية، أن معنى قوله: { بالحق } أي بكلمة الحق، وهو قوله: { كن } ويدل عليه ما في أول الحديث، "وقولك الحق" فكأنه أشار إلى أن القول { في الحديث } الكلمة، وهي "كن" والله أعلم"⁽⁴¹³⁾.

ص 144

وقال ابن المرتضى: " هذا إشارة من البخاري إلى مذهب أهل السنة في إثبات الحكمة"⁽⁴¹⁴⁾.

قلت: هذا لا ينافي ما ذكرنا، فيجوز أن يقصد المعنيين، ولكنه في الأول أظهر وأليق بمراد البخاري؛ لأن القول بنفي الحكمة في خلق الله وفعله، ظاهر البطلان.

قال البخاري: " الفعل إنما هو إحداث الشيء، والمفعول هو الحدث؛ لقوله تعالى: { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ }⁽⁴¹⁵⁾.

قلت: يريد بذلك التفريق بين ما هو صفة لله تعالى، وبين ما هو مفعول له مخلوق.

وقال الراغب: " أصل الحق: المطابقة والموافقة، كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على استقامة، والحق يقال على أوجه:

⁽⁴¹⁰⁾ الآية 73 من سورة الأنعام .

⁽⁴¹¹⁾ "تفسير الطبري" (458-11/459) تحقيق: محمود شاكر، ملخصاً.

⁽⁴¹²⁾ الآية 11 من سورة فصلت .

⁽⁴¹³⁾ "الفتح" (13/371).

⁽⁴¹⁴⁾ "إثبات الحق على الخلق" (ص 205).

⁽⁴¹⁵⁾ "خلق أفعال العباد" (ص 210) ضمن "العقائد السلفية" .

الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل في الله -تعالى- هو الحق، قال -تعالى-: {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ} (416)، {فَدَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعُدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ} (417).
 الثاني: يقال لما وجد بمقتضى الحكمة، ولهذا يقال: فعل الله -تعالى- كله حق، قال -تعالى-: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ} (418).
 الثالث: الاعتقاد المطابق لما عليه الشيء في نفسه، كما في الحديث: "ووعدك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق"، قال الله -تعالى-: {هَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ} (419).
 ص 145

الرابع: الفعل والقول الواقع بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، وفي الوقت الذي يجب، قال الله -تعالى-: {كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ} (420).
 قلت: يأتي أيضاً موصوفاً به دين الله وشرعه، وأمره، كما في قوله -تعالى-: {وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلُوبُ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ} (421) أي: وعده أن يبعثكم ويجازيكم. وقال -تعالى-: {وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ} (422)، {بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ} (423)، {وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ} (424).
 قال الحلبي: "الحق" ما لا يسمع إنكاره، ويلزم إثباته والاعتراف به. ووجود الباري -تعالى- أول ما يجب الاعتراف به، ولا يسع جده، إذ لا مثبت تظاهرت عليه الدلائل البينة مثل ما تظاهرت على وجود الباري -جل جلاله- (425).

وقال أيضاً: "الحق في الأسماء الحسنی معناه - كما قال ابن برجان: الواجب الوجود بالبقاء الدائم، الجامع للخير والمجد، والمحامد كلها، والثناء الحسن، والأسماء الحسنی والصفات العليا. ومعنى واجب الوجود: أنه اضطر جميع الموجودات إلى معرفة وجوده، وهو الذي أوجدها، قال -تعالى-: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى

(416) الآية 62 من سورة الأنعام .

(417) الآية 32 من سورة يونس .

(418) الآية 5 من سورة يونس .

(419) الآية 213 من سورة البقرة .

(420) الآية 13 من سورة السجدة ، "المفردات" (ص 125) بتصرف.

(421) الآية 53 من سورة يونس .

(422) الآية 71 من سورة آل عمران .

(423) الآية 147 من سورة البقرة ، والآية 60 من سورة آل عمران .

(424) الآية 149 من سورة البقرة .

(425) "المنهاج" (1/188).

وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ⁽⁴²⁶⁾. ولما أظهر جملة المخلوقات التي خلقها بالحق وللحق قال -تعالى-: { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ }⁽⁴²⁷⁾.
ص 146

فالله -تعالى- هو الحق المبين، ووجوده الحق، وقوله الحق، وصفاته الحق، وأسمؤه الحق " ا.هـ.⁽⁴²⁸⁾
ص 147

15- قال: " حدثنا قبيصة؛ حدثنا سفيان، عن ابن جريج، عن سليمان، عن طاوس، عن ابن عباس، قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يدعو من الليل: اللهم لك الحمد أنت رب السماوات والأرض، لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، قولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاکمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وأسررت، وأعلنت، أنت إلهي، لا إله لي غيرك".

حدثنا ثابت بن محمد، حدثنا سفيان بهذا وقال: " أنت الحق، وقولك الحق".

كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول هذا الدعاء بعد أن يكبر تكبيرة الإحرام في تهجده، كما بينه ابن خزيمة، حيث قال:
"باب ذكر الدليل على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يحمد بهذا التحميد بعد أن يكبر" ثم ساق بالسند إلى ابن عباس، قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا قام للتهجد قال بعد ما يكبر: اللهم لك الحمد الخ.⁽⁴²⁹⁾

قوله: "اللهم لك الحمد" الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، و"ال" فيه للاستغراق، والاستقصاء، أي جميع الحمد واجب ومستحق لله تعالى، فهو المحمود على صفاته، وأسمائه، وعلى نعمه، وأياديه، وعلى خلقه وأفعاله، وعلى أمره وحكمه، وهو المحمود أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

و أما الشكر: فلا يكون إلا على الصفات المتعدية، ويكون بالقلب واللسان والجوارح، قال تعالى: { اَعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا }⁽⁴³⁰⁾.
وقال الشاعر:

⁽⁴²⁶⁾ الآية 6 من سورة الحج .

⁽⁴²⁷⁾ الآية 44 من سورة العنكبوت .

⁽⁴²⁸⁾ "المنهاج" (1/369).

⁽⁴²⁹⁾ "صحيح ابن خزيمة" (2/184).

⁽⁴³⁰⁾ الآية 13 من سورة سبأ .

www.dorar.net الدرر السنوية

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا
قوله: " أنت رب السماوات والأرض " أي: أنت مالكهما ومن فيهما،
والمتصرف بهما بمشيئتك، وأنت موجدتهما من العدم، فالملك لك، وليس
لأحد معك اشتراك أو تدبير، تباركت وتعاليت.

ص 148

قوله: " لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن " أي: أنت الذي
أقمتهما من العدم، والقائم عليهما بما يصلحهما ويقيمهما، فأنت الخالق
الرازق، المالك المدبر، المحيي المميت، الغني عن كل شيء، وكل من
سواك فقير إليك، ومصيره إليك كما أنك أنت الذي أوجدته، فلك الحمد.
وفي رواية " قيام " وفي أخرى " قيوم "، وكلها من أبنية المبالغة.
" والقيم معناه: القائم بأمور الخلق، ومدبرهم، ومدبر العالم في جميع
أحواله.

والقيوم: هو القائم بنفسه مطلقاً، لا بغيره، ويقوم به كل موجود، حتى لا
يتصور وجود الشيء ولا دوام وجوده إلا به.

وقال النوربشتي: معناه: أنت الذي تقوم بحفظهما، وحفظ من أحاطتا به
واشتملتا عليه، وقال " من " تلياً للعلاء على غيرهم " اهـ⁽⁴³¹⁾.

قوله: " لك الحمد أنت نور السماوات والأرض " قال الحافظ: أي
منورهما، وبك يهتدي من فيهما⁽⁴³²⁾.

وقال القاضي عياض: " معناه: ذو النور، أي خالقه.

وقيل: منور الدنيا بالشمس والقمر والنجوم.

وقيل: منور قلوب عباده المؤمنين بالهداية والمعرفة⁽⁴³³⁾.

قلت: هذا تأويل باطل كما سيأتي بيان بطلانه.

قال شيخ الإسلام في جواب من قال: إنه يجب تأويل قوله: " الله نور
السماوات والأرض " قطعاً. قال: " لا نسلم أنه يجب تأويله، ولا نسلم أن
ذلك لو وجب قطعي، بل جماهير المسلمين لا يتأولون هذا الاسم، وهذا
مذهب السلفية وجمهور الصفاتية من أهل الكلام والفقهاء والصوفية
وغيرهم، وهو قول أبي سعيد ابن كلاب، ورد على الجهمية تأويلهم " اسم
النور " وكذا الأشعري " اهـ⁽⁴³⁴⁾.

وقد نص الله -تعالى- في كتابه أنه نور السماوات والأرض، وزاد ذلك
رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إيضاحاً وبياناً، كما في هذا الحديث
وغيره.

⁽⁴³¹⁾ من القسطلاني (10/369).

⁽⁴³²⁾ "الفتح" (3/4).

⁽⁴³³⁾ "المشارك" (2/31).

⁽⁴³⁴⁾ "مجموع الفتاوى" (6/379).

وقد أخبر -تعالى-: أن الأرض يوم القيامة تشرق بنوره، وصحت النصوص عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بأنه يحتجب بالنور، فإذا كانت الأرض تشرق من نوره، فهو -جلا وعلا- نور، كما قاله رسوله: " أنت نور السماوات والأرض".

وقال -تعالى-: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} (435) وقال -تعالى-: {وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا} (436).

وفي الحديث الذي رواه ابن إسحاق في السيرة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال في دعائه: " أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة " (437).
وقال ابن مسعود: " إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه " (438).

وفي حديث أبي ذر في "صحيح مسلم" قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: هل رأيت ربك؟ قال: نور أُنِّي أراه " وفي رواية " رأيت نوراً " (439).

وفي حديث أبي موسى في "صحيح مسلم" قال: قام فينا رسول الله بخمس كلمات، فقال: "إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه " (440).
السبحات هي: نوره وبهاؤه وجلاله.

فأخبر -صلى الله عليه وسلم- أنه -تعالى- احتجب عن المخلوقات بحجابه النور، وأنه لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، ومعلوم أن بصره لا يفوته شيء، ولا يستتره ساتر، ولا يحول دونه حائل.

(435) الآية 35 من سورة النور .

(436) الآية 69 من سورة الزمر .

(437) انظر: "مختصر السيرة" لابن هشام (1/420) ، وقال شيخ الإسلام : رواه الطبراني وغيره ، انظر: "مجموع الفتاوى" (6/387).

(438) رواه الدارمي في "الرد على بشر" (ص 449) ، وابن منده في "الرد على الجهمية" (ص 99)، قال ابن القيم: رواه الطبراني في "المعجم" وفي "السنة" . انظر: "اجتماع الجيوش" (ص 6).

(439) انظر: "مسلم" (1/161).

(440) "مسلم" (1/162).

www.dorar.net الدرر السنية

وفي الترمذي عن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- " إن الله خلق خلقه في ظلمة، وألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل " (441).

فقد جاءت النصوص "بتسمية الرب نوراً، وبأن له نوراً مضافاً إليه، وبأنه نور السماوات والأرض، وبأن حجاب النور، فهذه أربعة أنواع: فالأول: يطلق عليه -تعالى- اسماً له، فإنه النور الهادي.

والثاني: يضاف إليه كما تضاف إليه حياته، وسمع وبصره، وعزته وقدرته وعلمه، ومرة يضاف إليه وجهه الكريم، وأخرى يضاف إلى ذاته المقدسة: بإضافته إلى وجهه -تعالى- كقوله -صلى الله عليه وسلم-: " أعوذ بنور وجهك " وقوله: " نور السماوات والأرض من نور وجهه " وإضافته إلى ذاته المقدسة كقوله -تعالى-: { وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا } (442).

وكما في حديث عبد الله بن عمرو: " أن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره " الحديث.

ويضاف نوره -تعالى- إلى السماوات والأرض، كقوله: { اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } (443).

وقوله في هذا الحديث: " أنت نور السماوات والأرض " وكذا حجاب النور كقوله: " حجاب النور - أو النار - " كما في حديث أبي موسى " اهـ. (444) ص 151

وقال -تعالى-: { مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ } (445) على القول بأن الضمير يعود إلى الله -تعالى-.

قال ابن القيم: " إضافة النور إلى الله -تعالى- على أحد وجهين: إضافة صفة إلى موصوفها، وإضافة مفعول إلى فاعله.

فالأول: كقوله - عز وجل -: { وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا } (446) فهذا يكون يوم القيامة، تشرق بنوره -تعالى- إذا جاء لفصل القضاء بين عباده. ومنه قوله في الدعاء المشهور: " أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني، لا إله إلا أنت " (447).

(441) انظر: " تحفة الأحوزي: (7/401) وقال: حسن، ورواه أحمد بسند صحيح، انظر: "المسند" (2/176)، وانظر: تحقيق أحمد شاكر (10/127)، وأخرجه الحاكم وصححه الذهبي. انظر: "المستدرک" (1/10)، وأخرجه ابن أبي عاصم في "السنة" (1/107).

(442) الآية 69 من سورة الزمر.

(443) الآية 35 من سورة النور.

(444) من "الصواعق" ملخصاً (359).

(445) الآية 35 من سورة النور.

(446) الآية 69 من سورة الزمر.

(447) هو الحديث المتقدم ذكره، قال في "الفتح الكبير": خرجه الطبراني. انظر لفظه فيه (1/235).

وفي الأثر الآخر: " أعوذ بنور وجهك، الذي أشرق له الظلمات " (448).
فأخبر -صلى الله عليه وسلم- أن الظلمات أشرق لنور وجهه، كما أخبر
الله -تعالى- أن الأرض تشرق يوم القيامة بنوره.
الوجه الثاني: ما ذكر في قوله -تعالى-: {مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا
مِصْبَاحٌ} (449)، وقد اختلف على من يعود الضمير في {نوره}، فقيل: على
محمد -صلى الله عليه وسلم- وقيل: على المؤمن، والصحيح عوده على الله
-تعالى-.

والمعنى: مثل نور الله في قلب عبده المؤمن، وأعظم عباده نصيباً من
هذا النور رسوله -صلى الله عليه وسلم-.
فهذا النور يضاف إلى الله -تعالى- على أن معطيه لعبده، وواهبه، كما
يضاف إلى العبد؛ لأنه محله وقابله " اهـ (450).

ص 152

فأله -تعالى- سمي نفسه نوراً، وجعل كتابه نوراً، ورسوله نوراً، ودينه
نوراً، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه في الآخرة نوراً يتلأأ، قال
-تعالى-: {اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ
الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ
لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي
اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (451)،
قال أبي بن كعب: " بدأ الله بنور نفسه، ثم ذكر نور المؤمن " (452).

وفسر بكونه منور السماوات والأرض، وبأنه هادي أهل السماوات
والأرض، وهذا لا يمنع أنه -تعالى- في نفسه نور، فإن من عادة السلف في
تفسيرهم أن يذكروا بعض صفات المفسر - بفتح السين - من الأسماء، أو
بعض أنواع ذلك المفسر، ولا ينافي ذلك ثبوت بقية الصفات له.

فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وأما النور
الذي هو وصفه فهو قائم به، ومنه اشتق له اسم النور، الذي هو أحد الأسماء
الحسنى، كما دلت على ذلك النصوص، فلا يجوز تحريف ذلك بالتأويلات
الباطلة.

و أما الأنوار القائمة بأعيان مشاهدة قائمة بأنفسها، فلم تأت إضافتها إلى
الله -تعالى- أبداً، فلا يقال لأنوار المصاييح، أو نور الشمس أو القمر أو
الكواكب، إنها نور الله.

(448) تقدم تخريجه قبل قليل .

(449) الآية 35 من سورة النور .

(450) "اجتماع الجيوش" بتلخيص وتصرف (ص 6).

(451) الآية 35 من سورة النور .

(452) رواه ابن جرير في "تفسيره" (18/135).

www.dorar.net الدرر السنية

والحديث تضمن ثلاثة أمور شاملة عامة للسموات والأرض:
وهي: ربوبيتهما، وقيوميتهما، ونورهما.
فكونه - سبحانه - ربا لهما، وقيوماً لهما، ونوراً لهما، أو صاف له - تعالى -،
وآثار هذه الأمور الثلاثة قائمة بهما.

ص 153

فأثر الربوبية: الخلق والإيجاد، وأثر القيومية: صلاحهما، وانتظامهما، وأثر
نوره - تعالى - استنارة السماوات، وإشراق الأرض بنوره يوم القيامة.
وأما صفة الربوبية والقيومية، والنور، فهي قائمة به - تعالى - كما أن
صفة الرحمة، والقدرة، والإرادة، والرضا، والغضب، قائمة به - تعالى -
والرحمة الموجودة في العالم، والإحسان، والخير، والنعمة، والعقوبة، آثار
تلك الصفات.

وهكذا علمه - تعالى - القائم به هو صفته، وأما علوم عباده فمن آثار
علمه، وقدرتهم من آثار قدرته.

وبذلك يعلم أن قول المعطلة: " كل عاقل يعلم بالبدية أنه الله -
سبحانه - ليس هو هذا النور الفائض من جرم الشمس والقمر والمصابيح،
فلا بد من حمل قوله: " أنت نور السماوات والأرض " على معنى أنه منور
السماوات والأرض، أو هادي أهل السماوات والأرض " يعلم أنه باطل من
جنس تحريفاتهم لسائر صفات الله، كما هو نهجهم.

ونحن نقول لهم أيضاً: أسأتم الظن بكلام الله، وكلام رسوله - صلى الله
عليه وسلم - حيث فهمتم أن حقيقته ومدلوله أنه سبحانه هو هذا النور الواقع
على الحيطان، وغيرها، وهذا الفهم الفاسد هو الذي أوجب لكم إنكار حقيقة
نوره - تعالى - وجرده.

فجمعتم بين الفهم الفاسد، وإنكار المعنى الحق.

وليس ما ذكرتم هو نور الرب - تعالى - القائم به، الذي هو صفته، وإنما هو
مخلوق له منفصل عنه، فإن هذه الأنوار المخلوقة، تكون في محل دون
محل، فنور الشمس والقمر ينور بعض الأرض لا جملتها، ولا ينور السماوات.

فمن ادعى أن نور الشمس والقمر ونحوهما، هو المراد بقوله - تعالى -:
{اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ⁽⁴⁵³⁾ وقول الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " أنت نور السماوات والأرض " فقد كذب على الله ورسوله ⁽⁴⁵⁴⁾.

ص 154

⁽⁴⁵³⁾ الآية 35 من سورة النور .
⁽⁴⁵⁴⁾ هذا مقتبس من كلام شيخ الإسلام . انظر : " مجموع الفتاوى " (6/374).

قوله: " وقولك الحق " أي أنت قلته حقاً، فهو صفتك. وما قاله الله -تعالى- فهو صدق وحق، لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، لا في خبره، ولا في حكمه وتشريعته، ولا في وعده وووعيده. وهذه الجملة هي محل الشاهد من الحديث، حيث وصف قوله -تعالى- بأنه الحق، فلا يجوز أن يكون مخلوقاً، كما تزعم الفرق الضالة من المعتزلة وغيرهم.

قال سفيان في "تفسيره": " إن كل شيء مخلوق، والقرآن ليس بمخلوق، وكلامه أعظم من خلقه؛ لأنه يقول للشيء: كن فيكون، فلا يكون شيء أعظم مما يكون به الخلق، والقرآن كلام الله "(455). وقال أبو ذر - رضي الله عنه -: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " قال الله -تعالى- عطائي كلام، وعذابي كلام، وإذا أردت شيئاً فإنما أقوله له: كن، فيكون "(456).

والذين أراد البخاري - رحمه الله - الرد عليهم من الجهمية والمعتزلة ونحوهم، ينكرون أن يكون لله -تعالى- كلام تكلم به يكون صفة له؛ لأن هذا - بزعمهم - يقتضي أن يكون جسماً حادثاً؛ لأن الكلام - زعموا - من الصفات الدالة على حدوث من قام به؛ لما فيه من الترتيب، والتقديم والتأخير، والتعاقب. ولما رأوا اتفاق الرسل على إثبات الكلام لله -تعالى- وأن القرآن مملوء بذلك، قالوا: إن الله متكلم، بمعنى أنه خالق الكلام. ثم جاءت الأشعرية، فقالوا: إن كلام الله هو المعنى القائم بنفسه، وليس لله كلام منطوق به، مسموع منه، كما سيأتي - إن شاء الله - تفصيل ذلك في أبواب الكلام.

وهم بذلك يتفقون مع المعتزلة على إنكار ثبوت الكلام لله حقيقة، كما أنهم يوافقونهم في المعنى على أنه مخلوق، وعلى هؤلاء جميعاً اتجه الرد فيما قصده البخاري وغيره من أهل السنة.

ص 155

ومعلوم "أن: الإيمان الذي جاءت به الرسل عن الله -تعالى- وجاء به خاتمهم مصداقاً لما بين يديه من الكتاب، هو أن كلام الله صفة له غير مخلوق، وأن القرآن، والتوراة، والإنجيل، وغيرها من كتب الله، هي كلامه. وكلام الله لا يكون مخلوقاً منفصلاً عنه، كما لا يكون كلام المتكلم منفصلاً عنه، فإن من أنكر ذلك فقد جحد كلام الله الذي هو رسالته، وأنكر حقيقة ما أخبرت به الرسل، وعلمته أممها، وألحد في أسماء الله وآياته، ومثله بالمعدوم، والميت، فإن الحياة، والعلم، والقدرة، والكلام، ونحو ذلك،

(455) "خلق أفعال العباد" للبخاري (ص 124)، "مجموع عقائد السلف".

(456) نفس المصدر (ص 131).

www.dorar.net الدرر السنوية

صفات كمال، والله -تعالى- أحق بكل كمال، فيمتنع أن يثبت للمخلوق كمال إلا والخالق أحق به، كما يمتنع أن يتنزه المخلوق عن نقص إلا والخالق أحق بتنزهه منه؛ لأنه هو الذي أعطى الكمال للكاملين.

ومن لم يتصف بصفات الكمال، من الحياة، والعلم، والسمع، والبصر، والقدرة، والكلام، وغير ذلك:

فإما أن يكون قابلاً للاتصاف بذلك ولم يتصف به.
أو غير قابل للاتصاف به.

فإن قبله ولم يتصف به، كان موصوفاً بصفات النقص، كالموت، والجهل، والعمى، والصمم، والعجز، والبكم.

فإن لم يقبل الاتصاف بهذه الصفات، كان أنقص من القابل الذي لم يتصف بها.

فالحيوان الذي يكون تارة سميعاً، وتارة أصم، وتارة بصيراً، وتارة أعمى، وتارة متكلماً، وتارة أخرس، أكمل من الجماد الذي لا يقبل لا هذا، ولا هذا، فمن لم يصف الله -تعالى- بصفات الكمال، لزمه إما أن يصفه بهذه

النقائص، أو يكون أنقص ممن وصف بهذه النقائص⁽⁴⁵⁷⁾.
قوله: "ووعدك الحق" أي: لا بد من وقوعه، على ما وعدت، فلا خلف فيه ولا تبديل.

ص 156

"ولقاؤك حق" أي: لا بد للميعاد من ملاقاتك، فتجازيهم على أعمالهم، واللقاء يتضمن الرؤية، والمعاناة، كما سيأتي - إن شاء الله تعالى -.

"والجنة حق، والنار حق" أي: ثابتتان، موجودتان، كما أخبرت بذلك أنهما معدتان لأهلها، فهما دار البقاء، وإليهما مصير العباد.

"والساعة حق" أي مجيء يوم القيامة حق لا مرية فيه، فهو ثابت لا بد منه، وهي نهاية الدنيا، ومبدأ الآخرة، وفي ضمن هذه الأخبار: الإخبار عن إيمانه بما ذكر، إيماناً لا يتزعزع، والساعة يعبر بها عن البعث، أي الساعة التي يبعث الله فيها الموتى من قبورهم أحياء، فيجمعهم بعد تفرق أجزائهم وتشتتها، بل واستحالتها تراباً، وهباء، وغير ذلك.

فيجمعهم، ويحييهم، كما كانوا في الدنيا، ويجازيهم بعد حسابهم، وحشرهم. وأدخلت الألف واللام في الساعة؛ لأنها معروفة المعنى عند المخاطبين بها، وأنها مقصود بها قصد الساعة التي وصفت، قاله الطبري⁽⁴⁵⁸⁾.

"اللهم لك أسلمت" أي: أذعنت لأمرك، وانقدت له، وخضعت لحكمك.

⁽⁴⁵⁷⁾ ("مجموع الفتاوى" (12/355)).

⁽⁴⁵⁸⁾ انظر: "تفسيره" (11/324)، ولكثرة ما أخبروا بها ووصفت لها، وخوفوا بقرئها صارت معلومة لهم، فأدخلت عليها الألف واللام لذلك.

"وبك آمنت" أي: صدقت، وعملت بمقتضى ذلك، بعد تحققي بالإيمان بك.

"وعليك توكلت" أي: اعتمدت عليك، ووكلت أموري إليك، راضياً بما قضيته لي، بعد أن فعلت الأسباب التي جعلتها إليّ، دينية كانت، أو دنيوية. فالتوكل: هو الاعتماد على الله -تعالى- والثقة به، وفعل الأسباب التي رتبت عليها الأشياء، والتي يستطيع العبد فعلها، وهو من أفضل العباد، بل جاء ما يدل على أنه شرط في حصول الإيمان، كما في قوله -تعالى-: {وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} ⁽⁴⁵⁹⁾. "وإليك أنبت" أي: رجعت إليك طائعا منقاداً، مذعناً، خاضعاً لك في جميع أموري.

ص 157

"وإليك حاكمت" أي: كل من أبقى قبول الحق، أو جرده، حاكمته إليك وجعلتك الحكم بيني وبينه مجاناً بذلك حكم كل طاغوت، من قانون وضعي، أو كاهن أو غيره، مما يتحاكم إليه البشر، من الأوضاع الباطلة شرعاً. وقدم صلات هذه الأفعال كلها لإرادة التخصيص والحصر، أي: أخصك - يا رب- وحدك فيما ذكر، ولا أعدو ذلك بحال من الأحوال.

في هذا الحديث قدم الثناء على الله -تعالى- بأن له الحمد، وبما ذكر من صفاته، ثم توسل إليه، -تعالى- بإيمانه بأن قوله حق، ووعدته حق، إلى آخر ما ذكر، وأنه مذعن لأمره، منقاد لطاعته، وأنه معتمد عليه، وبه يخاصم وإليه يحاكم، ثم بعد ذلك سأل حاجته، وهي أن يغفر له ما قدم من خطأ، أو تقصير، وما آخر، وما أسر، وما أعلن.

ثم ختم ذلك بأنه لا مفزع، ولا ملجأ له، غير ربه -تعالى- فهو إلهه الذي يعبده بما ذكر، ويخاف عقابه - ويؤمل فضله ونواله، فقال: " أنت إلهي لا إله لي غيرك" فلا أتوجه إلى سواك، إذ كل مألوه غيرك باطل ودعوته ضلال ووبال، وهذا هو التوحيد الذي جاءت به رسل الله، وفرضه -تعالى- على عباده.

قوله: " فاغفر لي ما قدمت، وما أخرت، وأسبرت، وأعلنت". أصل الغفر: الستر مع الوقاية، ومنه المغفر؛ لأنه يستر الرأس ويقيه من السلاح.

"ما قدمت" أي: قبل وقتي هذا.

"وما أخرت" أي: بعد وقتي هذا.

أي: اغفر لي ما عملت من الذنوب، وما سأعمله، وما ظهر منها لأحد من خلقك، وما خفي عنهم، ولم يعلمه غيرك.

وقوله في الرواية الأخرى: " أنت الحق، وقولك الحق، " فيها البيان بأن اسم الحق يقع على ذات الله -تعالى- اسماً، كما سبق بيانه، ويقع على صفاته، كما في قوله: " وقولك الحق".

وفي هذا الحديث وأمثاله دليل على وقوع الذنوب من الأنبياء، إذ لو لم يكن له ذنب كيف يسأل المغفرة؟ وقد قص الله -تعالى- ما وقع لبعض الرسل من

ص 158

المخالفات، وهذه مسألة مشهورة عند العلماء، وقد ألف فيها مؤلفات خاصة، وقد اتفق أهل السنة على أن ما يبلغونه من أمر الله وشرعه أنهم معصومون فيه من الخطأ، وأما وقوع الذنوب منهم ففيه الخلاف، وقد بالغ بعض الناس، وكفر من قال بوقوع الذنب منهم، وهذا جهل من قائله.

قال شيخ الإسلام: " اتفق المسلمون على أنهم معصومون فيما يبلغون عن الله -تعالى-، وبهذا يحصل المقصود من البعثة، ولو لم تقع منهم الذنوب لفاتهم ما في التوبة من محبة الله وفرحه، ورفع درجة التائب، وكون التائب بعد التوبة أفضل منه قبلها، مع ما في القول بأن المذنب لا تقع منهم من تكذيب لكتاب الله، وأخبار رسوله، أو تحريف لها، ومن اعتقد أن كل من لم يكفر، ولم يذنب، أفضل من كل من آمن بعد كفره، أو تاب بعد الذنب، فهو مخالف لما علم بالاضطرار من دين الإسلام، فإن من المعلوم أن الصحابة أفضل من أبنائهم الذين ولدوا في الإسلام.

وقد قال -تعالى- في أفضل الرسل: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} لما نزلت قال الصحابة: يا رسول الله، هذا لك، فما لنا؟ فأنزل - عز وجل -: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ}.

وتوبة الأنبياء واستغفارهم أدلته كثيرة، فكيف يقال: إنه لم يكن لهم ما يوجب التوبة والاستغفار، ولا تفضل الله عليهم بمحبته، وفرحه بتوبتهم، ومغفرته لهم ورحمته، واعتراف جليل القدر بما هو عليه من الحاجة إلى التوبة والاستغفار دليل على صدقه، ورفعته، وتواضعه، وعبوديته لله تعالى - والغنى عن الحاجة من خصائص الربوبية وقد قال -صلى الله عليه وسلم-: " اللهم اغفر خطئي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي" (460).

(460) انظر: " منهاج السنة " (228-1/227) ملخصاً .

قال: " باب: { وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا } " (461)

يريد بهذه الترجمة بيان أن هاتين الصفتين - السمع والبصر - ثابتان لله بالكتاب والسنة، وإجماع أتباع الرسل، وبالعقل، والفطرة، وبيان أن الله - تعالى - لم يزل بصفاته، وبيان أن المنكر لهاتين الصفتين قد ضل عن كتاب الله، وسنة رسوله، واتباع غير سبيل المؤمنين أتباع الرسل.

قال القسطلاني: " وقد علم بالضرورة من الدين، وثبت في الكتاب والسنة، بحيث لا يمكن إنكاره ولا تأويله، أن الباري - تعالى - حي سميع بصير، وانعقد إجماع أهل الأديان - بل جميع العقلاء - على ذلك " (462).

" فالسمع، والبصر، والحياة، والعلم، والقدرة، والكلام، ونحوها، صفات كمال لا نقص فيها، فمن اتصف بها أكمل ممن لا يتصف بها، والنقص في انتفائها لا في ثبوتها بإجماع العقلاء، والقابل للاتصاف بها كالحيوان أكمل، ممن لا يقبل الاتصاف بها كالجماد " (463).

قلت: الحامل على إنكار ذلك هو الجهل بالله - تعالى - والقياس الفاسد؛ حيث قاسوا ذلك على ما يعرفون من أنفسهم بأن السمع ينشأ عن وصول الهواء إلى عصب الصماخ، والبصر عبارة عن وقوع أشعة الإبصار على جسم مقابل.

قالوا: هذا لا يكون إلا من جوارح وأجسام. فيقال لهم: هذه صفة أسماكم وأبصاركم، أما رب العالمين فصفاته تابعة لذاته، وذاته ليس لها نظير أو شبيه، فكذلك صفاته تعالى.

وكيفية صفاته - تعالى - مجهولة للخلق، ويكفي أن نعلم أنه - تعالى - متصف بما وصف به نفسه ووصفته به رسوله حقيقة، وأنه في ذلك ليس له مثل، كما قال - تعالى -: { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }.

قال الحافظ: " قال ابن بطال: غرض البخاري في هذا الباب الرد على

من قال: إن معنى "سميع بصير" عليم، قال: ويلزم من قال ذلك أن يسويه بالأعمى الذي يعلم أن السماء خضراء، ولا يراها، والأصم الذي يعلم أن في الناس أصواتاً، ولا يسمعها، ولا شك أن من سمع وأبصر، أدخل في صفة الكمال، ممن انفرد بأحدهما دون الآخر.

فصح أن كونه سميعاً بصيراً، يفيد قدراً زائداً على كونه عليمًا.

(461) الآية 134 من سورة النساء .

(462) " إرشاد الساري " (10/370).

(463) " مجموع الفتاوى " (6/88).

وكونه سمياً بصيراً يتضمن أنه يسمع بسمع، ويبصر ببصر، كما تضمن كونه عليمًا أنه يعلم بعلم، ولا فرق بين إثبات كونه سمياً بصيراً، وبين كونه ذا سمع وبصر، وهذا قول أهل السنة قاطبة⁽⁴⁶⁴⁾

وقال البيهقي: "السميع من له سمع يدرك به المسموعات، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات، وكل منهما في حق الباري صفة قائمة بذاته"⁽⁴⁶⁵⁾. وقد تكاثرت الأدلة من كتاب الله -تعالى- ومن سنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- على إثبات السمع والبصر صفتين لله -تعالى- حقيقتين على ما يليق بعظمته -تعالى- قال الله -تعالى-: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} ⁽⁴⁶⁶⁾، {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا} ⁽⁴⁶⁷⁾، {ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّهِ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} ⁽⁴⁶⁸⁾، {إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ⁽⁴⁶⁹⁾، {إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} ⁽⁴⁷⁰⁾، {إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ⁽⁴⁷¹⁾، {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}

ص 161

{وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ⁽⁴⁷²⁾، {فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ⁽⁴⁷³⁾، {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} ⁽⁴⁷⁴⁾.

في آيات كثيرة قد ذكر الله -تعالى- في القرآن السمع والبصر، واصفاً بهما نفسه، فيما يقرب من مائة آية، مرة يجمع بين السمع والبصر، ومرة بين السمع والعلم، ومرة يذكر البصر وحده متعلقاً بعمل العباد، كقوله: {وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} ⁽⁴⁷⁵⁾، {وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ} ⁽⁴⁷⁶⁾.

وقد تقرر في الفطر والعقول، أن عدم السمع والبصر، والأرجل والأيدي، نقص وعيب يمتنع معه دعوة الفاقد لذلك؛ لامتناع كونه إلهاً، إذ الإله يجب أن يكون سمياً بصيراً حياً قادراً، كاملاً، لا نقص فيه، ولا عيب، قال -تعالى-: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ

⁽⁴⁶⁴⁾ ("الفتح" (13/373)).

⁽⁴⁶⁵⁾ ("الاعتقاد" (ص 58)).

⁽⁴⁶⁶⁾ الآية 58 من سورة النساء .

⁽⁴⁶⁷⁾ الآية 134 من سورة النساء .

⁽⁴⁶⁸⁾ الآية 61 من سورة الحج .

⁽⁴⁶⁹⁾ الآية 1 من سورة الإسراء .

⁽⁴⁷⁰⁾ الآية 75 من سورة الحج .

⁽⁴⁷¹⁾ الآية 20 من سورة غافر .

⁽⁴⁷²⁾ الآية 11 من سورة الشورى .

⁽⁴⁷³⁾ الآية 56 من سورة غافر .

⁽⁴⁷⁴⁾ الآية 1 من سورة المجادلة .

⁽⁴⁷⁵⁾ الآية 265 من سورة البقرة .

⁽⁴⁷⁶⁾ الآية 20 من سورة آل عمران .

كُنْتُمْ صَادِقِينَ {194} أَلْهَمَ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أُمَّ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أُمَّ لَهُمْ
أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أُمَّ لَهُمْ أَدَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا { (477) .

وقال -تعالى- عن خليته إبراهيم في دعوته أبيه إلى الله -تعالى- { يَا أَبَتِ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } (478) .

ص 162

و أما سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقد جاءت موافقة لما في
كتاب الله ومبينة له، وهي كثيرة جداً، نكتفي بذكر يسير منها بالإضافة إلى ما
ذكره البخاري في الباب.

فمن ذلك ما رواه أبو داود بسنده على شرط مسلم، عن أبي هريرة أنه
قرأ قول الله -تعالى-: { وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا } (479) فوضع إبهامه على
أذنه، والتي تليها على عينه، وقال: " رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم-
يقراً ويضع إصبعه" (480). قال البيهقي عقب روايته لهذا الحديث: " والمراد
بالإشارة في هذا الخبر: تحقيق الوصف لله - عز وجل - بالسمع والبصر،
فأشار إلى محل السمع والبصر منا لإثبات صفة السمع والبصر لله -تعالى-،
وأفاد هذا الخبر أنه سميع بصير، له سمع وبصر، لا على معنى أنه عليم، إذ لو
كان بمعنى العلم لأشار في تحقيقه إلى القلب؛ لأنه محل العلوم منا" (481).

ثم ذكر البيهقي لحديث أبي هريرة هذا شاهداً، من حديث عقبة بن عامر،
سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول على المنبر: " إن ربنا
سميع بصير، وأشار بيده إلى عينيه" (482) قال الحافظ: سنده حسن (483)،
وروى اللالكائي عن ابن عباس أنه قرأ قوله -تعالى-: { تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا } فأشار
بيده إلى عينيه (484).

قال ابن خزيمة: " نحن نقول: لربنا عينان يبصر بهما ما تحت الثرى،
وتحت الأرض السابعة السفلى، وما في السماوات، وما بينهما من صغير
وكبير، لا يخفى

ص 163

عليه خافية، فهو تعالى يرى ما في جوف البحار ولججها، كما يرى عرشه
الذي هو مستو عليه" (485).

(477) الآيتان 194، 195 من سورة الأعراف .

(478) الآية 42 من سورة مريم .

(479) الآية 134 من سورة النساء .

(480) انظر: " سنن أبي داود " (5/97).

(481) " الأسماء والصفات " (ص 179) ملخصاً.

(482) هذا الحديث لم أجده في "الصفات" المطبوع، فيكون في النسخة التي نقل منها الحافظ.

(483) "الفتح" (13/373).

(484) "شرح أصول اعتقاد أهل السنة" (2/411).

(485) كتاب "التوحيد" (ص 50).

فالسمع والبصر من الصفات الثابتة لله -تعالى- بقوله عن نفسه، ويقول رسوله -صلى الله عليه وسلم-، وبالعقل، والفطرة، وإجماع أهل العلم والإيمان، ولم ينكر ذلك إلا شواذ الطوائف المارقة من الحق، كالجهمية، وإخوانهم من بعض المعتزلة، وليس معهم علي ذلك إلا التحذلق، والكلام الفارغ من الحق والمعنى الصحيح، أو التوهم بأن إثبات الصفات يقتضي التشبيه، حيث توهموا أن صفات الله كصفات خلقه، تعالى الله.

قوله -تعالى-: { وَكَانَ اللَّهُ سَمِيْعًا بَصِيْرًا }، "كان" هنا تدل على الدوام والاستمرار الذي يعم جميع الأوقات، كما قال علماء النحو: "إن كان" تستعمل بمعنى: بقي على حاله، واستمر شأنه، وسيستمر من غير انقطاع، ولا تقيد بزمن، نحو: كان الله غفوراً رحيماً" (486).

قال ابن جرير: "إن الله لم يزل {سَمِيْعًا} بما تقولون، وتنطقون، وهو سميع لذلك منك إذا حكمتم بين الناس، ولما تحاورونهم به.

{بصيراً} بما تفعلون فيما ائتمنتم عليه من حقوق رعيتكم وأموالهم، وما تقضون به بينهم من أحكامكم، بعدل تحكمون أو جور، لا يخفى عليه شيء من ذلك، حافظ ذلك كله، حتى يجازي محسنكم بإحسانه، ومسيئكم بإساءته، أو يعفو بفضله" (487)

ص 164

قوله: " قال الأعمش، عن تميم، عن عروة، عن عائشة، قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، فأنزل الله -تعالى- على النبي -صلى الله عليه وسلم-: { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا }".

هذا الحديث رواه أحمد في "المسند" موصولاً (488)، وابن ماجه في "السنن" (489)، والنسائي (490)، وكلهم بآتم مما ذكر البخاري.

ولفظهم: " أنها قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة - وللنسائي- خولة - إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنا في ناحية البيت، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله: { قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا } إلى آخر الآية.

ورواه ابن ماجه في كتاب الظهار من "السنن" بآتم مما هنا (491).

قال ابن عبد البر: " رويانا من وجوه عن عمر بن الخطاب، أنه خرج ومعه الناس فمر بعجوز، فاستوقفتها، فجعل يحدثها وتحديثه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، حبست الناس على هذه العجوز، فقال: ويلك! أتدري من هذه؟

(486) "النحو الواضح" (1/549)، وانظر "المقتضب للمبرد" (4/119).

(487) "تفسير الطبري" (8/494) بتحقيق محمود شاكر.

(488) انظر: "المسند" (6/46)، وانظر: "الفتح الرباني" (18/298).

(489) انظر: "سنن ابن ماجه" (1/67).

(490) "المجتبى" (6/168).

(491) انظر: "سنن ابن ماجه" (1/666).

هذه امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة بنت ثعلبة التي أنزل الله فيها: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} والله لو أنها وقفت إلى الليل ما فارقتها إلا لصلاة، ثم أرجع إليها (492) ١١

قال ابن كثير: ورواه ابن أبي حاتم، وساقه بسنده (493). قوله: "وسع سمعه الأصوات" أي: استوعبها وأدركها فلا يفوته منها شيء وإن خفي، فحينما ذكرت المرأة قصتها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال لها: "قد حرمت عليك" جعلت تقول - بصوت منخفض يخفى على عائشة مع قربها منها -: بعدما

ص 165

كبرت سني ظاهر مني؟ إلى الله أشكو حال صبية إن ضممتهم إليّ جاعوا، وإن تركتهم عنده ضاعوا. فهذه مجادلتها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - التي ذكرها الله - تعالى - بقوله: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} وهذا من أبلغ الأدلة على اتصاف الله - تعالى - بالسمع، وهو أمر معلوم بالضرورة من الدين، لا ينكره إلا من ضل عن الهدى.

وقول عائشة هذا يدل على أن الصحابة - رضي الله عنهم، آمنوا بالنصوص على ظاهرها الذي يتبادر إلى الفهم، وأن هذا هو الذي أراد الله منهم ومن غيرهم من المكلفين ورسوله، إذ لو كان هذا الذي آمنوا به واعتقدوه خطأ لم يقرؤا عليه ولبين لهم الصواب، ولم يأت عن أحد منهم تأويل هذه النصوص عن ظواهرها، لا من طريق صحيح ولا ضعيف، مع توافر الدواعي على نقل ذلك مما يبين قطعاً أن الذي أريد منهم، ومن كل مؤمن، هو ظاهر الخطاب، وهذا واضح لمن تأمل النصوص، وعرف حال الصحابة. وبهذا يتبين بطلان التأويل، وأنه سلوك غير سبيل الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته، والتابعين لهم، إلى نهاية الدنيا.

(492) "الاستيعاب" (4/1831) بتحقيق الجاوي .

(493) انظر: " تفسير ابن كثير " (8/60) مطبعة الشعب .

16-قال: " حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد، عن أيوب، عن أبي عثمان، عن أبي موسى، قال: كنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في سفر، فكنا إذا علونا كبرنا، فقال: " اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، تدعون سميعاً بصيراً قريباً " ثم أتى عليّ، وأنا أقول في نفسي: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال: " يا عبد الله ابن قيس، قل: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة " أو قال: " ألا أدلك به " .

قوله: " كنا مع النبي -صلى الله عليه وسلم- في سفر، فكنا إذا علونا كبرنا " هذا مما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يفعله، فكان يكبر إذا علا نشزاً، ويسبح إذا هبط في منخفض من الأرض، وقد بوب البخاري -رحمه الله - على الأمرين في الجهاد والدعوات من " صحيفته "، فقال: باب التسييح إذا هبط وادياً، وبعده: باب التكبير إذا علا شرفاً.

قال المهلب: " تكبيره -صلى الله عليه وسلم- عند الارتفاع، استشعار لكبرياء الله - عزوجل -، وعندما تقع عليه العين من عظيم خلق الله أنه - أكبر من كل شيء .

والتسييح في الأماكن المنخفضة استشعار بتنزيهه -تعالى - عن صفة السفلى والانخفاض " (494).

وفيه دليل على علو الله -تعالى- فوق كل شيء، وأنه لا يجوز أن يكون شيء من خلقه فوقه، تعالى وتقدس، وسيأتي البحث فيه إن شاء الله -تعالى-.

قوله: " فقال: " اربعوا على أنفسكم " أي: ارفقوا بأنفسكم، فلا تكلفوها برفع أصواتكم، فإنه لا حاجة إلى ذلك، فإن من تكبرونه وتسبحونه سميع بصير، يسمع الأصوات الخفية كما يسمع الجهرية، ويرى الأشياء وإن دقت، فلا يخفى عليه شيء.

قوله: " فإنكم لا تدعون أصم، ولا غائباً " قال صاحب " القاموس ": " الصمم: انسداد الأذن، وثقل السمع، بحيث لا يسمع الأصوات إلا إذا كانت مرتفعة عالية " (495).

وقيل: هو انسداد الأذن، وذهاب سميعها.

قوله: " غائباً " أي: ليس بعيداً ومستور الرؤية والسمع عنكم، فيحتاج إلى المناداة ورفع الأصوات كما قال -تعالى-: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي

(494) " فتح الباري " (6/136).
(495) انظر " القاموس " (4/140).

قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيْسْتَ جِيبُوا لِي وَلِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ
يَرْشُدُونَ { (496)

ولهذا قال: " تدعون سميعاً بصيراً قريباً" وهذه صيغ مبالغة لله؛ لأن له -
تعالى- تمام الكمال من هذه الصفات، فلا يفوت سمعه أي حركة وإن خفيت،
فيسمع دبيب النملة على الصفاة الصماء في ظلمة الليل، وأخفى من ذلك،
كما أنه -تعالى- لا يحجب بصره شيء من الحوائل، فهو يسمع نغماتكم
وأصوات أنفاسكم وجميع ما تتلفظون به من كلمات، ويبصر حركاتكم، وهو
معكم قريب من داعيه، وهو أيضاً مع جميع خلقه باطلاعه وإحاطته، وهم في
قبضته، ومع ذلك هو على عرشه عال فوق جميع مخلوقاته، ولا يخفى عليه
خافية في جميع مخلوقاته مهما كانت، وسيأتي بيان ذلك إن شاء الله - في
مكانه.

قوله: " قل: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة " الكنز هو:
المال النفيس المحفوظ، والجمع والادخار يسمى: كنزاً.
وكنز الجنة: الأعمال الصالحة الفضيلة، التي يقبلها الله ويرضاها،
فيحفظها ويدخرها لصاحبها، فيكون سبباً في دخوله الجنة ورفع منزلته فيها،
وهو دليل على تفاضل الأعمال، والأدلة على ذلك كثيرة جداً.
ومعنى هذه الكلمة: لا تحول من حالة إلى أخرى، ولا انتقال من أمر إلى
آخر، ولا قوة على ذلك، ولا قدرة إلا بالله، فهو المعين عليه والمهيئ لأسبابه
والموجد لها، فهي استسلام لله، وإذعان لقدرته وإرادته، وإقرار بأنه لا يقع
حركة أو سكون إلا بمشيئته - جلا وعلا-.

17-قال: " حدثنا يحيى بن سليمان، حدثني ابن وهب، أخبرني عمرو، عن يزيد، عن أبي الخير، سمع عبد الله بن عمرو، أن أبا بكر الصديق - رضي الله عنه - قال للنبي - صلى الله عليه وسلم -: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي؟ قال: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي من عندك مغفرة، إنك أنت الغفور الرحيم ".

عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل القرشي، السهمي، أبو محمد، أسلم قديماً، وكان من أفاضل الصحابة وعبادهم، ومن العلماء المكثرين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقد ثبت عن حافظ الأمة أبي هريرة - رضي الله عنه - قوله: " ما كان أحد أكثر مني حديثاً عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب " (497).

ومع ذلك فالمروى عنه أقل بكثير من المروى عن أبي هريرة، وقد قيل: إن السبب في ذلك أن عبد الله سكن مصر، والوارد إليها من الناس قليل، وأبو هريرة سكن المدينة، وهي مجمع الناس.

قيل: إنه توفي في مصر، وقيل: في الطائف، وقيل: في مكة، وقيل: في فلسطين، سنة ثلاث وستين؛ أو خمس وستين، عن اثنتين وسبعين سنة، - رضي الله عنه -، وعن صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أجمعين.

و أما أبو بكر فهو: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، القرشي، كان أبيض نحيفاً خفيف العارضين، وهو أفضل من صحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وهو أعلم الصحابة بالله ورسوله، وهو أول من أسلم من الرجال، ولسرعته إلى تصديق الرسول - صلى الله عليه وسلم - وشدة قبوله لقوله سمي: الصديق، وهو رفيق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الهجرة، وصاحبه في الغار، كما قال الله - تعالى -: { إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } (498)، وقد أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه أمن الناس عليه، وأنه لو اتخذ من الناس خليلاً لاتخذ أبا بكر خليلاً، كما ثبت في "الصحيحين"، وأخبر أنه أحب الناس إليه من الرجال، وأن ابنته عائشة زوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحب الناس إليه من النساء.

أمره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يؤم الناس في مرض موته، ولما روجع في ذلك غضب، وقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس.

(497) رواه البخاري، انظر "الفتح" (1/206).

(498) الآية 40 من سورة التوبة.

وفضائله كثيرة، وقد كتب فيه مؤلفات، توفي - رضي الله عنه - سنة ثلاث عشرة من الهجرة، ودفن جوار رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
(499)

قوله: " إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً" الظلم هو: وضع الشيء في غير موضعه.

"وهذا يدل على أن الإنسان لا ينفك عن الذنوب، والتقصير في حقوق الله، كما في الحديث: " كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون" (500)؛ لأنه أطلق هذا الظلم ولم يقيده، أو يخصصه بزمن دون آخر، أو بحالة دون حالة، فلو كان هناك حالة أو زمن من عمر الإنسان لا يكون فيه ظلم ما صح هذا الإطلاق، ولا صار مطابقاً للواقع" (501).

قوله: " ولا يغفر الذنوب إلا أنت " تقدم معنى الغفر في اللغة، والمقصود محو الذنوب ووقاية تبعاتها، وهذا لجوء إلى التوحيد، وأنه لا مفر ولا ملجأ يفرع إليه في غفران الذنوب، ووقاية شرها إلا الله وحده، ولا طريق يسلك لذلك إلا الانطراح بين يدي رب العالمين، والافتقار إليه، والتوجه بكليّة العبد إليه، وإخلاص الدعاء له وحده، رغبة ورهبة، كما قال -تعالى-: { وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاجِرَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ } (502).

فعلم العبد بأنه لا يغفر الذنوب إلا الله يضطره إلى اللجوء إليه -تعالى- والإخلاص له، وليس هناك طريق للنجاة إلا هذا الطريق، ولهذا قيل: " إن التوحيد مفزع أولياء الله، وأعدائه " أما أولياء الله فأمرهم ظاهر، وأما أعداؤه: فكانوا إذا وقعوا في الشدائد أخلصوا الدعاء لله وحده، كما ذكر الله عنهم في القرآن، ونظر العقل يؤدي إلى هذا دائماً.

ص 170

قوله: " فاغفر لي من عندك مغفرة " أي أنه لا حيلة لي ولا خلاص إلا بأن تمن علي أنت وحدك بالمغفرة، فتستر ذنوبي، وتعفو عني، وتقيني ما يترتب عليها من تبعات وشرور.

وقال: " من عندك " ليبين الاختصاص، أي أن المغفرة منك وحدك تفضل بها عليّ، بدون استحقاق، بل هي محض جودك وكرمك.

وقوله: " إنك أنت الغفور الرحيم " ختم هذا الدعاء، بهذين الاسمين الكريمين، لمناسبتهما للمطلوب، فالغفور يناسب طلب المغفرة.

(499) "أسد الغابة" (3/309).

(500) رواه ابن ماجه في "السنن"، "الزهد" (2/1420) الحديث (4251)، والترمذي (4/70)، وأحمد في "المسند" (3/98).

(501) "شرح العمدة" لابن دقيق العيد (2/78).

(502) الآية 135 من سورة آل عمران.

والرحيم يناسب طلب التفضل والجود، وهو قريب من الأول، وهذا من معاني دعاء الله بأسمائه الحسنی.

" وقد جمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله والتوسل إلى ربه - عز وجل - بفضله وجوده، وأنه المنفرد بغفران الذنوب، ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معاً، وهكذا أدب الدعاء، وأدب العبودية" (503).

والمقصود من الحديث في هذا الباب أن المدعو لا بد أن يكون سميعاً يسمع دعوة الداعي إذا دعا، بصيراً بحاله فيوصل إليه ما طلب بقدرته، وإلا تكون دعوته ضلال وسدى، ففي الدعاء واستجابة الله، -تعالى- لعبده الداعي برهان على أنه سميع، بصير، قادر، حي، عليم، وقد قال الله -تعالى- فيمن يدعو من لا يسمع ولا يبصر: { وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ } {5} وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ } (504)

وقال -تعالى- عن خليله إبراهيم في دعوته لأبيه: { يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا } (505).

" وقد قال ابن عقيل: قد ندب الله -تعالى- إلى الدعاء، وفي ذلك معان: أحدها: الوجود، فإن من ليس بوجود لا يدعى.

الثاني: الغنى، فإن الفقير لا يدعى.

ص 171

الثالث: السمع، فإن الأصم لا يدعى.

الرابع: الكرم، فإن البخيل لا يدعى.

الخامس: الرحمة، فإن القاسي لا يدعى.

السادس: القدرة، فإن العاجز لا يدعى.

ومن يقول بالطبائع، يعلم أن النار، لا يقال لها: كفي، ولا النجم يقال له: أصلح مزاجي، لأن هذه عندهم مؤثرة طبعاً لا اختياراً، فشرع الدعاء، وصلاة الاستسقاء، ليبين كذب أهل الطبائع" (506).

و "فعل السمع يراد به أربعة معان:

أحدها: سمع إدراك، ومتعلقه الأصوات.

الثاني: سمع فهم، وعقل، ومتعلقه المعاني.

الثالث: سمع إجابة وإعطاء ما سئل.

الرابع: سمع قبول، وانقياد.

(503) "الوايل الصيب" (ص 118).

(504) الآيتان 5، 6 من سورة الأحقاف .

(505) الآية 42 من سورة مريم .

(506) "شرح الطحاوية" (ص 457) الطبعة الثالثة .

فمن الأول: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي رَوْحِهَا}، و{لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء} (507) ومن الثاني: قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا} (508)، أي: سمع فهم وعقل، ومن الثالث: سمع الله لمن حمده، ومن الرابع: قوله: {سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ} أي: قابلون له، ومنقادون، فسمع الإدراك يتعدى بنفسه، وسمع القبول يتعدى باللام، وبمن، ولإجابته بمن (509).
ص 172

18- قال: "حدثنا عبد الله بن يوسف، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس، عن ابن شهاب، حدثني عروة - أن عائشة - رضي الله عنها - حدثته، قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: إن جبريل - عليه السلام - ناداني، قال: "إن الله قد سمع قول قومك، وما ردوا عليك".
اختصر البخاري هذا الحديث هنا - فذكر الشاهد منه، وقد ذكره بتمامه في بدء الخلق، ولفظه: "قالت للنبي - صلى الله عليه وسلم -: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟"

قال: "لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني، فنظرت، فإذا فيها جبريل فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم -: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، ولا يشرك به شيئاً" (510).
ففي هذا الحديث البيان الواضح في أن الله - تعالى - يسمع أقوال عباده، وأنه لا يخفى عليه - تعالى - من ذلك شيء.

وصفة السمع والبصر من الصفات اللازمة لله - تعالى - وقد - تعالى - تقدم بيان ثبوت ذلك له - تعالى - عقلاً، وشرعاً، وفطرة، وأن من أنكر ذلك عرف به وأعلم إن كان جاهلاً، وإلا حكم عليه بالكفر؛ لإنكاره الحق الواضح، الواجب اعتقاده والإيمان به؛ لأنه أنكر ما ثبت، وتواترت عليه كتب الله، وجاءت به جميع رسله، فهو أمر ضروري.

(507) الآية 181 من سورة آل عمران .

(508) الآية 104 من سورة البقرة .

(509) "بدائع الفوائد" (2/75).

(510) انظر: "البخاري مع الفتح" (6/312).

قال: " باب قول الله -تعالى-: { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ } (511) ".
هذا الخطاب الكريم، وأمثاله كثير في كتاب الله -تعالى- عام شامل،
يجب أن يفهم على عمومه، كما يجب أن يفهم مراد الله -تعالى- فيه، وفي
غيره من خطابه -تعالى-.

"وقد اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله -تعالى- على كل
شيء قدير، كما في نصوص القرآن الكريم، وغيره من كتب الله -تعالى- وما
وجد من أفراد مسائل وقع الخلاف فيها، فهو بسبب عدم فهم النصوص،
كقول من يدخل في هذا العموم، الممتنع لذاته، مثل الجمع بين الضدين،
ككون الشخص ميتاً حياً في آن واحد، والجمع بين الحركة والسكون،
والسواد والبياض، وما أشبه ذلك.

وكذا من لا يدخل ذلك في هذا العموم، فلا يكون ذلك داخلياً عندهم في
عموم القدرة.

والحق أن الممتنع لذاته ليس شيئاً، ولا وجود له في الخارج، بل لا
يتصوره الفكر ثابتاً في خارج الذهن، ويمتنع تحققه في الأعيان وتصوره في
الأذهان، إلا على وجه التمثيل، فهو ليس بشيء، لا في الأعيان، ولا في
الأذهان، فلا يصلح أن يقال: إنه خارج من هذا العموم، أو داخل فيه؛ لأن هذا
يجعل له وجوداً ولو في الفرض، فيوقع في الشبه والشكوك، بل يقال: { إِنَّ
اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } وهذا ليس بشيء.

و أما المعدوم، فليس بشيء أيضاً في الوجود الخارج، ولكنه شيء في
التصور والذهن، وما علم الله -تعالى- أنه سيكون، فهو شيء في التقدير،
والعلم والكتاب، وإن لم يكن شيئاً في الخارج كما قال الله -تعالى-: { إِنَّمَا
أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } (512).

فلفظ الشيء في الآية يتناول ما وجد، وما يتصوره الذهن موجوداً، ولا
يستثنى من ذلك شيء، لا أفعال العباد، ولا أفعاله -تعالى-، سواء المتعدية، أو
اللازمة،

كما قال -تعالى-: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ } (513).
فجمع في الآية بين النوعين من الأفعال، المتعدية واللازمة.

(511) الآية 65 من سورة الأنعام .

(512) الآية 82 من سورة يس .

(513) الآية 4 من سورة الحديد ، انتهى من "مجموع الفتاوى" ملخصاً (11-8/7).

www.dorar.net الدرر السنية

والقدرة تتعلق بكل ما تتعلق به المشيئة، فإن ما شاء الله كان، ولا يكون شيء إلا بقدرته -تعالى-؛ ولهذا قال -تعالى-: { وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ }⁽⁵¹⁴⁾. { وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }⁽⁵¹⁵⁾

والشيء في الأصل، مصدر شاء، يشاء، شيئاً، كنال، ينال، نيلاً، ثم وضعوا المصدر موضع المفعول، فسموا "المشاء" شيئاً، كما سموا المنال: نيلاً، فقالوا: نيل المعدن، كما يسمى المقدور: قدرة، والمخلوق: خلقاً، فقوله تعالى: { عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } أي: على كل ما يشاء، فمنه ما قد شاءه فوجد، ومنه ما لم يشأه { فلم يوجد } وهو شيء في العلم، بمعنى أنه قابل لأن يشاءه.

فهذا العموم يتناول ما كان شيئاً في الخارج، والعلم، وما كان في العلم فقط، بخلاف ما لا يجوز أن تتناوله المشيئة، وهو الحق -تعالى- وصفاته، أو الممتنع لنفسه، فإنه غير داخل في العموم، ولهذا اتفق الناس على أن الممتنع لنفس ليس بشيء" اهـ⁽⁵¹⁶⁾.

⁵¹⁴ () الآية 29 من سورة الشورى .

⁵¹⁵ () الآية 120 من سورة المائدة، المصدر السابق (ص 383).

⁵¹⁶ () المصدر السابق (ص 383).

19- قال: " حدثني إبراهيم بن المنذر، حدثنا معن بن عيسى، حدثني عبد الرحمن ابن أبي الموالي، قال: سمعت محمد بن المنكدر يحدث عبد الله بن الحسن، يقول: أخبرني جابر بن عبد الله، السلمي، قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعلم أصحابه الاستخارة في الأمور كلها، كما يعلمهم السورة من القرآن، يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر - ثم تسميه بعينه - خيراً لي، في عاجل أمري وأجله - قال: أو: في ديني ومعاشي، وعاقبة أمري - فاقدره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم إن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: في عاجل أمري وأجله - فاصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به".

جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، الأنصاري الخزرجي، من أكابر علماء الصحابة، والحريصين على تحصيل العلم، فقد ذكر له عدة رحلات في طلب الحديث، منها: أنه رحل من المدينة إلى مصر من أجل حديث واحد، كما ذكره البخاري في "صحيحه" معلقاً، وكان حافظاً كثيراً عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وهو مفتي المدينة في زمانه، له مناقب كثيرة.

قال الواقدي: توفي سنة ثمان وسبعين، وقال صاحب الحلية: سنة سبع وسبعين. قيل: إنه عاش أربعاً وتسعين سنة، - رضي الله عنه - وعن سائر صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -⁽⁵¹⁷⁾.

قوله: " يعلمنا الاستخارة " أي: صلاتها ودعاءها، وهذا من تمام شفقتة على أمته، وحرصه على حصول الخير لهم، ودفع كل شر عنهم، وبمثل هذا يعلم أنه - صلى الله عليه وسلم - ما كان ليترك باب ما يعتقدونه في ربهم، من الإيمان بأسمائه وصفاته، وما يجب له، وما يمتنع عليه، ما كان ليترك ذلك بدون إيضاح وبيان لا يحصل معه أي التباس أو اشتباه، وهذا واضح جلي من دعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ومن حاله، وهو موجب الرسالة، ومن حالة أصحابه أيضاً.

الاستخارة: طلب الخير من أحد الأمرين، الفعل لما هم به، أو المترك، وهي مشروعة في عامة الأمور، كما يدل عليه هذا الحديث، لا يخرج من

⁽⁵¹⁷⁾ انظر: " سير أعلام النبلاء " (3/189)، و "الإصابة" (1/213)، و "أسد الغابة" (1/256) و "الاستيعاب" (1/219).

www.dorar.net الدرر السنية

عموم ذلك إلا الواجب، والمحرم، أما المستحب والمكروه، ففيهما تفصيل، يذكر في كتب الآداب الشرعية، وكتب الفروع.

وقوله: " كما يعلمنا السورة من القرآن " بيان لشدة الاهتمام بها والاعتناء، وهذا من محاسن الإسلام الظاهرة لكل عاقل، وقد كان العرب قبل ذلك إذا هم أحدهم بالأمر ذهب يستقسم بالأزلام، أو ذهب يزجر الطير ليستدل بطيرانه أو نعابه على ما سيحصل له في المستقبل، أو ذهب إليه الكهنة وإخوان الشياطين، وهذا كله رجم بالغيب، وشرك بالله، فعوضه الإسلام عن ذلك بالفزع إلى من بيده أزمة الأمور كلها، ومن يملك الخير والشر، فيقدمون بين يدي ذلك ركعتين، لتكونا وسيلة بين يدي الطلب، ثم يتوجهون إلى ربهم بهذا الدعاء، الذي فيه التوسل إليه -تعالى- بأسمائه وصفاته، وتوحيد الطلب والنية والقصد.

وقوله: " ليركع " أمر بالركوع، ويحمل على الندب؛ للأدلة الدالة على عدم الوجوب.

قوله: " من غير الفريضة " يدل على عدم حصول سنة الاستخارة بالدعاء عقب صلاة الفرض، بل لابد أن تكون بركعتين غير الفريضة، ثم يدعو بهذا الدعاء.

قوله: " اللهم إني أستخيرك " أي: أطلب منك بيان وتيسير ما هو خير لي.

قوله: " بعلمك " أي: أسألك وأتوسل إليك بصفتك، صفة العلم، أن ترشدني إلى الخير فيما أريد، فإنك عالم به لا يخفى عليك شيء. وهذا صريح في إثبات صفة العلم لله -تعالى- ودعائه به، والأدلة عليه لا حصر لها، كما سبقت الإشارة إليه.

وقوله: " وأستقدرك " أي: أسألك أن تجعلني قادراً على فعل ما أريد، وتهيء أسباب ذلك لي.

وقوله: " بقدرتك " وهذا سؤال لله -تعالى- بصفته التي هي القدرة، أي: أنت القادر الذي لا يعجزه شيء، فأسألك بهذه القدرة العظيمة أن تنيلني ما أريد، وهذا هو محل الشاهد من الحديث للباب، كما هو ظاهر.

ص 177

ثم عاد إلى التوسل بهاتين الصفتين، بقوله: " فإنك تقدر ولا أقدر " الخ، يعني: لك القدرة الكاملة الشاملة، فأسألك بها، كما أنني أسألك بفقرتي إليك وعجزتي، فليس لي قدرة على شيء حتى تجعلني قادراً عليه، وتيسر لي أسبابه، وأنت تعلم عواقب الأمور، وما تؤول إليه، بل لا يخفى عليك شيء في الماضي، والحاضر، والمستقبل، فعلمك شامل لكل شيء، ولا علم لي بشيء من ذلك إلا ما علمتني.

www.dorar.net الدرر السنية

وقوله: " وأنت علام الغيوب " أي: ذلك خاص بك، لا يعلمه سواك.
قوله: " ثم يسميه بعينه " ظاهر في أنه يتلفظ به معيناً له باسمه؛ ليكون
بذلك أقوى على اجتماع العزم على طلبه.

"في عاجل أمري وأجله" أي: في دنياي وآخرتي.
"أو في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري" شك من الراوي: هل قال الأول
أو الثاني؟ والمعنى واحد.

وقوله: " فاقدره لي، ويسره لي " اقض به لي، واجعلني قادراً على
الحصول عليه، وسهل لي أسبابه بحيث أناله بلا مشقة وكلفة، وفي هذا: أنه
لا يحصل شيء إلا بسبب.

"ثم بارك لي فيه " اجعل فيه بركة تنميه وتزيده، وفيما يترتب عليه.
"اللهم إن كنت تعلم أنه شر لي، في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري- أو
قال: عاجل أمري وأجله- فاصرفني عنه " أي: هيئ الأسباب التي تصرف
قلبي وتثني عزمي عن فعله.

"واقدر لي الخير حيث كان " أي: قدر لي فعل ما فيه خير لديني ودنياي،
في أي مكان، وفي أي وقت.

"ثم رضني به " أي: اجعلني راضياً به، قانعاً، ناعماً البال، مستغنياً عن
خلقك، مستعيناً به على طاعتك، وشاكراً لك منقاداً لأمرك.

ومراد البخاري: إثبات صفة القدرة لله -تعالى- وأن قدرته -تعالى- عامة
لكل مقدور، والرد على القدرية نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم، الذين
يقيدون قدرة الله -تعالى- بما اخترعوه من عند أنفسهم، ولهذا اقتصر على
هذا القدر من الآية، أي القادر على كل شيء.

ص 178

فالله -تعالى- يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا مانع له، ولا يقدر غيره أن
يمنعه مراده " فهو قادر على كل مقدور".

وكل ممكن يكون مقدوراً له، فما من ممكن في نفسه إلا والله قادر
عليه.

و أما الممتنع لنفسه، فإنه ليس بشيء عند جميع العقلاء، إن تنازعوا في
المعدوم الممكن مثل إيمان الكافر: هل هو شيء أو لا؟ فأما الممتنع لنفسه:
فلم يقل أحد إنه شيء في الخارج، والممتنع هو: ما لا يمكن وجوده في خارج
الذهن، مثل كون الشيء موجوداً معدوماً⁽⁵¹⁸⁾، فإنه لا يعقل ثبوت ذلك، وكذا
كون الشيء أسود كله وأبيض كله، وكون الجسم الواحد بعينه في الوقت
الواحد في مكانين، والممتنع يراد به الممتنع لنفسه مثل هذه الأمور، ويراد به

(518) ومن ذلك قول بعض الملاحدة: هل يقدر الله أن يخلق مثل نفسه؟ فهذا ممتنع لنفسه، وإنما يورده جاهل لا
يتصور ما يقول، أو ملبس معاند يريد إفساد عقائد عوام المؤمنين، أو التشكيك في قدرة الله -تعالى-.

الممتنع لغيره مثل ما علم الله أنه لا يكون، وأخبر أنه لا يكون، وكتب ذلك، فهذا ممتنع، لأنه لو كان للزم أن يكون علم الله متخلفاً عن معلومه، وخبره بخلاف الواقع، تعالى عن ذلك، ولكن هو ممكن بنفسه والله قادر عليه، كما قال -تعالى-: {بَلَى قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ تُسَوِّيَ بَنَاتَهُ} (519)، وقال -تعالى-: {وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ} (520)، وقال -تعالى-: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} (522).

وأمثال ذلك مما يخبر -تعالى- أنه لو شاء لفعله، فإن هذه الأمور التي أخبر أنه لو شاء لفعلها يلزم أنها ممكنة مقدورة له، فإيمان من علم الله أنه لا يؤمن مقدور له ممكن، لكنه لا يقع، وقد علم الله أنه لا يؤمن، مع كونه مستطيع الإيمان، كمن علم أنه لا يحج مع استطاعته الحج.

قال الله -تعالى-: {وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (523)

ص 179

وحقيقة الأمر هو ما أخبر الله به في غير موضع من كتابه أنه على كل شيء قدير، وهذا هو ما يعتقده أهل السنة المثبتون للقدر" (524).
"فعند أهل السنة أن الله على كل شيء قدير، وكل ممكن فهو مندرج في هذا، وأما المحال لذاته مثل كون الشيء الواحد موجوداً معدوماً، فهذا لا حقيقة له، ولا يتصور وجوده، ولا يسمى شيئاً باتفاق العقلاء، ومن هذا الباب خلق مثل نفسه، وأمثال ذلك" (525).

(519) الآية 4 من سورة القيامة .

(520) الآية 18 من سورة المؤمنون .

(521) الآية 13 من سورة السجدة .

(522) الآية 118 من سورة هود عليه السلام .

(523) الآية 28 من سورة الأنعام .

(524) "منهاج السنة" (2/118-122) ملخصاً ببعض التصرف .

(525) المصدر السابق (1/213).

قال: " باب مقلب القلوب " وقول الله تعالى: { وَتُقَلَّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ }⁽⁵²⁶⁾.

قال الراغب: " تقلب الشيء: تغييره من حال إلى حال، والتقلب: التصرف، وتقلب الله القلوب والبصائر: صرفها من رأي إلى رأي " ⁽⁵²⁷⁾.
قال ابن عباس: " لما جحد المشركون ما أنزل الله، لم تثبت قلوبهم على شيء، وردت عن كل أمر " ⁽⁵²⁸⁾.

وقال مجاهد: " ونحول بينهم وبين الإيمان، ولو جاءتهم كل آية، فلا يؤمنون، كما حلنا بينهم وبين الإيمان أول مرة " ⁽⁵²⁹⁾.
قال الحافظ: " المراد بتقلب القلوب: تقلب أعراضها، وأحوالها، لا تقلب ذات القلب " ⁽⁵³⁰⁾.

أخبر -تعالى- أنه يعاقب من لا يقبل الحق، أو يردده أول ما يبلغه بتقلب القلب، وتركه يعمه في ضلاله وغيره، كما في هذه الآية المذكورة في الباب، وكما في قوله -تعالى-: { فَلَمَّا رَأَوْا آرَاجَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ } ⁽⁵³¹⁾، وفي هذا بيان أن الله -تعالى- إذا منع فضله الإنسان، بالهداية، أنه يكون منحرفاً ضالاً.
ومراد البخاري - رحمه الله - وصف الله -تعالى- بأنه المنفرد بالتصرف في خلقه حتى قلوب العباد التي تنطوي على آرائهم، ونياتهم، وما يخططون لمستقبلهم، حيث يرى كثير منهم أو أكثرهم في الظاهر أنهم أحرار في أفكارهم، وما يريدونه، والواقع أن الله - تعالى - هو الذي يصرفهم في ذلك، فلا قدرة لهم إلا بعد مشيئته،

وبهذا يشير البخاري - رحمه الله - إلى تمام قدرة الله التي سبق ذكرها في الباب قبل هذا، حيث بين بهذا أن الله هو المتصرف بالقلوب، فإن شاء جعلها مريدة للخير، وإن شاء جعلها مريدة للشر وبذلك يعلم أنه لا قدرة لأحد على شيء إلا بعد أن يجعله الله قادراً عليه، خلافاً لما يقوله الضالون عن الحق، من أهل البدع والانحراف.

⁽⁵²⁶⁾ الآية 110 من سورة الأنعام.

⁽⁵²⁷⁾ " المفردات " (ص 411).

⁽⁵²⁸⁾ رواه الطبري ، انظر: " التفسير " (12/43،41).

⁽⁵²⁹⁾ المصدر نفسه (12/44).

⁽⁵³⁰⁾ " الفتاح " (11/527).

⁽⁵³¹⁾ الآية 5 من سورة الصف .

20- قال: " حدثنا سعيد بن سليمان، عن ابن المبارك، عن موسى بن عقبة، عن سالم، عن عبد الله، قال: " أكثر ما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يحلف: لا، ومقلب القلوب".

ذكر البخاري - رحمه الله - هذا الحديث في كتاب القدر، بلفظ: " كثيراً ما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يحلف " لا، ومقلب القلوب" (532).
وذكر عن ابن عمر - أيضاً -: " كانت يمين النبي -صلى الله عليه وسلم- لا، ومقلب القلوب" (533).

وفي رواية ابن ماجه: " كان أكثر أيمان رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: لا، ومصرف القلوب" (534).

قال الحافظ: " في هذا الحديث دليل على أن أعمال القلب، من الإرادات والدواعي وسائر الأعراض، بخلق الله -تعالى- وفيه جواز تسمية الله -تعالى- بما ثبت من صفاته على الوجه الذي يليق به" (535).

ففي هذا الحديث، وما هو نحوه من الدلائل، أن الله -تعالى- هو الذي يتولى قلوب العباد يصرفها كيف يشاء، وهذا من تمام ملكه، فلا ينازعه أحد في التدبير والتصرف، ولا يقع في الوجود إلا ما أَرادَه، وبهذا يعلم مدى حاجة العبد إلى ربه، وأنه لا غنى له عنه طرفة عين، فلا بد له من هدايته وتوفيقه، وإلا ضل وتاه في مهامه نهايتها الهلاك، والعذاب المؤبد، وهذا لا ينافي تكليف العباد بالأعمال التي يترتب عليها الجزاء، كما سيأتي -إن شاء الله تعالى- في موضعه.

وفي " صحيح مسلم" عن عبد الله بن عمرو، أنه سمع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: " إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين، من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه

كيف يشاء" ثم قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك" (536).

(532) انظر: " البخاري مع الفتح " (11/513).

(533) انظر: المرجع السابق (ص 523).

(534) انظر: " سنن ابن ماجه " (1/677) رقم (2092).

(535) " فتح الباري " (11/527).

(536) انظر: " مسلم " ، كتاب القدر ، (4/2045) رقم الحديث (2654).

قال: " باب إن لله مائة اسم إلا واحدة " .

مراده بهذا الباب: وجوب إثبات أسماء الله -تعالى- على ما ورد في كتاب الله، وعن رسوله، وأن ذلك من التوحيد الذي بينه الرسول -صلى الله عليه وسلم- ودعا أمته إلى الإيمان به، ووجوب اعتقاده، قال الله -تعالى-: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (537)، وقال - جل وعلا - {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ} (538)، وقال - تبارك وتعالى -: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ} (539).

فهذه الآيات وغيرها مما في معناها، تدل على وجوب الإيمان بما لله -تعالى- من الأسماء الحسنى، الدالة على عظيم جلاله، وسمعة أوصافه، فكل اسم من أسمائه دال على كمال عظمته، وبذلك كانت حسنى، أما الأسماء التي لا تدل على صفات الكمال، فليست بحسنى، وكذلك إذا اشتركت دلالتها بين الكمال والنقص، أو دلت على مجرد علم محض، مثل إبراهيم، وزيد، فلا تكون حسنى حتى تدل على كمال الصفة التي اشتق منها الاسم، مثل "العليم" فإنه يدل على أن له علماً عاماً محيطاً بجميع الأشياء، لا يخرج عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض، ومثل "القدير" الدال على قدرته التي لا يعجزها شيء، و"الرحيم" الدال على رحمته العظيمة التي وسعت كل شيء.

وهكذا كل أسمائه - جلا وعلا - وهذا تفصيل وبيان للباب الثاني من الكتاب، ولكونها حسنى أوجب على عباده دعاءه بها، كما يأتي في الباب بعد هذا، وتوعد الملحدين بها.

فيدعى بكل مطلوب بما يناسبه منها، فقال: اللهم اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، وتب عليّ إنك عفو كريم، والطف بي يا لطيف، وارزقني يا رزاق، وهكذا.

"قوله: " إن لله مائة اسم إلا واحدة" التأنيث في لفظة "واحد" نظراً إلى التسمية أو الكلمة، كما يقول النجاة: " الكلمة اسم أو فعل أو حرف". وقال ابن مالك: " أنت باعتبار معنى التسمية، أو الصفة، أو الكلمة" (540). وفي بعض روايته: " إلا واحداً". قال ابن عباس: {ذو الجلال}: العظمة، {البر}: اللطيف".

(537) الآية 180 من سورة الأعراف .

(538) الآية 110 من سورة الإسراء .

(539) الآية 24 من سورة الحشر .

(540) "فتح الباري" (11/219).

www.dorar.net الدرر السنية

في رواية: " ذو الجلال: العظيم"، فيكون "العظيم" تفسيراً لـ " ذو"،
وعلى الأولى تفسيراً لـ "الجلال".
ف ذو الجلال: صاحب العظمة، الذي لا تقاس عظمته بشيء من خلقه -
جل وعلا.
و أما "البر" فهو: المحسن غاية الإحسان إلى خلقه، من غير استحقاق
ولا مقابل، فهو بليغ الإحسان إلى خلقه، وإحسانه شامل لهم.
و أما " اللطيف" فهو: العالم بالخفيات، ودقائق الأمور، وغوامضها، والله
أعلم.
وقال الزجاج: " اللطيف": المحسن إلى عباده في خفاء وستر، من حيث
لا يعلمون" (541).

⁵⁴¹() "تفسير الأسماء الحسنى" (ص 44).

21-قال: " حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: " إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة".
{أحصيناه} حفظناه.

" قال جماعة من العلماء: الحكمة في قوله: " مائة إلا واحداً" بعد قوله: " تسعة وتسعين" أن يقرر ذلك في نفس السامع، جمعاً بين جهتي الإجمال والتفصيل، أو دفعاً للتصحيح الخطي، أو اللفظي"⁽⁵⁴²⁾

قوله: " إن لله تسعة وتسعين اسماً" هذا لا يقصد به حصر أسماء الله تعالى- في هذا العدد المذكور، وإنما قصد الإخبار عما يترتب على إحصائها وجزائها، كما تقول: عندي مائة كتاب أعدتها للإعارة، فلا ينفي أن يكون عندك كتب غيرها، فالتقييد بهذا العدد عائد إلى الأسماء الموصوفة بهذه الصفة، وهي قوله: " من أحصاها دخل الجنة" فهذه الجملة محلها النصب صفة " لتسعة وتسعين"، ويجوز أن تكون في محل رفع على الابتداء، والمعنى " إن لله أسماء بقدر هذا العدد، من أحصاها دخل الجنة".

فأسماء الله -تعالى-، لا تدخل تحت حصر، ولا تحد بعدد، بدليل ما رواه الإمام أحمد في " المسند"، حدثنا يزيد، أنبأنا ابن مرزوق، حدثنا أبو سلمة الجهني⁽⁵⁴³⁾، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " ما أصاب أحداً قط هم، ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماض في حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم سميت به نفسك، أو علمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً"⁽⁵⁴⁴⁾ سنده صحيح.

قال ابن كثير: " أخرجه الإمام أبو حاتم ابن حبان في " صحيحه" بمثله"⁽⁵⁴⁵⁾.

فهذا يدل على أن لله أسماء غير التسع والتسعين.
وقوله في الحديث: " أو استأثرت به في علم الغيب عندك" معناه: انفردت بعلمه فلم تطلع عليه أحداً، لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا.

⁽⁵⁴²⁾ () " الفتح" (11/219).

⁽⁵⁴³⁾ () يزيد هو: ابن هارون، إمام حافظ مشهور. وابن مرزوق هو: فضيل بن مرزوق الأغر الرقاشي الكوفي، من رجال مسلم، وأبو مسلمة وأبو سلمة هو موسى بن عبد الله أو ابن عبد الرحمن.

⁽⁵⁴⁴⁾ () "المسند" (1/391، 452)، وانظر: " الفتح الرباني" (14/262).

⁽⁵⁴⁵⁾ () انظر: " تفسير ابن كثير" (3/517) ط الشعب.

الدرر السنية www.dorar.net

وقسم أسماء الله -تعالى- في هذا الحديث ثلاثة أقسام: أحدها: ما سمي به نفسه، فأظهره لمن شاء، من ملائكته أو غيرهم، ولم ينزله في كتبه.

والثاني: أنزله في كتبه، أو في بعضها، فتعرف به إلى عباده.
والثالث: استأثر به في علم الغيب عنده، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه، ولهذا قال: "أو استأثرت به في علم الغيب عندك" أي: جعلته من الغيب الذي لا يعلمه غيرك، وليس المراد أنه -تعالى- انفرد بالتسمي به؛ لأن هذا الانفراد ثابت في الأسماء التي أنزلها في كتبه، وهو ثبوت ما دلت عليه من المعاني اللائقة بعظمته، لا مجرد التسمية.

ومن الأدلة على عدم حصرها فيما ذكر: قوله -صلى الله عليه وسلم- في حديث الشفاعة: " فيفتح عليّ من محامده ما لا أحسنه الآن " وتلك المحامد، هي الثناء عليه -تعالى- بما له من أسماء حسنى وصفات عليا.
ومن الأدلة أيضاً قوله -صلى الله عليه وسلم-: " لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"⁵⁴⁶ وأحسن الثناء ما كان بأسمائه الحسنى وصفاته العلية.

وبهذا يتبين أن الأسماء الحسنى غير محصورة في العدد المذكور، وإنما خص ذكر هذا العدد لما رتب عليه من الحكم، وهو: " من أحصاها دخل الجنة "، فليس في الحديث حصر أسماء الله -تعالى- ولا يدل على أنه ليس لله اسم غير هذه التسعة والتسعين، وإنما أريد به الإخبار بدخول الجنة لمن أحصاها، لا الإخبار بحصرها،

ص 188

و إلى هذا ذهب جمهور العلماء، كما ذكره الحافظ، ونقل النووي الاتفاق على ذلك⁵⁴⁷.

قال شيخ الإسلام: " والصواب الذي عليه جمهور العلماء: أن قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: " إن لله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة " معناه: أن من أحصى التسعة والتسعين من أسمائه دخل الجنة، ليس مراده أنه ليس له إلا تسعة وتسعون اسماً، فإن في الحديث الآخر الذي رواه أحمد وأبو حاتم في " صحيحه " : " أسألك بكل اسم هو لك " الحديث، وفي " الصحيحين " : " لا أحصي ثناء عليك " ولو أحصى جميع أسمائه، لأحصى صفاته، فكان يحصى الثناء عليه؛ لأن صفاته يعبر عنها بأسمائه "⁽⁵⁴⁸⁾.

قوله: " من أحصاها دخل الجنة " اختلف في المقصود من الإحصاء، وربما فهم من صنيع البخاري أنه يرى أن إحصاءها هو حفظ ألفاظها، كما فهم

⁵⁴⁶ رواه "مسلم" في كتاب الصلاة (1/352)، و"أبو داود" في الوتر (2/134) وغيرهما.

⁵⁴⁷ انظر: "فتح الباري" (11/220).

⁵⁴⁸ ("درء تعارض العقل والنقل" (3/332)).

من ذلك الحافظ ابن حجر، وعندني فيه نظر، وذلك أن عادة البخاري التي سار عليها في كتابه هذا، أنه إذا جاء لفظ في الحديث، وفي القرآن لفظ يوافق في اللفظ والاشتقاق، أنه يذكره وإن كان لا يوافق في المعنى، وأمثلة ذلك كثيرة:

فهو في قوله: "أحصيناه: حفظناه" يشير إلى قوله -تعالى-: {وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ}، قال الأصيلي: "إحصاؤها: العمل بها، لا عددها وحفظها؛ لأن ذلك قد يقع للكافر والمنافق، كما في حديث الخوارج: " يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم" (549).

وذكر العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى - لإحصائها ثلاث مراتب: "الأولى: إحصاء ألفاظها، وعددها. والثاني: فهم معانيها ومدلولها. الثالثة: دعائه -تعالى- بها، كما قال: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا}.

والدعاء نوعان:

1-دعاء ثناء وعبادة.

ص 189

2-ودعاء مسألة وطلب، وكلا النوعين ورد بهما القرآن بكثرة. فلا يثنى عليه -تعالى- إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، كما لا يسأل إلا بها، ويسأل بها في كل مطلوب بما يناسبه ويقتضيه من الأسماء الحسنى، والصفات العلية الكريمة، كما تقدمت الإشارة إليه.

وهذا من أعظم الوسائل إلى الله -تعالى-، وأنفعها، ولهذا جاءت أدعية الرسل مطابقة لذلك" (550).

وبهذا يتبين أن إحصاءها الموعود عليه دخول الجنة، يتضمن حفظها وفهمها، ودعاء الله بها، والله أعلم.

قال أبو عمر الطلمنكي: " من تمام المعرفة بأسماء الله -تعالى- وصفاته التي يستحق بها الداعي والحافظ ما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- المعرفة بالأسماء والصفات، وما تتضمنه من الفوائد، وتدل عليه من الحقائق، ومن لم يعلم ذلك لم يكن عالماً لمعاني الأسماء ولا مستفيداً بذكرها ما تدل عليه من المعاني" (551).

(549) "فتح الباري" (11/226).

(550) انظر: "بدائع الفوائد" (1/164).

(551) "فتح الباري" (11/226).

قال: " باب: السؤال بأسماء الله -تعالى-، والاستعاذة بها".
السؤال: هو الطلب بذل وخضوع وافتقار، والاستعاذة هي: العوذ والاحتماء بمن يدفع المكروه، ويرفع البلاء بعد نزوله، وهما من أفضل أنواع العبادة، فالبخاري - رحمه الله- أراد بهذا الباب أن يبين معنى دعاء الله -تعالى- بأسمائه الذي أمر الله به، وأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد بينه.

قال ابن بطال: " مقصود بهذه الترجمة: تصحيح القول بأن الاسم هو المسمى، فلذلك صحت الاستعاذة بالاسم، كما تصح بالذات" (552).
قلت: هذا بعيد عن مقصود البخاري، وإنما مقصوده بيان كيفية دعاء الله وعبادته بأسمائه التي أمر أن يدعى بها ويعبد، بقوله -تعالى-: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا} وبين ذلك الرسول -صلى الله عليه وسلم- بفعله، وأمره، كما في الأحاديث التي ذكرت في هذا الباب وغيرها.
وأما مسألة: هل الاسم هو المسمى، أو غيره؟ فهي من بدع الكلام، التي حدثت بعد القرون المفضلة، والتي اختلط فيها الحق بالباطل.
والبخاري - رحمه الله - من أبعد الناس عن مثل ذلك.

قال ابن جرير الطبري - رحمه الله -: " وأما القول في الاسم: أهو المسمى أم هو غيره؟ فإنه من الحماقات الحادثة، التي لا أثر فيها فيتبع، ولا قول من إمام فيستمع، فالخوض فيه شين، والصمت عنه زين، وحسب امرئ من العلم به والقول أن ينتهي إلى قوله - جل ثناؤه- الصادق، وهو قوله - تعالى-: { قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ } (553) وقوله: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ} (554).

"وكان سبب حدوث هذه المسألة، أن الجهمية قالوا: إن الاسم غير المسمى، وأسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق؛ لأن الله -تعالى- وحده هو الخالق، وما سواه مخلوق، فإذا كانت أسماؤه غيره، فهي مخلوقة. فرد عليهم السلف، واشتد

نكيرهم عليهم؛ لأن أسماء الله من كلامه، وكلام الله غير مخلوق، فهو الذي سمى نفسه بهذه الأسماء.
فكان مراد الذين يقولون: الاسم غير المسمى {من أهل السنة} هو هذا.

(552) "الفتح" (13/379).

(553) الآية 110 من سورة الإسراء .

(554) الآية 180 من سورة الأعراف ، " عقيدة الطبري " (ص 12).

ولهذا روي عن الشافعي، والأصمعي، وغيرهما، أنهم قالوا: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم غير المسمى، فاشهد عليه بالزندقة" (555).

وللناس في هذه المسألة ثلاثة أقوال: أحدها: ما ذكره ابن بطلال، وإليه ذهب كثير من المنتسبين إلى السنة كآبي القاسم الطبري اللالكائي، والبغوي، وغيرهما.

قال البغوي: " والاسم هو المسمى، وعينه، وذاته، قال الله -تعالى-: {إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى} (556).

فأخبر أن اسمه يحيى، ثم نادى الاسم، فيقال: {يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ} (557). وقال -تعالى-: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا} (558)، وأراد

الأشخاص المعبودة؛ لأنهم كانوا يعبدون المسميات.

وقال -تعالى-: {سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى} وقال: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}.

والقول الثاني: أن الاسم غير المسمى.

والثالث: أن الاسم للمسمى، وهذا القول دل عليه الكتاب والسنة، قال -تعالى-: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا} (559)، وقال -تعالى-: {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ} (560)، وقال -تعالى-: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ} (561)، وقال -تعالى-: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ} (562).

ومن السنة هذا الحديث: " إن لله تسعة وتسعين اسماً".

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: " إن لي خمسة أسماء، أنا محمد، وأحمد، والمحي، والحاشر، والعاقب" (563).

هذا مذهب أكثر أهل السنة.

فلا يطلقون بأنه المسمى، ولا غيره، بل يفصلون، حتى يزول اللبس.

فإذا قيل لهم: أهو المسمى أم غيره؟ قالوا: ليس هو نفس المسمى، ولكن يراد به المسمى.

وإن أريد بأنه غيره: كونه بائناً عنه، فهو باطل؛ لأن أسماء الله من كلامه، وكلامه صفة له، قائمة به، لا تكون غيره.

(555) "مجموع الفتاوى" (6/187).

(556) الآية 7 من سورة مريم .

(557) الآية 12 من سورة مريم.

(558) الآية 40 من سورة يوسف .

(559) الآية 180 من سورة الأعراف .

(560) الآية 110 من سورة الإسراء.

(561) الآية 8 من سورة طه .

(562) الآية 24 من سورة الحشر .

(563) رواه البخاري ، انظره مع "الفتح في التفسير" (8/640) ، وفي "المناقب" (6/544) ، ومسلم في "الفضائل"

(4/1828) رقم (2354) ورقم (2355).

واسم الله -تعالى- في مثل إذا قيل: " الحمد لله " أو "بسم الله" يتناول ذاته وصفاته، لا ذاتاً مجردة عن الصفات، ولا صفات مجردة عن الذات. وقد نص الأئمة على أن صفاته، داخلة في مسمى أسمائه، فلا يقال: إن علمه وقدرته زائدة عليه.

ومن قال من أهل السنة: إن الصفات، زائدة على الذات، فمراده: أنها زائدة على ما أثبتته أهل التعطيل، الذين أثبتوا ذاتاً مجردة عن الصفات؛ لأنه ليس في الوجود ذات مجردة عن الصفات، كما لا يمكن وجود صفات بلا ذات، تقوم بها، فتخيل وجود أحدهما دون الآخر من الهوس. ثم إن الذين قالوا: إن الاسم هو المسمى، ليس مرادهم أن مجرد اللفظ هو الذات، التي وضع لها هذا الاسم، فإن هذا لا يقوله عاقل.

ص 193

كما أن الذين قالوا أن الاسم غير المسمى، لم يريدوا أن مجرد اللفظ غير الذات، فإن هذا لا جدال فيه. وما ذكره البغوي - رحمه الله - محتجاً به على أن الاسم هو المسمى، فهو لا يدل على ما قاله.

فقوله -تعالى-: { إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ } ثم قال { يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ } فاللفظ الذي هو "ألياء والحاء والياء" ليس هو ذات المسمى به، فمن زعم ذلك فقد كابر.

فالمقصود نداء المسمى لا نداء اللفظ، والمتكلم لا يمكنه نداء من يريد مناداته إلا بذكر اسمه، إلا أن يكون ذلك بالإشارة. و أما قوله -تعالى-: { مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا } (564). فليس المراد: أنكم تعبدون الأوثان المسماة، فهم معترفون بذلك. بل المراد: نفي ما كانوا يعتقدونه فيها من الإلهية، والواقع أنه ليس فيها شيء من ذلك.

فإذا عبدوها معتقدين ثبوت إلهيتها، مسمينها آلهة، لم يكونوا في حقيقة الأمر عبدوا إلا أسماء ابتدعوها، ما أنزل الله بها من سلطان، وليس فيها من معنى الإلهية شيء، فعبادتهم لما تصوره في أنفسهم من معنى الإلهية وعبروا عنه بالسنتهم.

وهذا التصور خيالي، لا حقيقة له، فهم لم يعبدوا في الحقيقة إلا ذلك الخيال الفاسد، الذي تصوره، وسموه إلهاً، فكان مجرد تسمية فقط، ليس له من معنى الإلهية شيء.

و أما قوله -تعالى-: { سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى } فالمراد به، تسبيحه -تعالى- وتنزيهه عما لا يليق به، معتقداً ذلك بقلبه، متلفظاً باسمه بلسانه،

قائلاً: " سبحان ربي الأعلى " والمراد المسمى بهذا الاسم، فتسبيح الاسم هو تسبيح المسمى.

ص 194

ومن قال: المراد بتسبيح الاسم، أنك لا تسمى به غير الله، ولا تلحد في أسمائه، فهذا المعنى مما يستحقه اسم الله -تعالى- وهو داخل في المراد بالآية، ولكن المقصود المعنى الأول، والله أعلم.
و أما قوله -تعالى-: { تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ } فالمعنى: أن البركة تكتسب، وتنال بذكر اسمه.

ولو كان لفظ الاسم يراد به المسمى، لكفى قوله: تبارك ربك؛ لأن نفس الاسم عندهم هو الرب، فيكون بذكر الاسم تكرار.
وبهذا يتبين أن الشبه التي دعت كثيراً من العلماء إلى القول بأن الاسم هو المسمى أنها باطلة، وهي: أن الله -تعالى- وحده هو الخالق، وما سواه مخلوق، فإذا قيل: إن أسماء الله غيره، لزم أن تكون مخلوقة⁽⁵⁶⁵⁾.

⁽⁵⁶⁵⁾ هذا البحث من منتصف صفحة (193) كله مقتبس من رسالة شيخ الإسلام في الموضوع المثبتة في المجلد السادس من "الفتاوى" انظر: (ص 185).

22- قال: " حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثني مالك، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " إذا جاء أحدكم فراشه، فلينفذه بصنفة ثوبه ثلاث مرات، وليقل باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين".

العبد الصادق العبودية، لا ينفك عن عبادة ربه، في أمور حياته كلها، في خروجه من بيته، وفي دخوله، وفي أكله وشربه، وفي نومه ويقظته، وفي مقارفته لأهله، ومعاملته للناس، ولذلك أرشد الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى هذا النوع من العبادة، في هذا الحديث وغيره، عند النوم، والاستيقاظ منه، وهو من عبادة الله ودعائه بأسمائه.

قوله: " فلينفذه بصنفة ثوبه ثلاث مرات " صنفة الثوب: طرفه من الداخل، لما في الرواية الأخرى: " داخلة إزاره " ولو فعل ذلك بغير طرف ثوبه حصل المقصود، والحكمة في ذلك إزالة ما لعله يكون فيه مما يؤذيه، وأمر بأن يكون ذلك ثلاث مرات، للمبالغة، وليكون ذلك وترًا، إذ المتر معتبر في الشرع.

" وليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه " لما كان النوم نوعاً من الموت، وقد يموت فيه حقيقة، لجأ إلى ربه بذكر اسمه، داعياً ومبتهلاً به، وسائلاً به المغفرة، وهي ستر الذنوب، والعفو عنها، إن أمسك نفسه - أي قبضها في النوم - فلم يردّها إلى بدنّها.

قال - تعالى -: { اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (566).

" وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين " أي: إن رددتها إلى بدنّها، فاحفظها من الشياطين، والضلال، والمؤذيات، بحفظك وحمایتك، التي تحمي بها أولياءك الذين تتولى حفظهم من كل مضر ومؤذ.

ففي هذا الحديث مشروعية ذكر الله - تعالى - عند النوم؛ ليكون موته الأصغر على اسمه، فيدخل بذلك في العمل بقوله تعالى: { قُلْ إِنْ صَلَّيْتُمْ وَنَسُكْتُمْ وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } (567).

وفيه الاستسلام لله، والافتقار إليه، وسؤاله ما لا غنى له عنه، وهذا كله من عبادة الله تعالى ودعائه بأسمائه، فهو تفسير لقوله - تعالى -: { وَ لِلَّهِ

(566) الآية 42 من سورة الزمر .
(567) الآية 162 من سورة الأنعام .

الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَاذْعُوهُ بِهَا {⁽⁵⁶⁸⁾، وهذا هو وجه ذكر البخاري له، ولما يأتي من الأحاديث.

23-قال: " حدثنا مسلم، حدثنا شعبة، عن عبد الملك، عن ربعي، عن حذيفة - رضي الله عنه -: " كان النبي -صلى الله عليه وسلم- إذا أوى إلى فراشه، قال: " اللهم باسمك أحيا وأموت، وإذا أصبح قال: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور".

حذيفة هو ابن اليمان، واسم اليمان: حسيل، أو حسيل، وهو عسي. كان من كبار أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ومن الفقهاء النجباء أهل الفتوى، وضح عنه أنه قال: " كان الناس يسألون رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، مخافة أنقع فيه" ولهذا اختص بمعرفة الفتن، كما أنه عرف بصاحب السر، حيث أسر إليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أسماء المنافقين، وأمره أن يكتم ذلك، وسأله رجل عن أشد الفتن فقال: " أن يعرض عليك الخير والشر فلا تدري أيهما تختار " توفي - رضي الله عنه - سنة ست وثلاثين⁽⁵⁶⁹⁾.

" إذا أوى إلى فراشه " أي: رجع إليه بعد عمل النهار. " اللهم باسمك أحيا وأموت " أي ذكراً اسمك في حياتي، مطمئناً به قلبي، إذ لا راحة لي ولا اطمئنان إلا بذكر اسمك، ولا حياة نافعة إلا بذلك. وعلى ذكر اسمك يا رب أموت، متوسلاً به إليك أن تتولاني، وتحفظني في جميع أحوالي.

" وإذا أصبح قال: " الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور". النوم نوع من الموت، واليقظة حياة، وهو نعمة من الله على عباده حتى ترتاح أبدانهم، وأفكارهم، وقد ينام الإنسان فلا ترجع إليه روحه، فإذا استيقظ سالماً، قد رجع إليه نشاطه وقوته، استوجب ذلك شكر الله -تعالى- والثناء عليه، فناسب قوله بعد يقظته: " الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا " أي: أرجع إلينا أرواحنا بفضله ومنته.

والنشور: هو البعث بعد الموتة الكبرى، فمصيرنا إلى ربنا، حتى يجازينا على أعمالنا كما وعدنا.

ففي هذا الحديث كالذي قبله، ذكر اسم الله -تعالى- عند النوم، والتوسل به، والثناء عليه بأن له الحمد، وهذا من الدعاء بأسماء الله الحسنى.

⁵⁶⁹() انظر: " الاستيعاب " (1/334)، " الرياضى المستطابة " (ص 49).

24-قال: " حدثنا سعد بن حفص، حدثنا شيبان، عن منصور، عن ربعي بن حراش، عن خرشة بن الحر، عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - إذا أخذ مضجعه من الليل قال: باسمك نموت ونحيا، فإذا استيقظ قال: الحمد لله، الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور".
أبو ذر الغفاري: اختلف في اسمه، وأسم أبيه، وصح الحفاظ أنه جندب بن جنادة، كان من السابقين الأولين إلى الإسلام، غير أنه ذهب إلى قومه فتأخرت هجرته، ففاته غزوات الرسول - صلى الله عليه وسلم - الأولى، وكان عازفاً عن الدنيا، راغباً بما عند الله، وقصة إسلامه في "الصحيحين"، وكان من الحنفاء قبل أن يسلم، له أخبار كثيرة، ومناقب شهيرة، توفي في الربذة سنة اثنتين وثلاثين، - رضي الله عنه -⁽⁵⁷⁰⁾.
هذا الحديث ليس فيه زيادة على الذي قبله، إلا قوله: " من الليل"، والأول يدخل فيه نوم الليل والنهار.

⁵⁷⁰() انظر: " الاستيعاب " (1/252)، و "الرياض المستطابة" (ص 272).

25-قال: " حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا جرير، عن منصور، عن سالم، عن كريب، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله، فقال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً".

هذا نوع آخر من الدعاء بأسماء الله -تعالى-.

"باسم الله" أي: أفعل ذلك، ذاكراً اسم الله، عابداً ربي بهذا الذكر، ومتبركاً به.

"اللهم جنبنا الشيطان" أي: أبعدنا عنه، فلا يشاركنا، ولا يحضرنا.

"وجنب الشيطان ما رزقتنا" أي: أبعد الشيطان عن الرزق الذي تقدره لنا من الولد، في هذا الاتصال.

ولا بد من الصدق في ذلك من القلب، والرغبة، والإيمان، والثقة بما قاله الرسول -صلى الله عليه وسلم- حتى يحصل الموعود، وهو عدم مضرة الشيطان للمولود.

والمقصود، ذكر الله -تعالى- عند مقاربة الزوجة، والاستعاذة به من الشيطان، أن يشاركه أو يحضره، أو يضر المولود بحال من الأحوال. وهذا كما تقدم من بيان معنى قوله -تعالى-: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا}.

26-قال: " حدثنا عبد الله بن مسلمة، حدثنا فضيل، عن منصور، عن إبراهيم، عن همام، عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - قال: سألت النبي - صلى الله عليه وسلم - قلت: أرسل كلابي المعلمة؟ قال: " إذا أرسلت كلابك المعلمة وذكرت اسم الله، فأمسكن فكل، وإذا رميت بالمعراض فخرق فكل".

عدي بن حاتم هو: أبو طريف، الجواد بن الجواد، قدم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في شعبان سنة تسع، بسبب كثرة كتابة أخته، فأسلم، وقد فرح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بإسلامه، وهو ممن ثبت الله قومه على الإسلام - حين ارتد الناس - بسببه، شهد فتوح العراق، وساهم فيها.

وكان شريفاً فاضلاً، جواداً عابداً، روي عنه أنه يقول: " ما دخل عليّ وقت صلاة إلا وأنا مشتاق إليها " ومن أقواله: " كثرة الكلام أوضع شيء لمقادير الرجال، وأمضى الأشياء عندي رد السؤال بغير نوال "، له أخبار كثيرة وفضائل، توفي في الكوفة سنة ثمان وستين، وقيل غير ذلك، وكان عمر طويلاً، قيل: كان عمره لما مات مائة وعشرون سنة، - رضي الله عنه -⁽⁵⁷¹⁾.

و أما الحديث، فيدل على نوع آخر من أنواع عبادة الله - تعالى - بذكر اسمه على الصيد، والكلاب المعلمة هي: التي تقبل التعليم، فإذا أمرت فعلت، وإذا نهيت انتهت، فإذا أرسلها صاحبها أمسكت الصيد له، وليس لنفسها، فلا تأكل منه.

ومفهوم الحديث: أنه إذا لم يذكر اسم الله - تعالى - عند الإرسال أنه لا يأكل مما أمسكت الكلاب المعلمة، وكذا إذا لم يخرق المعراض - وهو السهم - أي لم يجرح، ولم يصب الصيد بحدده، بأن أصابه بعرضه، فإنه لا يأكل؛ لأن الصيد حينئذ يكون وقيدة.

⁵⁷¹() "الاستيعاب" (3/1057) ، و "أسد الغابة" (3/392) ، و "الإصابة" (2/468).

27- قال: " حدثنا يوسف بن موسى، حدثنا أبو خالد الأحمر، قال: سمعت هشام بن عروة يحدث: عن أبيه، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قالوا: يا رسول الله، إن هنا أقواماً حديثاً عهدهم بشرك، يأتونا بلحمان، لا ندري يذكرون اسم الله عليها أم لا؟ قال: " اذكروا أنتم اسم الله وكلوا".

في هذا الحديث أن ذكر اسم الله على الذبيحة شرط في حل الأكل منها، وأنه إذا كان ظاهر الذابح الإسلام، لا يلتفت إلى الاحتمال بأنه ذبحها على غير اسم الله، أو أنه لا يعرف الحكم، وما أشبه ذلك.

وقوله - صلى الله عليه وسلم -: " اذكروا اسم الله وكلوا " ليس معناه أن ذكر اسم الله - تعالى - عند الأكل يجعلها حلالاً إذا كانت قد ذبحت على غير اسم الله - تعالى -، ولكن أمرهم بذكر اسم الله عند الأكل؛ لأنه الذي يلزمهم، ومطياً بذلك قلوبهم، ومشيراً بذلك إلى إطراح الشك، إذ الأصل خلافه، وهو أن ظاهر الذابح الإسلام.

وهذا الحديث يدل على نوع آخر من عبادة الله - تعالى - بذكر اسمه على الذبيحة، وعلى الأكل، فهو من جنس ما تقدم.

28-قال: " حدثنا حفص بن عمر، حدثنا هشام، عن قتادة، عن أنس - رضي الله عنه- قال: " ضحى النبي -صلى الله عليه وسلم- بكبشين، يسمي ويكبر".

الأضحية هي: النسك الذي يذبح تقرباً إلى الله، - في الوقت المحدد له. والكبش: هو الذكر من الضأن. وقوله: " يسمي ويكبر " يعني عند الذبح، يقول: بسم الله، والله أكبر، أي: أذبح بسم الله متقرباً إليه عبادة له. فهذا - أيضاً - من عبادة الله -تعالى- ودعائه بذكر اسمه -تعالى- في النسك الذي هو من أفضل القرب إلى الله -تعالى-.

29-قال: " حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، عن الأسود بن قيس، عن جندب، أنه شهد النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم النحر، صلى ثم خطب، فقال: " من ذبح قبل أن يصلي، فليذبح مكانها أخرى، ومن لم يذبح فليذبح باسم الله ".

جندب هو: جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي العلقي، نسبة إلى علقة بن عبقر بن أنمار، سكن الكوفة، ثم البصرة، وتوفي بعد الستين، - رضي الله عنه- (572).

والمراد من الحديث قوله: " فليذبح باسم الله " أي: ذاكراً اسم الله على الذبيحة، عبادة له بذكر اسمه وبالذبح له، متقرباً إليه بذلك، كما أمر الله -تعالى- عباده بأن يخلصوا ذلك له وحده {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ {162} لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ} (573).

وقال -تعالى-: {فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ} (574).

(572) انظر: " الاستيعاب " (1/256)، و"الرياض المستطابة" (ص 46).

(573) الآيتان 162، 163، من سورة الأنعام.

(574) الآية 2 من سورة الكوثر.

30-قال: " حدثنا أبو نعيم، حدثنا ورقاء، عن عبدالله بن دينار، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " لا تحلفوا بأبائكم، ومن كان حالفاً فليحلف بالله".
المقصود بالحلف: تأكيد الخبر بذكر اسم الله العظيم، يوقع بالكاذب العقوبة، ففي ضمن ذلك: أن المحلوف به مطلع على حقيقة الأمر، ولذلك صار الحلف بغير الله شركاً؛ لما في الحديث الذي رواه الترمذي: " من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك" (575)

(575) انظر: " سنن الترمذي " (3/45) ، وقال بعد ذكره : هذا حديث حسن ، وفيه أن ابن عمر سمع رجلاً يحلف بالكعبة ، فقال: لا يحلف بغير الله ... ثم ذكره .
ورواه أحمد في "المسند" (2/125) وهو صحيح .
ورواه الحاكم في " المستدرك " (4/297) ، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه .
ورمز له في حاشية الذهبي (خ م) يعني عند البخاري ومسلم ، وليس كذلك .
ورواه البيهقي في "السنن الكبرى" (10/29).

قال: " باب: ما يذكر في الذات، والنعوت، وأسامي الله - عز وجل - " وقال خبيب: وذلك في ذات الإله. فذكر الذات باسمه -تعالى-.

قال الحافظ: "أي: ما يذكر في ذات الله ونعوته، من تجويز إطلاق ذلك عليه، كإطلاق أسمائه عليه، أو منعه، لعدم ورود النص"⁽⁵⁷⁶⁾.

وقال عياض: " ذات الشيء: حقيقة، وقد استعمل أهل الكلام الذات، بالألف واللام، وغلطهم أكثر النحاة، وجوزه بعضهم، لأنها ترد بمعنى النفس وحقيقة الشيء، واستعمال البخاري لها على أنها حقيقة الشيء على ما استعملها المتكلمون في حق الله -تعالى-، ولهذا قال: ما جاء في الذات والنعوت، ففرق بينهما على طريقة المتكلمين"⁽⁵⁷⁷⁾.

وقال الراغب: " ذات تأنيث "ذو"، وهي كلمة يتوصل بها إلى الوصف بأسماء الأجناس، والأنواع، ولا يستعمل شيء منها إلا مضافاً، وقد استعاروا الذات، فجعلوها عبارة عن عين الشيء، جوهرًا كان أو عرضاً، واستعملوها مفردة، ومضافة {وأدخلوا عليها} الألف واللام، وأجروا مجرى النفس، والخاصة، وليس ذلك من كلام العرب"⁽⁵⁷⁸⁾.

وقال ابن برهان: " إطلاق المتكلمين الذات في حق الله -تعالى- من جهلهم؛ لأن ذات تأنيث ذو، وهو - جلت عظمته - لا يصلح له إلحاق تاء التأنيث. وقولهم: الصفات الذاتية، جهل منهم أيضاً؛ لأن النسب إلى ذات: ذوى"⁽⁵⁷⁹⁾.

وقال الكندي: " ذات بمعنى: صاحبة، تأنيث ذو، وليس لها في اللغة مدلول غير ذلك، وإطلاق المتكلمين وغيرهم الذات بمعنى النفس خطأ عند المحققين"⁽⁵⁸⁰⁾.

قال الحافظ: " وتعقب بأن الممتنع: استعمالها بمعنى صاحبة، أما إذا قطعت عن هذا المعنى، واستعملت بمعنى الاسمية، فلا محذور؛ لقوله - تعالى-: {إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} ⁽⁵⁸¹⁾ أي بنفس الصدور.

وقد حكى المطرزي: كل ذات شيء، وليس كل شيء ذات، وأنشد ابن فارس: فنعم ابن عم القوم في ذات ماله إذا كان بعض القوم في ماله وفر"⁽⁵⁸²⁾

⁽⁵⁷⁶⁾ () "الفتح" (13/381).

⁽⁵⁷⁷⁾ () "مشارك الأنوار" (1/273) ملخصاً.

⁽⁵⁷⁸⁾ () "المفردات" (ص 182) بتصرف.

⁽⁵⁷⁹⁾ () "الفتح" (13/382).

⁽⁵⁸⁰⁾ () نفس المرجع.

⁽⁵⁸¹⁾ () المرجع المذكور.

⁽⁵⁸²⁾ () "الفتح" (13/382).

الدرر السننية www.dorar.net

وقال النووي: " مرادهم بالذات: الحقيقة، وهذا اصطلاح للمتكلمين، وقد أنكره بعض الأدباء عليهم، وقال: لا يعرف ذات، لي لغة العرب، بمعنى حقيقة، وإنما ذات، بمعنى صاحبة، وهذا الإنكار منكر، بل الذي قاله الفقهاء والمتكلمون صحيح، وقد قال الإمام أبو الحسن الواحدي، في أول سورة الأنفال في قوله -تعالى-: { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ }⁽⁵⁸³⁾ قال أبو العباس أحمد بن يحيى، ثعلب: {ذَاتَ بَيْنِكُمْ} أي: الحالة التي بينكم، فالتأنيث عنده للحالة، وهو قول الكوفيين.

قال: وقال الزجاج: معنى {ذَاتَ بَيْنِكُمْ} حقيقة وصلكم، والبين: الوصل. قال الواحدي: فذات عنده بمعنى النفس، كما يقال: " ذات الشيء ونفسه"⁽⁵⁸⁴⁾.

قلت: وهذا الذي ذكره النووي هو ما يقصده البخاري - رحمه الله - ولهذا قال: " فذكر الذات باسمه -تعالى- " أي: أقام الذات مقام اسمه -تعالى-. قال الحافظ: " واستعمال البخاري لها، دال على أن المراد بها: نفس الشيء - على طريقة المتكلمين - في حق الله -تعالى-، ففرق بين النعوت، والذات"⁽⁵⁸⁵⁾.

ص 207

وقال شيخ الإسلام: " لفظ ذات تأنيث ذو، وذلك لا يستعمل إلا فيما كان مضافاً إلى غيره، فهم يقولون: فلان ذو علم، وذو قدرة، ونفس ذات علم وقدرة، وحيث جاء في القرآن أو لغة العرب، لفظ "ذو"، ولفظ "ذات" لم يجيء إلا مقروناً بالإضافة، كقوله -تعالى-: { فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ }، وقوله: { عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ } وقول خبيب: " وذلك في ذات الإله" ونحو ذلك.

لكن لما صار النظار، يتكلمون في هذا الباب، قالوا: إنه يقال: إنها ذات علم وقدرة، ثم إنهم قطعوا هذا اللفظ عن الإضافة، وعرفوه، فقالوا: " الذات " - وهو لفظ مولد - ليس من لفظ العرب العرباء، ولهذا أنكره طائفة من أهل العلم، كأبي الفتح ابن برهان، وابن الدهان، وغيرهما، وقالوا: ليست هذه اللفظة عربية.

ورد عليهم آخرون، كالقاضي، وابن عقيل، وغيرهما. وفصل الخطاب: أنها ليست من العربية العرباء، بل من المولد، كلفظ الموجود، والماهية، والكيفية، ونحو ذلك.

⁽⁵⁸³⁾ الآية الأولى من سورة الأنفال.

⁽⁵⁸⁴⁾ "تهذيب الأسماء واللغات" (2/113) القسم الثاني .

⁽⁵⁸⁵⁾ "الفتح" (13/382).

فهذا اللفظ يقتضي وجود صفات، تضاف الذات إليها، فيقال: ذات علم، وذات قدرة، وذات كلام، فإنه لا يمكن وجود شيء قائم بنفسه في الخارج، لا يتصف بصفة ثبوتية أصلاً⁽⁵⁸⁶⁾. وقال ابن القيم: "وأصل هذه اللفظة، هو تأنيث "ذو"، بمعنى صاحب، فذات كذا: صاحبة كذا، في الأصل. ولهذا لا يقال: ذات الشيء، إلا لما له صفات، ونعوت تضاف إليه، فكأنه يقول: صاحبة هذه الصفات، والنعوت. ولهذا أنكر جماعة من النحاة على الأصوليين قولهم: "الذات"، وقالوا: لا مدخل للألف واللام هنا، كما لا يقال: "الذو"، في ذو. وهذا إنكار صحيح. والاعتذار عنهم: أن لفظة الذات في اصطلاحهم، قد صارت عبارة عن نفس الشيء، وحقيقته، وعينه. فلما استعملوها استعمال النفس، والحقيقة، عرفوها باللام، وجردوها من الإضافة، وهذا أمر اصطلاحي، لا لغوي.

ص 208

فإن هذا اللفظ يقال لما هو منسوب إليه، أو من جهته، كجنب الشيء. فإذا قالوا: هذا في جنب الله، لا يريدون إلا ما ينسب إليه، وفي سبيله، ومرضاته وطاعته، لا يريدون غير هذا. فلما اصطاح المتكلمون على إطلاق الذات، على النفس، والحقيقة، ظن من ظن أن هذا هو المراد بمثل قوله: "ثلاث كذبات في ذات الله، وقوله: "وذلك في ذات الإله"، وهذا غلط، بل الذات هنا كالجانب، في قوله: { يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ }، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقال: فرطت في نفس الله وحقيقته، ويحسن أن يقال: فرطت في ذات الله، كما يقال: قتل في ذات الله، وصبر في ذات الله؟⁽⁵⁸⁷⁾. وبهذا يتبين أن هذا الإستعمال صحيح لا ينكر؛ لأنه أمر اصطلاحي على معنى مفهوم معين.

وبعض الناس يظن أن إطلاق الذات على الله -تعالى- كإطلاق الصفات، أي أنه وصف له، فينكر ذلك بناء على هذا الظن، ويقول: هذا ما ورد. وليس الأمر كذلك، وإنما المراد التفرقة بين الصفة، والموصوف. وقد تبين مراد الذين يطلقون هذا اللفظ، أنهم يريدون نفس الموصوف وحقيقته، فلا إنكار عليهم في ذلك، كما وضحه كلام شيخ الإسلام، وتلميذه ابن القيم.

⁽⁵⁸⁶⁾ "مجموع الفتاوى" (99-6/98).
⁽⁵⁸⁷⁾ "بدائع الفوائد" (2/7) ببعض التصرف.

www.dorar.net الدرر السننية

قال القسطلاني: "والظاهر جواز إطلاق لفظ "ذات"، لا بالمعنى الذي أحدثه المتكلمون، ولكنه غير مردود، إذا عرف أن المراد النفس؛ لثبوت لفظ النفس في القرآن" (588).

و أما "النعوت" فهو جمع نعت، وهو الوصف، يقال: نعت فلاناً نعتاً، أي وصفه وصفاً، وزنه ومعناه واحد، ومنه الحديث: " لا تباشر المرأة المرأة، فتنعتها لزوجها، كأنه يراها" (589).

ص 209

و أما الأسامي، فهي جمع اسم، وتجمع أيضاً على أسماء. قوله: " فذكر الذات باسمه -تعالى- أي: ذكر الله بلفظ الذات، وسمعه النبي -صلى الله عليه وسلم- فلم ينكره، فصار دليلاً علي جواز ذلك.

واعترض على استدلال البخاري بذلك؛ لأن خيباً لم يرد الحقيقة، والنفس، وإنما يعني بقوله: " وذلك في ذات الإله " أي: في سبيله وطاعته.

والجواب: أن إطلاق لفظ الذات على الله -تعالى- جائز في الجملة؛ لورود الآثار، فيكون ذلك أصلاً للجواز، ففي الحديث الصحيح المتفق عليه: " أن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات، اثنتين في ذات الله" (590).

وفي حديث ابن عباس: " تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله" (591).

قال الحافظ: سنده جيد.

وقال أبو الدرداء: " لا تفقه كل الفقه، حتى تمقت الناس في ذات الله ".

قال الحافظ: إسناده ثقات، إلا أنه منقطع" (592).

وقد تقدمت الإشارة إلى الفرق بين الأسماء والصفات في الباب الأول.

وقد ذكر البخاري - رحمه الله - قصة خبيب وأصحابه، في كتاب المغازي، وهي مشهورة، فنكتفي بنص ما ذكره البخاري هنا.

(588) "إرشاد الساري" (10/379).

(589) رواه البخاري في كتاب النكاح، انظر "البخاري مع الفتح" (9/338).

(590) رواه البخاري، انظره مع "الفتح" (4/410)، (5/246)، ومواضع أخر عدة، ومسلم في "الفضائل".

(591) قال في "كشف الخفا": رواه أبو نعيم في "الحلية"، وابن أبي شيبة في "العرش" (ص 311) (4/1840).

(592) "الفتح" (13/383).

31- قال: " حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن جارية، الثقفي - حليف لبني زهرة، وكان من أصحاب أبي هريرة- أن أبا هريرة قال: بعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عشرة، منهم خبيب الأنصاري فأخبرني عبيد الله بن عياض، أن ابنة الحارث أخبرته، أنهم حين اجتمعوا، استعار منها موسى يستحد بها، فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه، قال خبيب الأنصاري:

ولست أبالي حين أقتل على أي شق كان لله في

وذلك في ذات الإله وإن يبارك على أوصال شل

فقتله ابن الحارث، فأخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أصحابه خبرهم يوم أصيبوا".

قال: " باب قول الله تعالى: { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ }⁽⁵⁹³⁾ وقوله - جل ذكره -: { تَعَلَّمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ }⁽⁵⁹⁴⁾ .
المراد بالنفس في هذا: الله -تعالى-، المتصف بصفاته، ولا يقصد بذلك ذاتاً منفكة عن الصفات، كما لا يراد به صفة الذات كما قاله بعض الناس، وسيأتي بيان ذلك من كلام السلف.

قال ابن جرير - رحمه الله تعالى -: { وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } أن تسخطوها عليكم بركوبكم ما يسخطه عليكم، فتوافقونه { يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا } وهو عليكم ساخط، فينالكم من أليم عقابه ما لا قبل لكم به⁽⁵⁹⁵⁾ .
وقال: " ويخوفكم الله من نفسه، أن تركبوا معاصيه، أو توالوا أعداءه، فإن إلى الله مرجعكم، فاتقوه واحذروا أن ينالكم عقابه، فإنه شديد العقاب"⁽⁵⁹⁶⁾ .

وقال ابن خزيمة: " أول ما نبدأ به من ذكر صفات خالقنا: ذكر نفسه، جل ربنا عن أن تكون نفسه، كنفس خلقه، وعز عن أن يكون عدماً لا نفس له"⁽⁵⁹⁷⁾ .

ثم ذكر بعض النصوص في ذلك كقوله -تعالى- { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ } وقوله -تعالى-: { وَاصْطَلَعْتَكَ لِنَفْسِي } ثم ذكر ما رواه البخاري في هذا الباب، وحديث ابن عباس: " أن النبي -صلى الله عليه وسلم- حين خرج إلى صلاة الصبح وجويرية جالسة في المسجد رجع حين تعالى النهار، قال: " لم تزال جالسة بعدي؟ "

قالت: نعم. قال: " لقد قلت بعدك أربع كلمات، لو وزنت بهن لوزنتهن"⁽⁵⁹⁸⁾ : سبحان الله العظيم وبحمده. عدد خلقه، ومداد كلماته، ورضا نفسه، وزنة عرشه"⁽⁵⁹⁹⁾ .

وذكر أيضاً حديث محاجة موسى لآدم، وفيه: " قال آدم لموسى: أنت الذي اصطفاك الله برسالاته، واصطنعك لنفسه..."⁽⁶⁰⁰⁾ ثم قال: " فالله - جل

⁽⁵⁹³⁾ الآية 28 من سورة آل عمران .

⁽⁵⁹⁴⁾ الآية 116 من سورة المائدة .

⁽⁵⁹⁵⁾ " تفسير الطبري " (6/321) بتحقيق: محمود شاكر .

⁽⁵⁹⁶⁾ المرجع المذكور (6/317) .

⁽⁵⁹⁷⁾ كتاب " التوحيد " (ص 5) .

⁽⁵⁹⁸⁾ يعني : لو وزنت هذه الأربع بما قلتيه منذ فارقتك لوزنتهن . رواه مسلم في كتاب الذكر .

⁽⁵⁹⁹⁾ كتاب " التوحيد " (ص 7) رواه مسلم ، كتاب " الذكر " رقم (2726) (4/2090) .

⁽⁶⁰⁰⁾ كتاب " التوحيد " (ص 9) وهو في " الصحيحين " ، انظر : " الفتح (6/441) ، و (8/434) ، و (11/505) ،

ومسلم (4/2043، 2044) .

وعلا- أثبت في آي من كتابه أن له نفساً، وكذلك قد بين على لسان نبيه - صلى الله عليه وسلم- أن له نفساً⁽⁶⁰¹⁾.

وفي "صحيح مسلم" في حديث أبي ذر الطويل: "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا"⁽⁶⁰²⁾.

وفي "السنن" عن علي- رضي الله عنه - أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يقول في آخر وتره: "اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"⁽⁶⁰³⁾.

وتقدم ذكر حديث ابن مسعود في "المسند" مرفوعاً: "أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك"⁽⁶⁰⁴⁾.

فهذه النصوص واضحة في أن المراد بالنفس هو الله -تعالى- كما قلنا. ولا يخالف ذلك ما قاله ابن خزيمة والأئمة؛ لأن مقصودهم إثبات ما أثبتته الله من غير تعرض له بتأويل أو تمثيل، تعالى الله عن الأمثال والأنداد، والتمسك بالنصوص التي قالها الله ورسوله، مع الإعراض عما يقوله أهل التأويل، وأصحاب

ص 213

الوساوس الشيطانية، التي تعود على النصوص بالإبطال، وحسب المسلم أن يسعه ما وسع السلف الصالح من الصحابة، ومن سلك طريقهم. وليس معنى ذلك الإعراض عن معاني النصوص، كما يتوهمه بعض الناس من مذهب السلف، ويعبرون عنه بالتفويض.

بل المقصود إثبات ما أثبتته الله لنفسه، أو أثبتته له رسوله، مع فقه المعنى اللائق بعظمة الله -تعالى- وفهمه، على ما دل عليه قوله -تعالى-: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} ونحوها من الآيات المحكمات، والأمر في هذا واضح لمن تمسك بالكتاب والسنة.

روى ابن جرير، عن مجاهد، في قوله -تعالى-: {إن الساعة آتية أكاد أخفيها}⁽⁶⁰⁵⁾.

قال: من نفسي. وأصله عن ابن عباس.

وروي عن أبي صالح: {أكاد أخفيها} قال: يخفيها من نفسه.

⁶⁰¹ كتاب "التوحيد" (ص 8).

⁶⁰² "صحيح مسلم" (4/1994).

⁶⁰³ "سنن أبي داود" (2/134)، والترمذي (5/187) رقم (3562)، والنسائي (3/249)، وابن ماجه (1/373).

رقم (1179)، ورواه مسلم في "صحيحه" (1/352) رقم (222).

⁶⁰⁴ "المسند" (5/267)، (6/153) تحقيق: أحمد شاكر.

⁶⁰⁵ الآية 15 من سورة طه.

وعن قتادة: {أكاد أخفيها} - وهي في بعض القراءات: "أخفيها من نفسي" (606)-: "لقد أخفاها الله من الملائكة المقربين، ومن الأنبياء المرسلين" (607).

وقال ابن كثير: "أكاد أخفيها" قال الضحاك: عن ابن عباس أنه كان يقرؤها: "أكاد أخفيها من نفسي"، يقول: لأنها لا تخفى من نفس الله أبداً، وقال سعيد بن جبير: عن ابن عباس، "من نفسه"، وكذا قال مجاهد وأبو صالح، ويحيى بن رافع.

وقال السدي: ليس أحد من أهل السماوات والأرض، إلا وقد أخفى الله عنه علم الساعة، وهي في قراءة ابن مسعود: "إني أكاد أخفيها من نفسي" (608).

وقال ابن جرير في قوله -تعالى-: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}، يقول: إنك يا رب لا يخفى عليك ما أضمرته نفسي مما لا أنطق به ولم أظهره بجوارحي، فكيف بما نطقت به وأظهرته بجوارحي، لو كنت قد قلت للناس:

ص 214

{اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ} كنت قد علمته، لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به، فكيف بما نطقت به؟ {وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} يقول: ولا أعلم أنا ما أخفيته عني فلم تطلعني عليه، لأنني إنما أعلم من الأشياء ما علمتني (609).

وقال في قوله -تعالى-: {وَاصْطَلَعْتَكَ لِنَفْسِي} "أنعمت عليك -يا موسى - هذه النعم، ومننت عليك هذه المنن، اجتباء مني لك، واختباراً لرسالاتي، والبلاغ عني، والقيام بأمرني ونهبي" (610).
وقال ابن كثير: "أي: اصطفتك واجتبتك رسولاً لنفسي، أي كما أريد وأشاء" (611).

وقال ابن سعيد الدارمي: "وادعى المعارض: أن الله لا يوصف بالضمير، والضمير منفي عن الله، وهي كلمة خبيثة قديمة، من كلام جهنم، عارض بها جهنم قول الله تعالى: {تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ}، يدفع بذلك أن يكون الله -تعالى- سبق له علم في نفسه من الخلق وأعمالهم قبل أن يخلقهم.

فرد عليه بعض العلماء، وقالوا: كفرت بها من ثلاثة أوجه:

(606) هي قراءة ابن مسعود، كما سيأتي عن ابن كثير وابن عباس.

(607) "تفسير ابن جرير" (16/149) طبعة الحلبي.

(608) "تفسير ابن كثير" (5/272) طبعة الشعب.

(609) "تفسير ابن جرير الطبري" (11/238) تحقيق: محمود شاكر.

(610) "تفسير الطبري" (16/168) مطبعة الحلبي.

(611) "تفسير ابن كثير" (4/287) طبعة الشعب.

الأول: أنك نفيت عن الله العلم السابق في نفسه قبل حدوث الخلق.
الثاني: أنك استجهلت المسيح ابن مريم - عليه السلام - بأنه وصف ربه بأن له خفايا علم في نفسه، إذ يقول: { وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ } .
الثالث: أنك طعنت به على محمد - صلى الله عليه وسلم - إذ جاء به مصدقاً لعيسى ..

قال أبو سعيد: "وقول جهم هذا أصل كبير في تعطيل النفس والعلم السابق، ويرد عليه بقوله: { تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ } ، فذكر المسيح أن لله علماً سابقاً في نفسه، يعلمه الله، ولا يعلمه هو".
ثم روى عن أبي البحتري أنه قال: " لا يقولن أحدكم: اللهم أدخلني مستقر رحمتك، فإن مستقر رحمة نفسه" (612).
ص 215

وقال الراغب: " نفسه: ذاته، وهذا وإن كان قد حصل - من حيث اللفظ - مضاف، ومضاف إليه، يقتضي المغايرة، وإثبات شيئين من حيث العبارة، فلا شيء من حيث المعنى سواء، سبحانه عن الاثنوية من كل وجه" (613).
قال الحافظ: قال البيهقي: والنفس في كلام العرب على أوجه: منها: الحقيقة، كما يقولون في نفس الأمر، وليس للأمر نفس منفوسة. ومنها: الذات، قال: وقد قيل في قوله تعالى: { تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ } إن معناه: تعلم ما أكنه، وما أسره، ولا أعلم ما تسره عني" (614)، "وقال أبو إسحاق الزجاج في قوله -تعالى-: { وَيُخَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } أي: إياه.
وحكى صاحب "المطالع" في قوله -تعالى-: { وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ } ثلاثة أقوال:

أحدها: لا أعلم ذاتك.
ثانيها: لا أعلم ما في غيبك.
ثالثها: لا أعلم ما عندك، وهو بمعنى قول غيره: لا أعلم معلومك أو إرادتك، أو سرك، أو ما يكون منك" (615).
"قال ابن بطال: في هذه الآيات والأحاديث، إثبات النفس لله -تعالى- وللنفس معان، والمراد بنفس الله -تعالى- ذاته، وليس بأمر مزيد عليه، فوجب أن يكون هو" (616).

(612) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي ، (ص 550) "عقائد السلف" ، ملخصاً بتصريف.

(613) "المفردات" (ص 511).

(614) "الفتح" (13/384) . ذكر الحافظ كلام البيهقي بالمعنى ، فصار أحسن من كلام البيهقي ، ولهذا أثرته ، وهو في "الأسماء والصفات" (ص 286).

(615) "الفتح" (13/384).

(616) المرجع نفسه .

www.dorar.net الدرر السنية

وقال شيخ الإسلام: "ونفسه هي ذاته المقدسة" (617).

ص 216

وقال أيضاً: "ويراد بنفس الشيء: ذاته، وعينه، كما يقال: رأيت زيداً نفسه، وعينه، وقد قال -تعالى-: {تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ}، وقال: {كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} وقال: {ويحذركم الله نفسه}.

وفي الحديث: "سبحان الله رضا نفسه"، وفي الآخر: "إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي".

فهذه المواضع المراد فيها بلفظ النفس عند جمهور العلماء: الله نفسه التي هي ذاته، المتصفة بصفاته، ليس المراد بها ذاتاً منفكة عن الصفات، ولا المراد بها صفة للذات.

وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات. كما يظن طائفة أنها الذات المجردة عن الصفات، وكلا القولين خطأ" (618).

(617) "مجموع الفتاوى" (14/196).

(618) "مجموع الفتاوى" (293-9/292)، باختصار قليل.

32- قال: " حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي حدثنا الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " ما من أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وما أحد أحب إليه المدح من الله "

هذا الحديث ذكره البخاري في مواضع متعددة، فتقدم في تفسير سورة الأنعام، وفيه: " ولا شيء أحب إليه المدح من الله، ولذلك مدح نفسه "(619). فذكر النفس ثابت في هذا الحديث، وإن كان لم يقع في هذه الطريق، لكنه أشار إليه، كعادته، فإنه - رحمه الله - كثيراً ما يترجم ببعض ما ورد في طرق الحديث الذي يورده "(620).

قلت: وهذه الجملة من الحديث المذكورة في التفسير هي محل الشاهد، فهو يشير إليها.

وسياتي الكلام - إن شاء الله - في الغيرة بعد أربعة أبواب غير هذا، وتقدم الكلام في النفس ما فيه الكفاية.

قوله: " من أجل ذلك حرم الفواحش " الحرام هو: الممنوع، وتحريم الله - تعالى - للشيء، هو منعه منه شرعاً، أو قدراً، فالشرع نحو ما في هذا الحديث، وهو كثير جداً، أي أمثله.

و أما القدر فكقوله - تعالى -: { وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } (621)، وقوله: { وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ } (622).

والفواحش: جمع فاحشة، وهي: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال، في الشرع، أو في العقل، أو في العرف.

قوله: " وما أحد أحب إليه المدح من الله " كلمة "أحد" لا يوصف بها في الإثبات شيء من الأعيان إلا الله - تعالى -، ولكنها تستعمل في غير الله، في النفي وما في معناه، كالشرط، والاستفهام، وتستعمل في أول العدد، كأحد اثنين وأحد

عشر، ولهذا لم يجيء في القرآن استعمالها لغير الله، إلا في غير الموجب، أو في الإضافة، كقوله - تعالى -: { فَأَبَعْتُمْ أَعْدَابَكُمْ يَوْمَ الْيَوْمِ } قال أهل اللغة: " تقول: لا أحد في الدار، ولا تقل: فيها أحد "(623).

(619) انظر: " الفتح " (8/295).

(620) " الفتح " (13/385).

(621) الآية 95 من سورة الأنبياء.

(622) الآية 12 من سورة القصص.

(623) " مجموع الفتاوى " (17/137).

والمدح: هو الثناء الحسن، قال الجوهرى: "المدح: الثناء الحسن، وقد مدحه وامتدحه، بمعنى، وكذلك المدحة، والمديح، والأمدوحة"⁽⁶²⁴⁾.
وفي كليات أبي البقاء، بعدما ذكر قول الجوهرى قال: "وقيل: المدح: الثناء باللسان على الجميل مطلقاً، سواء كان من الفواضل، أو من الفضائل، وسواء كان اختيارياً، أو غير اختياري، ولا يكون إلا قبل النعمة"⁽⁶²⁵⁾.
فالمدح: "ذكر محاسن الممدوح، والإخبار عنها على سبيل الثناء والتعظيم بذلك، فإن اقترن بالحب والإرادة، فهو حمد؛ لأن الحمد هو: ذكر محاسن المحمود، والإخبار عنها، مع حبه وإجلاله، وتعظيمه، فهو خبر يتضمن الإنشاء"⁽⁶²⁶⁾.

ومدح الإنسان نفسه نقص يلام عليه، وكذلك طلبه من الناس، وتكلفه لذلك يدل على نقصه، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بالنهي عن المدح ولا سيما في الوجه؛ لأن ذلك مظنة الفتنة والاعتزاز، وقد يكون المدح بالكذب، وربما حمله المدح على ظلم من لم يمدحه.

وفي "صحيح مسلم" عن همام بن الحارث أن رجلاً جعل يمدح عثمان، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه - وكان رجلاً ضخماً - فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "إذا رأيت المداحين فاحثوا في وجوههم التراب"⁽⁶²⁷⁾.
وروى ابن ماجه عن معاوية قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "إياكم والتمادح فإنه الذبح"⁽⁶²⁸⁾ وسنده حسن، وفي ذلك أحاديث كثيرة.

ص 219

قال النووي: "قال العلماء: الجمع بين هذه الأحاديث وما جاء دالاً على الجواز - أي جواز المدح - أن النهي محمول على المجازفة في المدح، والزيادة في الأوصاف، أو على من يخاف عليه الفتنة، من إعجاب ونحوه، إذا سمع المدح، وأما من لا يخاف عليه ذلك؛ لكمال تقواه، ورسوخ عقله، ومعرفته، فلا نهى في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة"⁽⁶²⁹⁾.
أما الله - تعالى - فلكمال المطلق مدح نفسه؛ لأنه أهل المدح والثناء، ولأن الخلق لا يقدرّون على مدحه بما يستحق، كما قال الرسول - صلى الله عليه وسلم -: " لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"⁽⁶³⁰⁾.

(624) انظر: "الصحيح" (1/403).

(625) "الكليات" (4/277).

(626) "بدائع الفوائد" (2/93).

(627) "مسلم" (4/1297)، و"ابن ماجه" (2/1232) رقم (3742).

(628) "السنن" (2/1232) رقم (3743).

(629) "شرح مسلم" (18/126).

(630) سبق تخريجه قريباً.

قال النووي: " حقيقة مدح العباد لله -تعالى- هو مصلحة للعباد؛ لأنهم يشنون عليه سبحانه فيشبههم، فينتفعون، وهو سبحانه غني عن العالمين، لا ينفعه مدحهم، ولا يضره تركهم ذلك، وفيه تنبيه على فضل الثناء عليه سبحانه وتسبيحه، وتهليله، وتحميده، وتكبيره، وسائر الأذكار" (631).

ص 220

33-قال: " حدثنا عبدان، عن أبي حمزة، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: " لما خلق الله الخلق، كتب في كتابه - وهو يكتب على نفسه، وهو وضع عنده على العرش - إن رحمتي تغلب غضبي".

قوله: " لما خلق الخلق " يجوز أن يكون المراد تقدير ذلك وكتابته قبل وجوده وظهوره، ويجوز أن يكون المراد جنس الخلق، فيكون المراد وجوده مخلوقاً.

قوله: " كتب في كتابه " يجوز أن يكون المعنى: أمر القلم أن يكتب، كما قال الحافظ. ويجوز أن يكون على ظاهره بأن كتب -تعالى- بدون واسطة، ويجوز أن يكون قال: " كن " فكانت الكتابة، ولا محذور في ذلك كله، وقد ثبت في "سنن الترمذي" و"ابن ماجه" في هذا الحديث: " إن الله - عز وجل - لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه إن رحمتي تغلب غضبي" (632).

ولا يصح أن يراد بالكتابة: الحكم الذي قضاه، نظير قوله -تعالى-: { كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي }؛ لقوله: " فهو عنده فوق العرش".

وكتابته -تعالى- ذلك؛ لتأكيد هذا الحكم، وإخبار عباده به؛ حتى يؤمنوا به ويعملوا على مقتضاه، أو لحكمة الله أعلم بها، وليس خوفاً من النسيان - تعالى الله -.

قوله: " وهو يكتب على نفسه " جملة حالية يقصد بها بيان أن كتابته -تعالى- لم يحمله عليها أحد، وإنما وقعت بمحض إرادته، تفضلاً منه، وجوداً على خلقه كتبه على نفسه، كما قال -تعالى-: { كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ }.

وقوله: " وهو وضع عنده على العرش " وضع: بفتح الواو، وسكون الضاد، أي موضوع، وكذا جاء في: الجمع بين "الصحيحين"، للحميدي (633)، وضبط أيضاً بفتح الضاد، على أنه فعل ماضٍ، وبضم الضاد أيضاً، والأول أظهر وأشهر. وقوله: " عنده على العرش " أي أنه -تعالى- وضع الكتاب عنده فوق عرشه،

ص 221

(631) " شرح مسلم " (15/77).

(632) انظر: " سنن الترمذي " (5/210) ، و "ابن ماجه" (2/1435) الحديث رقم (4295).

(633) قاله الحافظ ابن حجر في "الفتح" (13/385).

وسياتي في باب: { وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ } بهذا اللفظ: "عنده فوق عرشه". وذلك للاهتمام به، حيث وضعه على عرشه الذي استوى عليه. كما يدل على أن الله على العرش، مستو عليه، كما قال -تعالى- عن نفسه في مواضع كثيرة من كتابه، وأخبرت به رسله، ويدل على علوه -تعالى-، وسياتي ذكر ذلك مستوفى -إن شاء الله - في موضعه. وما نقله الحافظ - عفا الله عنا وعنه - عن شرح كتاب البخاري من تأويل هاتين اللفظتين بالتأويلات الباطلة، المبنية على فساد العقيدة، سياتي ردها - إن شاء الله - هناك بالبراهين.

قوله: " إن رحمتي تغلب غضبي " الرحمة والغضب كلاهما من أوصاف الله -تعالى-، ولكن الرحمة أوسع وأشمل، فرحمته تعالى وسعت كل شيء، كما قال عن حملة العرش، ومن حوله من الملائكة في دعوتهم للمؤمنين، أنهم يقولون: { رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا }⁽⁶³⁴⁾، وقال -تعالى-: { وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ }⁽⁶³⁵⁾ وهذه هو معنى غلبها للغضب.

وفي هذه النصوص ونحوها كثير أبلغ دليل على ثبوت صفة الرحمة لله -تعالى-، وكذا صفة الغضب، وبذلك يتبين بطلان قول أهل التأويل في هذه الصفة الكريمة من صفات ربنا - تبارك وتعالى -، وقولهم: " إن الرحمة: رقة القلب، وهي تدل على الضعف والخور في طبيعة الراحم، وتآلمه على المرحوم " وهذا قول باطل بالنسبة إلى صفة الله -تعالى-، وبيان ذلك على وجوه:

الأول: أن هذا وصف رحمة بعض المخلوقين من النساء ونحوهن. وقد علم التفاوت العظيم بين الخالق -تعالى- والمخلوق؛ بالشرع والعقل، والإجماع، وقد تقرر أن الصفة تتبع الموصوف في الكمال، وضده، كما تقدم.

الثاني: أن الضعف والخور مذموم، وهو نقص، وأما الرحمة فممدوحة، كما قال -تعالى-: { وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ }⁽⁶³⁶⁾، مع نهيه -تعالى- عباده عن

ص 222

الوهن، والحزن، قال -تعالى-: { وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزِنُوا }⁽⁶³⁷⁾، وحثهم على الرحمة، وقد تقدم ذكر بعض الأحاديث في ذلك، كقوله -صلى الله عليه وسلم-: " من لا يرحم لا يرحم "، وقوله: " لا تنزع الرحمة إلا من شقي "،

⁶³⁴ () الآية 7 من سورة غافر .

⁶³⁵ () الآية 156 من سورة الأعراف .

⁶³⁶ () الآية 17 من سورة البلد .

⁶³⁷ () الآية 139 من سورة آل عمران .

www.dorar.net الدرر السننية

وقوله: " الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء".

ومستحيل أن يقول: لا ينزع الضعف والخور إلا من شقي.
ولما كانت الرحمة في حق كثير من الناس، تقارن الضعف والخور، ظن من غلط في ذلك أنها كذلك مطلقاً.

الثالث: أن أسماء الله -تعالى- حسنى، لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، وصفاته عليها عن النقص أيضاً، والله -تعالى- قد تمدح بهذه الأسماء والصفات، لأنها تدل على الكمال، فمن المحال أن يلحقها ما يلحق رحمة المخلوق.

34- قال: " حدثنا عمر بن حفص، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، سمعت أبا صالح، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: يقول الله - تعالى -: " أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من منهم، وإن تقرب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة".

هذا الحديث من الأحاديث القدسية، وهي: ما يذكره الرسول - صلى الله عليه وسلم - مضافاً إلي الله - تعالى - أنه قاله، ولكنه غير متعبد بتلاوته، ولا هو معجز متحدي به كالقرآن.

والظن يأتي بمعنى العلم واليقين، كقوله - تعالى -: { الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ } (638).

ويأتي وإسطة بين الشك والعلم، أو بمعنى الشك، كقوله - تعالى - عن الكفار { وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُزْجَعُونَ } (639). والقرائن تبين ذلك وتحدده.

فقوله: " أنا عند ظن عبدي بي "، قال صاحب "المرعاة": "يجوز أن يكون على ظاهره، والمعنى: أنا أعامله على حسب ظنه بي، وأفعل به ما يتوقعه مني، من خير أو شر، والمراد: الحث على تغليب الرجاء على الخوف، وحسن الظن بالله - تعالى - على ما دل عليه قوله - صلى الله عليه وسلم -: " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله".

ويجوز أن يكون المراد بالظن: العلم الموقن، ويكون المعنى: أنا عند علمه بي وبقينه بأن مصيره إليّ، وحسابه عليّ، وأن ما قضيت به له أو عليه، من خير أو شر، لا مرد له، لا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت" (640).

وقال الحافظ: " أنا عند ظن عبدي بي " أي قادر على أن أعمل به ما ظن أن أعامله به، وقال الكرمانلي: وفي السياق إشارة إلى ترجيح جانب الرجاء على

الخوف، وكأنه أخذه من أن العاقل يختار لنفسه وقوع الخير، وهو مقيد بالمحتضر، لما في الحديث: " لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله" (641).

قلت: قول الحافظ هذا خلاف ظاهر الحديث، إذ هو خبر عن الله - تعالى - أنه عند ظن عبده به، يعني أنه - تعالى - يفعل بعبده ما ظنه العبد أنه يفعله به،

(638) الآية 46 من سورة البقرة .

(639) "المرعاة" (2/414) الطبعة الحجرية .

(640) "المرعاة" (2/414) الطبعة الحجرية .

(641) "فتح الباري" (13/385-386).

وقد جاءت أحاديث مصرحة بذلك، كما في "المسند" من حديث واثلة بن الأسقع، سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم يقول: " قال الله: أنا عند ظن عبدي بي، إن ظن خيراً فله، وإن ظن شراً فله" (642)، ورواه ابن حبان، وهذا لفظه، وفي هذا أحاديث كثيرة.

وقال في "المفهم": "معنى: "أنا عند ظن عبدي بي" ظن الإجابة عند الدعاء، والقبول عند التوبة، والمغفرة عند الاستغفار، والإثابة على العمل، إيماناً بوعدته -تعالى-؛ لما في الحديث "ادعوا الله، وأنتم موقنون بالإجابة" (643).

ولذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في العمل، موقناً بأن الله يقبله، ويغفر له؛ لأنه وعد بذلك، وهو لا يخلف وعده.

هذا إذا أتى بالعبادة بشروطها، فإن اعتقد أن الله لا يقبلها، وأنها لا تنفعه، فهذا هو اليأس، وهو من الكبائر، وأما ظن المغفرة مع الإصرار على الذنوب، فهو محض الجهل، والغرور. (644)

والحديث معناه واضح كما تقدم، وما ذكره صاحب المفهم من معناه، ووراء ذلك معنى أدق، وهو قرب الله من عبده المنيب إليه، وخير ما يفسر به كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم- كلامه، ولكن لا يعارض النصوص الكثيرة المحذرة من عذاب الله -تعالى- وعقابه، فالأمر كما قال -تعالى-: {تَبَيَّنْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْعَفْوَ الرَّحِيمُ} {49} وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ} (645)، وحسن الظن يكون مع حسن العمل،

ص 225

وقد تشعر الإضافة في قوله: "عبدي" بحسن العمل، أي أنه عبد الله، وليس للشيطان أو للدنيا أو غيرهما. والله أعلم.

قوله: "وأنا معه إذا ذكرني" أي: معه بالإجابة، والتوفيق، وبسماع كلامه، وإثابته عليه، أو بحسب ما قصد في ذكره، ما لم يكن إثماً أو قطيعة رجم، فهذه المعية هي المعية الخاصة المذكورة في مثل قوله -تعالى-: {إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى} (646).

ومعية الله -تعالى- بالنسبة لعباده نوعان:

(642) انظر: "المسند" (3/491) و (4/106)، وانظر: "موارد الظمان" (ص 184).

(643) رواه الترمذي، وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. انظر "السنن" (5/180) قلت: هو ضعيف؛ لأن في سنده صالح المري.

(644) من "الفتح" (385-13/386).

(645) الآيتان 49، 50 من سورة الحجر.

(646) الآية 46 من سورة طه.

معية عامة للخلق كلهم، كما قال -تعالى-: { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا } (647).

وقال -تعالى-: { يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } (648)، ومن مقتضى هذه المعية: اطلاعه -تعالى- وعلمه بكل شيء، ومراقبته، وشهوده أفعال عباده، فتفيد الخوف منه -تعالى-.

والنوع الثاني: المعية الخاصة، وهي المذكورة في هذا الحديث، ونحوه، كقوله -تعالى-: { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } (649)، وقوله: { إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا } (650)، ومن مقتضى هذه المعية: النصر والتأييد والهداية والحماية.

و "معيته -تعالى- لخلقه، لا تخالف علوه، واستواءه على عرشه، فكل ذلك حق على ظاهره، وذلك أن الله معنا حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة، كما جمع بينهما في قوله -تعالى-: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا

ص 225
كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } (651). فأخبر -تعالى- أنه فوق العرش يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث الأوعال: "والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه" (652).
وذلك أن كلمة "مع" في اللغة إذا أطلقت، فليس ظاهرها في اللغة إلا المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال.
فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، ويقال: هذا المتاع معي؛ لمجامعته لك، وإن كان فوق رأسك.

فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة.
ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد، فقوله: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } (653)، دل ظاهر الخطاب أن حكم هذه المعية ومقتضاها: أنه مطلع

(647) الآية 7 من سورة المجادلة .

(648) الآية 4 من سورة الحديد .

(649) الآية 128 من سورة النحل .

(650) الآية 40 من سورة التوبة .

(651) الآية 4 من سورة الحديد .

(652) رواه أبو داود في باب في الجهمية (5/53) ، والترمذي (5/97)، وابن ماجه (1/69) الحديث رقم (193) ، وقد صحه ابن القيم ، وأبطل حجج المضعفين له ، انظر : " تهذيب السنن " (7/91).

(653) الآية 4 من سورة الحديد .

عليكم، شهيد عليكم، ومهيمن عالم بكم، وهذا معنى قول السلف أنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته.

وقوله: {لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا} (654) حق على ظاهره، ودلت الحال على أن حكم هذه المعية: الأطلاع والنصر والتأييد، ومثل ذلك قوله {إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى} (655)، وقوله: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} (656) (657)، وسيأتي لذلك بقية.

ص 227

قوله: "فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي" أي: إن ذكر ربه سرّاً في نفسه، فإن الله -تعالى- يذكره سرّاً في نفسه، من غير اطلاع أحد من خلقه على ذلك.

وهذا هو محل الشاهد من الحديث، حيث أثبت النفس لله -تعالى- على ما سبق توضيحه.

قوله: "وإن ذكرني في ملاً ذكرته في ملاً خير منهم" الملاً: الجماعة، والمعنى: أن العبد إذا ذكر ربه ظاهراً في جماعة يسمعون ذكره لربه، فإن الله -تعالى- يذكره ويثني عليه في جماعة أفضل من الجماعة الذين ذكر العبد ربه فيهم؛ لأن الذين يذكر الله عبده فيهم في الملاً الأعلى عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وهذا من أقوى أدلة القائلين بتفضيل الملائكة على صالح بني آدم، وهي مسألة مشهورة، والراجح فيها: أن الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين أفضل من الملائكة، وتفضيل فرد من النوع لا يلزم منه تفضيل النوع كله على الآخر، والله أعلم.

قوله: "وإن تقرب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إليّ ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة".

قرب الله -تعالى- من عبده وداعيه، ثبت في نصوص كثيرة، كقوله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} (658)

وقوله - صلى الله عليه وسلم -: "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد" (659).

فالعبد إذا قرب إلى الله -تعالى- بالتوجه والمحبة، وإخلاص العمل، والصدق في ذلك، فإن الله -تعالى- يقرب إليه أكثر من قربه، فكلما زاد قرب

(654) الآية 40 من سورة التوبة .

(655) الآية 46 من سورة طه .

(656) الآية 128 من سورة النحل.

(657) "مجموع الفتاوى" (104-5/102) ملخصاً.

(658) الآية 186 من سورة البقرة .

(659) رواه مسلم ، : (1/350) ، و أبو داود (1/545) ، والنسائي (2/226).

العبد إلى ربه بالطاعة والإنابة والحب والإخلاص، زاد قرب الله إليه، حتى يكون قلب العبد بين يدي ربه، كأنه يشاهده بعينه، وهو -جل وعلا- على عرشه.

ص 228

قال شيخ الإسلام: " فكلما تقرب العبد باختياره قدر شبر، زاده الرب قريباً إليه، حتى يكون كالمتقرب إليه بذراع، فكذلك قرب الرب من قلب العابد، وهو ما يحصل في قلب العبد من معرفة الرب، والإيمان به، وهو المثل الأعلى"⁽⁶⁶⁰⁾.

وبهذا يتبين أن معنى قوله: " إذا تقرب إليّ يشبر تقربت إليه ذراعاً" أن العبد إذا تقرب إلى ربه بطاعته والإقبال عليه، أن الرب تعالى يزيده قريباً إليه، جزاءً من جنس عمله، وأكثر من قرب العبد الذي حصل باختياره.

وقال: " فإذا قرب العبد من ربه بالإنابة إليه، قرب الرب إليه، فيدنو قلبه من ربه، وإن كان بدنه على الأرض، ومضى قرب أحد الشئيين من الآخر، صار الآخر إليه قريباً بالضرورة، وإن قدر أنه لم يصدر من الآخر تحرك بذاته، كما أن من قرب من مكة، قربت مكة إليه"⁽⁶⁶¹⁾.

وقال أيضاً: "ومن الناس من غلط فظن أن قربته -تعالى- من جنس حركة بدن الإنسان إذا مال إلى جهة انصرف عن الأخرى.

والإنسان يجد عمل روحه يخالف عمل بدنه، فيجد نفسه تقرب من نفوس كثير من الناس، من غير أن ينصرف عن هي قريبة منه، وكذلك يجد نفسه تبعد بعيداً عن بعض النفوس بعداً غير ما يقوم بالبدن"⁽⁶⁶²⁾.

وقال أيضاً: " وليس بين الرب والعبد إلا محض العبودية، فكلما كمل العبد عبودية ربه قرب إليه -تعالى-؛ لأنه - سبحانه - بر، جواد، محسن، يعطى العبد ما يناسبه، فكلما عظم فقره إليه، كان أغنى له، وكلما عظم ذله له، كان أعز له، فإن النفس - لما فيها من أهوائها المتنوعة، وتسويل الشيطان لها - تبعد عن الله -تعالى- حتى تصير ملعونة بعيدة عن الرحمة، واللعنة هي: البعد عن الله ورحمته.

ومن أعظم ذنوب العبد: علوه في الأرض، ونسيانه ربه، ولهذا لما كان السجود هو غاية سفول النفس، صار أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، وكذلك الذكر المتضمن للإقبال على الله، والخضوع له"⁽⁶⁶³⁾.

ص 229

⁽⁶⁶⁰⁾ "مجموع الفتاوى" (5/510).

⁽⁶⁶¹⁾ "مجموع الفتاوى" (5/509).

⁽⁶⁶²⁾ المرجع المذكور ببعض التصرف (ص 247).

⁽⁶⁶³⁾ المرجع المذكور بتصريف (ص 238).

"وقوله: من تقرب إليّ بشبر تقربت إليه ذراعاً... " إلخ، هذا قريبه -تعالى- من عابده، وأما قريبه من داعيه فكما في الآية: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أَحِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} (664)، وقربه تعالى من عابده وداعيه قرب خاص، أخص من قرب الإنابة وقرب الإجابة، الذي لم يثبت أكثر المتكلمين سواه" (665).

"فالداعي والساجد تتوجه روحه إلى الله -تعالى-، والروح لها عروج يناسبها فتقرب من الله -تعالى- بلا ريب، بحسب تخلصها من الشوائب، فيكون الله - عز وجل - منها قريباً، قريباً يلزم منه قربها. ويكون منه قرب آخر، كقربه عشية عرفة، وفي جوف الليل، وإلى من تقرب منه شبراً، تقرب منه ذراعاً" (666).

قلت: وبهذا يتبين أن قريبه -تعالى- من عباده نوعان: أولهما: قريبه -تعالى- من قلوب المؤمنين، وقرب قلوبهم منه، وهذا أمر معروف لا يجهل، فإن القلوب تصعد إليه على قدر ما فيها من الإيمان والمعرفة به تعالى، وذكره، وخشيته، والتوكل عليه، وهذا متفق عليه بين الناس، لم ينكره منهم أحد.

والثاني: ما دل عليه هذا الحديث - الذي نحن بصدده شرحه - ونحوه، مثل قريبه عشية عرفة، وقربه آخر الليل، كما ثبتت بذلك النصوص، وهذا القرب ينكره أكثر المتكلمين، من الجهمية، والمعتزلة، والأشعرية، وإنكاره منكر. قال شيخ الإسلام: "وقربه - سبحانه - ودنوه من بعض مخلوقاته، لا يستلزم أن تخلو ذاته من فوق العرش، بل هو فوق العرش ويقرب من خلقه كيف شاء، كما قال ذلك من قاله من السلف، وهذا كقربه إليّ موسى لما كلمه من الشجرة، قال -تعالى-: {وَتَادَيْتَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا} (667).

والذين يثبتون تقريبه العباد إلى ذاته، وهو القول المعروف للسلف، والأئمة، وهو قول الأشعري، وغيره من الكلابية، فإنهم يثبتون قرب العباد إلى ذاته، وأما
ص 230

دنوه نفسه، وتقربه من بعض عباده، فهذا يثبت من قيام الأفعال الاختيارية بنفسه، وهو مذهب أئمة السلف، وأئمة الإسلام المشهورين، وأهل الحديث، والنقل عنهم بذلك متواتر" (668).

(664) الآية 186 من سورة البقرة.

(665) "بدائع الفوائد" (3/8) ملخصاً.

(666) "مجموع الفتاوى" (5/241).

(667) الآية 52 من سورة مريم.

(668) "مجموع الفتاوى" باختصار (466-5/460).

www.dorar.net الدرر السنينة

وقوله: " وإن أتاني يمشي أتيتة هرولة " الهرولة: السرعة في المشي، بين المشي والعدو، وهو تمثيل لكرم الله وجوده على عبده، وأنه إذا أقبل إليه، فهو - سبحانه - أسرع إقبالاً وتفضلاً على عبده، من غير مقابل يناله من العبد، بل هو الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، ويؤخذ من الحديث: عظم فضل الله وكرمه، وعظم فضل الذكر.

قال: "باب قول الله -تعالى-: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} (669).

أراد البخاري بهذا الباب؟ إثبات صفة الوجه لله -تعالى- وهو ثابت لله -تعالى- في آيات وأحاديث كثيرة، سيأتي ذكر شيء منها.

قال ابن كثير: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} إخبار بأنه الدائم الباقي، الحي القيوم الذي تموت الخلائق ولا يموت، كما قال: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ {26} وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} فعبر بالوجه عن الذات، وهكذا قوله ها هنا: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} أي: إلا إياه" (670).

قلت: قوله: " فعبر بالوجه عن الذات " لا يقصد نفي صفة الوجه عن الله -تعالى-، وإنما مراده: أن الذات تابعة للوجه، فاكتفى بذلك.

وقد ذكر البخاري - رحمه الله - هذه الآية في التفسير، وأعقبها بقوله: " إلا ملكه، ويقال: إلا: ما أريد به وجهه" (671). ولم يذكر غير هذا، فقد يقال: إن هذا تأويل سلك البخاري فيه طريق أهل التأويل، وليس الأمر كذلك.

قال الحافظ: " في رواية النسفي" (672): وقال معمر... فذكره، ومعمر هذا هو أبو عبيدة {معمر} بن المثنى، وهذا كلامه في مجاز القرآن، لكنه بلفظ: إلا هو، وكذا نقله الطبري عن بعض أهل العربية، وكذا ذكره الفراء" (673).

قلت: الذي في كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة، يخالف ما ذكره البخاري، وزعم الحافظ أنه كلامه. فإنه قال على الآية: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} مجازه: إلا هو، وما استثنوه من جميع فهو منصوب" (674)، وكذا ما ذكره الفراء في "معاني القرآن" فإنه قال: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} إلا هو، قال الشاعر:

أستغفر الله ذنباً لست محصيه رب العباد إليه الوجه والعمل
أي: " إليه أوجه عملي" (675).

وبهذا يتبين أن الأمر ليس كما قال الحافظ؛ لأن ما ذكره البخاري يختلف عما ذكره الفراء وأبو عبيدة، لفظاً ومعنى.

(669) الآية 88 من سورة القصص.

(670) "تفسير ابن كثير" (6/272).

(671) انظر: "الفتح" (8/505).

(672) النسفي من رواية الصحيح عن البخاري.

(673) "الفتح" (8/505).

(674) "مجاز القرآن" (2/112).

(675) "معاني القرآن" (2/314).

قال الحافظ: " قال ابن المتين: قال أبو عبيدة: {إِلَّا وَجْهَهُ} إلا جلاله، وقيل: إلا إياه، تقول: أكرم الله وجهك، أي: أكرمك الله".
وقوله: ويقال: " إلا ما أريد به وجهه " نقله الطبري - أيضاً - عن بعض أهل العربية، ووصله ابن أبي حاتم من طريق خصيف، عن مجاهد مثله، ومن طريق سفيان الثوري قال: إلا ما ابتغي به وجه الله من الأعمال الصالحة" اهـ (676)

وفي " الدر المنثور": " وأخرج عبد بن حميد، عن ابن عباس: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} إلا ما أريد به وجهه.
وأخرج ابن أبي حاتم، عن مجاهد: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} قال: إلا ما أريد به وجهه.

وأخرج البيهقي في " شعب الإيمان " عن سفيان: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} قال: إلا ما أريد به وجهه من الأعمال الصالحة " (677).
"قوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} بعد قوله: { وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ {86} وَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {87} وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } (678).
ص 233

فإن ذكر ذلك بعد نهيه عن الإشراك، وأن يدعو معه إلهاً آخر، وقوله: {لا إله إلا هو} يقتضي في أظهر الوجهين، وهو أن كل شيء هالك إلا ما كان لوجهه من الأعيان، والأعمال.
روي عن أبي العالية قال: إلا ما أريد به وجهه.

وعن جعفر الصادق: إلا دينه، ومعناها واحد" (679).
قال ابن كثير: " وقال مجاهد والثوري " في قوله: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} أي: إلا ما أريد به وجهه، وحكاه البخاري في " صحيحه " كالمقرر له.
وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله - عز وجل - من الأعمال الصالحة، المطابقة لما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم -.

والقول الأول مقتضاه: أن كل الذوات فانية وهالكة وزائلة إلا ذاته -تعالى-، فإنه الأول، والآخر، الذي هو قبل كل شيء وبعد كل شيء" (680).

(676) "الفتح" (8/505).

(677) "الدر المنثور" (6/447).

(678) الآيات 86-88 من سورة القصص.

(679) "مجموع الفتاوى" (2/427).

(680) "تفسير ابن كثير" (6/272).

والقول الأول هو ما ذكرناه عنه في أول الباب.
فعلى هذا لا يكون قوله: " ما أريد به وجهه " تأويلاً للوجه الذي هو صفة
لله -تعالى-، بل هو من المعاني المستنبطة من الآية، كما يشير إليه سياق
الآية، فإنه -تعالى- يقول: { وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بِعَدَاذٍ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَأَدْعُ
إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } {87} وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }⁽⁶⁸¹⁾.
و أما قوله: " إلا ملكه " فهذا تأويل بعيد، وهو مخالف لصنعه هنا، حيث
ذكر الآية ثم أتبعها بحديث جابر، وفيه قوله -صلى الله عليه وسلم-: " أعوذ
بوجهك ". فهذا ظاهر جداً في أنه أراد إثبات الوجه صفة لله -تعالى-.

ص 234

ومما يدل على بطلان ذلك: أن الأشياء كلها ملك لله -تعالى-، فهل يجوز
أن يقال: كل شيء هالك إلا كل شيء؟ بخلاف قوله: إلا ما أريد به وجهه، فإن
هذا مما تدل عليه الآية عن طريق المفهوم - مع بقائها نصاً - في إثبات
الوجه لله -تعالى- والله أعلم.

⁶⁸¹() الآيتان 87، 88 من سورة القصص.

35-قال: " حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حماد بن زيد، عن عمرو، عن جابر بن عبد الله، قال: لما نزلت هذه الآية: { قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ }⁽⁶⁸²⁾، قال النبي -صلى الله عليه وسلم- " أعوذ بوجهك"، فقال: { أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ } فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: " أعوذ بوجهك"، قال { أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا } فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: " هذا أيسر".

يخوف الله -تعالى- عباده إن لم يطيعوه، ويعبده وحده لا شريك له، ويتبعوا رسوله، بأنه قادر على أن يرسل عليهم عذاباً من السماء، كما أرسل على قوم لوط وقوم شعيب، وغيرهم، أو نوعاً آخر مما يشاء.

وهو كذلك قادر بأن يبعث العذاب من تحتهم، إما بخسف أو زلازل، وبراكين، أو غير ذلك مما يشاء، كما قال -تعالى-: { أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ } {16} أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ تَذِيرِ }⁽⁶⁸³⁾، وعندما سمع الرسول -صلى الله عليه وسلم- هذا التهديد من الله -تعالى- عاذ بوجه ربه الكريم أن يكون ذلك.

قال الحافظ: " وقد روى ابن مردويه، من حديث ابن عباس، ما يفسر به حديث جابر، ولفظه: " عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: " دعوت الله أن يرفع عن أمتي أربعاً، فرفع عنهم اثنتين، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين، دعوت الله أن يرفع عنهم الرجم من السماء، والخسف من الأرض، وأن لا يلبسهم شيعاً، ولا يذيق بعضهم بأس بعض، فرفع عنهم الخسف والرجم، وأبى أن يرفع عنهم الآخرين".

فيستفاد من هذه الرواية: المراد بقوله: " مِّنْ فَوْقِكُمْ، أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ"، ويستأنس له بقوله -تعالى-: { أَقَامِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا }⁽⁶⁸⁴⁾. وقد وقع أصح من ذلك، عند ابن مردويه، من حديث أبي بن كعب، قال: في قوله -تعالى-: { عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ } قال: الرجم، { أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ } قال: الخسف.

وروى ابن أبي حاتم، من طريق السدي، عن شيوخه: أن المراد العذاب من فوق: الرجم، ومن تحت: الخسف. وأخرج ابن عباس: " أن المراد بالفوق: أئمة السوء، وبالتحت: خدام السوء " انتهى⁽⁶⁸⁵⁾.

⁽⁶⁸²⁾ () الآية 65 من سورة الأنعام .
⁽⁶⁸³⁾ () الآيتان 16 ، 17 من سورة الملك .
⁽⁶⁸⁴⁾ () الآية 68 من سورة الإسراء .
⁽⁶⁸⁵⁾ () "الفتح" (8/292).

www.dorar.net الدرر السنية

وذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أحاديث وآثاراً كثيرة. قلت: في هذه الآية الكريمة التي ترجم بها البخاري، والحديث الذي ذكره، دليل واضح على وجوب الإيمان بوجه الله الكريم، وقد جاءت نصوص كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله تثبت ذلك، ولم يزل أهل العلم والإيمان يسألون ربهم بوجهه الكريم، ويدعون بأن يرزقهم النظر إليه في الجنة. ولم ينكر ذلك إلا الجهمية، ومن شايعهم على مذهبهم الفاسد. قال الله -تعالى-: {كُلٌّ مَنَ عَلَيَّهَا فَاِنَّ {26} وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} (686).

و "ذو" في الآية: وصف للوجه، فوصف -تعالى- وجهه الكريم بأنه ذو الجلال والإكرام، وهذا يبطل دعوى أن المراد بالوجه: الذات، كما يبطل دعوى كونه زائداً في الكلام.

وفي "صحيح مسلم" عن أبي موسى الأشعري، قال: قام فينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بخمس كلمات، فقال: "إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه" (687) سبحات وجهه هي: نوره، وبهاؤه، وجلاله. وقال أبو سعيد الدارمي - رحمه الله -: "حدثنا سليمان بن حرب، عن حماد بن زيد، عن عطاء بن السائب، عن أبيه، عن عمار بن ياسر، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان يدعو: "اللهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك الكريم".

ص 237

حدثنا موسى بن إسماعيل، وغيره، عن حماد بن سلمة، عن ثابت البناني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن صهيب، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: "للذين أحسنوا الحسنى وزيادة" قال: النظر إلى وجه الله -تعالى- (688).

حدثنا أحمد بن يونس، عن أبي شهاب الحنات، عن خالد بن دينار، عن حماد بن جعفر، عن ابن عمر، رفعه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- "أن أهل الجنة إذا بلغ النعيم منهم كل مبلغ، وظنوا أن لا نعيم أفضل منه، تجلى لهم الرب، فنظروا إلى وجه الرحمن، فنسوا كل نعيم عاينوه، حين نظروا إلى وجه الرحمن".

(686) الآيتان 26 ، 27 من سورة الرحمن.

(687) انظر: "مسلم" (1/162) رقم (293).

(688) رواه مسلم في "صحيحه" بلفظ: "النظر إلى الله تعالى"، انظر: (1/163) الحديث رقم (180).

وذكر ابن إسحاق في "السيرة" حديثاً طويلاً - فيه: " أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرق له السماوات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلاح عليه أمر الأولين والآخرين" (689).

قال أبو سعيد: "وعلى تصديق هذه الآثار، والإيمان بها، أدركنا أهل الفقه والعلم" (690) وذكر أحاديث في ذلك.

وقد تكاثرت الأحاديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالاستعاذة بوجه الله -تعالى- كما في هذا الحديث الذي ذكره البخاري، وكما في "الموطأ"، و"مسند أحمد" أنه -صلى الله عليه وسلم- كان يقول: " أعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات" (691) وفي هذا أحاديث كثيرة.

وكذلك صح عنه -صلى الله عليه وسلم- سؤاله لذة النظر إلى وجهه الله الكريم، كما في الحديث السابق وغيره.

وبهذا يتبين أن إثبات الوجه والإيمان به متعين، وأنه داخل في الإيمان بالله -تعالى- وهو كسائر صفات الله الثابتة، يجب معرفتها والإيمان بها بدون تأويل، أو تشبيه، بل على ما يجب لله من الإجلال والتعظيم، ليس كمثل شئ لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته، ولا في أفعاله - تعالى وتقدس - عن ظنون أهل الانحراف والزيغ

ص 238

من المؤولين والمعطلين الذين جعلوا أنفسهم هي الأصل، فقاَسوا عليها ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبر عنه رسوله، فحرفوا وعطلوا.

(689) ذكره ابن كثير في "تاريخه" (3/196).

(690) الرد على بشر المريسي (ص 518) "عقائد السلف".

(691) "الموطأ" (2/950-951) مرسل، و"المسند" (2/419) وهو حسن.

قال: " باب قول الله -تعالى- {وَلِئُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي} ⁽⁶⁹²⁾ - تغذى - وقوله - جل ذكره-: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} ⁽⁶⁹³⁾ ".
 فقد دل كتاب الله -تعالى- وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- صراحة، وإجماع أهل العلم بالله والإيمان به، على أن الله -تعالى- موصوف بأن له عينين، حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته.
 وقد جاء ذكر العين وصفاً لله -تعالى- في القرآن مفردة، مضافة إلى الضمير المفرد، كما جاءت مجموعة، مضافة إلى ضمير الجمع، كما في هاتين الآيتين اللتين ذكرهما البخاري. ولم يأت ذكر العين وصفاً لله -تعالى- في القرآن مثناة، ولكن جاء ذلك في الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، والحديث إذا صح عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وجب الإيمان بما دل عليه، والعمل به.

قال ابن القيم: " ذكر العين مفردة، لا يدل على أنها عين واحدة، ليس إلا كقولك: افعل هذا على عيني، لا يريد له أن له عيناً واحدة.
 ولما أضيفت العين إلى اسم الجمع، ظاهراً أو مضمراً، حسن جمعها ميثاكلة للفظ، كقوله -تعالى-: {تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا} ⁽⁶⁹⁴⁾، وقوله -تعالى- {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} ⁽⁶⁹⁵⁾ وهذا نظير لفظ اليد المضافة إلى المفرد، كقوله: {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} ⁽⁶⁹⁶⁾، و{بِيَدِكَ الْخَيْرُ} ⁽⁶⁹⁷⁾، ولما أضيفت إلى ضمير الجمع جمعت، كقوله -تعالى-: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا} ⁽⁶⁹⁸⁾.
 وقد جاء في كتاب الله -تعالى- وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- ذكر العين مضافة إلى الله -تعالى- مفردة، ومجموعة.

وجاءت السنة بإضافتها إليه -تعالى- مثناة، كما قال عطاء: عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: " إن العبد إذا قام في الصلاة، قام بين عيني الرحمن، فإذا التفت قال له ربه: إلى من تلتفت؟ إلى خير لك مني "
 وقوله -صلى الله عليه وسلم-: " إن ربكم ليس بأعور " صريح بأنه ليس المراد إثبات عين واحدة، فإن ذلك عور ظاهر، تعالى الله عنه.

⁽⁶⁹²⁾ جزء من الآية 39 من سورة طه .

⁽⁶⁹³⁾ جزء من الآية 14 من سورة القمر .

⁽⁶⁹⁴⁾ جزء من الآية 14 من سورة القمر .

⁽⁶⁹⁵⁾ جزء من الآية 37 من سورة هود .

⁽⁶⁹⁶⁾ جزء من الآية مفتتح سورة الملك .

⁽⁶⁹⁷⁾ جزء من الآية 26 من سورة آل عمران .

⁽⁶⁹⁸⁾ الآية 71 من سورة يس .

وهل يفهم من قول الداعي: " اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام " أنها عين واحدة ليس إلا، إلا ذهن أقلق، وقلب أغلف؟
وقد استدل السلف على إثبات العينين لله -تعالى- بقوله - جل وعلا -
{ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا } وممن صرح بذلك أبو الحسن الأشعري في الإبانة، والموجز،
والمقالات⁽⁶⁹⁹⁾.

قوله -تعالى-: { وَلِئُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي } فسر البخاري "تصنع" بتغذى، من التغذية، يقال: صنعت الفرس، إذا أحسنت القيام عليه⁽⁷⁰⁰⁾.
قال ابن كثير: { وَلِئُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي } قال أبو عمران الجوني: تربي بعين الله -تعالى- وقال قتادة: تغذى على عيني.

وقال معمر بن المثنى: { وَلِئُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي } بحيث أرى.
وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "يعني: أجعله في بيت الملك، ينعم ويترف، غذاؤه عندهم غذاء الملك، فتلك الصنعة"⁽⁷⁰¹⁾.
وأسند ابن جرير هذه الأقوال، وروى عن ابن جريج: أنت بعيني إذ جعلتك أمك في التابوت، ثم في البحر. واختار قول قتادة.

وقال: " وعنى بقوله: { عَلَى عَيْنِي } بمرأى مني، ومحبة، وإرادة"⁽⁷⁰²⁾.
قوله: { تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا }، قال ابن جرير: " يقول - جل ثناؤه -: تجري السفينة التي حملنا نوح فيها، بمرأى منا، ومنظر"⁽⁷⁰³⁾.
قلت: وكذا قال غيره من المفسرين، ومن لازم الرؤية والنظر وجود العين، ففي هاتين الآيتين، وغيرهما من نصوص كتاب الله وحديث رسوله كثير، إثبات العينين

ص 241

لله -تعالى- اللتين ينظر بهما إلى ما يريد، ولا يحجب نظره حاجب، وقد تقدم وجه الجمع والإفراد في ذلك.
وقال الأزهري: { وَاصْبَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا } قال أصحاب النقل والأخذ بالأثر: الأعين: يريد به العين، قال: وعين الله لا تفسر بأكثر من ظاهرها، ولا يسع أحداً أن يقول: كيف هي، أو ما صفتها؟ - ذكره عن ابن الأنباري-"⁽⁷⁰⁴⁾.

(699) " مختصر الصواعق " (ص 24) ط الإمام .

(700) " الفتح " (13/389).

(701) " تفسير ابن كثير " (5/278) ط الشعب .

(702) " تفسير الطبري " (163-16/162) ط الحلبي.

(703) المرجع السابق (27/64).

(704) انظر: " تهذيب اللغة " (3/205).

36- قال: " حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا جويرية، عن نافع، عن عبد الله، قال: ذكر الدجال عند النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: " إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور - وأشار بيده إلى عينه - وإن المسيح الدجال أعور عين اليمنى، كان عينه عنبة طافية".

الدجال: الكذاب، ودجله: سحره وكذبه؛ لأنه يدجل الحق بالباطل، أي: يغطيه، وهو رجل من اليهود، يخرج في آخر هذه الأمة، كما جاءت الأحاديث بذلك عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قال أبو علي القالي: عن ابن دريد: " كل شيء غطيته فقد دجلته، ومنه اشتقاق دجلة، كأنها غطت الأرض إذا فاضت عليها".

والدجال من هذا الاشتقاق؛ لأنه يغطي الحق بالباطل.
وقال قوم: سمي بذلك لأنه يغطي الأرض بكثرة جموعه.
وقال آخرون: " يغطي على الناس بكفره" (705).

وقال الحافظ: الدجال: فعال، بفتح أوله، والتشديد، من الدجل، وهو التغطية، وسمي الكذاب دجالاً، لأنه يغطي الحق بباطله.
وقال ثعلب: " الدجال: المموه" (706).

قوله: " إن الله لا يخفى عليكم" المؤمن بالله وبأوصافه التي تعرف بها إلى عبادته، لا يخفى عليه رب العالمين، فهو -تعالى- {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}، ليس له كفو ولا ند، فلا يمكن أن يشابه المخلوق الضعيف، المحتاج الناقص، وكل مخلوق له صفة الضعف والحاجة والنقصان، ولا بد، تعالى عن مشابهة خلقه علواً كبيراً.

قوله: " إن الله ليس بأعور" هذه الجملة هي المقصودة من الحديث وفي هذا الباب، فهذا يدل على أن لله عينين حقيقة؛ لأن العور فقد أحد العينين، أو ذهب نورها.

قال في " القاموس": " العور: ذهب حس إحدى العينين والرديء من كل شيء، والضعيف الجبان البليد الذي لا يدل، ولا يندل، ولا خير فيه" (707).

وعلى كل: العور نقص وعيب في الاتفاق، والمقصود أنه في اللغة هو ذهب ضوء إحدى العينين.

ولهذا صار هذا الحديث من الأدلة الواضحة على إثبات ثنية العين لله -تعالى-، ويزيد ذلك وضوحاً إشارته -صلى الله عليه وسلم- إلى عينه لتحقيق

(705) " البارع" (ص 35).

(706) " الفتح" (13/91).

(707) " القاموس" (2/97).

الوصف، يعني أن لله عينين سالميتين من كل عيب كاملتين، بخلاف الدجال الفاقد لإحدى عينيه، وذلك من أعظم الأدلة على كذبه.

وقال ابن المنير: " وجه دلالة الحديث على إثبات العين لله، من حديث الدجال من قوله: " إن الله ليس بأعور " من جهة أن العور عرفاً: عدم العين، وضد العور ثبوت العين، فلما نزعنا هذه النقيصة لزم ثبوت الكمال بضدها، وهو وجود العين " (708).

قلت: الحديث فيه إثبات العينين لله -تعالى-، لا عين واحدة، كما قد يتوهمه كلامه.

وقوله: " عرفاً " بل هو لغة قبل العرف.

" وقال شهاب الدين السهروردي في كتاب العقيدة له: أخبر الله في كتابه وثبت عن رسوله، الاستواء، والنزول، والنفس، واليد، والعين، فلا يتصرف فيها بتشبيهه، ولا تعطيل، إذ لولا إخبار الله ورسوله، ما تجاسر عقل أن يحوم حول ذلك الحمى ".

" قال الطيبي: هذا هو المذهب المعتمد، وبه يقول السلف الصالح " .
وقال غيره: لم ينقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولا عن أحد من أصحابه، من طريق صحيح، التصريح بوجود تأويل شيء من ذلك، ولا المنع من ذكره.

ومن المحال أن يأمر الله نبيه بتبليغ ما أنزل إليه من ربه، وينزل عليه {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} ثم يترك هذا

ص 244

الباب، فلا يميز ما يجوز نسبته إليه مما لا يجوز، مع حضه على التبليغ عنه بقوله: " ليلغ الشاهد الغائب " حتى نقلوا أقواله، وأفعاله، وأحواله، وصفاته، وما فعل بحضرته.

فدل على أنهم اتفقوا على الإيمان بها، على الوجه الذي أراد الله منها. ووجب تنزيهه عن مشابهة المخلوقات، بقوله -تعالى-: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} فمن أوجب خلاف ذلك بعدهم، فقد خالف سبيلهم، وبالله التوفيق " انتهى (709).

قال الإمام ابن خزيمة: " بين النبي -صلى الله عليه وسلم- أن لله عينين، فكان بيانه موافقاً لبيان محكم التنزيل ".

(708) "الفتح" (13/390).

(709) المرجع المذكور.

ثم ذكر بسنده حديث أبي هريرة، وقرأ قوله -تعالى- {إِنَّ اللَّهَ نِعَمًا
يَعْظُمُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} " رأيت رسول الله -صلى الله عليه
وسلم- يضع إبهامه على أذنه، وإصبعه التي تليها على عينه" (710).
قوله: " كان عينه عنبة طافية " أي: قد ذهب ماؤها، فهي ضامرة ملتوية؛
ولهذا جاءت الأحاديث بوصفه بأنه ممسوح العين، كما في "سنن أبي داود"
عن عبادة بن الصامت، أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: " إني
قد حدثتكم عن الدجال، حتى خشيت أن لا تعقلوا، إن المسيح الدجال رجل
قصير، أفحج، جعد، أعور، مطموس العين، ليست بناتئة، وجحراء، فإن لبس
عليكم فاعلموا أن ربكم ليس بأعور" (711).
في هذا بيان أن عينه - قبحة الله - قد ذهب ماؤها، فضمرت، وبقيت
سادة مكانها، لم تكن غائرة، ولا ناتئة مرتفعة، وهذا هو وصف العنبة إذا ذهب
ماؤها.

(710) كتاب "التوحيد" (ص 42، 43).
(711) "سنن أبي داود" (4/496).

37-قال: " حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة، أخبرنا قتادة، قال: سمعت أنساً - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: " ما من نبي إلا أنذر قومه الأعور الكذاب، إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، مكتوب بين عينيه: كافر".

الإندار: هو الإخبار مع التخويف، وفي قوله: " ما من نبي " عموم يشمل جميع النبيين، وهو يدل على عظم فتنته وخطره.
وقوله: " الأعور الكذاب " تقدم أن الأعور: من عميت إحدى عينيه بآفة، فأصبح لا يرى إلا بعين واحدة.

ووصف بأنه الكذاب؛ لعظم كذبه، حيث يزعم أنه رب الناس، مع ظهور كذبه، وهو يتدرج في كذبه، فأولاً: يدعي أنه مصلح، ثم يدعي أنه نبي، ثم يدعي أنه إله، وهذا أعظم الكذب، وأبينه.

وقد عين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عينه العوراء، أنها اليمنى، كما في حديث عبدالله ابن عمر، الذي قبل هذا وغيره.

واعلم أن المتكلمين من المعتزلة، والأشعرية، ونحوهم، يزعمون أن من أثبت لله عينين، ويدين، ووجهاً، ونحو ذلك مما جاءت به النصوص، من أثبت ذلك على ظاهر اللفظ، أنه يثبت جوارح، تشبه جوارح الخلق على حد زعمهم، تعالى الله وتقدس عن زعمهم، وظنهم السيء في الله ورسوله، حيث ظنوا أن ظاهر وصف الله نفسه، وظاهر وصف رسوله إياه يقتضي التشبيه، ولهذا تجد الذين تلقوا هذا الفكر، وتأثروا به، من الذين يشتغلون بالحديث، إذا جاء ذكر ذلك قالوا: مثلاً: إثبات صفة اليد لا من حيث الجارحة، إثبات صفة الوجه لا من حيث الجارحة، ونحو ذلك كما يقوله المبيهقي في كتابه " الأسماء والصفات " وسائر شراح الحديث الذين لا يجرؤون على رد النصوص، فهم عندما يتكلمون على مثل هذه النصوص يبادرون إلى نفي الجارحة، كما قال بعض زعمائهم ما يلي:

" زعم قوم، أن لله عينا، يريدون: كجارجة العين من الإنسان، وأرادوا التركيب، واحتجوا بقوله - تعالى -: { وَلِئَصِّغَ عَلَيَّ عَيْنِي }⁽⁷¹²⁾، و { اصْصِغِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا }⁽⁷¹³⁾، و { وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا }⁽⁷¹⁴⁾.

قال أبو سعيد الدارمي - رحمه الله تعالى - في الرد عليه: " أما ما ادعيت أن قوماً يزعمون أن لله عيناً، فإننا نقوله؛ لأن الله - تعالى - قاله، ورسوله.

⁽⁷¹²⁾ جزء من الآية 39 من سورة طه .

⁽⁷¹³⁾ جزء من الآية 37 من سورة هود .

⁽⁷¹⁴⁾ الآية 48 من سورة الطور .

و أما زعمك أنهم يشبتون جارحة كجارحة العين من الإنسان، على التركيب، فهذا كذب، ادعيته علينا عمداً، وأنت تعلم أن أحداً لم يقله، ولكنك تريد التشنيع، ليكون هنالك مقبولاً لدى الجهال، والكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، فمن الذي قال: إنها جارحة مركبة؟ اذكره، فإن قائله كافر. وكم تشنع بما تقرر من قولك: جسم مركب، وجوارح، وأجزاء، وأعضاء، تريد أن يكف المؤمنون، عن وصف الله -تعالى- بما وصف به نفسه في كتابه، وما وصف به رسوله.

ونحن لم نصف الله بجسم كأجسام المخلوقين، ولا بعضو، ولا بجارحة، لكننا نصفه بما يغيظك من هذه الصفات، التي أنت ودعاتك لها منكرون، فنقول: إنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ذو الوجه الكريم، والسمع السميع، والبصر البصير⁽⁷¹⁵⁾.

وقوله: " إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور " اشتملت هذه الجملة على تأكيد وصف الدجال الكذاب، بأنه أعور العين، أي أنه ناقص، معيب، قد لحقه الضرر لفقد إحدى عينيه، فمثله محال أن يكون إلهاً، لأنه فقير محتاج إلى غيره، بالإضافة إلى النقص والعيب الذي فيه، وقد جاء بأعظم الكذب والبهتان، حيث ادعى أنه إله، يتوجه إليه، بطلب الإسعاد، وصراف الشقاء.

ص 247

كما اشتملت هذه الجملة من الحديث على وصف الله -تعالى- بكمال العينين، ولهذا قال -صلى الله عليه وسلم-: " وإن ربكم ليس بأعور ". فهذا بيان واضح بوصف الله -تعالى- بأن له عينين كاملتين، على ما يليق بعظمته.

قال النووي: " هذه علامة بينة تدل على كذب الدجال، دلالة قطعية، بديهية، يدركها كل أحد "⁽⁷¹⁶⁾.

قوله: " مكتوب بين عينيه كافر " وفي رواية: " يقرأه كل مؤمن، كاتب، وغير كاتب ".

قال النووي: " والصحيح الذي عليه المحققون: أن هذه الكتابة على ظاهرها، وأنها كتابة حقيقية، جعلها الله آية، وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره، وكذبه وإبطاله، يظهرها الله -تعالى- لكل مسلم كاتب، وغير كاتب، ويخفيها عن من أراد شقاوته وفتنته، ولا امتناع في ذلك "⁽⁷¹⁷⁾.

وهذا من رحمة الله بعباده، حيث أظهر علامات كذبه، إظهاراً لا يخفى إلا على من أريد فتنته، وعمي قلبه، وأشرب بحب الباطل، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

⁽⁷¹⁵⁾ نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي، بتصرف (ص 545-546) " عقائد السلف " .

⁽⁷¹⁶⁾ " شرح مسلم " (18/60).

⁽⁷¹⁷⁾ " شرح مسلم " (18/60).

قال: " باب قول الله -تعالى-: {هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ} (718).
قال ابن جرير: " يقول -تعالى- ذكره: هو المعبود الخالق، الذي لا معبود
تصلح له العبادة غيره، ولا خالق سواه، البارئ الذي برأ الخلق فأوجدهم
بقدرته، المصور خلقه كيف شاء، وكيف يشاء" (719).
ومراد البخاري بهذا: بيان أن الله -تعالى- متصف بأنه الخالق، البارئ،
المصور في الأزل، والأبد، فهو الخالق قبل وجود المخلوق، وهو البارئ قبل
وجود المبري، وهو المصور قبل وجود المصوّر، فهو -تعالى- لم يزل بصفاته
ولا يزال، كما يريد أيضاً بيان أن الخلق الذي هو وصفه -تعالى- غير المخلوق،
خلافاً لأهل البدع الذين يشير بهذا إلى الرد عليهم.
قال الزجاج: " أصل الخلق في الكلام: التقدير، يقال: خلقت الشيء
خلقاً، إذا قدرته، كما قال زهير:

لأنت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري
يعني: أنك إذا قدرت الأمر مضيت في عزمك وفعلته، ولست ممن يقدر
الأمر ثم لا يعزم على فعله، بل ينثني عن ذلك.

فالخلق في اسم الله -تعالى- هو: ابتداء تقدير النشاء.
فاله -تعالى- خالقها، ومنشئها، وهو متممها، ومدبرها، فتبارك الله أحسن
الخالقين. {البارئ} يقال: برأ الله الخلق إذا فطرهم.
والبرء: خلق على صفة، فكل مبروء مخلوق، وليس كل مخلوق مبروءاً،
لأن البرء من تبرئة الشيء من الشيء، كما يقال: برأت من المرض، ومن
الدين.

فإذا فصل بعض الخلق من بعض، سمي فاعله بارئاً.
فهو المعنى الذي به انفصلت الصورة بعضها من بعض، فصورة زيد
مفارقة لصورة عمرو، وصورة حمار مفارقة لصورة فرس، فتبارك الله خالقاً
بارئاً.

{المصور} أي: مصور كل صورة، لا على مثال احتذاه - ولا رسم
ارتسمه، -تعالى- عن ذلك علواً كبيراً" (720).
أي أنه لم يتقدمه أحد فعل ذلك، لا تقديراً، ولا إظهاراً وإيجاداً.
وقال الحافظ: " قال الطيبي: قيل: الألفاظ الثلاثة مترادفة، وهو وهم.
فإن {الخلق}: من الخلق، وأصله التقدير المستقيم، ويطلق على
الإبداع، وهو إيجاد الشيء على غير مثال، كقوله -تعالى-: {خَلَقِ السَّمَاوَاتِ

(718) الآية 24 من سورة الحشر.

(719) "تفسير الطبري" (18/56).

(720) "تفسير أسماء الله الحسنى" بعض التصرف (ص 26-27).

وَالْأَرْضِ { وعلى التكوين، كقوله -تعالى-: { خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ {
{ الْبَارِئِ } من البرء، وأصله خلوص الشيء عن غيره، إما على سبيل
الخلوص منه، كبرء الرجل من مرضه، والمديون من دينه.
أو على سبيل الإنشاء، كبرء الله النسمة.

و {المصور} مبدع صور المخترعات، ومرتبها على حسب مقتضى
الحكمة، فالله -تعالى- خالق كل شيء، بمعنى أنه موجد من أصل، ومن غير
أصل، وبارئه، بحسب ما تقتضيه الحكمة، من غير تفاوت، ولا اختلاف،
ومصوره في صورة يترتب عليها خواصه ويتم بها كماله.

فالتقدير يقع أولاً، ثم الإحداث على الوجه المقدر يقع ثانياً، ثم التصوير
بالتسوية يقع ثالثاً " (721). وبهذا يتبين الفرق بين هذه الأسماء الثلاثة:
فالخالق: مبدع الأشياء على غير مثال سابق.

والبارئ: موجد الأشياء، ومظهرها إلى الوجود، من أصل ومن غير أصل.
والمصور: الذي خص كل مخلوق بما يميزه عن الآخر، وما تحصل به
مصلحته، كما قال تعالى: {الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} (722).
ويظهر أن "البارئ" أخص من "الخالق" كما تقدم في كلام الزجاج ما يشير
إلى ذلك، وإذا أضيف الخلق إلى الإنسان، فمعناه التقدير، ويأتي بمعنى
الكذب.

(721) "فتح الباري" (13/391) ملخصاً.

(722) الآية 50 من سورة طه .

38-قال: " حدثنا إسحاق، حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا موسى - هو ابن عقبة- حدثني محمد بن يحيى بن حبان، عن ابن محيريز، عن أبي سعيد الخدري، في غزوة بني المصطلق، أنهم أصابوا سبايا، فأرادوا أن يستمتعوا بهن، ولا يحملن، فسألوا النبي -صلى الله عليه وسلم- عن العزل، فقال: " ما عليكم أن لا تفعلوا، فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة"، وقال مجاهد: عن قزعة، سمعت أبا سعيد، فقال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: " ليست نفس مخلوقة، إلا الله خالقها".

"العزل": هو إنزال الماء خارج فرج المرأة، خوفاً أن تحمل.
قال الحافظ: " هو النزاع بعد الإيلاج لينزل خارج الفرج" (723).
"قوله: ما عليكم أن لا تفعلوا" أي: لا يضركم عدم العزل؛ لأن ما قدره الله -تعالى- من الخلق، فلا بد من وجوده، عزل الإنسان أو لم يعزل، يوضحه ما في رواية مسلم فقال: " لا عليكم أن لا تفعلوا، ما كتب خلق نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون" (724).

وفي قصة الرجل الذي سأل عن العزل عن جاريته، فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " إن ذلك لن يمنع شيئاً أرادته الله" (725).
قال الحافظ: " وفي رواية: " لا عليكم أن لا تفعلوا" أي: لا حرج عليكم أن لا تفعلوا العزل، ففيه نفي الحرج عن عدم الفعل، فأفهم ثبوت الحرج في فعل العزل.

ولو أراد نفي الحرج عن العزل لقال: " لا عليكم أن تفعلوا" (726).
وفي مسلم لما ذكر هذا الحديث "قال محمد" وقوله: " لا عليكم" أقرب إلى النهي "ومحمد هذا هو ابن حاتم. وفيه أيضاً: " وقال ابن عون: فحدثت به الحسن، فقال: والله لكان هذا زجر" (727).

قوله: " فإن الله قد كتب من هو خالق إلى يوم القيامة" هذا يبين عدم فائدة العزل؛ لأن كل نفس قدر الله -تعالى- خلقها، لا بد أن يخلقها، عزلتم أم لا، وما لم يشأ خلقها لا يقع ولو لم يعزلوا، فإن كان الله أراد أن يخلق في تلك المقارنة وذلك الوقت، فلا بد من وجود ذلك ولو حرصتم كل الحرص على عدم الإنزال في الرحم، فلا غالب على أمره، وهو الخالق وحده.

(723) "الفتح" (9/305).

(724) "مسلم مع النووي" (10/10).

(725) "مسلم مع النووي" (10/10).

(726) "الفتح" (9/307).

(727) "مسلم مع النووي" (10/11).

وهذا هو وجه استدلال البخاري في الحديث، فإن الله -تعالى- هو الخالق البارئ المصور وحده، وأن كلا من الأب والأم، لا دخل لهما في ذلك، بل الله -تعالى- هو الذي يقدر خلق هذا المخلوق شاء الناس ذلك أو لم يشاؤوا، وأنه هو بارئ النسمة من الذكر والأنثى، أو مما يشاء، والخلق كلهم لا يستطيعون فعل شيء من ذلك.

وهو -تعالى- المصور لهذا الإنسان السوي من نطفة متساوية الأجزاء، لو اجتمع عليها أمهر الأطباء، بكل ما أوتوا من علوم وآلات وإمكانيات، لم يستطيعوا أن يصوروا منها شيئاً حياً، فتبارك الله أحسن الخالقين. فإن قيل: قد يتحكم الإنسان بالحمل إما بالعقاقير أو بوسائل أخرى. فجوابه: أن ذلك من تقدير الله -تعالى-، ولا يمكن أن يكون شيء خارجاً عن مشيئته وتقديره، وإذا أراد أن يخلق مخلوقاً فلا بد من وجوده، وإن استعملت الوسائل المانعة لذلك.

"قال ابن بطال: الخالق في هذا الباب، يراد به: المبدع المنشيء لأعيان المخلوقين، وهو معنى لا يشارك الله فيه أحد".

"وقال الكرمانى: " معنى قوله: إلا وهي مخلوقة، أي مقدره الخلق، أو معلومة الخلق عند الله -تعالى- لابد من إبرازها إلى الوجود"⁽⁷²⁸⁾.

قال شيخ الإسلام: والذي عليه جماهير المسلمين من السلف والخلف: أن الخلق غير المخلوق، فالخلق فعل الخالق، والمخلوق مفعوله، ولهذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يستعيز بأفعال الرب وصفاته، كما في قوله -صلى الله عليه وسلم-: "أعوذ برضاك من سخطك،

ص 252

وبمعافاتك من عقوبتك، وبك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"⁽⁷²⁹⁾ فاستعاذ بمعافاته كما استعاذ برضاه.

وقد استدل أئمة السنة كأحمد وغيره، على أن كلام الله غير مخلوق، بأنه استعاذ به، فكذاك معافاته ورضاه غير مخلوقة؛ لأنه استعاذ بهما، والعافية القائمة ببدن الإنسان مخلوقة، فإنها نتيجة معافاته "⁽⁷³⁰⁾.

وسياتي - إن شاء الله تعالى - بسط ذلك وإيضاحه في محله.

⁽⁷²⁸⁾ "الفتح" (13/392).

⁽⁷²⁹⁾ تقدم تخريجه .

⁽⁷³⁰⁾ "مجموع الفتاوى" (230-6/229).

قال: " باب قول الله -تعالى-: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} (731)".
 أراد - رحمه الله - بهذه الترجمة بيان ما أثبتته الله -تعالى- لنفسه، من
 صفة اليدين، وأثبتته له رسوله -صلى الله عليه وسلم- على ظاهر ما نطقت
 به النصوص المتنوعة الدلالة في ذلك، كما سيأتي - إن شاء الله تعالى -
 قال الله -تعالى-: {وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا
 قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ} (732).
 وقال -تعالى-: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (733).
 وقال -تعالى-: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} (734)، {بِيَدِهِ الْمُلْكُ} (735)، {بِيَدِكَ
 الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} في آيات كثيرة وقد ذكر البخاري في ذلك عدة
 أحاديث.

39- قال: " حدثني معاذ بن فضالة، حدثنا هشام، عن قتادة، عن أنس أن
 النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: " يجمع الله المؤمنين يوم القيامة،
 كذلك، فيقولون: لو استشفعنا إلى ربنا، حتى يريحنا من مكاننا هذا.
 فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم، أما ترى الناس؟ خلقك الله بيده، وأسجد
 لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيء، اشفع لنا إلى ربنا، حتى يريحنا من
 مكاننا هذا، فيقول: لست هناك، ويذكر لهم خطيئته التي أصاب، ولكن اتوا
 نوحاً، فإنه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فيأتون نوحاً، فيقول: لست
 هناكم، ويذكر خطيئته التي أصاب، ولكن اتوا إبراهيم -خليل الرحمن-
 فيأتون إبراهيم، فيقول: لست

هناكم، ويذكر خطاياها التي أصابها، ولكن اتوا موسى، عبداً آتاه التوراة
 وكلمه تكليماً فيأتون موسى، فيقول: لست هناكم، ويذكر لهم خطيئته التي
 أصاب- ولكن اتوا عيسى، عبد الله ورسوله، وكلمته، وروحه، فيأتون عيسى،
 فيقول: لست هناكم، ولكن اتوا محمد صلى الله عليه وسلم عبداً غفر له ما
 تقدم من ذنبه وما تأخر.

فيأتوني، فانطلق، فاستأذن على ربي، فيؤذن لي عليه، فإذا رأيت ربي
 وقعت له ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع محمد،

(731) الآية 75 من سورة ص.

(732) الآية 64 من سورة المائدة .

(733) الآية 67 من سورة الزمر.

(734) جزء من الآية 10 من سورة الفتح .

(735) فاتحة سورة الملك.

www.dorar.net الدرر السنية

وقل يسمع، وسل تطعه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم اشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة.

ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم اشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة.

ثم أرجع فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال: ارفع محمد، قل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع، فأحمد ربي بمحامد علمنيها، ثم اشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة.

ثم أرجع فأقول: يا رب، ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن، ووجب عليه الخلود.

قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة.

ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن برة.

ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن ذرة".

هذا حديث الشفاعة المشهور، وقد ذكره البخاري في أماكن متعددة من جامعه.

والمقصود هنا: قوله: "خلقك الله بيده" حيث جعل ذلك ميزة لآدم من بين الخلق، فدل على أن اليد هنا على ظاهرها، يد حقيقة، ولو كانت كما يقول أهل التأويل: إنها القدرة، لم يكن لآدم اختصاص بذلك، إذ الخلق كلهم مخلوقون بقدرة الله -تعالى-.

ص 255

قوله: "يجمع الله المؤمنين يوم القيامة كذلك" قال الحافظ: "هكذا للجميع، وأظن أول هذه الكلمة لام - أي لذلك - والإشارة ليوم القيامة - أو لما يذكر بعد.

وعند مسلم: "يجمع الله المؤمنين، يوم القيامة، فيهتمون لذلك، وفي رواية "يلهمون لذلك"⁽⁷³⁶⁾.

ومعنى: يهتمون ويلهمون متقارب، أي أنهم يعنون بسؤال الشفاعة، وإزالة الكرب الذي هم فيه، أو أن الله -تعالى- يلهمهم سؤال ذلك، والإلهام: أن يلقي الله -تعالى- في النفس أمراً يحمل على فعل الشيء أو تركه"⁽⁷³⁷⁾.

⁽⁷³⁶⁾ "الفتح" (13/394).

⁽⁷³⁷⁾ "شرح النووي على مسلم" (3/53).

قوله: " فيقولون: لو استشفعنا إلي ربنا، حتى يريحنا من مكاننا هذا " هذا هو الذي يهتمون له - أو يلهمونه - أي لو طلبنا مما هو موجود معنا من الرسل الذين لهم مقام عند الله من يشفع لنا عند ربنا! ليريحنا من عناء هذا الموقف وكرباتة، فيحاسبنا ربنا، ويجزينا بأعمالنا، وما نستحق، ثم نصير إلى منازلنا.

قوله: " فيأتون آدم " إلى عيسى، وكلهم يعتذر، ويذكر لهم ذنبه. فآدم - عليه السلام - يقول: نهاني عن الأكل من الشجرة فعصيته. ونوح - عليه السلام - يقول: دعوت على قومي، فأغرقوا، وسألت ما ليس لي به علم. وإبراهيم - عليه السلام - يقول: كذبت ثلاث كذبات، مع أنهن في سبيل الله، وهن: قوله: {بَلْ قَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا}، وقوله: {إِنِّي سَقِيمٌ} وقوله: للظالم العنيد لما سأله عن زوجته، قال: " إنها أختي "؛ لأنها أخته في الإسلام، ولو قال: إنها زوجته، لأخذها منه ذلك الظالم.

وموسى - عليه السلام - يقول: قتلت نفساً بغير حق، ولم يذكر لعيسى عليه السلام ذنباً، وهذا كله مع قول عيسى عليه السلام: " ولكن اتوا محمداً، عبداً غفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر " يدل على وقوع الذنوب من الأنبياء، وهؤلاء المذكورون هم أفضل الأنبياء، وهي مسألة مشهورة، ولا خلاف أن الكفر بعد النبوة غير واقع منهم، كما أنه لا خلاف في عصمتهم فيما يبلغونه عن طريق القول. وأما الفعل، فقد يقع منهم السهو أو النسيان، أو الخطأ الذي لا يقرون عليه، كما أنهم محفوظون من الذنوب، التي تزي بفاعلها، وتسقط مروءته.

ص 256

و أما الصغائر فجائز وقوعها منهم، كما دل عليه هذا الحديث في الجملة، وغيره من النصوص الكثيرة، والله أعلم.

وقد تطرف بعض شراح الكتاب وزعم أن من قال بهذا أنه كافر. ويدل على عظم الأمر، كيف اعتذر من هم أفضل البشر عن الشفاعة معتلين بذنوب أكثر الخلق لا يعدها ذنوباً، وهم قد تابوا منها، واستغفروا ربهم فغفر لهم، وهذا يدل على عظم الله، وعظيم قدره في قلوبهم، وعلى صعوبة الموقف بين يدي الله وشدته، فهل يفهم هذا من يهرع إلى قبور الموتى يطلبون منهم ما لا يطلبه أولو العزم من الرسل من الله - تعالى -؟

وقول كل واحد منهم: " لست هناكم " أي: لست كما تظنون أنني أستطيع أن أشفع لكم، فليس ذلك عندي.

قوله: " فأنتلق، فأستأذن علي ربّي، فيؤذن لي عليه " يدل على أنه - صلى الله عليه وسلم - يقصد مكاناً معيناً، يرى فيه ربه، وسيأتي في باب

الرؤية في هذا الحديث " فاستأذن على ربي في داره " وقد قيل: إن المراد بداره هنا الجنة، فإله أعلم.

قوله: " فإذا رأيت ربي وقعت له ساجداً " صريح في أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- يرى ربه عياناً في ذلك الموقت، وسيأتي ذلك - إن شاء الله تعالى -.

قوله: " فيدعني ما شاء الله أن يدعني، ثم يقال لي: ارفع محمد، وقل يسمع، وسل تعطه، واشفع تشفع " أي: أن الله -تعالى- يمهل له في السجود، فيبقى ساجداً وقتاً طويلاً، يسبح ربه، ويمجده، ويشني عليه، ويحمده، فلا يرفع رأسه من سجوده حتى يأمره الله -تعالى- برفعه، ثم يأذن له -تعالى- بأن يطلب من ربه مراده، وقد علم الله مقصده، ولهذا قال له: اشفع تشفع، وهذا كله من رحمته -تعالى-، فهو الذي ألهم عباده طلب الشفاعة من الأنبياء، وهو الذي أذن في الشفاعة وقبلها، وحقيقة الأمر هو إرادة الله -تعالى- رحمة الخلق وإراحتهم من عناء الموقف، وإظهار كرامة محمد -صلى الله عليه وسلم- للخلق في ذلك الموقف العظيم، وإلا فالشفاعة كلها لله.

قوله: " فأحمد ربي بمحامد علمنيها " قد تقدم أن هذا يدل على عدم حصر أسماء الله الحسنى، في تسع وتسعين؛ لأن هذه المحامد بأسمائه الحسنى وصفاته
ص 257

العليا، وقد جاء في الرواية الأخرى: " فيفتح الله عليّ من المحامد والثناء ما لا أحسنه الآن ".

قوله: " ثم أشفع، فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة " أي: أن الله -تعالى- يعين له من يشفع فيهم، وهذا من الأدلة الواضحة على أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لا يشفع فيمن يريد، بل لمن يأذن الله له في الشفاعة فيهم، وبذلك يتبين أن الشفاعة لله جميعاً، كما صرحت بذلك آيات من كتاب الله -تعالى-: { أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبًا أُولَئِكَ كَانُوا لَمْ يَمْلِكُوا شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ } {43} قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } (738).

وقال تعالى: { قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَعِمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ } {22} وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } (739).

(738) الآيتان 43 و 44 من سورة الزمر .
(739) الآيتان 22 و 23 من سورة سبأ .

بهذه الآفة ٱبببن أن المدعو ٱبب أن ٱكون مالكاً لما ٱدعى من أجله، وإلا كانت دعوته ضلالاً مبنناً، فإن لم يكن مالكاً ٱكون مشاركاً للمالك، فإن انتفى الأمران، ٱكون معاوناً وظهيراً مساعداً للمالك، فإن لم يكن ذلك، فلا أقل من أن ٱكون شافعاً مقبول الشفاعة عند من ٱملك المطلوب، فنفى الله -تعالى- عن المدعوبين من دونه هذه الأمور الأربعة، وبن أن الشفاعة لا تنفع إلا بعد إذنه، وهو - جل وعلا - لا ٱذن في الشفاعة إلا لمن رضي عمله، وهم أهل الإخلاص، ومتابعة الرسول وهو -تعالى- لا ٱرضى عن المشرك، الذي ٱدعو غير الله -تعالى-.

فبب على العاقل الذي تعز عليه نفسه أن لا ٱغر بما اغتر به كبثر من الناس الذين ٱعتمدون على الشفاعة، مع ما هم فبهم من المعاصي، فأفضل الشفعاء ٱحد الله له حداً، ٱقول: هؤلاء أشفع فبهم.

ص 258

قوله: " فأقول: ٱارب، ما بقبى إلا من حبسه القرآن، ووجب عليه الخلود" أى: أن أهل التوحد الذين استحقوا دخول النار بذنوبهم قد خرجوا منها بالشفاعة التي حقيقتها رحمة الله إباهم، بواسطة الشفاعة؛ لٱظهر كرامة الشافع كما تقدم، وبقى من نص القرآن على أنه من أهل النار، الذين لا تنالهم شفاعة الشافعين.

قوله: " ٱخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخبر ما ٱزن شعيرة... " إلى قوله: " ما ٱزن برة" ٱدل على أن مجرد قول: لا إله إلا الله، من دون أن ٱقوم في القلب شىء من الإمان، لا ٱنفع، ولا ٱخرج من النار، فالمقصود بالخبر: الإمان الذي ٱقوم في القلب، وإن قل. كما أنه ٱدل دلالة واضحة على تفاوت الإمان وتفاضله، وأن أهل الكبائر من المؤمنبن ٱدخل من ٱدخل منهم النار ثم ٱخرجون منها، والله أعلم.

40- قال: " حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: " يد الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار " وقال: " أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم يغيض ما في يده ". وقال: " عرشه على الماء، ويده الأخرى الميزان، يخفض، ويرفع ".

جاء في أول هذا الحديث في تفسير سورة هود: " أنفق أنفق عليك " (740). وسيأتي كذلك، في باب قوله - تعالى -: { يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ }.

وهو عند مسلم بلفظ: " إن الله قال لي: أنفق أنفق عليك " وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " يمين الله ملأى " إلى آخره (741). وسيأتي في باب " وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ " بلفظ: " إن يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم ينقص ما في يمينه، وعرشه على الماء، ويده الأخرى الفيض - أو القبض - يرفع ويخفض " وهو أبلغ في الدلالة على إثبات اليدين لله - تعالى - مما هنا.

وقد اضطرب أهل التأويل في تأويلهم اليد اضطراباً يدل على أنهم على باطل.

والعاقل المنصف يعجب إذا رأى ما كتبه ابن حجر في شرحه لهذا الباب، فإنه ذكر بعض أقوال أئمة الأشعرية، ثم قال: " واليد في اللغة تطلق لمعان كثيرة، اجتمع لنا منها خمسة وعشرون ومعنى " (742). والنصوص في هذا الباب جاءت معينة معنى واحداً لا غير، هو يدا الله الكريمتان، وما عدا ذلك فهو بهتان عظيم.

قوله: " يد الله ملأى " ذكرنا أنها عند مسلم، وعند البخاري في مواضع غير هذا، بلفظ " يمين الله " بدل: " يد الله "، قال الحافظ: " يتعقب بهذه الرواية على من فسر اليد بالنعمة، وأبعد منه من فسرها بالخزائن " (743). قلت: هذا التفسير باطل، ولا يصح أن يسمى تفسيراً، وإنما هو تحريف للكلام عن مواضعه، كفعل اليهود، كما سيأتي بيان ذلك - إن شاء الله تعالى -

(740) انظره مع الفتح (8/352).
(741) انظر: " مسلم " (2/691) الحديث رقم (37)، و (ص 690) الحديث رقم (36).

(742) انظر " فتح الباري " (13/394).

(743) " الفتح " (13/395).

و"ملأى" بفتح الميم، وسكون اللام، وهمزة، مع القصر، أي أنها: شديدة الامتلاء بالخير.

قوله: " لا يغيضها " أي: لا ينقصها، يقال: غاض الماء يغيض، إذا نقص.
قوله: " سحاء " بفتح السين والحاء المشددة، ممدوداً، أي دائمة الصب.
"الليل والنهار" منصوبان على الظرفية، أي: يد الله دائمة السح في الليل والنهار.

قوله: " أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ " استدلال، وإيضاح لكثرة نفقته تعالى، وتنبه لمن له بصيرة إلى ذلك.

قوله: " فإنه لم يغيض ما في يده " أي: هذا الإنفاق الهائل، المستمر الدائم بدون توقف، لم ينقص ما في يده -تعالى-؛ لأن بيده الخير كله لا مانع لما أعطى، ولا معطي لمن منعه، وإذا أراد شيئاً قال له: كن، فيكون.

قوله: " وعرشه على الماء " قال الحافظ: " مناسبة ذكر العرش هنا: أن السامع يتطلع من قوله: " منذ خلق السماوات والأرض " ماذا كان قبل ذلك؟ فذكر أن عرشه قبل خلق السماوات والأرض، كان على الماء " (744).

قوله: " وبيده الأخرى، الميزان، يخفض ويرفع " الميزان: العدل، الذي به يرفع من يكون أهلاً لأن يرفع، ومن هو موضع له، فيتفضل عليه برفعه بالإيمان وقبول الحق، بأن يحب إليه الإيمان، ويزينه في قلبه، وبكره إليه الكفر والفسوق، والعصيان، ويجعله من الراشدين، وهذا أعظم الرفع. ويخفض من ليس أهلاً

ص 261

لذلك، بأن يمنع فضله عنه، ويكفه إلى نفسه، فيضل، ويتولاه عدوه فيصبح خاسراً، وهذا أعظم الخفض؛ لأنه يصير إلى أسفل سافلين، في جهنم - نعوذ بوجه الله منها - وأمور الدنيا تبع لذلك.

"قال الطيبي: يجوز أن يكون "ملأى" و"لا يغيضها" و"سحاء" و"أرأيتم" أخبار مترادفة ليد الله، ويجوز أن تكون الثلاثة أوصافاً "لملأى" ويجوز أن يكون "أرأيتم" استئنافاً فيه معنى الترقى، كأنه لما قيل: "ملأى" {خشى} إبهام جواز النقصان، فأزيل بقوله: " لا يغيضها " وقد يمتلئ الشيء ولا يغيض، فقيل: "سحاء" إشارة إلى الفيض - وهو كثرة العطاء - وقرنه بما يدل على الاستمرار، من ذكر الليل والنهار، ثم أتبعه بما يدل على أن ذلك ظاهر غير خاف على ذي بصر وبصيرة، بقوله: " أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض " وهذا الكلام إذا أخذته بجملة أبان عن زيادة الغنى، وكمال السعة والجود، والبسط في العطاء" (745).

(744) المصدر المذكور.
(745) "الفتح" (13/395).

www.dorar.net **الدرر السننية**

قلت: الاستدلال بهذا الحديث على ثبوت اليدين لله -تعالى- حقيقة،
ظاهر جداً، وسيأتي تقرير ذلك - إن شاء الله - في آخر الباب.

41-قال: " حدثنا مقدم بن محمد، قال: حدثني عمي، القاسم بن يحيى، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: " إن الله يقبض يوم القيامة الأرض، وتكون السماوات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك " رواه سعيد عن مالك. القبض: " إمساك الشيء بجميع كف اليد، فقبض اليد على الشيء: جمعها بعد تناوله " (746)، فقبض الشيء هو: جمعه في الكف.

فقوله: " إن الله يقبض يوم القيامة الأرض " أي يجمعها بيده، فتكون في قبضته، كما قال - تعالى -: { وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } . وقوله: " وتكون السماوات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك " أي أنه - تعالى - يطوي السماوات بيده اليمنى، والأرض مقبوضة بيده الأخرى، وأنه يهزهن ثم يقول - يعظم نفسه -: أنا الملك - أي: الذي يتصرف في كل شيء كيف يشاء، ولا يشاركه في ذلك أحد، ولهذا جاء فيه: أنه - تعالى - إذا قبضهن، يهزهن، ويقول: " أنا الملك، أنا الملك، أين ملوك الدنيا؟ " .

وهذا الحديث مطابق لقوله - تعالى -: { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ } (747) .

وفيه الدليل الواضح على ثبوت اليدين لله - تعالى -، وهو نص لا يقبل تأويلاً، ولهذا صارت تأويلات المعطلين ليدي رب العالمين، شبه اللعب في كلام الله وكلام رسوله، الذي يترفع عنه العقلاء، فضلاً عن أهل التقى.

(746) انظر: " المفردات " للراغب (ص 391).

(747) الآية 67 من سورة الزمر .

42-قال: " وقال أبو اليمان: أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني أبو سلمة، أن أبا هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " يقبض الله الأرض ".

تقدم تفسير القبض، وهذا الحديث مر في باب قوله -تعالى-: {مَلِكِ النَّاسِ}.

43-قال: " حدثنا مسدد، سمع يحيى بن سعيد، عن سفيان، حدثني منصور، وسليمان، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله، أن يهودياً جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال: يا محمد، إن الله يمسك السماوات على إصبع، والأرضيين على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك، فضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتى بدت نواجذه، ثم قرأ: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} (748)".

وقال يحيى بن سعيد، وزاد فيه فضيل بن عياض، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله: " فضحك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تعجباً وتصديقاً له".

44-قال: " حدثنا عمر بن حفص عن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، سمعت إبراهيم قال: سمعت علقمة يقول: قال عبد الله: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم، إن الله يمسك السماوات على إصبع، والأرضيين على إصبع، والشجر والمثرى على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يقول: أنا الملك، أنا الملك، فرأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قرأ: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} ".

هذا الحديث يدل على عظمة الله -تعالى- حيث يضع السماوات كلها على إصبع من أصابع يده الكريمة العظيمة، وعدد المخلوقات المعروفة للخلق بالكبر والعظمة، وأخبر أن كل نوع منها يضعه -تعالى- على إصبع، لو أراد تعالى - لوضع السماوات والأرضيين ومن فيهن على إصبع واحدة من أصابع يده - جل وعلا-.

وهذا من العلم الموروث عن الأنبياء المتلقى عن الوحي من الله -تعالى-، ولهذا صدقه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بل وأعجبه ذلك وسر به، ولهذا ضحك حتى بدت نواجذه، تصديقاً له، كما قال عبد الله بن مسعود، ولا التفات إلى قول من تبنى التعطيل، وصار نصيبه من معرفة هذه الأوصاف الكريمة العظيمة - التي تعرف الله بها إلى عباده - هو ما يعرفونه

(748) الآية 67 من سورة الزمر .

من أنفسهم، فحملهم ذلك على تعطيل الله -تعالى- من هذه الأوصاف، مرة
برد هذه النصوص والطعن في رواها بلا حجة سوى
ص 265

روايتهم لها، ومرة بتأويلها التأويل الباطل الذي يخرجها عن مراد المتكلم
بها {قل ءأنتم أعلم أم الله}.

هذا وقد تنوعت النصوص من كتاب الله -تعالى- وسنة رسوله -صلى الله
عليه وسلم- على إثبات اليدين لله -تعالى- وإثبات الأصابع لهما، وإثبات
القبض بهما وتثنيتهما، وأن إحداهما يمين، كما مر، وفي نصوص كثيرة،
والأخرى شمال كما في "صحيح مسلم"⁽⁷⁴⁹⁾، وأنه -تعالى- يبسط يده بالليل
ليتوب مسيء النهار، وبالنهار ليتوب مسيء الليل⁽⁷⁵⁰⁾، وأنه -تعالى- يتقبل
الصدقة من الكسب الطيب بيمينه فيريها لصاحبها⁽⁷⁵¹⁾، وأن المقسطين
على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين⁽⁷⁵²⁾، وغير ذلك مما هو
ثابت عن الله ورسوله، وسأذكر شيئاً يسيراً من ذلك - إن شاء الله - وبعضه
يكفي المؤمن المرید للحق.

وهذا الذي أشرت إليه كله يمنع تأويل اليدين بالنعمة، أو القوة، أو
الخزائن، أو القدرة، أو غير ذلك، ويجعل التأويل في حكم التحريف، بل هو
تحريف.

وقد آمن المسلمون بهذه النصوص، على ظاهرها، وقبلوها، ولم يتعرضوا
لها بتأويل تبعاً لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحابته، وأئمة الهدى،
بل وكل من قبل ما جاءت به الرسل، وأمن به.

قال الإمام ابن خزيمة معلقاً على هذا الحديث: "معناه أن الله -جل
وعلا- يمسك ما ذكر في الخبر على أصابعه، على ما في الخير سواء، قبل
تبديل الله الأرض غير الأرض؛ لأن الإمساك على الأصابع غير القبض على
الشيء، وهو مفهوم في اللغة التي خوطبنا بها؛ لأن الإمساك على الشيء
بالأصابع، غير القبض على الشيء"⁽⁷⁵³⁾.

ص 266

قال الحافظ في شرحه لهذا الحديث: "زاد ابن خزيمة، عن محمد بن
خلاد، عن يحيى بن سعيد القطان، عن الأعمش، فذكر الحديث، قال محمد:
عدها علينا يحيى بأصابعه. وكذا أخرجه أحمد في السنة، عن يحيى بن سعيد،
وقال: وجعل يحيى يشير بأصبعه يضع إصبعاً على إصبع، حتى أتى على

(749) سيأتي ذكره بعد قليل .

(750) سيأتي تخريجه .

(751) سيأتي ذكره بعد قليل .

(752) سيأتي ذكره في هذا الباب

(753) كتاب "التوحيد" (ص 79).

آخرها، قال: ورواه الخلال في كتاب السنة، عن أبي بكر المروزي، عن أحمد، وقال: ورأيت أبا عبد الله يشير بإصبع إصبع⁽⁷⁵⁴⁾.

قلت: تبعوا في ذلك ما وقع من الخبر الذي حدث رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حيث كان يشير بأصابعه، ولم ينكر عليه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بل أقره، وصدقه.

فهذه النقول عن هؤلاء المذكورين من السلف، تدل على أنهم فهموها على ظاهرها، وأنها أصابع حقيقة.

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: " قال أبي: قال يحيى: قال: فضيل بن عياض ... فضحك رسول الله تعجباً وتصديقاً، سمعت أبي يقول: حدثني يحيى بن سعيد، بحديث سفيان، عن الأعمش، ومنصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبد الله، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: " إن الله يمسك السماوات على إصبع ".

قال أبي: وجعل يحيى يشير بأصابعه، وأراني أبي كيف جعل يحيى يشير بأصابعه، يضع إصبعاً إصبعاً حتى أتى على آخرها⁽⁷⁵⁵⁾.

وفي الترمذي عن ابن عباس، قال: " مر يهودي بالنبي -صلى الله عليه وسلم- فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: يا يهودي، حدثنا، فقال: كيف تقول يا أبا القاسم، إذا وضع السماوات على ذه، والأراضين على ذه، والماء على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه؟ - وأشار محمد بن الصلت - أبو جعفر - بخصره أولاً، ثم تابع حتى بلغ الإبهام - فأنزل الله: { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ } وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح⁽⁷⁵⁶⁾.

ص 267

ورواه ابن جرير في "تفسيره"، وسنده حسن⁽⁷⁵⁷⁾.

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: " حدثني أبي، حدثنا حسين بن حسن، حدثنا أبو كريمة، عن عطاء عن أبي الضحى، عن ابن عباس، قال: مر يهودي برسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو جالس، قال: كيف تقول يا أبا القاسم، يوم يجعل الله السماء على ذه - وأشار بالسبابة - والأرضين على ذه، والماء على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلائق على ذه - وجعل يشير بأصابعه -؟ فأنزل الله: { وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ }.

حدثني عبد الله بن عمر، حدثنا عمران بن عيينة، عن عطاء بن السائب، عن أبي الضحى، عن ابن عباس، قال: مر يهودي على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم-: يا يهودي، فقال: يا أبا

⁽⁷⁵⁴⁾ () "فتح الباري" (13/397).

⁽⁷⁵⁵⁾ () كتاب "السنة" (ص 54).

⁽⁷⁵⁶⁾ () "سنن الترمذي" (5/49).

⁽⁷⁵⁷⁾ () انظر: "تفسير الطبري" (24/26).

القاسم، كيف بيوم تكون الأرضون علي هذه، والسماوات على هذه، والماء على هذه، والخلق على هذه؟ - يعني أصابعه - ثم قرأ رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: { وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } (758).

فمثل هذه الأحاديث هي مستند السلف في الإشارة بالأصابع، تحقيقاً لإثبات أصابع الرحمن - جل وعلا - وقدوتهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وهذه النصوص التي فيها ذكر الأصابع تدل دلالة قاطعة - عند المؤمنين الذين يحكمون الشرع - على ثبوت اليدين لله - تعالى -، وقد تنوعت الدلائل على ذلك - كما أشرنا إليه أنفاً - من ذكر الأصابع، والقبض، والبسط، والتثنية، وذكر اليمين والشمال.

ففي "الموطأ" و"الترمذي" و"سنن أبي داود": أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: "إن الله - تبارك وتعالى - خلق آدم، ثم مسح ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذريته" (759) ورواه أحمد.

ص 268

وفي "الترمذي" و"سنن أبي داود" مرفوعاً: "أن الله - تبارك وتعالى خلق آدم من قبضة، قبضها من جميع الأرض" (760) وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة مرفوعاً، في حديث طويل في خلق آدم، وفيه: "فقال الله له: ويداه مقبوضتان، اختر أيهما شئت، قال: اخترت يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين، مباركة، ثم بسطها، فإذا فيها ذريته" (761).

وفي "صحيح مسلم" عن عبدالله بن عمر، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "يطوي الله - عز وجل - السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟" (762).

وفيه أيضاً عنه مرفوعاً، "قال: يأخذ الله - عز وجل - سماواته، وأرضيه، بيديه، فيقول: أنا الله - ويقبض أصابعه، ويبسطها - أنا الملك، حتى نظرت

(758) كتاب "السنة" (لعبدالله ابن الإمام أحمد (ص 55).

(759) "الموطأ" (2/898-899)، و"الترمذي" في التفسير رقم (3077)، و"سنن أبي داود" في السنة رقم (4703)، و"المسند" (1/324).

(760) "الترمذي" رقم (2948) في التفسير، و"أبو داود" في السنة، في القدر، رقم (4693).

(761) "سنن الترمذي" في التفسير في باب: من سورة المعوذتين، رقم (3365)، وابن خزيمة في "التوحيد" (ص 67).

(762) "مسلم" (4/2148) رقم (2788).

إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه، حتى إني لأقول: أساقط هو برسول الله - صلى الله عليه وسلم -؟" (763) ورواه أحمد.

وفيه أيضاً من حديث عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " إن المقسطين عند الله؛ على منابر من نور، عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما ولوا " (764)

وفيه أيضاً من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " وما تصدق أحد بصدقة، من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربو في كف الرحمن، حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربي أحدكم فلوه، أو فصيله " (765).

ص 269

وفي "الصحيحين" من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " من تصدق بعدل تمرة، من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل " (766).

وفي "صحيح مسلم" من حديث أبي هريرة، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ينزل الله في السماء الدنيا، لشطر الليل، أو لثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ أو يسألني فأعطيه؟ ثم يبسط يديه - تبارك وتعالى - يقول: من يقرض غير عدوم، ولا ظلوم " (767).

وفيه من حديث المغيرة بن شعبة في سؤال موسى ربه عن أدنى أهل الجنة منزلة، " رب، فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن " (768).

وفي "الصحيحين" مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري، قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: " تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته في السفر، نزلاً لأهل الجنة " (769). وفيهما من حديث أبي هريرة، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " واحتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت أبونا، خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة. فقال

(763) "صحيح مسلم" الموضع المذكور، وانظر: "المسند" (2/72، 87، 88).

(764) "مسلم" (3/1458) رقم (1827).

(765) "مسلم" (2/702) رقم (1014).

(766) انظر: "البخاري مع الفتح" (3/278) و (13/415)، و "مسلم" (2/702)، وابن خزيمة في "التوحيد" (ص 61-63).

(767) "مسلم" (1/176)، وابن خزيمة في "التوحيد" عن عبدالله بن مسعود (ص 58).

(768) "مسلم" (1/176)، وابن خزيمة في "التوحيد" (ص 69-70).

(769) "البخاري مع الفتح" (11/372)، و "مسلم" (4/2151) رقم (2792).

آدم: أنت موسى، اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟" (770).

وفي رواية لمسلم: "احتج آدم وموسى عند ربهما، فحج آدم موسى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته..." (771).

ص 270

وروى البيهقي في "الأسماء والصفات" بسنده: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: "لما خلق الله -تعالى- آدم وذريته، قالت الملائكة: يا رب، خلقتهم يأكلون ويشربون، وينكحون، ويركبون، فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة، فقال الله -تعالى-: لا أجعل من خلقتهم بيدي، ونفخت فيه من روحي، كمن قلت له: كن، فيكون" (772).

وروى بسند حسن، عن أنس، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "خلق الله -تعالى- جنة عدن، وغرس أشجارها بيده، فقال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون" (773).

ورواه ابن جرير موقوفاً (774)، وذكره الحافظ ابن كثير، عن ابن أبي الدنيا مرفوعاً (775).

وقال ابن جرير في قوله -تعالى-: { وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } يقول -تعالى- ذكره -: والأرض كلها قبضته في يوم القيامة { والسماوات } كلها { مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } ثم روى عن ابن عباس، قال: "ما السموات السبع، والأرضون السبع في يد الله إلا كخرقة في يد أحدكم".

وروى عن ربيعة الجرشي قال: { وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } قال: "وبده الأخرى خلو ليس فيها شيء".

وعن ابن عباس، قوله: { وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ } يقول: قد قبض الأرضين والسماوات جميعاً بيمينه، ألم تسمع أنه قال: { مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ } يعني: الأرض والسماوات جميعاً؟ قال ابن عباس: وإنما يستعين بشماله المشغولة بيمينه.

وعن الحسن: { وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ } قال: " كأنها جوزة بقضها وقضيضها".

(770) "البخاري مع الفتح" (11/505)، و"مسلم" (4/2042).

(771) "مسلم" (4/2043).

(772) "الأسماء والصفات" (ص 317).

(773) المصدر المذكور (ص 318).

(774) "تفسير الطبري"، مفتاح الجزء (18).

(775) "تفسير ابن كثير" (5/455) ط الشعب.

حدثنا الربيع، قال: حدثنا ابن وهب، قال: أخبرني أسامة بن زيد، عن أبي حازم، عن عبد الله بن عمر، أنه رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المنبر - يخطب الناس،

ص 271

فمر بهذه الآية: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ياخذ السموات، والأرضين السبع فيجعلها في كفه، ثم يقول بهما - كما يقول الغلام بالكرة -: أنا الله الواحد، أنا الله العزيز " حتى لقد رأينا المنبر، وإنه ليكاد أن يسقط به (776).

وذكر أحاديث وآثاراً في هذا.

والأحاديث والآثار عن السلف في ذلك كثيرة.

وروى ابن ماجه - قال في " الزوائد ": وسنده صحيح، والإمام أحمد، عن النواس بن سمعان، قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: " ما من قلب إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أقامه، وإن شاء أزاعه " (777).

وبهذا - وغيره كثير لم نذكره - يعلم خطأ الخطابي، وفريق أهل التأويل، قطعاً، حيث يقول: " لم يقع ذكر الإصبع في القرآن، ولا في حديث مقطوع به، وقد تقرر أن اليد ليست بجارحة، حتى يتوهم من ثبوتها ثبوت الأصابع، بل هو توقيف أطلقه الشارع، فلا يكيف، ولا يشبه، ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهودي، وأما ضحكه - صلى الله عليه وسلم - من قول الحبر، فيحتمل الرضا والإنكار، وأما قول الراوي: " تصديقاً له " فظن منه وحسبان " (778).

ونحن نجيبه بما أجاب به عبدالله بن مسعود، لما قيل له: إن المنع من تعليق التميمة ليس في كتاب الله.

فنقول: بلى، إن ذكر الأصابع قد وقع في القرآن؛ لأن الله - تعالى - يقول فيه: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ}، وقد أتانا - صلى الله عليه وسلم - بذكر الأصابع، وذكر الكف، وذكر اليمين، والشمال، واليدين، مرة مثناة، ومرة منصوص على أنها واحدة، وأنه

ص 272

يفعل بها كذا وكذا، وأن الأخرى فيها كذا، كما تقدمت النصوص بذلك، وهو تبع لأهل الكلام - المذموم - ينكر وصف الله - تعالى - باليدين حقيقة، مع أن القرآن قد جاء بذلك صراحة، كما قال - تعالى - {يَا إِبْرَاهِيمُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ

(776) " تفسير الطبري " (28-24/27).

(777) " سنن ابن ماجه " (1/72) رقم (199)، و " المسند " (4/182)، والآجري في الشريعة (ص 317)، والحاكم (

4/321)، وابن أبي عاصم في " السنة " (1/98)، وذكر عدداً من الأحاديث بهذا اللفظ.

(778) من " الفتح " (13/398).

لَمَّا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ { (779) ، { وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ } { (780) ، { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } { (781) . وهو مع ذلك لا يقبله؛ لأنه على خلاف تلقاه عن أهل البدع، ولهذا نراه - عفا الله عنا وعنه - يحاول رد النصوص بدون حجة، وكل ما يمكن أن يعتمد عليه هو - وكل من سلك مسلكه من أهل التأويل - ادعائهم أن العقل بخلاف ذلك، وأنه محال في العقل، وهو أمر غير منضبط، كما سنشير إليه - إن شاء الله - ودعوى بدون برهان.

قوله: " ولا حديث مقطوع به "، هذا عجيب من الخطابي، الذي كثر اشتغاله بالحديث تأليفاً، ورواية، وشرحاً لمتونه، وأسانيده، ثم يقول هذا القول، الذي هو عنوان لأهل البدع، فهم كلما ألجأتهم الحجج إلى المضائق رموها بهذه الدعوى " أنها أدلة غير مقطوع بها".

فإذا كانت أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع ثبوت أسانيدها غير مقطوع بها، فما هي الحجج المقطوع بها في نظر هؤلاء؟ هل هي أقوال أقوام متهمين على الدين الإسلامي، وتحوم حولهم شكوك كثيرة؟ كالجعد بن درهم، وجهم بن صفوان، وبشر المريسي، وأحمد بن أبي دؤاد، وابن الثلجي ونحوهم، فإن هؤلاء هم سلف متأخري الأشعرية في تأويلاتهم. وإننا نربأ بالخطابي أن يسلك هذا المسلك المنحرف عن الهدى. وهذا دليل على ضعف مسلك التأويل في هذه النصوص، وأنه غير مقنع.

ص 273

ثم هو يقصد بقوله: غير مقطوع به، عدم التواتر؛ لأنه لا يقبل من الحديث في باب الصفات إلا ما كان في القرآن، أو تواتر عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام ابن تيمية، وقد علم أن القرآن جاء بصفة الپدين لله صراحة

ومعلوم أن الصحابة ومن سلك نهجهم لم يفرقوا بين أصول الدين وفروعه في الثبوت، ومعظم الدين الإسلامي ثبت بأخبار الآحاد وهذه الصفات التي ينكرها هؤلاء، قد ثبتت في أحاديث مقطوع بصحتها عند أهل العلم، وإذا صح الحديث وجب قبوله، والعمل به، والإيمان بما دل عليه، وحرمت مخالفته

ولا فرق بين كونها في العمليات، أو الاعتقادات، خلافاً لأهل البدع الذين يفرقون بين ذلك

ومعلوم أن الذي جاء بهذه النصوص - في الصفات - هو الذي جاء بالأمر بعبادة الله، وتحريم الشرك، وبيان عدد ركعات الصلوات الخمس، وأنصباة

(779) الآية 75 من سورة ص.

(780) الآية 67 من سورة الزمر.

(781) الآية 64 من سورة المائدة.

الزكاة، وبيان واجبات كثيرة، ومحرمات كثيرة، لم يأت تفصيلها في القرآن، ولا في أخبار متواترة، فلماذا يقبل هذا، ويرد ذاك؟ إن هذا التفريق فعل الذين جعلوا دينهم شيعاً، وأمنوا ببعض، وكفروا ببعض، وقد تقدم ما فيه كفاية لمن قصده الحق من ذكر النصوص في هذه المسألة، وغيرها من مسائل الصفات نظيرها، وقد يكون أوضح منها دليلاً كما سيأتي بعض ذلك

وقوله: " وقد تقرر أن اليد ليست بجارحة، حتى يتوهم من ثبوتها ثبوت الأصابع " حقيقة هذا الكلام: أن اليد ليست يداً، حتى يلزم ثبوت الأصابع، ومعلوم أن الله -تعالى- خاطبنا باللغة العربية، وبألفاظ معلومة المعاني للمخاطبين، فالمخاطبون بهذه النصوص، علموا أن المراد بها ما دلت عليه بظاهاها

وكذلك المخاطب أراد منهم ذلك، ولهذا لم يأت عنه -صلى الله عليه وسلم- ولا من طريق ضعيف، أنه قال: لا تعتقدوا ظاهرها، ولا سيما وظاهاها عند الخطابي وفريقه كفر وتشبيه فهل يعقل أن الله ورسوله يخاطبان العباد بما ظاهره الكفر، ثم لا يبين ذلك لهم، ويحذرهم من اعتقاده؟ ولو كان لهذه النصوص معنى عند رسول الله غير ظاهرها لبينه؛ لأنه واجب عليه بمقتضى الرسالة

ص 274

والصحابا سمعوا هذه النصوص، ورووها، ولم يسألوا عن معان لها غير ظاهرها، فلما سكتوا دل ذلك على أنهم علموا أن المراد بها هو الظاهر، فوجب علينا أن نسكت حيث سكتوا، وأن نقبل ونسلم كما قبلوا وسلموا لها بدون تأويل ونحن نسأل هؤلاء: مَنْ مِنَ المسلمين الذين يعتد بقولهم، قال: إن يد الله جارحة؟ وهل جاء ذلك، ولو بحديث ضعيف؟ إن هذا لا وجود له، ولكنها الأوهام، والإتجاهات الفاسدة، وإرادة التشنيع على أتباع الرسل

ونحن - بحمد الله وله المنة - وكل من تلقى عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بالقبول والتسليم، وفهم المراد - نعتقد مطمئنين أن لله يدين حقيقتين لهما أصابع يضع عليها السموات والأرض وما شاء يوم القيامة، وإن زعمت أنوف الأشعرية، وإمامنا في ذلك رسولنا محمد بن عبد الله - صلوات الله وسلامه عليه - وأصحابه، وأتباعه إلى يوم القيامة، وهو معلم الخير والهدى

قال الإمام أحمد: " الحديث عندنا على ظاهره، كما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم- والكلام فيه بدعة، ولكن نؤمن به كما جاء على ظاهره " (782)

ويقصد بالكلام فيه: التأويل الذي يخرج عن ظاهره وقال البربهاري⁽⁷⁸³⁾:
" إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار، ولا يقبلها، أو ينكر شيئاً من أخبار
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاتهمه على الإسلام، لانا إنما عرفنا الله
ورسوله، وعرفنا القرآن، والخير والشر، بالآثار"⁽⁷⁸⁴⁾
وقال: " واعلم أنها لم تكن زندقة، ولا كفر، ولا شكوك، ولا بدعة، ولا
ضلالة، ولا حيرة في الدين، إلا من الكلام وأهل الكلام، والجدل، والمرء،
ص 275

والخصومة وكيف يجترئ الرجل على المرء، والخصومة، والجدال، والله
يقول: { مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا }⁽⁷⁸⁵⁾
وقال أيضاً: " واعلم إنما جاء هلاك الجهمية، من أنهم فكروا في الرب -
عز وجل - فأدخلوا: لم، وكيف، وتركوا الأثر، ووضعوا القياس، وقاسوا الدين
على رأيهم، فجاؤوا بالكفر عياناً، لا يخفى أنهم كفروا، وكفروا الخلق،
واضطربهم الأمر إلى أن قالوا بالتعطيل"⁽⁷⁸⁶⁾
وقال: " إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار، أو يردّها، ويريد غيرها،
فاتهمه على الإسلام، ولا تشك أنه صاحب هوى مبتدع"⁽⁷⁸⁷⁾ وقال القاضي،
أبو الحسين محمد بن أبي يعلى: " قرأت على المبارك، عن علي بن عمر
البرمكي، قال: أخبرنا أحمد بن عبد الله المالكي، حدثنا أبي، حدثنا محمد بن
إبراهيم بن عبد الله بن يعقوب ابن زوران - لفظاً - حدثنا أبو العباس أحمد
بن جعفر بن يعقوب بن عبد الله الفارسي، الاضطخري، قال: قال أبو
عبدالله، أحمد بن محمد بن حنبل - وذكر العقيدة إلى أن قال - " وقلوب
العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء، ويوعيتها ما أراد،
وخلق آدم بيده، على صورته، والسموات والأرض يوم القيامة في كفه، ويضع
قدمه في النار، فتنزوي" وذكر عقيدة طويلة جامعة⁽⁷⁸⁸⁾.
وقال الحسن بن علي بن خلف البربهاري: " وكل ما سمعت من الآثار
شيئاً لم يبلغه عقلك، نحو قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " قلوب
العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن" وقوله: إن الله ينزل إلى سماء الدنيا،
وينزل يوم عرفة، وينزل يوم القيامة، وأن جهنم لا يزال يطرح فيها، حتى يضع
عليها قدمه، وقوله للعبد: إن مشيت إليَّ هرولت إليك، وقوله: خلق الله آدم

⁽⁷⁸³⁾ هو شيخ الحنابلة في وقته الحسن بن علي بن خلف، كان شديد الإنكار على أهل البدع، وكان حافظاً ثقة،
وأصولياً متقناً، له تصانيف كثيرة مفقودة، توفي سنة 329 "شذرات الذهب" (2/319)

⁽⁷⁸⁴⁾ "طبقات الحنابلة" (2/25)

⁽⁷⁸⁵⁾ المرجع المذكور (ص 27)

⁽⁷⁸⁶⁾ المرجع المذكور (ص 30)

⁽⁷⁸⁷⁾ المرجع المذكور (ص 36)

⁽⁷⁸⁸⁾ "طبقات الحنابلة" (29-1/24)

www.dorar.net الدرر السنية

على صورته، وقول الرسول -صلى الله عليه وسلم-: " رأيت ربي في أحسن صورة" (789)، وأشباه هذه الأحاديث، فعليك بالتسليم،
ص 276

والتصديق، والتفويض (790) والرضا، ولا تفسر شيئاً من هذه بهواك (791)،
فإن الإيمان بهذا واجب، فمن فسر شيئاً من هذا بهواه، أو رده، فهو
جهمي" (792).

وهذا الذي ذكره الإمام أحمد، والبرهاري، هو مذهب السلف، الذين تلقوا
عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولم يزل السلف يوصي بعضهم بعضاً
بالتمسك به، والتحذير ممن يخالفه؛ لأنه الذي دلت عليه نصوص الكتاب
والسنة.

وقوله: " بل هو توقيف أطلقه الشارع، فلا يكيف، ولا يشبه "، يعني أن
لفظ اليد الثابت بكتاب الله، وبالسنة، توقيف أطلقه الشارع، فلا يوقف له
على معنى، فهو - عنده- لا يدل على ما وضعت له كلمة "يد" في اللغة،
ومضمون ذلك أن آيات الصفات وأحاديثها لا يعلم لها معان تطابق ألفاظها،
وتؤخذ منها، ويلزم على هذا أن الشارع خاطب الناس بما ظاهره غير
مقصود، ولا مطلوب منهم الإيمان بظاهره، بل قد يكون ظاهره باطلاً وكفراً،
فمعنى قوله: " لا يكيف، ولا يشبه " أي: لا يثبت لها معنى مطابقاً للفظها في
وضع اللغة، فلا يوصف الله -تعالى- باليد الحقيقية التي أثبتت لنفسه، وأثبتها
له رسوله -صلى الله عليه وسلم-؛ لأن هذا تشبيه، فهذه النصوص في هذا
الباب ونحوه فيها تشبيه لله -تعالى- عند هؤلاء، ولهذا صار تأويلها متعيناً.

فضاعت النصوص التي تعرف الله بها إلى عباده بين مردود (793) ومؤول.
وقوله: " ولعل ذكر الأصابع من تخليط اليهودي "، جوابه: أنه قد تقدم من
ذكر بعض النصوص التي تبطل هذا الهراء، والقول الجائر، أن الخطابي - عفا
الله عنا وعنه - بهذا القول إنما يشنع في الحقيقة على رسول الله -صلى
الله عليه وسلم-، والله المستعان.

ص 277

وقوله: " فإن اليهود مشبهة، وفيما يدعونه من التوراة ألفاظ تدخل في
باب التشبيه، ولا تدخل في مذاهب المسلمين "، ونحن لا نبرئ اليهود من

(789) هذه رؤية منام كما هو مصرح به في الرواية .

(790) المقصود بالتفويض: تفويض الحقيقة، والكيف، فهو يوكل إلى الله -تعالى- فإن الخلق لا علم لهم بذلك.

(791) مراده التفسير: التأويل، وتعيين معنى لا يدل عليه اللفظ إلا بتكلف أو بغرابة.

(792) ("طبقات الحنابلة" (2/23).

(793) القاعدة عند الخطابي: أن الأحاديث الموافقة للقرآن، أو المتواترة، هي التي تقبل في الصفات، أما ما عدا ذلك، فإنه لا يثبت به صفة لله -تعالى-، وهذه القاعدة أخذت من كلامه، كما سبق قوله في الأصابع إنه لم يثبت فيه حديث.

الباطل، ولكن نقول: إن الحق يجب أن يقبل ممن قاله، سواء كان من اليهود أو من غيرهم.

وهو لم يبين هذه الألفاظ التي تدخل في باب التشبيه على حد قوله. ولكن نعلم من طريقته أن كل من أثبت لله من الصفات ما ينكره هو ومن سلك نهجه، أنهم يسمونه مشبهاً، ولو كان متمسكاً بالكتاب والسنة، فعنده من أثبت لله يداً حقيقية فهو مشبه، وكذلك الوجه، والرجل، والأصابع، والعينين، ونحو ذلك. وقوله: "وأما ضحكك -صلى الله عليه وسلم- من قول الحبر، فيحتمل الرضا، والإنكار".

فجوابه: أن الحق الذي لا نشك فيه أنه لا يحتمل إلا الرضا، والموافقة؛ لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لا يضحك من الباطل والكفر الذي هو تشبيه رب العالمين بالخلق، كما هو مقتضى مذهب الخطابي. ومقتضى الإيمان بالرسول -صلى الله عليه وسلم- يمنع من أن يكون ضحكك من أجل التشبيه الذي يقوله اليهودي - كما زعم الخطابي - عفا الله عنا وعنه -.

إن ما يقوله هؤلاء في الحقيقة قلب للحقائق، حتى تسلم عقيدة الأشعرية من معاول النصوص، التي تأتي على أسسها بالافتقار⁽⁷⁹⁴⁾، ولو استطاع كثير منهم الرد على الله ورسوله لفعلوا، ولكن كما يقول الله -تعالى-: { بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ }⁽⁷⁹⁵⁾

وَأما قوله: "وأما قول الراوي: "تصديقاً له، فظن وحسبان" يعني: أن عبدالله بن مسعود ظن ظناً خطأ الحق، وأبعد عن الصواب، حيث خالف عقيدة أهل الكلام، فيرد قوله.

ونحن نقول: أيهما أولى عند الله، وعند المؤمنين، بالفهم عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: صحابته الذين عايشوه، وتربوا بين يديه، ونقلوا لنا ديننا عنه، أم الخطابي وذووه؟

ص 278

ولو سلم ذلك لأمكن كل مبطل أن يقول في أي نص جاء عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وصحابته كقولك هذا: إنه ظن وحسبان، وأن الصواب خلافه، فتبطل الشريعة كلها. تقدم ذكر الآيات الدالة صراحة على وصف الله -تعالى- باليدين.

⁷⁹⁴ قال ابن خزيمة: "وقد أجل الله قدر نبيه، عن أن يوصف الباري بحضرتة بما ليس من صفاته، فيسمعه فيضحك عنده، ويجعل بدل وجوب النكير والغضب على المتكلم به ضحكاً حتى تبدو نواجذه؛ وتعجباً لقائله، لا يصف النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذه الصفة مؤمن مصدق برسالته" كتاب "التوحيد" (ص 76).

⁷⁹⁵ الآية 18 من سورة الأنبياء.

قال أبو سعيد الدارمي - رحمه الله - : " حدثنا أحمد بن يونس، عن فضيل بن عياض، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبدالله، أنه قال: " ضحك من قول الحبر، تعجباً لما قال، وتصديقاً له " (796).

" وقد تواتر في السنة مجيء اليد - وصفاً - لله - تعالى - فعلم من ذلك أن لله - تعالى - يدين مختصين به، ذاتيين له، كما يليق بجلاله، وأنه - تعالى - خلق آدم بيده دون الملائكة وإبليس، وأنه - سبحانه - يقبض الأرض، ويطوي السموات بيده اليمنى، وأن { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } (797).

ومعنى بسطهما: بذل الجود، وسعة العطاء، لأن العطاء والجود في الغالب يكون ببسط اليد ومدّها.

فإذا قيل: هو مبسوط اليد، فهم منه يد حقيقة، وكان ظاهره الجود والبذل.

وقد اعتمد أهل التأويل، في تأويلهم اليد، أنها النعمة والعطية، تسمية للشيء باسم سببه، كما يسمى المطر والنبات: سماء، ومن ذلك قولهم: لفلان عندي أيا، وقول أبي طالب لما فقد النبي - صلى الله عليه وسلم -:

يا رب رد راكبي محمداً رده عليّ واصطنع عندي يداً
وقول عروة بن مسعود لأبي بكر يوم الحديبية: لو لا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك.

وقد تكون اليد بمعنى القدرة، تسمية للشيء باسم مسببه، لأن القدرة هي تحرك اليد، يقال: فلان له يد في كذا وكذا، أي له قدرة، ومنه قول زياد لمعاوية: " إني قد أمسكت العراق بإحدى يدي، والأخرى فارغة " يريد نصف قدرته. وقد يضاف الفعل إلى اليد إضافة إلى الشخص نفسه؛ لأن غالب الأفعال تكون بها، فصار ذكر اليد إشارة إلى أنه فعل بنفسه، كما قال - تعالى -: { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ } (798).

ص 279

وتقول العرب: " يداك أوكتا، وفوك نفخ " توبيخاً لكل من جر إلى نفسه شراً، لأن أول من قيل له ذلك، فعل بيديه وفمه.

ولذلك قالوا في مثل قوله - تعالى -: { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ } أي: نعمته في الدنيا الآخرة، واللفظ كناية عن نفس الجود، من غير أن يكون هناك يد حقيقة، بل هذه اللفظة صارت حقيقة في العطاء والجود.

وقالوا في قوله - تعالى -: { لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ } (799) أي: خلقتة أنا، وليس هناك يد حقيقية، ونحو هذه التأويلات.

(796) الرد على بشر المريسي (ص 418) "عقائد السلف"، ورواه ابن خزيمة في "التوحيد" (2/182).

(797) الآية 64 من سورة المائدة.

(798) الآية 182 من سورة آل عمران.

(799) الآية 75 من سورة ص.

والجواب: أننا لا ننكر لغة العرب التي نزل بها القرآن، وأن ما ذكر معروف في اللغة، ولكن ننكر تحريف الكلم عن مواضعه، والإلحاد في أسماء الله وصفاته.

فإن لفظ "اليدين" بصيغة التثنية، لم يستعمل في النعمة، ولا في القدرة؛ لأن من لغة العرب استعمال الواحد في الجمع، كقوله -تعالى-: { إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ }⁽⁸⁰⁰⁾.

ولفظ الجمع في الواحد كقوله -تعالى-: { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ }⁽⁸⁰¹⁾، والقائل واحد.

ولفظ الجمع في الإثنين كقوله -تعالى-: { فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا }⁽⁸⁰²⁾. أما استعمال لفظ الواحد في الإثنين، والاثنين في الواحد، فلا أصل له في اللغة؛ لأن هذه الألفاظ عدد، وهي نصوص في معناها، لا يتجاوز بها، فلا يجوز أن تقول: عندي رجل، وأنت تريد اثنين، ولا عندي رجلان، وأنت تريد واحداً، ولا عندي رجلان، وأنت تريد الجنس؛ لأن اسم الواحد يدل على الجنس، والجنس فيه شياع، وكذلك اسم الجمع فيه معنى الجنس، والجنس يحصل بحصول الواحد.

فقوله -تعالى-: { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } لا يجوز أن يراد به القدرة؛ لأن القدرة صفة واحدة، ولا يجوز أن يعبر بالاثنين عن الواحد.

ص 280

ولا يجوز أن يراد به النعمة؛ لأن نعم الله لا تحصى، فلا يجوز أن يعبر عن النعم التي لا تحصى بصيغة التثنية.

ولا يجوز أن يكون كما قالوا: لما خلقت أنا؛ لأن العرب إذا أرادوا ذلك أضافوا الفعل إلى اليد، فتكون إضافته إلى اليد إضافة له إلى الفاعل.

كقوله: { بِمَا قَدَّمْتُ يَدَاكَ }⁽⁸⁰³⁾، { ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيكُمْ }⁽⁸⁰⁴⁾، ومن هذا قوله -تعالى-: { أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ }⁽⁸⁰⁵⁾.

أما إذا أضيف الفعل إلى الفاعل، وعدي الفعل إلى اليد بحرف الجر كقوله -تعالى-: { لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ } فإنه يكون نصاً في أنه فعل ذلك بيديه.

ولهذا لا يجوز لمن تكلم، أو مشى، أن يقول: فعلت ذلك بيدي، ولكن يقال: فعلته يداك؛ لأن مجرد قوله: "فعلت" كاف في الإضافة إلى الفاعل، فلو لم يرد أنه فعله باليد حقيقة كان قوله: { بيدي } زيادة لا فائدة فيها، ولا

⁸⁰⁰ () الآية 2 من سورة العصر .

⁸⁰¹ () الآية 173 من سورة آل عمران .

⁸⁰² () الآية 4 من سورة التحريم .

⁸⁰³ () الآية 10 من سورة الحج .

⁸⁰⁴ () الآية 182 من سورة آل عمران .

⁸⁰⁵ () الآية 71 من سورة يس .

تجد في كلام العرب أن فصيحاً يقول: فعلت هذا بيدي، إلا وأنه فعله بيديه حقيقة، ولا يجوز أن يقول ذلك وهو ليس له يد⁽⁸⁰⁶⁾.

و أما تعليله لإنكاره إثبات اليد لله -تعالى- والأصابع، بأن اليد المتعارف عليها هي الجارحة، وذلك ممتنع على الله -تعالى-.

فالجواب: أن هذا ممتنع لو كانت اليد التي أثبتها الله لنفسه من جنس أيدي المخلوقين، أما إذا كانت يداً تناسب ذاته وتليق بعظمته، فما هو المانع من ذلك في العقل والشرع؟ وما هو الموجب لتلك التمحلات؟

وكل ما يذكر أهل التأويل إنما يدل على امتناع وصفه -تعالى- بما يستحقه المخلوق، وخصائص المخلوقين منفية عنه -تعالى-، وكل ما أثبت لله -تعالى- من الصفات فهي كمال، وفقدتها نقص -تعالى- عنه.

ص 281

ثم هل يجوز مع كثرة ما في كتاب الله، وسنة رسوله، من ذكر اليد، دالاً على الحقيقة، مثل ذكر خلق آدم بيديه، وأنهما مبسوطتان، وأن الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة، وأن السموات مطويات بيمينه، وأن بيده الملك، وفي السنة ما لا يحصى إلا بمشقة، مثل ذكر الأصابع، والقبض، والبسط، واليمين، والشمال، وأن يديه كلتاهما يمين، ثم لا يبين الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن هذا غير مراد منه الظاهر والحقيقة، مع حضه لنا على الفهم؟ وهل يجوز أن يفهم صحابته والتابعون لهم من هذه النصوص غير الحق المراد منها، ولا يعرف الحق فيها إلا جهم بن صفوان - بعد انقراض عهد الصحابة - وبشر بن غياث - وأشباههما ممن هو مغموص عليه في النفاق؟ مع أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد علم أمته كيف يقضون الحاجة، وكيف يأكلون ويشربون، وينامون، ويدخلون بيوتهم ويخرجون، حتى أنزل الله -تعالى- عليه في آخر ما أنزل: { الْيَوْمَ يَنسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي }⁽⁸⁰⁷⁾، والرسول -صلى الله عليه وسلم- يقول: "تركتم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك"⁽⁸⁰⁸⁾.

هل يجوز - مع هذا كله وغيره - أن يترك الكتاب المنزل عليه، وسنته الغراء، مملوءان بما يزعم أهل التأويل أن ظاهره تشبيه وتجسيم، ومن اعتقد ظاهره - بزعمهم - فهو ضال مشبه لله ومجسم، ثم لا يبين ذلك ولا يوضحه، بل يكثر من ذكر ما يؤيد الظاهر بكل صراحة؟ إنه لا يعتقد ذلك ويقوله إلا ضال في دينه لم يعرف ما أنزل الله على رسوله، ولم يعرف الرسول حق المعرفة.

⁽⁸⁰⁶⁾ ("مجموع الفتاوى" (366-6/363).

⁽⁸⁰⁷⁾ الآية 3 من سورة المائدة .

⁽⁸⁰⁸⁾ تقدم تخريجه.

قال ابن القيم: " واطراد لفظ اليد في موارد استعمالها، وتنوع ذلك،
يوجب أن تكون اليد حقيقة، كقوله -تعالى-: { لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّ }⁽⁸⁰⁹⁾، { بَلْ
يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ }⁽⁸¹⁰⁾، { وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ
مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ }⁽⁸¹¹⁾.

ص 282

فلو كان المراد: القدرة، أو النعمة، لم يستعمل منه لفظ "يمين"، كما
في الحديث "المقسطون عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن،
وكلتا يديه يمين"⁽⁸¹²⁾، فلا يصح أن تكون يد القدرة، والنعمة، وقوله: " يقبض
الله سماوات بيده، والأرض باليد الأخرى، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا
الملك"⁽⁸¹³⁾ فالهز والقبض، وذكر اليدين، يمنع ذلك.

ولما ذكر ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- جعل يقبض يديه
ويبسطنهما، تحقيقاً للصفة، لا تشبيهاً لها، كما أنه -صلى الله عليه وسلم- لما
قرأ قوله -تعالى-: { وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا }⁽⁸¹⁴⁾ وضع إصبعه على عينه
والأخرى على أذنه؛ تحقيقاً لصفة السمع والبصر.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: " لما خلق الله آدم قبض بيديه، وقال:
اختر، فقال: اخترت يمين ربي، وكلتا يديه يمين ففتحها، فإذا فيها أهل اليمين
من ذريته"⁽⁸¹⁵⁾.

وقوله -صلى الله عليه وسلم-: " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء
النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل"⁽⁸¹⁶⁾ اهـ.

وقد تقدمت الإشارة إلى بعض النصوص في ذلك.
فاقتران الطي والقبض، والإمساك باليد، جعل تأويلها بالقدرة والنعمة
تحريفاً باطلاً.

قال الإمام ابن خزيمة: " نحن نقول: الله - جل وعلا- له يدان، كما
أعلمنا الباري في محكم تنزيله، وعلى لسان نبيه المصطفى -صلى الله عليه
وسلم- ونقول: كلتا يدي ربنا يمين، على ما أخبر النبي -صلى الله عليه
وسلم- ونقول: إن الله - عز وجل - يقبض الأرض بإحدى يديه، ويطوي
السماوات بيده الأخرى"⁽⁸¹⁷⁾.

ص 283

⁽⁸⁰⁹⁾ الآية 75 من سورة ص.

⁽⁸¹⁰⁾ الآية 64 من سورة المائدة.

⁽⁸¹¹⁾ الآية 67 من سورة الزمر.

⁽⁸¹²⁾ تقدم تخريجه.

⁽⁸¹³⁾ تقدم تخريجه.

⁽⁸¹⁴⁾ الآية 134 من سورة النساء.

⁽⁸¹⁵⁾ مضى تخريجه.

⁽⁸¹⁶⁾ (" مختصر الصواعق " (ص 337).

⁽⁸¹⁷⁾ كتاب "التوحيد" (ص 83).

فمن أثبت لله -تعالى- يدين، وأثبت لهما أصابع، على ما جاء في النصوص الصحيحة، لا يكون مشبهاً، بل يكون متبعاً لكتاب الله وسنة رسوله، مطيعاً لله ورسوله في ذلك؛ لأنه أثبت لله ما أثبت لنفسه، وأثبت له رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

والله -تعالى- ليس كمثل شيء لا في ذاته ولا في أوصافه؛ لأن الوصف تابع للموصوف.

وقال البغوي: " الإصبع المذكورة في الحديث صفة، من صفات الله - عز وجل - وكذلك كل ما جاء به الكتاب أو السنة من هذا القبيل، في صفات الله -تعالى-، كالنفس، والوجه، والعين، واليد والرجل، والإتيان، والمجيء، والنزول إلى السماء الدنيا، والاستواء على العرش، والضحك، والفرح.

قال الله -تعالى- لموسى: { وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي }⁽⁸¹⁸⁾، وقال - عز وجل - { وَلَتَصْنَعُ عَلَيَّ عَيْنِي }⁽⁸¹⁹⁾، وقال - سبحانه وتعالى -: { كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ }⁽⁸²⁰⁾، وقال - عز وجل -: { وَيُبْقِي وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ }⁽⁸²¹⁾، وقال تعالى: { بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ }⁽⁸²²⁾، وقال - جل وعلا -: { قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي }⁽⁸²³⁾، وقال -تعالى-: { وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ }⁽⁸²⁴⁾، وقال -تعالى-: { هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ }⁽⁸²⁵⁾، وقال - سبحانه وتعالى -: { وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا }⁽⁸²⁶⁾، وقال -

ص 284

تعالى -: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى }⁽⁸²⁷⁾، وقال -تعالى-: { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ }⁽⁸²⁸⁾.

وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر"⁽⁸²⁹⁾، وروى أنس، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: " لا تزال جهنم يلقى فيها، وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه"، وفي رواية أبي هريرة: " حتى يضع الله

⁽⁸¹⁸⁾ الآية 41 من سورة طه.

⁽⁸¹⁹⁾ الآية 39 من سورة طه.

⁽⁸²⁰⁾ الآية 88 من سورة القصص.

⁽⁸²¹⁾ الآية 27 من سورة الرحمن.

⁽⁸²²⁾ الآية 64 من سورة المائدة.

⁽⁸²³⁾ الآية 75 من سورة ص.

⁽⁸²⁴⁾ الآية 67 من سورة الزمر.

⁽⁸²⁵⁾ الآية 210 من سورة البقرة.

⁽⁸²⁶⁾ الآية 22 من سورة الفجر.

⁽⁸²⁷⁾ الآية 5 من سورة طه.

⁽⁸²⁸⁾ الآية 59 من سورة الفرقان.

⁽⁸²⁹⁾ سيأتي شرحه، إن شاء الله.

رجله" (830)، وفي حديث أبي هريرة في آخر من يخرج من النار "فيضحك الله منه، ثم يأذن له في دخول الجنة" (831)، وفي حديث جابر: "فيتجلى لهم يضحك" (832)، وفي حديث أنس وغيره: "لله أفرح بتوبة عبده، من أحدكم يسقط على بغيره، وقد أضله في أرض فلاة" (833).

فهذه ونظائرها صفات لله -تعالى-، ورد بها السمع، يجب الإيمان بها، وإمرارها على ظاهرها، معرضاً فيها عن التأويل، مجتنباً التشبيه، معتقداً أن الباري - سبحانه وتعالى - لا يشبه شيء من صفاته صفات خلقه، كما لا تشبه ذاته ذوات خلقه، قال -تعالى-: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (834)

وعلى هذا مضى سلف الأمة، وعلماء السنة، تلقوها جميعاً بالإيمان والقبول، وتجنبوا فيها التمثيل والتأويل، ووكلوا العلم فيها إلى الله - عز وجل -.

قال سفيان بن عيينة: "كل ما وصف الله -تعالى- به نفسه في كتابه فتفسيره قراءته، والسكوت عليه، ليس لأحد أن يفسره إلا الله -تعالى- ورسوله".

وقال الزهري: "على الله البيان، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم".
ص 285

وقال بعض السلف: "قدم الإسلام لا تثبت إلا على قنطرة التسليم" (835). ومراده بقوله: "ووكلوا العلم فيها إلى الله" علم الكيفية، وأما ما يفهم منها في الوضع اللغوي في ظاهر ومعلوم، وكذا ما ذكره عن سفيان أنها لا تفسر، أي تؤول وتطلب معرفة كفيته.

وهذا كثير في أقوال العلماء والسلف من أهل السنة.

وقال ابن القيم: "ورد لفظ اليد في القرآن، والسنة، وكلام الصحابة والتابعين، في أكثر من مائة موضع، وروداً متنوعاً، متصرفاً فيه، مقروناً بما يدل على أنها يد حقيقة، من الإمساك، والطي، والقبض، والبسط، والمصافحة، والحثيات، والنضح باليد، والخلق باليدين، والمباشرة بهما، وكتب التوارة بيده، وغرس جنة عدن بيده، وتخمير طينة آدم بيده، ووقوف العبد بين يديه، وكون المقسطين عن يمينه، وقيام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يوم القيامة عن يمينه، وتخيير آدم بين ما في يديه، فقال: "اخترت

(830) تقدم، وهو في "مسلم" رقم (2848).

(831) متفق عليه، وسبأتي، إن شاء الله.

(832) رواه مسلم في "الإيمان" رقم (191).

(833) انظره في "مسلم" (4/2104) رقم (2747).

(834) الآية 11 من سورة الشورى.

(835) "شرح السنة" (1/168-171).

www.dorar.net الدرر السنينة

يمين ربي"، وأخذ الصدقة بيمينه، يرببها لصاحبها، وكتابتة بيده على نفسه: أن رحمته تغلب غضبه، وأنه مسح ظهر آدم بيده، ثم قال له - ويداه مقبوضتان - "اختر"، فقال: "اخترت يمين ربي"، وكلتا يديه يمين مباركة، وأن يمينه ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار، وبيده الأخرى القسط، يرفع ويخفض، وأنه خلق آدم من قبضه قبضها من جميع الأرض، وأنه يطوي السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يطوى الأرض باليد الأخرى، وأنه خط الألواح التي كتبها لموسى بيده"⁽⁸³⁶⁾.

⁸³⁶ () "مختصر الصواعق" (ص 348).

قال: " باب قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: " لا شخص أغير من الله".

وقال عبيد الله بن عمرو بن عبد الملك: لا شخص أغير من الله. الغيرة - بفتح الغين - وإسكان الياء - وهي في اللغة مأخوذة من التغير الحاصل من الأنفة، والحمية.

والشخص: هو ما شخص وبان عن غيره. ومقصد البخاري أن هذين الاسمين يخبر بهما عن الله -تعالى- وصفاً له؛ لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أثبتهما لله، وهو أعلم الخلق بالله -تعالى-.

قال النووي: " قال العلماء: الغيرة بفتح الغين، وأصلها المنع، والرجل غيور على أهله، أي: يمنعهم من التعلق بأجنبي بنظر، أو حديث، أو غيره، والغيرة صفة كمال"⁽⁸³⁷⁾.

قال الحافظ: " وقد فسر الرسول -صلى الله عليه وسلم- غيرة الله في قوله: " إن الله يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله"⁽⁸³⁸⁾. ومعناه: أن الله يغار إذا انتهكت محارمه، وليس انتهاك المحارم هو غيرة الله؛ لأن انتهاك المحارم فعل العبد، ووقوع ذلك من المؤمن أعظم من وقوعه من غيره.

وغيرة الله -تعالى- من جنس صفاته التي يختص بها، فهي ليست مماثلة لغيرة المخلوق، بل هي صفة تليق بعظمته، مثل الغضب، والرضا، ونحو ذلك من خصائصه التي لا يشاركه الخلق فيها.

وقد تقرر أنه -تعالى- ليس كمثله شيء في ذاته، فكذلك في صفاته، وأفعاله، ولكن لا بد من الاشتراك في ألفاظ الأسماء التي تضاف إلى الله صفات له، وبين ألفاظ الأسماء التي يوصف بها العباد؛ لأنه لا يمكن معرفة ما غاب عنا إلا بمعرفة ما شهدناه، فنعتبر بعقولنا الغائب بالشاهد.

فلولا أننا نجد من أنفسنا جوعاً، وعطشاً، وشبعاً، ورياً، وحباً، وبغضاً، ولذة، وألماً، ورضاً، وسخطاً، لم نعرف حقيقة ما نخاطب به إذا وصف لنا وأخبرنا به عن غيرنا.

ولو لم نعلم ما في المشاهد من الحياة، والقدرة، والعلم، والكلام، لم نفهم ما نخاطب به من ذلك في الغائب.

فلا بد فيما شهدناه، وما غاب عنا، من قدر مشترك، هو مسمى اللفظ.

⁽⁸³⁷⁾ () "شرح مسلم" (10/132).

⁽⁸³⁸⁾ () "الفتح" (9/319).

وقد أخبرنا عن نعيم الآخرة، وعذابها مما يؤكل، ويشرب، ويفرح، ويحزن، وينعم، ويؤلم، فلولا معرفتنا بما يشبه ذلك في الدنيا، لم نفهم ما وعدنا به من ذلك، مع علمنا أن حقائق ما في الآخرة ليست كحقائق ما في الدنيا، كما قال ابن عباس في تفسير قوله -تعالى-: {وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا} : " ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء " (839)، ولكن بين ما في الدنيا، وما في الآخرة، مشابهة واشتراك من بعض الوجوه. وبذلك نفهم المراد، فنحب النعيم، ونرغب فيه، ونكره المؤلم، وننفر عنه، فنعرف معنى العسل، واللبن، والحريز، والذهب، ونفرق بينهما؛ لما عرفناه من نظيرها في الشاهد، وإن كانت حقائقها فيما هي عليه لا يعلمها إلا الله -تعالى-، كما قال - جل وعلا -: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ} (840).

فإذا كان هذا في صفات المخلوق، فكيف في صفات الخالق - جل وعز - فإنها أشد مباينة، مثال ذلك: إذا قال نفاة الصفات: النزول، والاستواء، من صفات الأجسام، فإنه لا يعقل إلا لجسم مركب، والله منزه عن ذلك. فيقال لهم: وكذلك الحياة، والإرادة، والسمع، والبصر، والعلم، والقدرة، والكلام، هي من صفات الأجسام، فإنه لا يعقل من يسمع، ويبصر، ويريد، ويعلم، ويقدر، ويتكلم، ويكون حياً، إلا الجسم. فإن قالوا: سمعه ليس كسمعنا، وعلمه ليس كعلمنا، وبصره ليس كبصرنا، وكذا البقية.

ص 288

قيل: فكذلك نزوله، واستواؤه، وغضبه، وفرجه، وحبه، وغيرته، وسائر صفاته، والذين يؤولون النصوص في ذلك، مخالفون لها، ومتناقضون. قوله: " وقال عبيد الله بن عمرو، عن عبد الملك: " لا شخص أغير من الله " قال الحافظ: " يعني أن عبيد الله بن عمرو، روى الحديث المذكور، عن عبد الملك، بالسند المذكور فقال: " لا شخص " بدل كلمة " لا أحد " وقد وصله الدارمي، ثم ذكر سنده، وساقه أبو عوانة - يعقوب الإسفرائيني - في " صححه " عن محمد بن عيسى العطار، عن زكريا بتمامه، وقال في المواضع الثلاثة: " لا شخص ".

قال الإسماعيلي - بعد أن أخرجه -: من طريق عبيد الله بن عمرو القواريري، وأبي كامل - فضيل بن حسين الجحدري - ومحمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، ثلاثهم عن أبي عوانة - الوضاح البصري - بالسند الذي أخرجه {به} البخاري، ولكن قال في المواضع الثلاثة: " لا شخص " بدل " لا أحد ".

(839) رواه ابن جرير في "تفسيره" انظر (393-1/394) بتحقيق: محمود شاكر.
(840) الآية 17 من سورة السجدة.

الدرر السننية www.dorar.net

ثم ساقه من طريق زائدة بن قدامة عن عبد الملك كذلك.
فكان هذه اللفظة لم تقع في رواية البخاري في حديث أبي عوانة، عن عبد الملك، فلذلك علقها عن عبيد الله بن عمرو.

قلت: وقد أخرجه مسلم، عن القواريري، وأبى كامل، كذلك " اهـ⁽⁸⁴¹⁾.
ولفظ مسلم، بعد ذكر السند: " قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح عنه، فبلغ ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال: " أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير منه، والله أغير مني، من أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا شخص أغير من الله، ولا شخص أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين، ولا شخص أحب إليه المدحة من الله، من أجل ذلك وعد الله الجنة"⁽⁸⁴²⁾.

ورواه الإمام أحمد في "المسند" بهذا اللفظ⁽⁸⁴³⁾، قال عبدالله ابن الإمام أحمد بعد ذكره، قال عبيد الله القواريري: ليس حديث أشد على الجهمية من هذا الحديث.

ص 289

وبهذا يتبين خطأ ابن بطال في قوله: " أجمعت الأمة على أن الله -تعالى- لا يجوز أن يوصف بأنه شخص، لأن التوقيف لم يرد به " اهـ ذكره الحافظ⁽⁸⁴⁴⁾.

وهذه مجازفة ودعوى عارية من الدليل، فأين هذا الإجماع المزعوم؟ ومن قاله؟ سوى المتأثرين ببدع أهل الكلام، كالخطابي، وابن فورك، وابن بطال - عفا الله عنا وعنهم -

وقوله: " لأن التوقيف لم يرد به " يبطله ما تقدم من ذكر ثبوت هذا اللفظ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بطرق صحيحة لا مطعن فيها. وإذا صح الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وجب العمل به، والقول بموجبه سواء كان في مسائل الاعتقاد، أو في العمليات، وقد صح عنه -صلى الله عليه وسلم- إطلاق هذا الاسم - أعني الشخص - على الله -تعالى- خيراً، فيجب اتباعه في ذلك على من يؤمن بأنه رسول الله، وهو -صلى الله عليه وسلم- أعلم بربه وبما يجب له وما يمتنع عليه -تعالى- من غيره من سائر البشر.

وتقدم أن الشخص في اللغة: ما شخص، وارتفع، وظهر.

⁽⁸⁴¹⁾ "الفتح" (13/400).

⁽⁸⁴²⁾ "صحيح مسلم" (2/1136) رقم (1499).

⁽⁸⁴³⁾ "المسند" (4/248) ورواه الدارمي في "سننه" (2/73).

⁽⁸⁴⁴⁾ انظر: "الفتح" (13/400).

قال في "اللسان": "الشخص كل جسم له ارتفاع وظهور"⁽⁸⁴⁵⁾.
والله -تعالى- أظهر من كل شيء، وأعظم، وأكبر، وليس في إطلاق
الشخص عليه محذور على أصل أهل السنة الذين يتقيدون بما قاله الله
ورسوله.

⁸⁴⁵() انظر: "لسان العرب" (2/281) المرتب.

45-قال: " حدثنا موسى بن إسماعيل التبوذكي، حدثنا أبو عوانة، حدثنا عبد الملك، عن وراد كاتب المغيرة، عن المغيرة، قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ ذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فقال: " تعجبون من غيرة سعد، والله لأنا أغير منه، والله أغير مني، ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين، ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة".

نكتفي بما تقدم من كلام على معنى الحديث، ونذكر موجزاً من الكلام مما فيه فائدة، وتقدم معنى الغيرة، وأنها صفة كمال، كما تقدم أنا لا يمكن أن نفهم ما خوطبنا به إلا بواسطة المعلوم لنا في الشاهد المشترك له في المعنى في الجملة، وإن كان البون شاسعاً.

قال النووي: " أخبر - صلى الله عليه وسلم- أن سعداً غيور، وأنه أغير منه، وأن الله أغير منه، وأنه من أجل ذلك حرم الفواحش، فهذا تفسير لمعنى غيرة الله -تعالى-، أي: أنها منعه - سبحانه وتعالى - الناس من الفواحش" (846).

ققلت: ليس هذا هو غيرة الله -تعالى- ولكنه مقتضى الغيرة، كما يوضحه قوله: " ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش " فبين أن تحريم الفواحش، والمنع منها، ليس هو الغيرة، وإنما هو من آثارها.

قوله: " لو رأيت رجلاً مع امرأتي، لضربته بالسيف غير مصفح " أي: لضربته بحد السيف لا بصفحه، يعني: لقتله بدون توقف، وقد أقره رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على ذلك، وأخبر أنه أغير من سعد، وأن الله أغير منه، وأما قول القرطبي وغيره: إن قوله: " ولا أحد أحب إليه العذر من الله " إشارة إلى الإنكار على سعد، فغير صحيح، بل مدلول الحديث خلافه، ولا بد من الغيرة، والذي لا غيرة له ديوث، والديوث لا يدخل الجنة، كما في "سنن النسائي" (847) وغيرها.

ولهذا قال -صلى الله عليه وسلم-: " تعجبون من غيرة سعد، والله لأنا أغير منه، والله أغير مني " الخ.

قوله: " ومن أجل غيرة الله حرم الفواحش، ما ظهر منها، وما بطن " أي: من أثر غيرة الله: منع عباده من قربان الفواحش، وهي: ما عظم وفحش في النفوس الزاكية والعقول السليمة مثل الزنا.

(846) " شرح مسلم " (10/132).

(847) " المجتبي " (5/80) ، رواه أحمد في "المسند" (2/134) وفي سننه عبدالله بن يسار، روى له النسائي ، وذكره ابن حبان في "الثقات" ، وبقيته رجاله ثقات مشهورون.

والظاهر: يشمل ما فعل علناً، وما باشرته الجوارح وإن كان سراً.
والباطن: يشمل ما في السر، وما انطوت عليه القلوب.
قوله: " ولا أحد أحب إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين
والمندرين".

العذر: هو طلب العفو عن فعل سابق مع الاعتراف بالذنب والندم على وقوعه منه، ويراد به الإعذار، وهو إقامة البيئات، والحجج، وإيضاح طريق الخير والشر، وكلاهما يدخل فيما ذكر، والمبشرون والمندرون هم الرسل، وفي رواية مسلم: " بعث المرسلين مبشرين ومندرين " وفي رواية له أيضاً: " ولذلك أنزل الكتب والرسل".

قال عياض: المعنى: بعث المرسلين للإعذار والإنذار لخلقهم، قبل أخذهم بالعقوبة، وهو كقوله -تعالى-: {رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ} (848).

قوله: " ولا أحد أحب إليه المدحة من الله، ومن أجل ذلك وعد الله الجنة " هذا لكماله المطلق، فهو -تعالى- يحب من عباده أن يثنوا عليه ويمدحوه على فضله وجوده، ومن أجل ذلك جاد عليهم بكل نعمة يتمتعون بها، ويرضون عنهم إذا حمدوه عليها.

ومهما أثنوا عليه ومدحوه لا يمكن أن يصلوا إلى ما يستحقه من المدح والثناء، ولهذا مدح نفسه كما تقدم، فوعد الجنة ليكثر سؤاله، والثناء عليه من عباده ومدحه، ويجهدوا في ذلك غاية ما يستطيعون؛ لأن الجنة هي منتهى الإنعام.

ص 292

قال: " باب {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ} (849) " فسمى الله -تعالى- نفسه شيئاً، وسمى النبي -صلى الله عليه وسلم- القرآن شيئاً، وهو صفة من صفات الله، وقال: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} (850).

يريد بهذا أن يطلق على الله -تعالى- أنه شيء، وكذلك صفاته، وليس معنى ذلك أن "الشيء" من أسماء الله الحسنى، ولكن يخبر عنه -تعالى- بأنه شيء، وكذا يخبر عن صفاته بأنها شيء؛ لأن كل موجود يصح أن يقال: إنه شيء.

قال الحافظ: " الشيء يساوي الموجود، لغةً، وعرفاً، وأما قولهم: فلان ليس بشيء فهو على طريق المبالغة في الذم، فلذلك وصف بصفة العدم" (851).

(848) من "الفتح" (13/400).

(849) الآية 19 من سورة الإنعام .

(850) الآية 88 من سورة القصص.

(851) "الفتح" (13/402).

وقال: " أي: إذا جاءت استفهامية، اقتضى الظاهر أن تسمى باسم ما تضاف إليه، فعلى هذا صح الاستدلال بها على تسمية الله -تعالى- شيئاً. واسم الجلالة خبر مبتدأ محذوف، أي: ذلك الشيء هو الله. ويصح أن يكون مبتدأ محذوف الخبر، والتقدير: الله أكبر شهادة والله أعلم" (852).

وقوله -تعالى-: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ} قال الحافظ: " الاستدلال بهذه الآية للمطلوب، ينبنى على أن الاستثناء متصل، فإنه يقتضي اندراج المستثنى في المستثنى منه، وهو الراجح، على أن لفظ شيء يطلق على الله -تعالى- وهو الراجح أيضاً" (853).

قال الإمام عبدالعزيز الكناني، في محاجته لبشر المريسي، لما سأله بشر عن القرآن: أهو شيء أم ليس بشيء؟ قال: " فقلت لبشر: سألت عن القرآن، هو شيء أم غير شيء؟ فإن كنت تريد أنه شيء، إثباتاً للوجود، ونفياً للعدم، فنعم هو شيء".

ص 293

وإن كنت تريد أن الشيء اسم له، وأنه كالأشياء فلا. فإن الله أجرى كلامه على ما أجراه على نفسه، إذ كان كلامه من ذاته، ومن صفاته، فلم يتسم بالشيء، ولم يحمل الشيء اسماً من أسمائه، ولكنه دل على نفسه أنه شيء، وأنه أكبر الأشياء، إثباتاً للوجود، ونفياً للعدم، وتكذيباً للزنادقة، ومن تقدمهم ممن جحد معرفته، وأنكر ربوبيته، من سائر الأمم، فقال لنبيه -صلى الله عليه وسلم-: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} (854)، فدل على نفسه أنه شيء، لا كالأشياء، وأنزل في ذلك خبراً خاصاً مفرداً، لعلمه السابق أن جهماً وبشراً، ومن قال بقولهما، سيلحدون في أسمائه وصفاته، ويشبهون على خلقه، ويدخلونه وكلامه في الأشياء المخلوقة، فقال - عز وجل-: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} (855)، فأخرج نفسه وكلامه وصفاته من الأشياء المخلوقة، بهذا الخبر، تكذيباً لمن ألد في كتابه، وافترى عليه، وشبهه بخلقه. وعدد أسمائه في كتابه، ولم يتسم بالشيء، ولم يجعل الشيء اسماً من أسمائه" (856).

(852) نفس المصدر.

(853) نفس المصدر.

(854) الآية 19 من سورة الأنعام.

(855) الآية 11 من سورة الشورى.

(856) "الحيدة" (ص 24-25) مطابع القصيم.

www.dorar.net الدرر السنية

ونقل الحافظ عن ابن بطال: " أن الآيات والآثار المذكورة في هذا الباب ترد على من زعم أنه لا يجوز أن يطلق على الله -تعالى- أنه شيء، كما صرح به عبدالله الناشيء المتكلم⁽⁸⁵⁷⁾ وغيره.

كما ترد على من زعم أن المعدوم شيء، وقد أطبق العقلاء على أن لفظ "شيء" يقتضي إثبات موجود، وعلى أن لفظ " لا شيء" يقتضي نفي موجوده، إلا ما تقدم من إطلاقهم "ليس بشيء" في الذم⁽⁸⁵⁸⁾.

وهذا الذي ذكره الحافظ عن ابن بطال واضح، وقد تقدم ما يدل عليه.

⁸⁵⁷ () هو : أبو العباس عبدالله بن محمد الناشيء الشاعر المتكلم - يعرف بابن شرشير ، أصله من الأنبار ، وأقام ببغداد مدة طويلة ، ثم خرج إلى مصر ، وتوفي بها سنة ثلاث وتسعين ومائتين . "الشذرات" (2/214).

⁸⁵⁸ () "الفتح" (403-13/402).

46-قال: " حدثنا عبدالله بن يوسف، أخبرنا مالك عن أبي جازم، عن سهل بن سعد، قال: قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لرجل: " أمعك من القرآن شيء؟ قال: نعم، سورة كذا، وسورة كذا - لسور سماها-".

سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلب بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة الأنصاري، من مشاهير الصحابة، ذكر ابن حبان أن اسمه حزن، فغير رسول الله -صلى الله عليه وسلم- اسمه، توفي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو ابن خمس عشرة سنة وعمر طويلاً، فكان آخر من مات في المدينة من الصحابة، على أحد الأقوال، رضوان الله عليهم أجمعين، وله أحاديث كثيرة في كتب الحديث، مات سنة إحدى وتسعين من الهجرة⁽⁸⁵⁹⁾.

هذا الحديث مختصر من قصة الواهبة نفسها للنبي -صلى الله عليه وسلم- لما قال له رجل من أصحابه: إن لم يكن لك بها حاجة، فزوجنيها يا رسول الله، قال له -صلى الله عليه وسلم-: " أمعك شيء تعطيتها إياه؟ قال: لا، قال: التمس ولو خاتماً من حديد، فلما لم يجد، قال له: هل معك شيء من القرآن؟ - أي: هل تحفظ شيئاً منه؟ - قال: نعم سورة كذا، وسورة كذا، لسور سماها. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: " زوجتكها على ما معك من القرآن " أي يكون تعليمه لها ما معه من سور القرآن صداقاً لها.

والمقصود هنا أنه أطلق الشيء على القرآن، بقوله: " أمعك شيء من القرآن؟ " وهو صفة من صفات الله -تعالى- والصفة لها حكم الموصوف، فيصح إطلاق ذلك على الله -تعالى-.

وقد تقيم في كلام عبدالعزيز الكناني " أن لفظ الشيء يطلق على القرآن إثباتاً لوجوده، وحقيقته، ونفياً لعدمه، وليس لفظ الشيء اسماً له، كما أنه يطلق على الله -تعالى- كذلك.

وأن الله أجرى كلامه على ما أجره على نفسه، إذ كان كلامه من ذاته، ومن صفاته، فلم يتسم بالشيء، ولم يجعل الشيء اسماً من أسمائه، ولكنه دل على نفسه

أنه شيء، وأنه أكبر الأشياء، إثباتاً للوجود، ونفياً للعدم، وتكذيباً للزنادقة ومن تقدمهم، ممن جحد معرفته وأنكر ربوبيته من سائر الأمم⁽⁸⁶⁰⁾.

(859) "الإصابة" (2/87)، "الاستيعاب" (2/94).

(860) انظر: "الحيدة" (ص 24).

قال: " باب: { وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ } (861)، { وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } (862)".

قال الأزهري: " العرش في كلام العرب: سرير الملك يدل على ذلك سرير ملكة سبأ، سماه الله - جل وعز - عرشاً، فقال: { إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ } (863)".

قلت: والعرش في كلام العرب - أيضاً -: سقف البيت، وجمعه عروش، ومنه قول الله - جل وعز -: { أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا } (864)".

قال الكسائي: { عَلَى عُرُوشِهَا } على أركانها. وقال غيره من أهل اللغة: على سقوفها، أراد أن حيطانها قائمة، وقد تهدمت سقوفها، فصارت في قرارها، وانقعدت الحيطان من قواعدها، فتساقطت على السقوف المتهدمة قبلها" (865).

"وقال الليث: العرش: السرير للملك، والعرش، والعريش: ما يستظل به.

قال: وعرش الرجل: قوام أمره، فإذا زال قوام أمره، قيل: ثل عرشه" (866).

وقال الجوهري: " العرش: سرير الملك، وعرش البيت: سقفه، والعرش، والعريش: ما يستظل به، وعرش القدم: ما نتأ في ظهرها، وفيه الأصابع، وعرش البئر " طيها بالخشب، بعد أن يطوى أسفلها بالحجارة قدر قامه، فذلك الخشب هو العرش، والجمع عروش.

وعرش يعرش ويعرش عرشاً، أي: بنى بناء من خشب" (867).

ويظهر مما ذكره أهل اللغة: أن العرش اسم للسرير المرتفع العظيم، الذي يجلس عليه الملك، ويطلق على السقف وعرش الرب - جل وعلا - له المعنيان فهو محل استوائه تعالى، وهو سقف المخلوقات.

قوله: { وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ } (868) قال ابن جرير: " يقول -تعالى-: وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض، وما فيهن".

(861) الآية 7 من سورة هود.

(862) الآية 129 من سورة التوبة.

(863) الآية 23 من سورة النمل .

(864) الآية 259 من سورة البقرة .

(865) "تهذيب اللغة" (1/413).

(866) المصدر نفسه (1/415).

(867) "الصحاح" (3/1010).

(868) الآية 7 من سورة هود.

ثم روى عن مجاهد: وكان عرشه على الماء قبل أن يخلق شيئاً. وروى بسنده عن قتادة: { وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ } { ينبتكم ربكم - تبارك وتعالى - كيف كان بدء خلقه، قبل أن يخلق السموات والأرض. ثم روى حديث أبي رزين العقيلي: " قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا، قبل أن يخلق خلقه؟ قال: " كان في عماء، ما فوقه هواء، وما تحته هواء، ثم خلق عرشه على الماء".

وفي رواية: " قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟" الخ⁽⁸⁶⁹⁾.

ثم روى عن ابن عباس، أنه سئل: " وكان عرشه على الماء، على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح"⁽⁸⁷⁰⁾. وقال الترمذي: " حدثنا أحمد بن منيع، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا حماد بن سلمة، عن يعلى بن عطاء، عن وكيع بن حدس⁽⁸⁷¹⁾، عن عمه أبي رزين، قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا، قبل أن يخلق خلقه؟ قال: كان في عماء، ما تحته هواء،

ص 298

وما فوقه هواء، وخلق عرشه على الماء"، قال أحمد: " قال يزيد: العماء، أي ليس معه شيء"⁽⁸⁷²⁾. قال أبو عبيد: " العماء في كلام العرب، السحاب الأبيض"، قال الأصمعي وغيره، هو ممدود.

وقال الحارث بن حلزة اليشكري: وكان المنون تردى بنا أعصم ينجاب عنه العماء يقول: هو في ارتفاعه، قد بلغ السحاب ينشف عنه، يقول: نحن في عزنا مثل الأعصم، فالمنون إذا أرادتنا، فكأنما تريد أعصم. وإنما تأولنا هذا الحديث، على كلام العرب المعقول عنهم، ولا ندري كيف كان ذلك العماء، وما مبلغه، والله أعلم.

و أما العمى في البصر، فإنه مقصور، وليس هو من معنى الحديث في شيء " ا.هـ"⁽⁸⁷³⁾، نقل هذا الكلام الأزهرى، ثم قال: " قلت: وقد بلغني، عن أبي الهيثم - ولم يعزه لي إلى ثقة - أنه قال في تفسير هذا الحديث، ولفظه: أنه كان في عمى مقصور، قال: وكل أمر لا تدركه القلوب بالعقول، فهو عمى، والمعنى: أنه كان حيث لا تدركه عقول بنى آدم، ولا يبلغ كنهه وصف.

⁽⁸⁶⁹⁾ رواه الإمام أحمد في "المسند" (4/11، 12)، والترمذي في "التفسير" من "سننه" (4/351) وقال: هذا حديث حسن، وابن ماجه في "السنن" (1/64) رقم (182) والطبري أيضاً في "التاريخ" (1/19).

⁽⁸⁷⁰⁾ "تفسير الطبري" (245-15/249) بتحقيق محمود شاكر.

⁽⁸⁷¹⁾ قال الترمذي: هكذا يقول حماد بن سلمة: وكيع بن حدس.

⁽⁸⁷²⁾ "سنن الترمذي" (4/351).

⁽⁸⁷³⁾ "الغريب" (9-2/8).

قلت أنا (874): والقول عندي، ما قاله أبو عبيد، أنه العماء، ممدود، وهو السحاب، ولا يدري كيف ذلك العماء، بصفة تحصره، ولا نعت يحده، ويقوى هذا القول قول الله - جل وعز -: {هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام} (875) فالغمام معروف في كلام العرب.
إلا أنا لا ندري كيف الغمام الذي يأتي الله - عز وجل - يوم القيامة في ظلل منه، فنحن نؤمن به، ولا نكيف صفته، وكذلك سائر صفات الله - عز وجل - " ا.هـ (876) .

ص 299

فعلى ما ذكره يزيد بن هارون، وأقره الترمذي، يكون المعنى: ليس مع الله شيء، فيدل على أن الله -تعالى- كان، ولم يكن معه شيء، كما سيأتي في حديث عمران، - إن شاء الله تعالى - .

وعلى قول من فسر العماء بالسحاب الرقيق، ورجحه الأزهرى، لا يدل على قول الفلاسفة الدهرية، بقدم العالم، وتبنى مذهبهم الماديون اليوم، وذلك أن الله -تعالى- أخبرنا في كتابه، بابتداء الخلق، وإعادته كما قال -تعالى-: {وهو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده} (877)، كما أخبر بخلق السماوات، والأرض وما بينهما في ستة أيام، في مواضع كثيرة من كتابه -تعالى- (878).
وقوله: {وهو رب العرش العظيم} (879) أي: هو -تعالى- المالك للعرش، الذي هو أكبر المخلوقات، وأعظمها، وهو المتصرف فيه، وهو عرشه الذي استوى عليه، فاختره لذلك.

فالإضافة تقتضي اختصاصاً للعرش من بين المخلوقات، فهو -تعالى- رب كل مخلوق، فإضافة العرش إليه - تعالى - ووصفه بأنه عظيم، يدل على خصوصية للعرش، ليست لغيره من سائر المخلوقات، كما يدل على أنه -تعالى- مالك لكل ما دون العرش بطريق الأولى. والمتصرف فيه كيف يشاء.

قال ابن جرير: " وإنما عنى بوصفه - جل ثناؤه - نفسه بأنه " رب العرش العظيم " الخبر عن جميع ما دونه، أنهم عبيده، وفي ملكه وسلطانه؛ لأن العرش إنما يكون للملوك، فوصف نفسه بأنه ذو العرش، دون سائر خلقه، وأنه الملك العظيم، دون غيره، وأن من دونه، في سلطانه وملكه، جار عليه حكمه وقضاؤه " (880) .

(874) القائل هو الأزهرى .

(875) الآية 210 من سورة البقرة .

(876) " تهذيب اللغة " (3/246) .

(877) الآية 27 من سورة الروم .

(878) انظر: " نقض تأسيس الجهمية " (1/154) .

(879) آخر آية سورة التوبة .

(880) " تفسير الطبري " (14/587) بتحقيق محمود شاكر .

وقال ابن كثير: " وهورب العرش العظيم " أي: هو مالك كل شيء،
وخالقه؛ لأنه رب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات، وجميع
المخلوقات، من السماوات والأرضين، وما فيهما، وما بينهما، تحت العرش،
مقهورون بقدره الله -

ص 300

تعالى -، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على
كل شيء وكيل⁽⁸⁸¹⁾.

"قال - جل وعلا-: { دُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ }⁽⁸⁸²⁾، وقال - جلت عظمتة-: {
وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَاقِّبِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ }⁽⁸⁸³⁾، وقال تعالى: { الَّذِينَ يَحْمِلُونَ
الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلُهُ }⁽⁸⁸⁴⁾، وقال تعالى: { وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ
تَمَائِيَهُ }⁽⁸⁸⁵⁾.

وأقوال أهل التفسير {متفقة} على أن العرش هو السرير، وأنه جسم
مجسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله، وتعبدهم بتعظيمه، والطواف به، كما
خلق في الأرض بيتاً، وأمر بنى آدم بالطواف به، واستقباله في الصلاة.
وفي الآيات المتقدمة دلالة على صحة ما ذهبوا إليه " اهـ⁽⁸⁸⁶⁾.

والأخبار عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- والصحابة، والتابعين
لهم، في ذكر العرش ووصفه، وأن الله -تعالى- مستو عليه، كثيرة جداً،
وسياتي طرف يسير منها، - إن شاء الله تعالى -.

ففي "الصحيحين" عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله -صلى
الله عليه وسلم-: " لقد اهتز عرش الرحمن لموت سبيد⁽⁸⁸⁷⁾ ".
"وقال ابن مسعود في قوله: { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } قال: العرش
على الماء، والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه"⁽⁸⁸⁸⁾.

ص 301

وقال سليمان التيمي: لو سئلت: أين الله؟ لقلت: في السماء، فإن قال:
أين كان عرشه قبل السماء؟ لقلت: على الماء، فإن قال: فأين كان عرشه
قبل خلق الماء؟ قلت: لا أعلم.

⁽⁸⁸¹⁾ "تفسير ابن كثير" (180-4/179) ط الشعب .

⁽⁸⁸²⁾ () الآية 15 من سورة البروج.

⁽⁸⁸³⁾ () الآية 75 من سورة الزمر.

⁽⁸⁸⁴⁾ () الآية 7 من سورة غافر.

⁽⁸⁸⁵⁾ () الآية 17 من سورة الحاقة .

⁽⁸⁸⁶⁾ () " الأسماء والصفات " للبيهقي (ص 392) ، والمفروض أن يقول: خلقه الله واستوى عليه وأمر ملائكته الخ.
ولكن أبي عليه المذهب ذلك .

⁽⁸⁸⁷⁾ () " البخاري مع الفتح " (7/123) ، و"مسلم" (4/1915).

⁽⁸⁸⁸⁾ () "خلق أفعال العباد" (ص 43).

قال البخاري: " وذلك لقوله -تعالى-: {ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء} يعني: إلا بما بين" (889).

وقال أبو نصر السجزي في "الإبانة": " وأئمتنا، كسفيان، ومالك، والحمادين، وابن عيينة، والفضيل، وابن المبارك، وأحمد بن حنبل، وإسحاق، متفقون على أن الله - سبحانه - فوق العرش، وعلمه بكل مكان، وأنه ينزل إلى سماء الدنيا، وأنه يغضب، ويرضى، ويتكلم بما يشاء" (890).

والنصوص في ذكر العرش، وأن الله -تعالى- مستو عليه، كثيرة جداً. وأمن الصحابة وأتباعهم بذلك، على ما دلت النصوص عليه ظاهراً، دون تأويل أو تحريف، وبلا تشبيه ولا تمثيل، كما سيأتي بعض ذلك، - إن شاء الله تعالى -.

قوله: " قال أبو العالية: { اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } ارتفع، { فسواهن } خلقهن وقال مجاهد: { استوى } : علا على العرش".

هذا الذي ذكره البخاري عن أبي العالية، ومجاهد، هو الذي يقوله ويعتقده عامة السلف من الصحابة وأتباعهم إلى اليوم.

وهو الحق الذي دلت عليه النصوص، وجاءت تعبيراتهم في ذلك في أربعة ألفاظ، ما ذكره البخاري هنا، وثالثها "صعد"، ورابعها "استقر"، وسوف أذكرها مع أسانيدنا إليهم:

ص 302

قال ابن جرير: " حدثت، عن عمار بن الحسن، قال: حدثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، عن الربيع بن أنس: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } يقول: ارتفع إلى السماء" (891).

وروى اللالكائي بسنده، عن بشر بن عمر، قال: سمعت غير واحد من المفسرين يقولون: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } : ارتفع" (892).

قال ابن عبد البر: " الاستواء: الاستقرار في العلو، وبهذا خاطبنا الله - عز وجل - فقال: { وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ } (893)، وقال: { فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ } (894).

وقال الشاعر:

فأوردتهم ماءً بفيفاء قفرة وقد خلق النجم اليماني فاستوى
وهذا لا يجوز أن يتأول فيه أحد: استولى؛ لأن النجم لا يستولي.

(889) المصدر نفسه (ص 37).

(890) نقلاً عن "سير أعلام النبلاء" (17/650).

(891) "تفسير الطبري" (1/429) بتحقيق محمود شاكر.

(892) "شرح أصول اعتقاد أهل السنة" (3/397).

(893) جزء من الآية 44 من سورة هود.

(894) الآية 28 من سورة المؤمنون.

وقد ذكر النضر بن شميل - وكان ثقة مأموناً، جليلاً في علم الديانة، واللغة - قال: "حدثني الخليل - وحسبك بالخليل- قال: أتيت أبا ربيعة الأعرابي، وكان من أعلم من رأيت، فإذا هو على سطح، فسلمنا، فرد علينا السلام، وقال لنا: استووا، فبقينا متحيرين، ولم ندر ما قال؟ قال: فقال لنا أعرابي إلى جنبه، إنه أمركم أن ترتفعوا، قال الخليل: هو من قول الله - عز وجل -: { تَمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ }⁽⁸⁹⁵⁾، فصعدنا إليه، فقال: هل لكم في خبز فطير، ولبن هجير، وماء نمير؟ فقلنا: الساعة فارقناه، فقال: سلاماً، فلم ندر ما قال، فقال الأعرابي: إنه سألكم

ص 303

متاركة لا خير فيها، ولا شر، قال الخليل: هو من قول الله - عز وجل -: { وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا }⁽⁸⁹⁶⁾ " (897) .هـ.

قال البغوي: { تَمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } قال الكلبي، ومقاتل: استقر. وقال أبو عبيدة: صعد".

ثم قال: " وأولت المعتزلة الاستواء بالاستيلاء، وأما أهل السنة، فيقولون: الاستواء على العرش صفة لله - تعالى - بلا كيف، يجب على العبد الإيمان به، ويكل العلم فيه إلى الله - عز وجل - " (898).

وقال البخاري: " حدثت عن يزيد بن هارون، قال: من زعم أن الرحمن على العرش استوى، على خلاف ما يقر في قلوب العامة، فهو جهمي " (899). ومراده: أن الاستواء من الأمور الواضحة، التي يفهمها عامة المسلمين إذا كانوا من أهل اللغة العربية.

كما أن مراد البغوي في قوله: " ويكل العلم فيه إلى الله - عز وجل - " : علم الكيفية، وأما معناه في اللغة، فهو معلوم ظاهر، كما يأتي في كلام الإمام مالك، وشيخه ربيعة، وأم سلمة.

قال ابن جرير: الاستواء في كلام العرب يأتي على وجوه: منها: انتهاء شباب الرجل، وقوته، فيقال إذا صار كذلك: قد استوى الرجل.

ومنها: استقامة ما كان فيه أود، من الأمور والأسباب، يقال منه: استوى لفلان أمره، إذا استقام بعد أود، ومنه قول الطرماح بن حكيم: طال على رسم مهدد أبده وعفا واستوى به بلده. يعني استقام به.

⁸⁹⁵ () الآية 11 من سورة فصلت .

⁸⁹⁶ () الآية 63 من سورة الفرقان .

⁸⁹⁷ () "التمهيد" (7/131، 132).

⁸⁹⁸ () "تفسير البغوي" (2/237).

⁸⁹⁹ () "خلق أفعال العباد" (ص 127) مجموعة عقائد السلف.

ومنها: الإقبال على الشيء، يقال: استوى فلان على فلان بما يكرهه ويسؤوه بعد الإحسان إليه.

ص 304

ومنها: الاحتياز، والاستيلاء، كقولهم: استوى على المملكة، بمعنى: احتوى عليها، وحازها.

ومنها: العلو، والارتفاع، كقول القائل: استوى فلان على سريرته، يعني به: علوه عليه⁹⁰⁰.

قلت: قد أنكر أهل اللغة المعنى الثالث، والرابع، مما ذكره ابن جرير في الاستواء المعدى بعلى.

قال ابن القيم: "ولفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله به وأنزل به كلامه نوعان، مطلق، ومقيد.

فالمطلق: ما لم يوصل معناه بحرف، مثل قوله: {ولما بلغ أشده واستوى}، وهذا معناه: كمل وتم، استوى الزرع واستوى الطعام.

وأما المقيد: فثلاثة أضرب:

أحدها: مقيد بإلى، كقوله: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} (901)، واستوى فلان إلى السطح، وقد ذكر - تبارك وتعالى - هذا اللمعدى بإلى في موضعين من كتابه، في البقرة في قوله -تعالى-: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ}، والثاني في سورة حم السجدة، قوله تعالى:

{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} وهذا بمعنى العلو والارتفاع، بإجماع السلف.

الثاني: مقيد بعلى، كقوله -تعالى-: {لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ} (902)،

وقوله:

{وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ} (903)، وقوله: {فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ} (904)، وهذا معناه - أيضاً - العلو والارتفاع والاعتدال، بإجماع أهل اللغة.

الثالث: المقرون بواو المعية، التي تعدي الفعل إلى المفعول معه، نحو:

استوى الماء والخشبة، بمعنى: ساواها.

ص 305

فهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم، ليس فيها "استولى" البتة، ولا نقله أحد من أئمة اللغة، الذين يعتمد قولهم، وإنما قاله متأخرو النحاة، ممن سلك طريق المعتزلة، والجهمية.

⁹⁰⁰ () "تفسير الطبري" (1/429) بتحقيق محمود شاكر.

⁹⁰¹ () الآية 29 من سورة البقرة، و الآية 11 من سورة فصلت.

⁹⁰² () الآية 13 من سورة الزخرف.

⁹⁰³ () الآية 44 من سورة هود.

⁹⁰⁴ () الآية 29 من سورة الفتح.

والذين قالوه، لم يقولوه نقلاً، فإن ذلك مجاهرة بالكذب، ولكن قالوه استنباطاً وحملاً منهم للفظه " استوى " على " استولى " ولذلك لما سمع أهل اللغة ذلك أنكروه غاية الإنكار.

قال ابن الأعرابي - وقد سئل هل يصح أن يكون استوى بمعنى استولى؟ - فقال: لا تعرف العرب ذلك - وهو من أكابر أئمة اللغة - " ا.هـ (905) .
قال ابن جرير: " وأولى المعاني بقول الله - جل ثناؤه -: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ } : علا عليهن، وارتفع، فدبرهن بقدرته، وخلقهن سبع سماوات، والعجب ممن أنكر المعنى المفهوم، من كلام العرب، في تأويل قول الله تعالى: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ } الذي هو بمعنى العلو، والارتفاع، هرباً عند نفسه من أن يلزمه بزعمه - إذا تأوله بمعناه المفهوم كذلك - أن يكون إنما علا وارتفع بعد أن كان تحتها - إلى تأويله بالمجهول، المستكره، ثم لم ينج مما هرب منه.

فيقال له: زعمت أن تأويل قوله: " استوى " : أقبل، أفكان مدبراً عن السماء فأقبل إليها؟ فإن زعم أن ذلك ليس بإقبال فعل، ولكنه إقبال تدبير، قيل له: فكذلك فقل: علا عليها، علو ملك، وسلطان، لا علو انتقال وزوال، ثم لن يقول في شيء من ذلك قولاً، إلا لزم في الآخر مثله " (906) .
قوله: " فقل: علا عليها علو ملك وسلطان، لا علو انتقال وزوال " هو من جنس كلام أهل البدع، فلا ينبغي، وهو خلاف الظاهر من النصوص، بل هو من التأويل الباطل.

قال ابن القيم: " نقل معنى الاستواء، كنقل لفظه، بل أبلغ، فإن الأمة كلها تعلم بالضرورة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أخبر عن ربه بأنه استوى على عرشه، من يحفظ القرآن منهم، ومن لا يحفظه، كما قال مالك، وأئمة السنة: الاستواء معلوم، غير

ص 306

مجهول، كما أن معنى السمع، والبصر، والقدرة، والحياة، والإرادة، وسائر ما أخبر به - تعالى - عن نفسه معلوم، وإن كانت كلفته غير معلومة للبشر، فإنهم لم يخاطبوا بالكيفية، ولم يرد منهم العلم بها.
فإخراج الاستواء عن حقيقته المعلومة، كإنكار لفظه، بل أبلغ، وهذا مما يعلم أنه مناقض لما أخبر الله به ورسوله، فإن فهم معنى اللفظ هو المراد منه، وهو المقصود بالذات، لا اللفظ، فإن اللفظ مقصود قصد الوسائل للتعريف بالمراد، فإذا انتفى المعنى، وكانت إرادته محالاً - كما زعموا - لم يبق لذكر اللفظ فائدة، بل كان تركه أنفع من الإتيان به، فإن الإتيان به يحصل

(905) " مختصر الصواعق " (ص 320) ببعض التصرف.

(906) " تفسير الطبري " (1/430) بتحقيق محمود شاكر.

منه إيهام التشبيه، ويوقع الأمة في اعتقاد الباطل - على حد زعمهم - ولا ريب أن هذا إذا نسب إلى آحاد الناس كان ذمة أولى من مدحه، فيكف يجوز أن ينسب إلى من في كلامه الهدى، والشفاء؟ ومن المتفق عليه أنه لا يجوز أن يتكلم الله ورسوله بالشيء ويريد خلاف ظاهره" (907).

وقال - أيضاً: " وظاهر الاستواء: العلو، والارتفاع، كما نص عليه جميع أهل اللغة، وأهل التفسير المقبول، فلا يحتمل استواء الرب - تبارك وتعالى - على عرشه المعدى بعلى، المعلق بالعرش، المعروف بالألف واللام، المعطوف على خلق السماوات والأرض ثم مطرداً في "موارده" بهذا الأسلوب، لا يحتمل إلا معنى واحداً، لا معنيين، ولا كما يقول صاحب "العواصم والقواصم" (908):

إذا قال لك المجسم: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (909)، فقل: "استوى على العرش" يستعمل على خمسة عشر وجهاً، فأياها تريد؟ فيقال له: كلا والذي استوى على العرش، لا يحتمل هذا اللفظ معنيين ألبتة، والمدعي للإحتمال عليه الدليل، والأصل عدم الاشتراك والمجاز، ولم تذكر على دعواك دليلاً، ولم تبين الوجوه المحتملة، مع ذكر الدليل عليه. والمقصود: أن استواء الرب -تعالى- على عرشه، المختص به، الموصول بأداة "على" نص في معناه، لا يحتمل سواه" اهـ (910).

ص 307

وقال الحافظ: "نقل أبو إسماعيل الهروي، في كتابه: الفاروق، بسنده إلى داود ابن علي بن خلف، قال: كنا عند أبي عبد الله بن الأعرابي - يعني يحيى بن زياد اللغوي- فقال له رجل: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (911)، فقال: هو على العرش، كما أخبر، قال: يا أبا عبد الله إنما معناه: استولى، فقال: اسكت، لا يقال: استولى على شيء، إلا أن يكون له مضاد.

ومن طريق محمد بن أحمد بن النضر الأزدي، سمعت ابن الأعرابي يقول: أرادني أحمد بن أبي دؤاد، أن أجد له في لغة العرب {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (912) بمعنى استولى، فقلت: والله ما أصبت هذا. وقال غيره: لو كان بمعنى استولى، لم يختص بالعرش؛ لأنه غالب على جميع المخلوقات" اهـ (913).

(907) "مختصر الصواعق" (ص 331-332).

(908) هو ابن العربي المالكي .

(909) الآية 5 من سورة طه.

(910) "مختصر الصواعق" ملخصاً (ص 332-334).

(911) الآية 5 من سورة طه.

(912) ورواه اللالكائي في "شرح أصول السنة" (2/399).

(913) "الفتح" (13/406)، وذكر آثاراً كثيرة بهذا المعنى فليراجع.

وروى اللالكائي بسنده من طريق الحسن، عن أمه، عن أم سلمة، في قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (914)، قالت: كيف غير معقول، والاستواء غير مجهول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر. وروى عن مالك، جاء إليه رجل، فقال: يا أبا عبد الله، {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} كيف استوى؟ قال: فما رأيت مالكا وجد من شيء، كموجدته من مقالته، وعلاه الرحضا- يعنى العرق- قال: وأطرق القوم، وجعلوا ينظرون ما يأتي منه فيه، فسري عن ذلك، فقال: كيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فأني أخاف أن تكون ضالا، وأمر به فأخرج.

ص 308

وذكر بسنده عن ابن عيينة، قال: سئل ربيعة، عن قوله: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (915) كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، وكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق". وذكر البيهقي بسنده، عن الأوزاعي، قال: " كنا والتابعون متوافرون، نقول: إن الله فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة، من صفاته" (916). قال الحافظ: سنده جيد (917).

وقال: " وأخرج الثعلبي، من وجه آخر، عن الأوزاعي، أنه سئل عن قوله -تعالى-: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (918). فقال: هو كما وصف نفسه" (919).

"قال أبو الأثرم، في كتاب "السنة": حدثنا إبراهيم بن الحارث - يعني العبادي- حدثني الليث بن يحيى، سمعت إبراهيم بن الأشعث، قال أبو بكر - هو صاحب الفضيل - سمعت الفضيل بن عياض، يقول: ليس لنا أن نتوهم في الله كيف وكيف؛ لأن الله وصف نفسه فأبلغ، فقال: { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } {1} {اللَّهُ الصَّمَدُ} {2} { لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ } {3} { وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } (920) فلا صفة أبلغ مما وصف الله - عز وجل - نفسه، وكل هذا النزول، والضحك، وهذه المباهاة، وهذا الاطلاع، كما شاء أن ينزل، وكما شاء أن يباهي، وكما شاء أن يطلع، وكما شاء أن يضحك، فليس لنا أن نتوهم فيه كيف، وكيف، وإذا قال لك الجهمي: أنا أكفر برب يزول عن مكانه، فقل أنت: أنا أو من برب يفعل ما يشاء.

(914) " شرح أصول السنة " اللالكائي (2/398).

(915) " شرح أصول السنة " (2/398).

(916) " الأسماء والصفات " (ص 408).

(917) " الفتح " (13/406).

(918) الآية 5 من سورة طه.

(919) " الفتح " (13/406).

(920) سورة الإخلاص كاملة.

وقال الخلال: وأنبأنا محمد بن علي الوراق: حدثنا أبو بكر الأثرم، حدثني محمد بن إبراهيم القيسي، قال: قلت لأحمد بن حنبل: يحكى عن ابن المبارك، قيل ص 309

له: كيف نعرف ربنا؟ قال: في السماء السابعة على عرشه بحد، فقال أحمد: هكذا هو عندنا.

وأخبرني حرب بن إسماعيل، قال: قلت لإسحاق - يعني ابن إبراهيم - هو على العرش بحد؟ قال: نعم بحد.

وذكر عن ابن المبارك، قال: هو على عرشه، بائن من خلقه، بحد. وأخبرنا المروزي، قال: قال إسحاق بن إبراهيم بن راهويه: قال الله -تعالى-: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (921)، إجماع أهل العلم أنه فوق العرش استوى، ويعلم كل شيء، في أسفل الأرض السابعة، وفي قعور البحار، ورؤوس الآكام، وبطون الأودية، وفي كل موضع، كما يعلم علم ما فوق السماوات السبع، وما فوق العرش، أحاط بكل شيء علماً، فلا تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات البر والبحر، ولا رطب ولا يابس، إلا قد عرف ذلك كله وأحصاه، فلا تعجزه معرفة شيء عن معرفة غيره (922).

ومعنى قولهم: "بحد" أنه -تعالى- بائن من خلقه، غير حال فيهم، ولا مخالط لهم - تعالى وتقدس - وقد قيدوا الحد، بأنه لا يعلمه إلا هو -تعالى- وهو قريب من قول الإمام مالك وغيره: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول"، فيبين أن كيفية استوائه -تعالى- على العرش مجهولة للعباد، ولكنه لم ينف ثبوت ذلك في نفس الأمر، فكذلك قولهم: له حد لا يعلمه إلا هو، والله أعلم.

قال الإمام عثمان بن سعيد الدارمي - رحمه الله تعالى - في رده على بشر المريسي: "والله -تعالى- له حد، لا يعلمه غيره، ولا يجوز أن يتوهم لحدّه غاية في نفسه، ولكن نؤمن بالحد، ونكل علم ذلك إلى الله -تعالى-، ولمكانه حد، وهو على عرشه، فوق سماواته، فهذان حدان" (923).

وقال عبد العزيز بن يحيى المكي الكنانى، صاحب "الحيدة في الرد على الزنادقة والجهمية": "زعمت الجهمية في قوله -تعالى-: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (924) أنما

ص 310

المعنى: استوى، كقول العرب: استوى فلان على مصر، استوى فلان على الشام، يريد: استولى عليها.

(921) الآية 5 من سورة طه.

(922) درء تعارض العقل والنقل " (2/24، 34-35).

(923) رد عثمان بن سعيد على بشر المريسي (ص 382) "مجموع عقائد السلف"

(924) الآية 5 من سورة طه.

فيقال له: هل يكون خلق من خلق الله أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه؟ فإذا قال: لا.

قيل له: فمن زعم ذلك؟ فمن قوله: من زعم ذلك، فهو كافر. يقال له: يلزمك أن تقول: إن العرش قد أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه، وذلك أن الله - تبارك وتعالى - أخبر أنه خلق العرش قبل خلق السماوات والأرض، ثم استوى عليه بعد خلق السماوات والأرض. قال - تعالى -: { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ }⁽⁹²⁵⁾، فأخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السماوات والأرض، وقال - تعالى -: { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ }⁽⁹²⁶⁾، وقال: { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ }⁽⁹²⁷⁾.

فأخبر أنه استوى على العرش، فيلزمك أن تقول: المدة التي كان على العرش فيها، قبل خلق السماوات، والأرض، ليس الله بمستول عليه، إذ كان: استوى على العرش، معناه عندك: استولى.

فإنما استولى بزعمك في ذلك الوقت لا قبله " ثم ذكر حديث عمران الآتي وحديث أبي رزين المتقدم، ثم قال:

" فقال الجهمي: أخبرني كيف استوى على العرش؟ أهو كما يقال: استوى فلان على السرير، فيكون السرير قد حوى فلاناً وحده إذا كان عليه؛ لأننا لا نعقل الشيء على الشيء إلا هكذا؟

فيقال له: أما قولك: كيف استوى؟ فإن الله لا يجري عليه كيف، وقد أخبرنا أنه استوى على العرش، ولم يخبرنا كيف استوى، فوجب على المؤمنين أن يصدقوا ربهم، باستوائه على العرش، وحرم عليهم أن يصفوا كيف استوى؛ لأنه لم يخبرهم

ص 311

كيف ذلك، ولم تره العيون في الدنيا فتصفه بما رأت، وحرم عليهم أن يقولوا عليه من حيث لا يعلمون.

فأمّنوا بخبره عن الاستواء، ثم ردوا علم "كيف استوى" إلى الله. ولكن يلزمك - أيها الجهمي - أن تقول: إن الله محدود، وقد حوته الأماكن، إذا زعمت في دعواك، أنه في الأماكن، لأنه لا يعقل شيء في مكان، إلا والمكان قد حواه، كما تقول العرب: فلان في البيت، والماء في الجب، فالبيت قد حوى فلاناً، والجب قد حوى الماء.

⁹²⁵ () الآية 7 من سورة هود .

⁹²⁶ () الآية 4 من سورة السجدة .

⁹²⁷ () الآية 29 من سورة البقرة .

ويلزمك اشنع من ذلك؛ لأنك قلت أفضع مما قالت به النصارى، وذلك أنهم قالوا: إن الله - عز وجل - في عيسى، وعيسى بدن إنسان واحد، وكفروا بذلك، وأنتم تقولون: إنه في كل مكان، وفي بطون النساء كلهن، و{في} بدن عيسى، وأبدان الناس كلهم.

ويلزمك أيضاً أن تقول: إنه في أجواف الكلاب، والخنازير، لأنها أماكن، وعندك أن الله في كل مكان، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً⁽⁹²⁸⁾.

وقال أبو الحسن الأشعري في "الإبانة": "إن قال قائل: ما تقولون في الاستواء؟ قيل: نقول: إن الله - عز وجل - مستو على عرشه، كما قال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ⁽⁹²⁹⁾، وقال - تعالى -: {أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ} ⁽⁹³⁰⁾، فالسّموات فوقها العرش، فلما كان العرش فوق السموات قال: {أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ} لأنه مستو على العرش، الذي فوق السّموات، وكل ما علا فهو سماء، فالعرش أعلى السّموات، وليس ذا قال: {أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ} يعني جميع السموات، وإنما أراد العرش، الذي هو أعلى السموات، ألا ترى أن الله - عز وجل - ذكر السموات فقال: {وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا} ⁽⁹³¹⁾، ولم يرد أن القمر يملأهن جميعاً، وأنه فيهن جميعاً.

ص 312

ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم إذا دعوا، نحو السماء، لأن الله - عز وجل - مستو على العرش، الذي هو فوق السموات، كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض.

ولو كان كما تقوله المعتزلة، والجهمية، أن معناه: استولى، وملك، وقهر، لم يكن هناك فرق بين العرش، والأرض السابعة، ولكان مستوياً على العرش، وعلى الأرض، وعلى السماء، وعلى الحشوش، والأقدار⁽⁹³²⁾، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وقال الباقلاني - وهو من أئمة الأشاعرة -: "فإن قال قائل: أتقولون: إنه في كل مكان؟ قيل: معاذ الله، بل هو مستو على عرشه، كما أخبرنا في كتابه، فقال: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ⁽⁹³³⁾، وقال: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ

⁽⁹²⁸⁾ "درء تعارض العقل والنقل" (6/115-118).

⁽⁹²⁹⁾ الآية 5 من سورة طه .

⁽⁹³⁰⁾ الآية 16 من سورة الملك .

⁽⁹³¹⁾ الآية 16 من سورة نوح .

⁽⁹³²⁾ "الإبانة" (ص 85-87) ملخصاً .

⁽⁹³³⁾ الآية 5 من سورة طه .

الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } (934)، وقال: { أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ } (935).

ولو كان في كل مكان، لكان في بطن الإنسان، وفمه، وفي الحشوش، والمواضع التي نرغب عن ذكرها، ولوجب أن يزيد بزيادة الأمكنة إذا خلق منها ما لم يكن خلقه، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كان، ولصح أن يرغب إليه إلى نحو الأرض، وإلى خلفنا، وإلى يميننا، وشمائلنا، وهذا قد أجمع المسلمون على خلافه، وتخطئة قائله" (936).

وقال شيخ الإسلام: " وإذا كان المسلمون يكفرون من يقول: إن السموات تقله، أو تظله، لما في ذلك من احتياجه إلى مخلوقاته، فمن قال: إنه في استوائه على العرش محتاج إليه، كاحتياج المحمول، إلى حامله، فإنه كافر؛ لأن الله غني عن العالمين - حي، قيوم - الغنى المطلق، وما سواه فقير إليه.

ص 313

مع أن أصل الاستواء على العرش، ثابت بالكتاب، والسنة، واتفاق سلف الأمة، وأئمة السنة، بل ثابت في كل كتاب، أنزل على كل نبي أرسل" (937) وذكر عن أبي عمرو الطلمنكي: أنه قال: " قال أهل السنة، في قوله -تعالى-: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } (938): أن الاستواء من الله على عرشه المجيد، على الحقيقة، لا على المجاز" (939).

وقال ابن عبد البر في شرح حديث النزول: " وفيه دليل على أن الله في السماء، على العرش من فوق سبع سماوات، كما قالت الجماعة، وهو من حجتهم على المعتزلة في قولهم: إن الله في كل مكان، وليس على العرش. ومن الدليل على صحة ما قاله أهل الحق، قول الله -تعالى-: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } (940) ".

قال شيخ الإسلام: " وفي الفقه الأكبر، المروي عن الإمام أبي حنيفة - رحمه الله - قال: " من قال: لا أعرف ربي في السماء، أم في الأرض، فقد كفر؛ لأن الله -تعالى- يقول: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } وعرشه فوق سبع سماواته.

934 () الآية 10 من سورة فاطر .

935 () الآية 16 من سورة الملك .

936 () " التمهيد " (ص 260).

937 () " مجموع الفتاوى " (2/188).

938 () الآية 5 من سورة طه .

939 () " مجموع الفتاوى " (3/261).

940 () " التمهيد " (7/129).

قلت: فإن قال: أنه على العرش استوى، ولكنه يقول: لا أدري، العرش في السماء، أم في الأرض؟ قال: هو كافر؛ لأنه أنكر أن يكون في السماء؛ لأنه -تعالى- في أعلى عليين، وأنه يدعى من أعلى، لا من أسفل. وفي لفظ: سألت أبا حنيفة: عمن يقول: لا أعرف ربي، في السماء، أم في الأرض؟ قال: قد كفر؛ لأن الله -تعالى- يقول: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (941) وعرشه فوق سبع سماوات. قال: فإنه يقول: علي العرش استوى، ولكن لا يدري العرش في الأرض، أو في السماء؟ قال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر".

ص 314

ثم قال: " ففي هذا الكلام المشهور عن أبي حنيفة، عند أصحابه؛ أنه كفر الواقف الذي يقول: لا أعرف ربي، في السماء، أم في الأرض. فكيف يكون الجاحد النافي الذي يقول: ليس في السماء، أو ليس في السماء ولا في الأرض؟

واحتج على كفره بقوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، قال: وعرشه فوق سبع سموات، وبين بهذا أن قوله -تعالى-: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} يبين أن الله فوق السماوات، فوق العرش، وأن الاستواء على العرش دل على أن الله بنفسه فوق العرش.

ثم إنه أردف ذلك بتكفير من قال: إنه على العرش استوى، ولكن توقف في كون العرش في السماء، أم في الأرض؛ قال: لأنه أنكر أنه في السماء، لأن الله في أعلى عليين، وأنه يدعى من أعلى، لا من أسفل. وهذا تصريح من أبي حنيفة - رحمه الله - بتكفير من أنكر أن يكون الله في السماء.

واحتج على ذلك بأن الله في أعلى عليين، وأنه يدعى من أعلى، لا من أسفل، وكل من هاتين الحجتين فطرية عقلية، فإن القلوب مفطورة على الإقرار بأن الله في العلو، وعلى أنه يدعى من أعلى، لا من أسفل. وقد جاء اللفظ الآخر صريحاً عنه بذلك، فقال: إذا أنكر أنه في السماء فقد كفر" (942)

وكلام العلماء من أهل السنة من السلف وأتباعهم في هذا الموضوع كثيرة جداً، فنكتفي بهذا الطرف اليسير؛ لأن العاقل المنصف، الذي يريد الحق، ويطلبه إذا بان له الدليل، كفاه اليسير، وأما من ضل وعاند فلا يفيدُه البيان والإكثار من الكلام، والله الهادي، وهو المستعان.

(941) الآية 5 من سورة طه .
(942) "مجموع الفتاوى" (49-8/47).

قوله: " وقال ابن عباس: المجيد: الكريم، والودود: الحبيب. يقال: حميد مجيد، كأنه فعيل من ماجد، محمود من حمد ".

ص 315

قول ابن عباس انتهى عند قوله: يقال. قال الحافظ: " وصله ابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس، في قوله -تعالى-: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى}، قال: المجيد الكريم، وبه - أي بالسند - عن ابن عباس في قوله تعالى: { وَهُوَ الْعَفْوَورُ الْوَدُودُ } . قال: الودود: الحبيب" (943).

وذكر السيوطي أنه خرج ابن جرير، وقال المنذر، والبيهقي في "الصفات" في الموضوعين" (944).

قلت: يقصد البخاري - رحمه الله - أن العرش أضيف إلى الله -تعالى- الإضافة الدالة على المصاحبة، والاختصاص، حيث قال: { ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ } أي: صاحب العرش، فدل ذلك على اختصاص العرش المذكور بالله -تعالى- دون سائر المخلوقات، والمجيد قرئ بالرفع صفة لذو، الذي هو الله -تعالى- وقرئ بالجر صفة للعرش.

قال ابن جرير: " قرأ عامة قراء المدينة ومكة، وبعض الكوفيين، بالرفع، رداً على قوله: { ذُو الْعَرْشِ }، على أنه صفة الله - تعالى ذكره - وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة خفضاً، على أنه من صفة العرش.

والصواب من القول: أنهما قراءتان، معروفتان، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب" (945).

قال أبو حيان: { ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ } خص العرش بإضافة نفسه، تشريفاً للعرش، وتنبهاً على أنه أعظم المخلوقات" (946).

و "المجيد" فسرته ابن عباس بالكريم، وقد جاء في القرآن وصف العرش بأنه كريم، قال -تعالى-: { فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ }

ص 316

{ الْكَرِيمِ } (947)، فوصف العرش بأنه كريم لسعته وحسنه، وهو في وصف الله: الجواد، واسع العطاء، كثير الخير، حميد الصفات.

قال في "القاموس": {المجيد} الرفيع العالي، والكريم، والشريف الفعال" (948).

(943) "الفتح" (13/408).

(944) "الدر المنثور" (8/471)، وانظر: "الطبري" (30/138، 139).

(945) "تفسير الطبري" (30/139).

(946) "البحر المحيط" (8/452).

(947) الآية 116 من سورة المؤمنون.

(948) (1/336).

www.dorar.net الدرر السنية

قوله: {الودود} الحبيب، تقدم أن هذا التفسير مروى عن ابن عباس بسند متصل، الود: خالص الحب وصافيه.

وفي القاموس: "الودود" كثير الحب، وقد تقدم الكلام في صفة المحبة. "الْوَدُودُ" فعول من الود، قال الله عَنِ شَعِيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: {إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ} (949)، وقال -تعالى: {وَهُوَ الْعَفُورُ الْوَدُودُ} (950)، فقرنه بالرحيم في موضع، وبالغفور في موضع.

قال أبو بكر بن الأنباري: {الْوَدُودُ} معناه: المحب لعباده، من قولهم: وددت الرجل أوده، وداً، ووداً، ووداً.

ويقال: وددت الرجل، وداً، ووداداً، وودادة.

وقال الخطابي: هو اسم مأخوذ من الود، وفيه وجهان:

أحدهما: أن يكون فعولاً في محل مفعول، كما قيل: رجل هيوب، بمعنى مهيب، وفرس ركوب، بمعنى مركوب. والله - سبحانه وتعالى - مودود في قلوب أوليائه؛ لما يعرفونه من إحسانه إليهم.

والوجه الآخر: أن يكون بمعنى الود، أي أنه تعالى يود عباده الصالحين. قال -تعالى-: {سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} (951) فسرت بأنه يحبهم، ويحبهم إلى عباده.

ص 317

ويؤيده الحديث الصحيح: "إذا أحب الله عبداً نادى: يا جبريل، أني أحب فلاناً، فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن الله يحب فلاناً، فأحبه، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض" وسيأتي - إن شاء الله تعالى -.

والأكثر على ما ذكره ابن الأنباري، أنه فعول بمعنى فاعل، أي هو الوداد، كما قرنه بالغفور، الذي يغفر، وبالرحيم هو الذي يرحم (952).

وقوله: "يقال: حميد مجيد، كأنه فعيل من ماجد، محمود من حمد" قال الحافظ: "أصل هذا قول أبي عبيدة، في مجاز القرآن، في قوله: عليكم أهل البيت أي: محمود ماجد" (953).

قال الكرمانى: "غرضه منه، أن مجيداً بمعنى فاعل، كقدير بمعنى قادر، حميداً بمعنى مفعول، فلذلك قال: "مجيد من ماجد، حميد من محمود، قال: وفي بعض النسخ: محمود من حميد، وفي أخرى: من حمد، مبنى للفاعل،

(949) الآية 90 من سورة هود.

(950) الآية 14 من سورة البروج .

(951) الآية 96 من سورة مريم.

(952) "النبوات" (ص 71-72) ملخصاً.

(953) "الفتح" (13/408).

والمفعول أيضاً، وذلك لاحتمال أن يكون حميد بمعنى حامد، ومجيد بمعنى ممجد، ثم قال: وفي عبارته تعقيد⁽⁹⁵⁴⁾

قال الحافظ: " قلت: وهو في قوله: " محمود من حمد " وقد اختلفت الرواة فيه، والأولى فيه ما وجد في أصله، وهو كلام أبي عبيدة⁽⁹⁵⁵⁾ " فالحميد الذي له من الصفات، وأسباب الحمد، ما يقتضى أن يكون محموداً، وإن لم يحمده غيره، فهو حميد في نفسه.

والمحمود: من تعلق به حمد الحامدين، والحمد والمجد إليهما يرجع الكمال كله، فإن الحمد يستلزم الثناء والمحبة للمحمود، فمن أحببته ولم تكن عليه لم تكن حامداً له.

وهذا الثناء والحب، يتبع الأسباب المقتضية له، وهو ما عليه المحمود من صفات الكمال، ونعوت الجلال، والإحسان إلى الغير، فإن هذه هي أسباب المحبة، وكلما كانت هذه الصفات أجمع وأكمل، كان الحمد والحب أتم وأعظم.

ص 318

والله - سبحانه - له الكمال المطلق، الذي لا نقص فيه بوجه، والإحسان كله له ومنه، فهو أحق بكل حمد، وبكل حب، فهو أهل أن يحب لذاته، ولصفاته، ولأفعاله، ولأسمائه، ولإحسانه، ولكل ما صدر منه. والمجد مستلزم للعظمة، والسعة، والجلال، كما يدل عليه موضوعه في اللغة⁽⁹⁵⁶⁾.

يقال: استمجد المرخ والعفار؛ لكثرة النار فيهما.

قال ابن القيم: " ومن أسمائه -تعالى- ما هو دال على جملة أوصاف عديدة، لا يختص بصفة معينة، بل هو دال على معناه، لا على معنى مفرد، نحو المجيد، العظيم، الصمد، فإن المجيد: من اتصف بصفات متعددة، من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع في اللغة للسعة، والكثرة، والزيادة، فمنه: استمجد المرخ والعفار، وأمجد الناقة علفاً، ومنه { دُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ } صفة للعرش، لسعته وعظمته وشرفه⁽⁹⁵⁷⁾.

⁹⁵⁴ () " شرح الكرمانى على البخارى " (25/129).

⁹⁵⁵ () " الفتح " (13/408).

⁹⁵⁶ () " جلاء الأفهام " (ص 187).

⁹⁵⁷ () " بدائع الفوائد " (1/160).

47-قال: " حدثنا عبدان، عن أبي حمزة، عن الأعمش، عن جامع بن شداد، عن صفوان بن محرز، عن عمران بن حصين، قال: " إني عند النبي - صلى الله عليه وسلم- إذ جاءه قوم من بني تميم، فقال: " اقبلوا البشرى يا بني تميم " قالوا: بشرتنا فأعطنا، فدخل ناس من أهل اليمن، فقال: " اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم " قالوا: قبلنا، جئناك لتتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان؟ قال: " كان الله، ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء " ثم أتاني رجل، فقال: يا عمران، أدرك ناقتك، فقد ذهبت، فانطلقت أطلبها، فإذا السراب ينقطع دونها، وإيم الله لوددت أنها ذهبت ولم أقم."

عمران، هو أبو نجيد، بضم النون وفتح الجيم، ابن حصين، الخزاعي، البصري، أسلم عام خيبر، سنة سبع، وشهد ما بعدها من غزوات رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، وكان من فضلاء الصحابة، وكانت الملائكة تسلم عليه مواجهة، وكان مجاب الدعوة، بعثه عمر إلى أهل البصرة يفقههم، وكان الحسن البصري يحلف بالله ما قدمها مثله، اعتزل الناس في الفتنة، فلم يشهد شيئاً من حروبها، مات في البصرة سنة اثنتين وخمسين، - رضي الله عنه - (958).

قوله: إني عند النبي -صلى الله عليه وسلم- في الرواية التي ذكرها في بدء الخلق: " دخلت على النبي -صلى الله عليه وسلم- وعقلت ناقتي بالباب (959).

ويظهر أن هذه الواقعة في المدينة، في آخر حياة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولهذا ذكرها البخاري في آخر المغازي، في ذكر الوفود على النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قوله: " اقبلوا البشرى يا بني تميم " وفي رواية: " أبشروا يا بني تميم"، والمراد بهذه البشرى: الخير العظيم الذي يترتب على الإسلام، والنجاة من العذاب العظيم الذي يترتب على عدم الدخول في الإسلام، وذلك في الدنيا والآخرة.

قال الحافظ: " والمراد بهذه البشارة: أن من أسلم نجا من الخلود في النار، ثم بعد ذلك يترتب جزاؤه على وفق عمله، إلا أن يعفو الله" (960).

(958) "الرياض المستطابة" (ص 219).
(959) انظر: "البخاري مع الفتح" (6/286).
(960) "الفتح" (13/409).

" وتميم: اسم رجل، وهو تميم بن مر بن إد بن طابخة - واسم طابخة - عمرو بن إلياس بن مضر، والتميم في اللغة: الشريد" (961). " قالوا: بشرتنا فأعطنا" يظهر أنهم ما فهموا مقصد الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما أراده بالبشرى، أو أن رغبتهم في العاجلة، فعلقوا بها آمالهم، فقدموا ذلك على التفقه في الدين، والإقبال على تفهم ما قاله الرسول - صلى الله عليه وسلم -، ولهذا كره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قولهم، كما في الرواية الأخرى، وغير لون وجهه حيث استشعر قلة فقههم في الدين، ورغبتهم في الآخرة، والله أعلم.

" فدخل ناس من أهل اليمن " تقدم ذكر اليمن، وسبب تسميته في شرح حديث معاذ، " فقال: اقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم" البشرى: اسم من البشير، وهي الإخبار بما يسر ويفرح غالباً، وسميت بذلك لأنه يظهر أثرها على بشرة الوجه.

قال الحافظ: " أي: اقبلوا مني ما يقتضي أن تبشروا بالجنة، إذا أخذتم به" (962). ويؤخذ من هذا: أنه ينبغي - بل يتعين - قبول ما جاء عن الله ورسوله، بدون توقف أو استفسار، أو طلب للعلة والسبب؛ لأن قول بني تميم: " بشرتنا فأعطنا" لا يدل بظاهره على أنهم لم يقبلوها، ومع ذلك جعل عدم فهمهم للمقصود وطلبهم لأمر عاجل، عدم قبول للبشرى.

قوله: " جنناك لتفقه في الدين" الفقه هو الفهم، أي: فهم المراد، أي: أننا قد آمننا بك، وبما جئت به، وأتينا إليك لتفهمنا ديننا الذي جئت به، وتعلمنا ما نعتقده، ونعمل به، وهذا من توفيق الله لعبده؛ أن يهتم بالتفقه في دينه، حتى يعبد ربه على علم وبصيرة.

قله: " ولنسألك عن أول هذا الأمر ما كان "؟ الإشارة في قوله: " هذا" تعود إلى شيء مشاهد، حاضر، موجود، وهو هذا الخلق المرئي، من السماوات والأرض، وما بينهما، وما فيهما، والمعنى: جننا نسأل عن مبدأ خلق هذه المخلوقات المشاهدة، وهذا هو الظاهر.

ص 321

قال الحافظ: " كأنهم سألوا عن أحوال هذا العالم، وهو الظاهر، ويحتمل أن يكونوا سألوا عن أول جنس المخلوقات" (963).

قلت: الاحتمال الثاني بعيد، بل باطل، كما يأتي بيانه في كلام شيخ الإسلام، وقوله في الحديث: " عن أول هذا الأمر" برده؛ لأن الإشارة إلى المخلوقات المشاهدة كما تقدم، وجوب السؤال يدل على أنهم سألوا عن

(961) انظر: " نهاية الأرب " (ص 188، 322).

(962) " الفتح " (6/288).

(963) " الفتح " (6/288).

مبدأ هذا العالم المشاهد، والأمر يطلق ويراد به المأمور، ويراد به المصدر، الذي هو حكم الأمر، والأول هو المراد هنا قطعاً.

وقد رد شيخ الإسلام احتمال كونهم سألوا عن أول جنس المخلوقات من وجوه كثيرة، وبين أن ذلك باطل، وذكر أن الحديث روي بثلاثة ألفاظ: أحدها: المذكور هنا: " كان الله ولم يكن شيء قبله " .

والثاني: " كان الله، ولم يكن شيء معه " .

والثالث: " كان الله ولم يكن شيء غيره " .

ثم قال: " لا بد أن يكون الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال أحدها؛ لأن المجلس كان واحداً، وسؤالهم وجوابهم في ذلك المجلس، وعمران الذي روى الحديث لم يبق في المجلس إلى انقضائه، بل ذهب لما أخبر بذهاب راحلته، وهو أخبر بلفظ الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولم يرو هذا الحديث غيره، فدل ذلك على أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قال واحداً من هذه الألفاظ، والآخران روي بالمعنى، فيكون ما قاله: هو لفظ "القبل"؛ لما في "صحيح مسلم"، من قوله -صلى الله عليه وسلم-: " أنت الأول فليس قبلك شيء"⁽⁹⁶⁴⁾.

وأكثر أهل الحديث يرويه بهذا اللفظ، وهو ذكر الجمل الثلاث بالواو، وهي:

1- " قوله: كان الله، ولم يكن شيء قبله " .

2- " وكان عرشه على الماء " .

3- " وكتب في الذكر كل شيء " .

ولم يذكر شيئاً منها بـ"ثم"، وإنما جاء ذلك في خلق السماوات والأرض.

ص 322

والواو، لا تفيد الترتيب، على الصحيح، فلا يكون في ذلك ذكر أول المخلوقات، بل ولا فيه الإخبار بخلق العرش، والماء، وإن كان ذلك كله مخلوقاً، ولكن المقصود أن جوابه لأهل اليمن، عند بدء خلق السموات والأرض، وما بينهما، وهي المخلوقات التي خلقت في ستة أيام، لا ابتداء ما خلقه الله قبل ذلك.

ويدل على ذلك، أنه أخبر عن تلك الأشياء بما يدل على وجودها، ولم يتعرض لابتداء خلقها، وذكر السموات والأرض بما يدل على خلقها، سواء قال: " خلق السموات والأرض " أو قال: " وثم خلق السموات والأرض " فعلى التقديرين، أخبر بخلق ذلك، وكل مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن.

⁹⁶⁴() انظر: " صحيح مسلم " (4/2084) الحديث رقم (2713).

فتبين أنه لم يكن مقصوده الإخبار عن أول جنس المخلوقات، بل ولا الإخبار عن خلق العرش والماء، وإنما مقصوده الإخبار عن بدء خلق السموات والأرض وما بينهما، حين كان عرشه على الماء" (965)⁽⁹⁶⁵⁾ وقد ثبت في حديث عبدالله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: " كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء " (966)⁽⁹⁶⁶⁾. ولما كان شيخ الإسلام يقرر هذا، وهو أن الله لم يزل فعلاً لما يريد، ويرد على من يقول: المعنى: كان الله ولا شيء معه، أي: لا مخلوق، ولا فعل، ولا مفعول، ثم صار يخلق ويفعل بعد أن لم يكن يفعل ويخلق، وهذا هو قول الجهمية، والمعتزلة.

لما كان يقرر ذلك، ويرد قول الجهمية والمعتزلة، ظن كثير ممن لم يفهم مراده ولم يعرف مذهب أهل السنة في هذه المسألة، زن أنه يقول بقدم العالم؛ لأنه يقول بحوادث لا أول لها، لأنهم يسمون أفعال الله الاختيارية التي يفعلها بإرادته: حوادث.

وما علم هؤلاء أن لازم قولهم، أشنع، وأفزع، وهو أن الرب -تعالى- كان معطلاً عن الفعل، ثم صار فعلاً لأفعاله بعد أن لم يكن كذلك. مع أن ما قاله شيخ الإسلام هو مذهب السلف، مثل الإمام أحمد والدارمي والبخاري وغيرهم.

ص 323

قال الإمام أحمد في رده على الجهمية: " فلما ظهرت عليه الحجة، قال: إن الله يتكلم، ولكن كلامه مخلوق. قلنا: وكذا بنو آدم كلامهم مخلوق، فقد شبهتم الله بخلقه، حين زعمتم أن كلامه مخلوق.

ففي مذهبكم: قد كان في وقت من الأوقات لا يتكلم، حتى خلق التكلم، وكذلك بنو آدم كانوا لا يتكلمون حتى خلق الله لهم كلاماً. وقد جمعتم بين كفر، وتشبيه، وتعالى الله عن هذه الصفة. بل نقول: إن الله لم يزل متكلماً إذا شاء، ولا نقول: إنه كان، ولا يتكلم حتى خلق الكلام، ولا نقول: إنه قد كان لا يعلم، حتى خلق علماً فعلم، ولا نقول: إنه قد كان ولا قدرة له، حتى خلق لنفسه القدرة، ولا نقول: إنه كان ولا نور له، حتى خلق لنفسه نوراً، ولا نقول: إنه كان ولا عظمة له، حتى خلق لنفسه عظمة.

(965) "مجموع الفتاوى" (222-18/216) بتصرف .
(966) "صحيح مسلم" (4/2044) رقم (2653).

فقال الجهمية - لما وصفنا الله بهذه الصفات -: إن زعمتم أن الله ونوره، والله وقدرته، والله وعظمته، فقد قلتم بقول النصارى، حين زعموا أن الله لم يزل ونوره، ولم يزل وقدرته.

قلنا: لا نقول: إن الله لم يزل وقدرته، ولم يزل ونوره، ولكن نقول: لم يزل بقدرته ونوره، متى قدر، ولا كيف.

فقالوا: لا تكونوا موحدين أبداً، حتى تقولوا: قد كان الله ولا شيء.

فقلنا: نحن نقول: قد كان الله ولا شيء، ولكن إذا قلنا: إن الله لم يزل بصفاته كلها، أليس إنما نصف إلهاً واحداً بجميع صفاته؟

وضربنا لهم مثلاً في ذلك، فقلنا: أخبرونا عن هذه النخلة، أليس لها جذع، وكرب، وليف، وسعف، وخوص، وجمار، واسمها اسم شيء واحد، وسميت نخلة بجميع صفاتها، فكذلك الله - وله المثل الأعلى - بجميع صفاته، إله واحد.

ولا نقول: إنه كان في وقت من الأوقات ولا قدرة له حتى خلق له قدرة، والذي ليس له قدرة هو عاجز.

ص 324

ولا نقول: قد كان في وقت من الأوقات لا يعلم حتى خلق له علماً، والذي لا يعلم هو جاهل⁽⁹⁶⁷⁾.

بين الإمام - رحمه الله تعالى - أنه - تعالى - لم يزل متكلماً، قادراً، فعالاً لما يريد، فلم يكن قبل وجود الخلق معطلاً عن الفعل، كما هو مقتضى قول الذين أنكروا وجود حوادث لا أول لها، وزعموا أن هذا قول الفلاسفة الدهرية، وفي الواقع هو قول السلف، وهو الذي دلت عليه نصوص الشرع، وأيده العقل، وإن كان كل مفعول معين حادث بعد أن لم يكن، وأما فعل الله الذي هو صفته فلم يزل، فلا أول له.

فمفعولات الله - تعالى - باعتبار أعيانها لها مبدأ فهي كائنة بعد العدم. أما باعتبار كون الفعل صفة من صفات الله - تعالى -، وإن لم يكن متعلق بوجوده، فهو لا أول له.

قال الإمام أبو سعيد الدارمي - رحمه الله -: "والله - تعالى - وتقدس اسمه - كل أسمائه سواء، لم يزل كذلك، ولا يزال، لم تحدث له صفة ولا اسم لم يكن، كذلك كان خالقاً قبل المخلوقين، ورازقاً قبل المرزوقين، وعالماً قبل المعلومين، وسميعاً قبل أن يسمع أصوات المخلوقين، بصيراً قبل أن يرى أعيانهم مخلوقة"⁽⁹⁶⁸⁾.

(967) "الرد على الجهمية" (ص 90-92) عقائد السلف .

(968) نقض عثمان بن سعيد على بشر المريسي .

والمقصود أن الله - سبحانه وتعالى - لم يزل فعالاً لما يريد، وأنه لم يكن معطلاً عن الفعل حتى خلق هذا الكون المشهود، الذي سأل عن مبدئه أهل اليمن، قال شيخ الإسلام:

" لا نزاع بين أهل الملل أن الله - سبحانه - كان قبل أن يخلق هذه الأمكنة والأزمنة، وأن وجوده لا يجب أن يقارن هذه الأزمنة والأمكنة "(969).
قوله: " كان الله، ولم يكن شيء قبله " تقدم في كلام شيخ الإسلام أن هذا اللفظ هو الذي قاله الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأن اللفظين الآخرين رويًا بالمعنى، وهما " لم يكن

ص 325

شيء غيره " و " لم يكن شيء معه "، وأيد ذلك بأنه من معنى قوله - تعالى -: { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } (970).
فقوله -تعالى-: { هُوَ الْأَوَّلُ } هو الذي ليس قبله شيء، كما في " صحيح مسلم " من حديث أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه كان يقول: " اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء "(971).
وأما قول الحافظ: " قضية الجمع بين الروایتين، تقتضي حمل هذه على رواية: " ولا شيء غيره "، لا العكس، والجمع يقدم على الترجيح بالاتفاق "(972).
فيقال له: هذا لو احتمل أن يكون الحديث صدر منه -صلى الله عليه وسلم- في مقامين، أما إذا كان في مجلس واحد، والراوي واحد، وقد أخبر أنه لم يبق إلى نهاية المجلس، بل قام لما سمع هذا القول من النبي -صلى الله عليه وسلم- ولحق براحلته، فلا بد أن اللفظ الذي سمعه أحد هذه الألفاظ الثلاثة، والآخران رويًا بالمعنى، فأصبح الجمع لا وجه له.
وحمل هذه الرواية على رواية " ولا شيء غيره " بلا دليل، حمل عليه التعصب للمذهب، وإلا فالواجب حملها على المعروف من كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- الموافق لكلام الله -تعالى- كما تقدمت الإشارة إليه.
و أما قوله: إن هذه المسألة من مستشنع ما ينسب لابن تيمية، فقد تقدم أن هذا هو مذهب السلف، وأن ما يريد ترجيحه الحافظ هو مذهب الجهمية والمعتزلة، والأشعرية، من أهل البدع، والله أعلم.
وكلمة " كان " هنا تفيد الأزلية، والأزلية هي: ما لا بداية له.

(969) " نقض التأسيس " (1/562).

(970) الآية 3 من سورة الحديد .

(971) تقدم تخريجه.

(972) " الفتحة " (13/410).

قال الطيبي: " لفظة كان في الموضوعين - يعني " كان الله " و"كان عرشه على الماء"- بحسب حال مدخولها، فالمراد بالأول: الأزلية والقدم، وبالتالي الحدوث بعد العدم"⁽⁹⁷³⁾.

ص 326

"وقال ابن عباس: "كان ولا يزال" ولم يقيد كونه بوقت دون وقت، ويمتنع أن يحدث له غيره، صفة، بل يمتنع توقف شيء من لوازمه على غيره - سبحانه- فهو المستحق لغاية الكمال، وذاته هي المستوجبة لذلك الكمال المطلق، وهو المحمود على ذلك، أزلاً وأبداً، ولا يحصي الخلق ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه"⁽⁹⁷⁴⁾.

وقال الراغب: " كان عبارة عما مضى من الزمان، وفي كثير من وصف الله -تعالى- تنبيه عن معني الأزلية، قال: { وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا }⁽⁹⁷⁵⁾، { وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا }⁽⁹⁷⁶⁾، وما استعمل منه في جنس الشيء متعلقاً بوصف له هو موجود فيه، فتنبيه على أن ذلك الوصف لازم له، قليل الانفكاك منه، نحو قوله في الإنسان: { وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا }⁽⁹⁷⁷⁾، وإذا استعمل في الزمان الماضي، فقد يجوز أن يكون المستعمل فيه على حالته، ويجوز أن يكون قد تغير، نحو: كان فلان كذا ثم صار كذا"⁽⁹⁷⁸⁾.

ومعنى قوله: "كان الله، ولم يكن شيء قبله" أنه -تعالى- هو الأول قبل كل شيء، الذي لا يتصور لأوليته مبدأ، حتى يمكن أن يتصور قبله شيء، بل هو الأول بلا بداية، كما أنه الآخر بلا نهاية، فما من غاية يقدرها العقل إلا وأزليته -تعالى- قبلها، بلا غاية محدودة، والأزل معناه عدم الأولية، فليس الأزل شيئاً محدوداً، فلو قدر أن الأرض كلها وعاء مملوء ذرات، وبعد مليون سنة تفنى ذرة واحدة فقط، لفنيت الذرات كلها، والأزل باق، بل لو فرض أضعاف أضعاف ذلك بالملايين، والمقصود بذلك التقريب إلى الفهم فقط، وإلا فالأزل ليس له بداية أبداً.

قوله: " وكان عرشه على الماء" أي: وقت خلق السموات والأرض كان عرشه على الماء، والمراد هنا الإخبار بكون العرش على الماء، عند ابتداء خلق السموات والأرض.

ص 327

⁽⁹⁷³⁾ () "الفتح" (13/410).

⁽⁹⁷⁴⁾ () "مجموع الفتاوى" (232-18/233).

⁽⁹⁷⁵⁾ () الآية 26 من سورة الفتح، والآية 40 من سورة الأحزاب.

⁽⁹⁷⁶⁾ () الآية 27 من سورة الأحزاب، والآية 21 من سورة الفتح.

⁽⁹⁷⁷⁾ () الآية 67 من سورة الإسراء.

⁽⁹⁷⁸⁾ () "المفردات في غريب القرآن" (ص 444).

قال ابن خزيمة: " معنى قوله: "وكان عرشه على الماء" كقوله: { وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا }⁽⁹⁷⁹⁾، يعني: أن "كان" هنا لا تدل على أن ذلك أمر قد مضى، وانقضى، بل تدل على ثبوته، فهو كان، ولا يزال على ما كان، و"ليس معنى ذلك أن شيئاً من مفعولاته قديم معه، بل هو خالق كل شيء، ولك شيء سواه مخلوق له، وكل مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن، مع أنه -تعالى- لم يزل بصفاته خالقاً فعالاً لما يريد".

ومِن المعلوم أن الخلق صفة كمال، كما قال -تعالى-: { أَقَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ }⁽⁹⁸⁰⁾، فلا يجوز أن ينفك عن هذه الصفة، ولكن كل مخلوق محدث، مسبوق بالعدم، وليس مع الله شيء قديم، ولا شك أن هذا أبلغ في الكمال، من أن يكون معطلاً غير قادرٍ على الفعل. و أما جعل المفعول المعين مقارناً له -تعالى- أزلاً وأبداً، فهو باطل عقلاً وشرعاً، ولا يقوله إلا جاهل أو معطل.

"والأدلة على بدء خلق الأفلاك، وخلق الزمان - الذي هو مقدار حركة الفلك - كثيرة، أخبرت بها الرسل، كما أخبرت أنها خلقت من مادة موجودة قبلها، وفي زمان قبل هذا الزمان، فإن الله -تعالى- أخبر أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وسواءً قيل: إن تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المعروفة بطلوع الشمس وغروبها، أو أنها أكبر منها، وأن كل يوم قدره ألف سنة.

والحق أن تلك الأيام، التي خلقت فيها السموات والأرض غير هذه الأيام، وغير الزمان الذي هو مقدار حركة هذه الأفلاك، وأن تلك الأيام مقدره بحركة أجسام موجودة قبل خلق السموات والأرض.

وقد أخبر - سبحانه وتعالى - أنه { ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ }⁽⁹⁸¹⁾ فخلقت من الدخان.

ص 328

وقد جاءت الآثار عن السلف، أنها خلقت من بخار الماء، وهو الماء الذي كان العرش عليه، قبل وجود هذا الخلق، كما قال -تعالى-: { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ }⁽⁹⁸²⁾. فأخبر -تعالى- أنه خلق السموات والأرض في مدة، ومن مادة، ولم يذكر القرآن أنه خلق شيئاً من لا شيء، ولا يعارض هذا بقوله -تعالى-: { وَقَدْ

⁽⁹⁷⁹⁾ كتاب "التوحيد" (ص 103).

⁽⁹⁸⁰⁾ الآية 17 من سورة النحل .

⁽⁹⁸¹⁾ الآية 11 من سورة فصلت .

⁽⁹⁸²⁾ الآية 7 من سورة هود.

خَلَقْتِكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكْ شَيْئًا { (983)؛ لأنه تعالى قد أخبر أنه خلقه من نطفة" (984)، وخلق أباه من تراب، وقد أخبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن الملائكة خلقت من نور، والجن من النار.

وهذه الجملة من الحديث هي محل الشاهد، وهو دليل على عظم العرش، وأن له شأنًا غير شأن السماوات والأرض، وأن وجوده قبل وجودهما.

وقوله: " ثم خلق السماوات والأرض " نص في ذلك؛ لأن "ثم" تفيد الترتيب مع التراخي، أي: ترتيب خلق السماوات والأرض على وجود العرش والماء.

ولا شك أن العرش والماء مخلوقان، ولم يذكر الله - جل وعلا- لنا وقت خلق العرش والماء، كما لم يذكر لنا أن له مخلوقات قبلهما، ولكن النصوص من الوحي، والفطرة والعقل السليم، تدل على أن الله -تعالى- لم يزل يفعل ما يشاء، ويتكلم بما يشاء، وهذا من الكمال الواجب له، والذي يليق به -تعالى-.

وما يقوله المتكلمون من المعتزلة، والأشاعرة، ومن تبعهم، من أن هذا الكون المشاهد لنا، وما يتصل به من السموات والأرض، وكذلك العرش والماء، هو مبدأ فعله وخلق، وليس قبله شيء من مفعولاته، يخالف كماله الواجب له -تعالى-.

فإنه وصفه -تعالى- بأنه لم يكن قادراً على الفعل والكلام ونحوهما من صفات الكمال، ثم صار قادراً على ذلك، فيه نقص يجب أن ينزه عنه، وقدرته التامة الكاملة التي هي من لوازم ذاته -تعالى- تفيد خلاف هذا القول، وهي من أظهر صفات الكمال، ولا يجوز أن تقيده صفاته -تعالى- وأفعاله بوقت دون وقت.

ص 329

وباليقين العقلي يمتنع أن يكون قادراً بعد أن لم يكن كذلك، إلا بأمر جعله قادراً، ومن المحال أن يؤثر فيه شيء غيره، فإذا لم يكن هناك إلا العدم المحض استحال كونه قادراً، بعد أن لم يكن كذلك.

كما يمتنع أن يكون عالماً بعد أن لم يكن كذلك، وأن يكون سميعاً بصيراً، بعد أن لم يكن، أما المخلوق المفعول، مثل الإنسان، فإنه كان غير عالم، ولا قادر، فجعله الله عالماً قادراً.

(983) الآية 9 من سورة مريم .
(984) "مجموع الفتاوى" (18/235) بتصرف .

www.dorar.net الدرر السنية

وقوله: " وكتب في الذكر كل شيء " الكتابة هنا أضيفت إلي الله -تعالى- ولا يتعين منه أنه -تعالى- باشر الكتابة بنفسه، بل يجوز أن يأمر بذلك ما يشاء.

وقد جاء الحديث عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- موضحاً ذلك، كما في حديث عبادة بن الصامت: سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: " إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة " (985).

والمقصود بالذكر هنا: محل الكتابة، وهو اللوح المحفوظ. " والمراد أنه -تعالى- كتب كل ما أراد إيجاده من تلك الساعة التي جرت فيها الكتابة إلى قيام الساعة.

ولفظه " كل شيء " يعم في كل موضع بحسب ما سبقت له، كما في قوله -تعالى-: { وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } و { وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } و { اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ }.

و { تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ } و { وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ } (986). وقوله: " فإذا السراب ينقطع دونها " أي يشاهدها من خلق السراب، فهو ينقطع بينه وبينها لبعدها، فيراها مرة، وأخرى يكاد يخفيها السراب.

وقوله: " وايم الله " قيل معناه: يمين الله، فهو قسم مشهور عند العرب، وفيه لغات عدة.

ص 330

وقوله: " لوددت أنها ذهبت، ولم أقم " يقول: إن رغبتني والأحب إليّ أني بقيت في مجلسي عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أتعلم منه الإيمان والعلم، ولم أقم في طلب راحلتي، بل أتركها مؤثراً ما أسمعه من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من غذاء القلب والروح، على راحلتي، وهذا شأن صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورضي الله عنهم - في حرصهم على التعلم منه، والبحث عن الهدى والخير، ولهذا حفظوا كل ما قاله الرسول -صلى الله عليه وسلم- وما فعله، والبحث عن الهدى والخير، ولهذا حفظوا كل ما قاله الرسول -صلى الله عليه وسلم- وما فعله، حتى نقلوا لنا شعر لحيته وهو يصلي، وغير ذلك، فجزاهم الله خيراً، وقاتل من يبغضهم وينتقصهم.

(985) رواه أبو داود في "السنن" (5/76) رقم (4700).

(986) "مجموع الفتاوى" (18/233).

48-قال: " حدثنا علي بن عبدالله، حدثنا عبدالرزاق، أخبرنا معمر، عن همام، حدثنا أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: " إن يمين الله ملأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيت ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض؟ فإنه لم ينقص ما في يمينه، وعرشه على الماء، وبيده الأخرى الفيض - أو القبض- يرفع، ويخفض".

قد تقدم هذا الحديث في باب قول الله -تعالى-: {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ}، وتقدم الكلام عليه، وما هنا يختلف عن الماضي في سنده، وفي بعض ألفاظه، على عادة المؤلف - رحمه الله- إذا كرر الحديث، فلا بد أن يأتي بما يغير السابق، أما في السند والمتن، أو في أحدهما، إلا إذا تيسر له ذلك، وهو نادر.

والذي تقدم فيه "يد الله ملأى" وما هنا "إن يمين الله ملأى".
وما تقدم فيه "وقال: أرأيت"، وهنا كلمة "قال" ليست موجودة.
وما تقدم فيه "فإنه لم يغيض ما في يده"، وما هنا "فإنه لم ينقص ما في يمينه".

وما تقدم فيه "وقال: عرشه على الماء"، وهنا لفظة "قال" غير موجودة.

وما تقدم "وبيده الأخرى الميزان"، وهنا "وبيده الأخرى الفيض - أو القبض-" هذا في المتن، وأما السند فهو غير المتقدم.
والمقصود قوله: " وعرشه على الماء" أي أنه -تعالى- لما خلق السماوات والأرض، كان عرشه على الماء، فوجود العرش والماء سابق وجود السماوات والأرض بزمن طويل جداً -تعالى- الله أعلم بمقداره.

49-قال: " حدثنا أحمد، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا حماد بن زيد، عن ثابت، عن أنس، قال: جاء زيد بن حارثة، يشكو، فجعل النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: " اتق الله وأمسك عليك زوجك " قال (987) أنس: لو كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كاتماً شيئاً لكتم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي - صلى الله عليه وسلم - تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله - تعالى - من فوق سبع سماوات".
وعن ثابت: { وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ زَيْنَبِ وَزَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ ".
زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي، مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

ذكر الحافظ في "الإصابة" نقلاً عن الكلبي بسنده، قال: " زارت سعدى أم زيد قومها وزيد معها، فأغارت خيل لبني القين بن جسر، على أبيات بني معن، فاحتملوا زيدا وهو غلام يفعة، فأتوا به سوق عكاظ، فعرضوه للبيع، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد، بأربعمائة درهم، فلما تزوجها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهبته له، ثم جاء والده حارثة، وعمه كعب، يريدان فداءه، فطلبوا ذلك من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال لهما رسول الله: " ادعوه فخيروه، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني، فوالله ما أنا بالذي أختار على من أختارني " فاختار زيد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فقال له والده وعمه: ويحك يا زيد، أختار العبودية على الحرية؟ فقال: إني رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً.

لما رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك خرج به إلى المحجر، وقال: اشهدوا أن زيدا ابني، عند ذلك طابت نفس والده وعمه.
وزوجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - زينب بنت جحش، وهي ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب، ثم لم يتلاءما، فطلقها زيد، فزوجها الله - تعالى - نبيه؛ لحكمة ذكرها الله - تعالى - في القرآن.

قال ابن عمر: " إن زيد بن حارثة مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد، حتى نزل القرآن: { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ } (988).

كان زيد هو الأمير في غزوة مؤتة، واستشهد فيها رضي الله عنه (989).

(987) في بعض نسخ البخاري: قالت عائشة.
(988) الآية 5 من سورة الأحزاب، ورواه البخاري، انظره مع الفتح (8/517).
(989) "الإصابة" (601-2/599).

قوله: " جاء زيد بن حارثة يشكو " أي: جاء إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يشكو زوجه زينب ويستشيريه في طلاقها؛ لأنها كانت تترفع عليه، وتقابله ببعض الكلام غير المناسب؛ لحدّة كانت فيها، كما روى عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة، قال: " جاء زيد بن حارثة، فقال: يا رسول الله، إن زينب اشتد عليّ لسانها، وأنا أريد أن أطلقها؟ فقال له: " اتق الله، وأمسك عليك زوجك " (990).

وهذا منقطع، وقد ذكر كثير من المفسرين والمؤرخين آثاراً موضوعة، مكذوبة على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في قصة زواجه -صلى الله عليه وسلم- بزینب، وبعضها ضعيف، لا يثبت به حكم.

ثم استغل تلك الأخبار بعض أعداء الرسل، من زنادقة وكفار ملاحدة، متقدمون، ومتأخرون، واغتر بذلك كثير من الجهلة.

وقد بين الله -تعالى- المقصود من زواج رسوله -صلى الله عليه وسلم- بزینب بقوله: { فلما قض زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً } (991).

المعنى: لما فرغ زيد منها وطابت نفسه عنها، وطلقها، أمرناك بتزوجها؛ لئلا يبقى في قلوب المؤمنين حرج في تزوج زوجات أدعيائهم، الذين تبنوهم، فصاروا يدعون إليهم، فيقال: ابن فلان، وليس ابناً له، إذا فارقوهن.

وهذا إمعان في إبطال هذا التبني، الذي كان معروفاً في الجاهلية الأولى كما عرف في الجاهلية الحاضرة، حيث أمر الله -تعالى- إمام المسلمين وقدوتهم بذلك، وكان زيد بن حارثة قد تبناه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما تقدمت الإشارة إليه، فكان يدعى بزید بن محمد، فأبطل الله -تعالى- ذلك بقوله: { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ } {4} { ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانِكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } (992).

فهو -تعالى- يعلم عباده أن أدعياءهم الذين هم مواليتهم، ودعوهم أبناء لهم، أنهم ليسوا لهم بأبناء؛ لأنهم أبناء رجال آخرين.

وقد أوحى الله -تعالى- إلى رسوله بأنه سوف يتزوج زينب، أوحى الله بذلك إليه قبل أن يطلقها زيد، فلما جاء يشكوها إليه، ويستشيريه في طلاقها، قال له: " اتق الله يا زيد، وأمسك عليك زوجك " فعاتبه الله -تعالى-: { وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي

(990) "الفتح" (8/524).

(991) الآية 37 من سورة الأحزاب .

(992) الآيتان 4 و 5 من سورة الأحزاب .

فِي تَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَصَى زَيْدٌ
مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْتَاكَهَا { (993) الآية .

والذي كان -صلى الله عليه وسلم- يخفيه، هو كراهيته لزواجها؛ خوفاً
من قالة الناس أنه تزوج زوجة ابنه.

قال ابن حجر: " والحاصل: أن الذي كان يخفيه هو إخبار الله إياه أنها
ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس: تزوج
امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان الجاهلية عليه، من أحكام التبني، بأمر لا
أبلغ في الإبطال منه، وهو تزوج امرأة الذي يدعي ابناً { له }، ووقوع ذلك من
إمام المسلمين؛ ليكون أدعى لقبولهم.

وإنما وقع الخطب في تأويل متعلق الخشية، والله أعلم " (994) .
يشير إلى ما ذكره بعض المفسرين من أقوال باطلة، وقصص موضوعة
مكذوبة.

قوله: " قال أنس: لو كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كاتماً شيئاً
لكتم هذه ".
ص 335

أي: لو قدر على سبيل الفرض الممتنع شرعاً كتم شيء من الموحى،
لكان في هذه الآية، ولكنه غير واقع بل ممتنع شرعاً.

وهذه الآية من أعظم الأدلة لمن تأملها على صدق الرسول -صلى الله
عليه وسلم-، فالله - تعالى - يخبر عما وقع في نفسه من خشية الناس،
فبلغه كما قال الله -تعالى- مع ما تضمنه من لومه، بخلاف حال الكذاب، فإنه
يتجنب كل ما يمكن أن يكون فيه عليه غضاضة، ومثل ذلك قوله -تعالى-:
{ عَبَسَ وَتَوَلَّى } إلى آخر الآيات ونظائرها في القرآن.

وقوله: " فكانت زينب تفخر على أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- ".
الفخر: هو ذكر المحاسن، وعدّها، مباهاة بها غيره.
قال الجوهرى: " الفخر: الافتخار، وعد القديم " (995) .

فزينب - رضي الله عنها - تعتد بأن زواجها برسول الله -صلى الله عليه
وسلم- كان بأمر الله له بذلك، وأنه من أعظم فضائلها، وأنه لا يساويها في
ذلك من أزواجه أحد.

قوله: " تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله - تعالى - من فوق سبع
سماوات ".

هذا القدر من الحديث هو محل الشاهد، وهو ثبوت علو الله -تعالى-
وتقرره لدى المؤمنين، فهو أمر مسلم به بين عموم المسلمين، بل بين

(993) الآية 37 من سورة الأحزاب.

(994) "الفتح" (8/524).

(995) "الصحيح" (2/779).

عموم الخلق إلا من غيرت فطرته، لهو من الصفات المعلومة بالسمع، والعقل، والفطرة، عند كل من لم تنحرف فطرته.

و أما الاستواء على العرش فهو من الصفات المعلومة بالسمع، لا بالعقل، كما نبه على ذلك شيخ الإسلام⁽⁹⁹⁶⁾، وغيره من الأئمة.

ومعنى قولها: " وزوجني الله " أي: أمر رسوله بأن يتزوجها بقوله -تعالى-: { فَلَمَّا قَصَى رَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا } وتولى -تعالى- عقد زواجها عليه. وقوله في الرواية الأخرى: " نزلت آية الحجاب في زينب بنت جحش ".

ص 336

آية الحجاب هي قوله -تعالى-: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَّاظِرِينَ إِنَّا هُؤْلَاءُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ } إلى آخر الآية.⁽⁹⁹⁷⁾ قوله: " وأطعم عليها يومئذ خبزاً ولحماً ".

أي: صنع وليمة لزواجه بها، من الخبز، واللحم، وهذا النوع من الطعام هو أعلى ما يمكن في زمنه -صلى الله عليه وسلم-.

قوله: " تقول: إن الله أنكحني في السماء ".

هو كقولها السابق: " وزوجني الله من فوق سبع سماوات "، وكثير ما تأتي " في " بمعنى " على " أي: إن زواجي صدر من الله -تعالى- حيث أمر رسوله به، وتولى عقد نكاحها عليه، والله في السماء.

فإما أن تكون " في " بمعنى على، أو يراد بالسماء العلو، وكلاهما صحيح مستقيم جاءت به النصوص، قال -تعالى-: { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا }⁽⁹⁹⁸⁾ وقال -تعالى-: { فَلَيَمْدُدُ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ }⁽⁹⁹⁹⁾.

ولما كان مستقراً في نفوس المخاطبين أن الله -تعالى- هو العلي الأعلى، وأنه فوق كل شيء، كان المفهوم من قوله: " أنه في السماء " أنه في العلو، وأنه فوق كل شيء ولهذا قالت: " من فوق سبع سماوات ".

وكذلك الجارية، لما قال لها النبي -صلى الله عليه وسلم-: " أين الله؟ قالت: في السماء"⁽¹⁰⁰⁰⁾ إنما أرادت: العلو، وإذا قيل: العلو، فإنه يتناول ما فوق المخلوقات كلها، فما فوقها كلها هو في السماء، ولا يقتضي هذا أن

⁽⁹⁹⁶⁾ انظر: " مجموع الفتاوى " (5/227).

⁽⁹⁹⁷⁾ الآية 53 من سورة الأحزاب .

⁽⁹⁹⁸⁾ جزء من الآية 15 من سورة الحج .

⁽⁹⁹⁹⁾ رواه مسلم وغيره.

⁽¹⁰⁰⁰⁾ رواه مسلم وغيره.

يكون هناك ظرف وجودي يحيط به، إذ ليس فوق العالم شيء موجود إلا الله -تعالى-.

ص 337

وكذلك إذا قيل: العرش في السماء، فإنه لا يقتضي أن يكون العرش في شيء آخر موجود مخلوق، وإن قدر أن السماء المراد بها الأفلاك، وكان المراد أنه عليها، كما قال: { قَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ }⁽¹⁰⁰¹⁾، وقال: { وَأَصْلَبْتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ }⁽¹⁰⁰²⁾، وقال: { قَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ }⁽¹⁰⁰³⁾، ويقال: فلان في الجبل، وفي السطح، وإن كان على أعلى شيء منه، فإن حرف "في" يتعلق بما قبله، وبما بعده، فيكون بحسب المضاف إليه. ولهذا يفرق بين كون الشيء في المكان، وكون الماء في الإناء، وكون الوجه في المرأة، وكون الكلام في الكتاب، وكون العرش والجنة في السماء، فإن لكل نوع من هذه خاصة يتميز بها عن غيره.

⁽¹⁰⁰¹⁾ الآية 2 من سورة براءة.

⁽¹⁰⁰²⁾ جزء من الآية 71 من سورة طه.

⁽¹⁰⁰³⁾ الآية 137 من سورة آل عمران.

50-قال: " حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب، حدثنا أبو الزناد؛ عن الأعرج، عن أبي هريرة، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: " إن الله لما قضى الخلق، كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي ".
قوله: " قضى الله الخلق " قضي: يأتي بمعنى حكم، وأمر، وقدر، وفرغ، وأمضى، وأتقن، ومعناها هنا: فرغ من خلق المخلوقات، فهو نحو قوله تعالى: { فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ } أو فرغ من تقدير الخلق، ويدل لذلك الرواية الآتية في آخر الكتاب " قبل أن يخلق الخلق ".

وتقدم هذا الحديث في باب قول الله: { وَيُخَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ } وقد غاير بين سنده هنا وهناك، وفي متنه بعض الاختلاف، ففي الرواية المتقدمة " لما خلق الله الخلق " وهنا " إن الله لما قضى الخلق "، وهناك " كتب في كتابه وهو يكتب على نفسه، وهو وضع عنده على العرش، وهنا " كتب عنده، فوق عرشه " وهناك " إن رحمتي تغلب غضبي "، وهنا " سبقت غضبي ".

وقد مضى شرحه، والمقصود هنا، قوله: " عنده، فوق عرشه، " هذان طرفان مختصان بالمكان، وقد أضيفا إلى الله -تعالى-، فلا بد أن هذه الإضافة تقتضي تخصيصاً للعرش على غيره من السماوات والأرض.

"إضافة العرش إلى الله إضافة مخصوصة، وقد قال -تعالى-: { عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ تَمَائِيهُ } (1004)، فإذا كان العرش مضافاً إلى الله في هذه الآية ونحوها إضافة اختصاص، فذلك يوجب أن يكون بينه وبين الله -تعالى- من النسبة ما ليس لغيره، فما يذكره الجهمية من الاستيلاء، والقدرة، وغير ذلك، أمر مشترك بين العرش، وسائر المخلوقات" (1005).

وما في هذا من قوله: " عنده فوق عرشه "، والآيات نحو { دُو الْعَرْشِ }، و { عَرْشَ رَبِّكَ } ينفي أن يكون الثابت من الإضافة هو القدر المشترك بين سائر المخلوقات، كما تقوله الجهمية وأتباعهم، ويوجب اختصاصاً للعرش بالله ليس لغيره من سائر

المخلوقات، وقد علم المسلمون أنه استوى على عرشه استواء يليق بجلاله وعظمته، كما أخبرهم ربهم بذلك، ونبههم -صلى الله عليه وسلم-.
وما نقله الحافظ عن الخطابي أن معنى "فوق العرش" أي: " عنده علم ذلك فهو لا ينسأه، ولا يبدله " هو من تخطبات أهل التأويل، ويقال له: وهل علم الله يختص بهذا الكتاب، فهو الذي لا ينسأه، ولا يبدله، وأما سائر الكون فليس عنده علمه أو ينسأه ويبدله؟ إن الأجدى بالخطابي ومن يشتغل

(1004) الآية 17 من سورة الحاقة .
(1005) "نقض التأسيس" (577-1/570).

بالحديث أن يتبع كلام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولا يحمله على المذاهب الباطلة، بل يجب أن يصونه عن مثل هذه التحريفات الباردة. والحق أن قوله: "عنده فوق عرشه" على ظاهره، وأن كل تأويل له عن ظاهره، تبديل للمعنى الذي أراده رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ونحن نؤمن إيماناً يقيناً قاطعاً - وكل المؤمنين- أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- أحرص على عقيدة المسلمين، وعلى تنزيه الله -تعالى- من هؤلاء المحرفين لكلامه، وهو كذلك أقدر على البيان والإيضاح منهم، وهو كذلك أعلم بالله، وما يجب له وما يمتنع عليه من هؤلاء المتخيطين.

فهذا كتاب خاص، وضعه عنده فوق عرشه، مثبتاً فيه ما ذكر؛ لزيادة الاهتمام به، ولا ينافي ذلك أن يكون مكتوباً أيضاً في اللوح المحفوظ. وهو كتاب حقيقة، كتبه -تعالى- كما ذكر لنا رسولنا -صلى الله عليه وسلم- حقيقة، وهو عند الله حقيقة، فوق عرشه حقيقة، والمقصود أن الله -تعالى- مستو على عرشه على الحقيقة، وعرشه فوق مخلوقاته كلها عالٍ عليها.

51-قال: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثني محمد بن فليح، قال: حدثني أبي، حدثني هلال، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة - رضي الله عنه -، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: " من آمن بالله ورسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها " قالوا: يا رسول الله، أفلا ننبئ الناس بذلك؟ قال: إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفرج أنهار الجنة".
قوله: " من آمن بالله ورسوله " هذا هو الأساس الذي يبنى عليه العمل، فلا بد من الإيمان بالله ورسوله أولاً قبل العمل، فكل عمل مشروط لصحته أن يكون العامل مؤمناً، قال الله -تعالى-: {ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة} (1006).
وقال -تعالى-: {فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه} (1007).

وقد ذكر الله -تعالى- عن رسله الذين أرسلهم إلى الناس أنهم دعوهم إلى الإيمان بالله، وعبادته وحده، وهو معنى قوله -صلى الله عليه وسلم-: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله " كما سبق، وتقدم حديث معاذ، حين بعثه النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى اليمن، وقال له: " فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله " الخ.
و الإيمان بالله -تعالى- يدخل فيه الإيمان بأنه المالك لكل شيء، المتصرف كيف يشاء، وأنه الإله الحق، الذي يجب أن يعبد وحده، لا شريك له في ذلك، لا ملك ولا نبي، ولا أحد من الخلق مهما علت منزلته، وحسنت عبادته.

ويدخل فيه الإيمان بأسماء الله الحسنى، وصفاته العليا، وأن يثبت له ما أثبتته لنفسه، وأثبت له رسله، من غير تحريف ولا تمثيل، ولا تكييف ولا تعطيل، بل ليس كمثل شيء وهو السميع البصير.
قوله: " وأقام الصلاة " إقامة الصلاة: الإتيان بها على وفق أمر الله -تعالى- وأمر رسوله، كاملة في أفضل أوقاتها.

(1006) الآية 40 من سورة غافر .
(1007) الآية 94 من سورة الأنبياء.

قوله: " وصام رمضان " الصيام في اللغة: هو الإمساك، وفي الشرع: إمساك مخصوص، عن أشياء مخصوصة، من طلوع الفجر، إلى غروب الشمس، تعبداً لله تعالى.

قال الحافظ: وسقط ذكر الحج، على أحد الرواة؛ لأنه قد جاء ذكره في الترمذي، والحديث لم يذكر لبيان الأركان، فيجوز أنه اقتصر على ذكر البعض، لأنه هو المتكرر غالباً، وأما الزكاة فلا تجب إلا على من له مال، بشرطه، والحج لا يجب إلا مرة على التراخي⁽¹⁰⁰⁸⁾.

والمقصود من الحديث: أن من حصل له الإيمان بالله، وما يلزم له، من إيمان برسله، وملائكته، وكتبه، واليوم الآخر، وبِقضاء الله وقدره، مع التزام ما شرعه الله لعباده من الأمر، والنهي، وجهاد في سبيل الله، مع ما ذكر، استحق دخول الجنة على الله، ولا بد أن يوفي الله -تعالى- بذلك.

قوله: " كان حقاً على الله أن يدخله الجنة " قد تقدم الكلام على حق العباد على الله، في حديث معاذ، في الباب الأول، وهو حق أحقه الله -تعالى- على نفسه كما قال -تعالى-: {كتب ربكم على نفسه الرحمة} ⁽¹⁰⁰⁹⁾.

قال الحافظ: " ليس معنى ذلك، أنه لازم له، لأنه لا أمر له، ولا نهاي يوجب عليه، ويلزمه المطالبة به، وإنما معناه إنجاز ما وعده من الثواب، وهو لا يخلف الميعاد"⁽¹⁰¹⁰⁾.

ص 342

قلت: لا يلزم من كونه حقاً واجباً، أن يكون له أمر وناه يوجب عليه ذلك، بل هو -تعالى- الذي أوجبه على نفسه، فلا بد من وقوعه، كما أخبر -تعالى-.
قوله: " هاجر في سبيل الله، أو جلس في أرضه التي ولد فيها " الهجرة في اللغة هي: الترك، والمفارقة. والمقصود بها هنا: الانتقال من بلد الشرك والكفر إلى بلد الإسلام، وهي واجبة على المسلم إذا خاف الفتنة في دينه، أو منع من ممارسة شعائر دينه، وإعلانه ظاهراً.

وتكون الهجرة بالنية والقصد، وتكون باللسان، وبالبدن.
قال الراغب: " الهجر، والهجران: مفارقة الإنسان غيره، إما بالبدن، أو باللسان، أو بالقلب، قال -تعالى-: {واهجروهن في المضاجع} ⁽¹⁰¹¹⁾ كناية عن عدم قربهن.

وقال تعالى: {إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً} ⁽¹⁰¹²⁾، فهذا هجر بالقلب واللسان.

⁽¹⁰⁰⁸⁾ () "الفتح" (6/12).

⁽¹⁰⁰⁹⁾ () الآية 54 من سورة الأنعام .

⁽¹⁰¹⁰⁾ () "الفتح" (13/413).

⁽¹⁰¹¹⁾ () الآية 34 من سورة النساء .

⁽¹⁰¹²⁾ () الآية 30 من سورة الفرقان .

وقوله: { واهجرهم هجراً جميلاً }⁽¹⁰¹³⁾ يحتمل الثلاثة، وقوله: { والرجز فاهجر }⁽¹⁰¹⁴⁾، حث على المفارقة بالوجه كلها.
والمهاجرة في الأصل: مصارمة الغير، ومشاركته، من قوله عز وجل:
{ والذين هاجروا وجاهدوا }⁽¹⁰¹⁵⁾، وقوله: { للفقراء والمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم }⁽¹⁰¹⁶⁾، وقوله: { ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله }⁽¹⁰¹⁷⁾، وقوله: { فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله }⁽¹⁰¹⁸⁾، فالظاهر منه: الخروج من دار الكفر، إلى دار الإيمان، كمن هاجر من مكة إلى المدينة"⁽¹⁰¹⁹⁾.

ص 343

ويدخل في ذلك هجران المعاصي، والشهوات، والأخلاق الذميمة، وجميع المعاصي ورفضها واجتنابها.

قال ابن القيم: " وللعبد في كل وقت هجرتان: هجرة إلى الله بالطلب، والمحبة، والعبودية، والتوكل، والإنابة، والتسليم والتفويض، والخوف والرجاء، وصدق اللجوء. وهجرة إلى رسوله -صلى الله عليه وسلم- في حركاته وسكناته، الظاهرة، والباطنة، بحيث تكون موافقة لشريعته الذي هو تفضيل محاب الله، ومرضاته، ولا يقبل الله من أحد ديناً سواه"⁽¹⁰²⁰⁾.
وسبيل الله: طاعته، واتباع أمره، واجتناب نهيه، واتباع رسوله -صلى الله عليه وسلم-.

قوله: " أو جلس في أرضه التي ولد فيها" وفي رواية: " في بيته".
والمعنى: أنه بقي في بلده يعبد ربه، ولا يشرك به شيئاً، ولم يهاجر إلى المدينة النبوية، وذلك أن الهجرة كانت فرضاً على كل قادر، فلما فتحت مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وأصبحت جزيرة العرب كلها دار إسلام، إلا القليل، نسخت الهجرة لأجل ذلك، ولكن حكمها باق إلى يوم القيامة.
قال الحافظ: " فيه تأنيس لمن حرم الجهاد، وأنه ليس محروماً من الجر، بل له من الإيمان والتزام الفرائض ما يوصله إلى الجنة، وإن قصر عن درجة المجاهدين"⁽¹⁰²¹⁾.

قوله: " فقالوا: يا رسول الله، أفلا ننبئ الناس بذلك؟" رأوا أن هذا فيه بشارة للمسلمين، وتسهيل عظيم عليهم، في عدم لزوم الهجرة، فإن ترك

⁽¹⁰¹³⁾ الآية 10 من سورة المزمّل .

⁽¹⁰¹⁴⁾ الآية 4 من سورة المدثر.

⁽¹⁰¹⁵⁾ الآية 218 من سورة البقرة .

⁽¹⁰¹⁶⁾ الآية 8 من سورة الحشر.

⁽¹⁰¹⁷⁾ الآية 100 من سورة النساء .

⁽¹⁰¹⁸⁾ الآية 89 من سورة النساء.

⁽¹⁰¹⁹⁾ "المفردات" (536-537).

⁽¹⁰²⁰⁾ "طريق الهجرتين" (ص 7).

⁽¹⁰²¹⁾ "الفتح" (6/12).

الوطن، والأهل والأقارب، والمألوفات، كل ذلك يشق على النفس، ولا يقوى عليه كل أحد.

قال الحافظ: " الذي خاطبه بذلك هو معاذ بن جبل - كما في رواية الترمذي- أو أبو الدرداء، كما وقع عند الطبراني، وأصله في النسائي، لكن فيه: فقلنا"⁽¹⁰²²⁾.

ص 344

قوله: " إن في الجنة مائة درجة " جاء في رواية الترمذي، عن معاذ، " قلت: يا رسول الله، ألا أخبر الناس؟ قال: " ذر الناس يعملون، فإن في الجنة مائة درجة"⁽¹⁰²³⁾.

فظهر أن المراد: لا تبشر الناس بما ذكر من دخول الجنة، لمن آمن وعمل الأعمال المفروضة عليه، فيقفوا عند ذلك، ولا يتجاوزوه إلى ما هو أفضل منه من الدرجات التي تحصل بالجهاد، وهذه هي النكته في قوله: " أعدها الله للمجاهدين"، وفي هذا تعقب على بعض شراح المصاييح، في قوله: " سوى النبي -صلى الله عليه وسلم- بين الجهاد في سبيل الله، وبين عدمه، وهو الجلوس في الأرض المتي ولد فيها؛ لأن التسوية ليست على عمومها، وإنما هي في أصل دخول الجنة، لا في تفاوت الدرجات "⁽¹⁰²⁴⁾.

وهذه الدرجات للمجاهدين في سبيل الله خاصة، ولا ينفي هذا وجود درجات آخر لغير المجاهدين في الجنة، كما جاء في "سنن أبي داود" و"الترمذي" و"صححه": يقال لصاحب القرآن: " اقرأ وارتل، كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأها"⁽¹⁰²⁵⁾ وعدد آيات القرآن ست وثلاثون ومائتان وستة آلاف، على اختلاف في ذلك.

ولهذا قال: " أعدها الله للمجاهدين في سبيله، قال ابن القيم: " يجوز أن تكون هذه المائة من جملة المدرج، ويجوز أن تكون نهايتها هذه المائة "⁽¹⁰²⁶⁾، ورجح الأول.

"الجهاد: استفراغ الوسع في مدافعة العدو. وهو ثلاثة أضرب: مجاهدة العدو الظاهر، ومجاهدة الشيطان، ومجاهدة النفس"⁽¹⁰²⁷⁾، وتدخل كلها في الجهاد في سبيل

ص 345

⁽¹⁰²²⁾ ("الفتح" (6/12)).

⁽¹⁰²³⁾ انظر "السنن للترمذي" (4/82).

⁽¹⁰²⁴⁾ ("الفتح" (6/12)).

⁽¹⁰²⁵⁾ انظر "سنن أبي داود" (2/153)، و"الترمذي" (4/248)، "فضائل القرآن" (رقم 2915).

⁽¹⁰²⁶⁾ ("حادي الأرواح" (ص 6)).

⁽¹⁰²⁷⁾ ("المفردات" (ص 101)).

www.dorar.net الدرر السنوية

الله، ويشملها قوله -تعالى-: {إن المذنب آمنوا والمذنب هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمت الله والله غفور رحيم} (1028) ونحوها من الآيات.

وقال الحافظ: "الجهاد بكسر الجيم: أصله لغة: المشقة، يقال: جهدت جهاداً، بلغت المشقة، وشرعاً: بذل الجهد في قتال الكفار، ويطلق أيضاً على مجاهدة النفس والشيطان والفساق".
فأما مجاهدة النفس، على تعلم أمور الدين، ثم على العمل بها، ثم تعليمها.

وأما مجاهدة الشيطان، فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات، وما يزينه من الشهوات.

وأما مجاهدة الكفار، فتقع باليد، والمال، واللسان، والقلب.
وأما مجاهدة الفساق: فباليد، ثم اللسان، ثم القلب (1029).
قوله: "كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض" المقصود بالدرجة: المنزلة المعدة لمن يستحقها من أهل الإيمان، والعمل، ودرجات الجنة كثيرة، كما تقدمت الإشارة إليه، ولا شك أن كل درجة تختلف عن التي دونها بما فيها من أنواع النعيم والحسن.

وهذا التفاوت العظيم في الدرجات لتفاوت أعمال العاملين في الإيمان، والمقاصد، والخشية، والإخلاص، والمحبة، والإنابة، والجد، وكثرة العمل، وغير ذلك.

قال الحافظ: "عند الترمذي: ما بين كل درجتين مائة عام، وللطبراني: خمسمائة عام، فإن كانتا محفوظتين، كان اختلاف العدد بالنسبة إلى اختلاف السير، وفي رواية للترمذي: لو أن العالمين اجتمعوا في إحداهن لوسعتهم" (1030).

وقال ابن القيم: لا تناقض بين تقدير ما بين الدرجتين، لاختلاف السير في السرعة، والبطء، والنبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر هذا تقريباً للأفهام" (1031).

ص 346

قوله: "فإذا سألتم الله، فسلوه الفردوس"، الفردوس: اسم يطلق على جميع الجنة، ويطلق على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنات.

(1028) الآية 218 من سورة البقرة .

(1029) "الفتح" ج 6 فاتحته .

(1030) المصدر نفسه (ص 12-13).

(1031) "حادي الأرواح" (ص 61).

قال -تعالى-: { أولئك هم الوارثون (10) الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون }⁽¹⁰³²⁾.

وقال -تعالى-: { إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً }⁽¹⁰³³⁾.

وأصل الفردوس: البستان، والفراديس: البساتين، قال الليث: الفردوس: الجنة ذات الكروم، يقال: كرم مفردس، أي معرش. وقال الضحاك: هي الجنة الملتفة بالأشجار، واختاره المبرد، وقال: الفردوس فيما سمعت من كلام العرب: الشجر الملتف، والأغلب عليه العنب.

وقال مجاهد: هو البستان بالرومية واختاره الزجاج، وقال: حقيقته: البستان الذي يجمع كل ما يكون في البساتين⁽¹⁰³⁴⁾. وفي "اللسان": "الفردوس: البستان؛ قال الفراء: هي عربي، قال ابن سيده: الفردوس: الوادي الخصيب عند العرب، وهو بلسان الروم: البستان"⁽¹⁰³⁵⁾، وذكر نحو ما تقدم.

قوله: " فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة " قال الحافظ: " المراد بالأوسط هنا: الأعدل والأفضل، كقوله -تعالى-: { وكذلك جعلناكم أمة وسطاً }⁽¹⁰³⁶⁾، فعلى هذا فعطف الأعلى عليه للتأكيد.

وقال الطيبي: المراد بأحدهما: العلو الحسي، وبالأخر: العلو المعنوي. وقال ابن حبان: المراد بالأوسط: السعة، وبالأعلى: الفوقية⁽¹⁰³⁷⁾. قلت: الظاهر أن المراد أن الفردوس، هو وسط الجنة، وهو أعلاها، على ظاهر النص، يعني: أن الجنان الأخرى عن جوانبه، ومن تحته، وهو أعلاها، ويدل على

ص 347

ذلك قوله: " وفوقه عرش الرحمن " فليس فوق الفردوس إلا عرش الرحمن - جل وعلا-، كما يدل عليه أيضاً قوله: " ومنه تفجر أنهار الجنة "؛ لأن الأنهار عادة تنبع من الأعلى، والله أعلم.

قوله: " وفوقه عرش الرحمن " هذه الجملة هي المقصود من سياق الحديث؛ لأنه يدل على أن أعلى مخلوق هو العرش، وليس فوق العرش مخلوق، ولكن الرحمن - جل وعلا- فوقه.

⁽¹⁰³²⁾ (الآيتان 10 و 11 من سورة المؤمنون).

⁽¹⁰³³⁾ (الآية 107 من سورة الكهف).

⁽¹⁰³⁴⁾ (" حادي الأرواح " (ص 74-75).

⁽¹⁰³⁵⁾ (" لسان العرب " (2/1069).

⁽¹⁰³⁶⁾ (الآية 143 من سورة البقرة).

⁽¹⁰³⁷⁾ (" الفتح " (6/13).

قال ابن خزيمة: " فالخبر يصرح أن عرش ربنا - جل وعلا - فوق جنته، وقد أعلمنا - عز وجل - أنه مستوٍ على عرشه، فخالقنا عالٍ فوق عرشه، الذي هو فوق جنته" (1038)

وذكر بسنده، عن عبدالله بن مسعود: " قال: ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام، وما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين السماء السابعة إلى الكرسي مسيرة خمسمائة عام، وما بين الكرسي إلى الماء مسيرة خمسمائة عام، والعرش على الماء، والله على العرش، ويعلم أعمالكم" (1039).

وذكر له طرقاً عدة، وهو صحيح، ورواه المبيهقي عن أبي ذر مرفوعاً، قريباً من لفظه. (1040)

وعلو الله -تعالى- واستواؤه على عرشه، مجمع عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ومن تبعهم، ولم يخالف فيه إلا من هو منهم على الإسلام، أو مغرور بالتقليد لمن يحسن به الظن.

" وأول من ابتدع بأن الله -تعالى- ليس فوق العرش في الإسلام هو الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان، وشييعتهما، وهم عند أئمة المسلمين من شرار أهل الأهواء، وقد أطلق السلف من القول بتكفيرهم ما لم يطلقوه على أحد، وقالوا: نحكي كلام اليهود، والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية، كما

ص 348

قال عبدالله بن المبارك، وقالوا: اتفق المسلمون، واليهود، والنصارى، على أن الله -تعالى- فوق العرش، وقالت الجهمية: ليس الله فوق العرش" (1041).

(1038) كتاب " التوحيد " (ص 104).

(1039) كتاب " التوحيد " (ص 105).

(1040) انظر: " الأسماء والصفات " (ص 401).

(1041) " نقض التأسيس " (1/127).

52-قال: " حدثنا يحيى بن جعفر، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم - هو التيمي - عن أبيه، عن أبي ذر، قال: " دخلت المسجد، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - جالس؛ فلما غربت الشمس قال: يا أبا ذر، هل تدري أين تذهب هذه؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب تستأذن في السجود، فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، ثم قرأ: (ذلك مستقر لها) في قراءة عبد الله".
قوله: " أتدري أين تذهب هذه؟" هذا الأسلوب من التعليم كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يستعمله مع أصحابه، وهو من الأساليب التي ترسخ المعلومات في الذهن؛ لأن المسئول يبقى بعده يتطلع إلى الجواب بإقبال ولهف، فإذا ورد عليه الجواب وهو بهذه الحال، ثبت في قلبه، ورسخ لديه، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

قوله: " ذلك مستقر لها" هذا تفسير لقوله -تعالى-: { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا }⁽¹⁰⁴²⁾، قال ابن كثير: " فيه قولان: أحدهما: أن المراد: مستقرها المكاني، وهو تحت العرش مما يلي الأرض، من ذلك الجانب، وهي أينما كانت فهي تحت العرش، هي وجميع المخلوقات؛ لأنه سقفاها، وليس بكرة، كما يزعمه كثير من أرباب الهيئة، وإنما هو قبة ذات قوائم، تحمله الملائكة، وهو فوق العالم، مما يلي رؤوس الناس، فالشمس إذا كانت في قبة الفلك، وقت الظهيرة، تكون أقرب ما تكون إلى العرش، فإذا استدارت في فلكها الرابع، إلى مقابلة هذا المقام، وهو وقت نصف الليل، صارت أبعد ما تكون من العرش، فحينئذ تسجد، وتستأذن في الطلوع، كما جاءت بذلك الأحاديث " ثم ذكر هذا الحديث بطرقه، ثم قال: " والقول الثاني: أن المراد بمستقرها" هو منتهى سيرها، وهو يوم القيامة، يبطل سيرها، وتسكن حركتها، وتكور، وينتهي هذا العالم إلى غايته، وهذا مستقرها الزماني"⁽¹⁰⁴³⁾.

قوله: " تستأذن في السجود، فيؤذن لها" أي: تطلب من الله الإذن في مواصلة سيرها في حالة سجودها، فيأذن الله -تعالى- لها إلى الوقت الذي تستأذن، ثم لا يؤذن لها، فتبقي في مكانها، ثم يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فينعكس سيرها، حيث تطلع على الناس من المغرب، ولا بد أن تطلع على كل الناس من مغربها، وعند ذلك يؤمنون، ولكن لا ينفعهم إيمانهم، كما أخبر الله -تعالى- بذلك، وهذا إيذان بانقضاء هذه الدار.

⁽¹⁰⁴²⁾ (الآية 38 من سورة يس .
⁽¹⁰⁴³⁾ ("تفسير ابن كثير" (562-6/563).

قال إكermanي: " القراءة المشهورة المتواترة هي: { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } وقراءة عبدالله بن مسعود: ذَلِكَ مستقرها"⁽¹⁰⁴⁴⁾.

هكذا قال، والذي في " البخاري ": مستقر لها، ولم يقرأ بها أحد من القراء.

قال ابن كثير: " قرأ ابن مسعود، وابن عباس: (والشمس تجري لا مستقر لها) أي: لا قرار لها، ولا سكون، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً، لا تفتقر، ولا تقف"⁽¹⁰⁴⁵⁾.

فعلى هذا يكون لابن مسعود فيها قراءتان، وافقه ابن عباس على إحداهما، وهما شاذتان.

وقد ذكر البخاري - رحمه الله - هذا الحديث في بدء الخلق، وفيه " فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش ".

وسياتي في آخر الباب بعد هذا، وفيه، " قال: مستقرها تحت العرش"، وذكر أيضاً هذين اللفظين في تفسير سورة يس، وبذلك تظهر مناسبة الحديث للباب، فذكره لأجل ما فيه من قوله: " تذهب حتى تسجد تحت العرش"، وقوله: " مستقرها تحت العرش" في غير هذه الرواية هنا.

قال الحافظ: " وأخرجه النسائي بلفظ: " تذهب حتى تنتهي تحت العرش، عند ربها"⁽¹⁰⁴⁶⁾، وهو واضح في أن يسجودها في أرفع ما تكون، وأقرب ما تكون إلى العرش، ومعلوم أنها دائماً تحت العرش، ولكن سجودها في مكان معين من

ص 351

مسيرها، وهو دليل واضح على العرش، وارتفاعه العظيم، وهذا هو مراد البخاري - رحمه الله - من الحديث، ومعلوم أن الله - تعالى - فوق العرش كما سبق.

قال الحافظ: " قوله: تحت العرش" قيل: معناه: هي حين محاذاتها، ولا يخالف هذا قوله تعالى: {وجدها تغرب في عين حمئة}⁽¹⁰⁴⁷⁾، فإن المراد بها: نهاية مدرك البصر إليها حال الغروب، وسجودها تحت العرش إنما هو بعد الغروب".

قال: " وفي الحديث رد على من زعم أن المراد بمسقرها: غاية ما تنتهي إليه في الارتفاع، وذلك أطول يوم في السنة ".
وقيل: مسقرها: منتهى أمرها، عند انتهاء الدنيا.

⁽¹⁰⁴⁴⁾ إكermanي (25/633).

⁽¹⁰⁴⁵⁾ "تفسير ابن كثير" (6/563).

⁽¹⁰⁴⁶⁾ "الفتح" (8/541).

⁽¹⁰⁴⁷⁾ الآية 86 من سورة الكهف.

وقال الخطابي: يحتمل أن يكون المراد باستقرارها تحت العرش: أنها تستقر تحته استقراراً لا نحيط به نحن، وليس في سجودها كل ليلة تحت العرش ما يعيق سيرها ودورانها فيه.

قلت: وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار: وقوعه في كل ليلة ويوم عند سجودها، ومقابل الاستقرار: المسير المعبر عنه بالجري " انتهى (1048).

وقال أيضاً: " وظاهر الحديث: أن الشمس هي التي تسير، وتجري. وقال ابن العربي: أنكروا سجودها، وهو صحيح ممكن، وتأوله قوم على ما هي عليه من التسخير الدائم، ولا مانع من أن تخرج عن مجراها، فتسجد ثم ترجع.

قلت: إن أراد بالخروج: الوقوف، فواضح، وإلا فلا دليل على الخروج" اهـ. (1049)

قلت: وكونها تسجد تحت العرش لا يقتضي مفارقتها لفلكها وانتظامها في مسيرها بالنسبة للأرض، فهي دائمة الطلوع على جزء من الأرض، والأوقات بالنسبة إلى أهل الأرض تختلف بمقدار سيرها. ص 352

ومعلوم أن تعاقب الليل والنهار واختلافهما يترتب على مسيرها، فربما يقول قائل: أين سجودها تحت العرش؟ ومتى يكون؟ وسيرها مستمر، وبعدها عن الأرض لا يختلف في وقت من الأوقات كما أن سيرها لا يتغير، كما هو مشاهد.

والجواب: أنها تسجد كل ليلة تحت العرش، كما أخبر به الصادق المصدوق، وهي طالعة على جانب من الأرض، مع سيرها في فلکها، وهي دائماً تحت العرش، في الليل والنهار، بل وكل شيء من المخلوقات تحت العرش، لكنها في وقت من سيرها، وفي مكان معين، يصلح سجودها، الذي لا يدركه الخلق، ولكن علم بالوحي، وهو سجود يناسبها على ظاهر النص. أما التسخير: فهي لا تنفك عنه أبداً. والله أعلم.

قال شيخ الإسلام: " فإذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- قد أخبر أنها تسجد كل ليلة تحت العرش، فقد علم اختلاف حالها بالليل والنهار، مع كون سيرها في فلکها من جنس واحد، وأن كونها تحت العرش لا يختلف في نفسه، وإنما ذلك اختلاف بالنسبة والإضافة، علم أن تنوع النسب والإضافة لا يقدح فيما هو ثابت في نفسه لا يختلف" (1050).

يعني: أن اختلاف السير يكون بالنسبة لمن في الأرض، فهي تطلع على جانب منها وتغرب عن جانب آخر، مع أن سيرها في فلکها ليس فيه هذا

(1048) "الفتح" ملخصاً (8/542).

(1049) "الفتح" (6/299).

(1050) "بيان تلبس الجهمية" (2/228).

الاختلاف، فلا يختلف سجودها باختلاف الليل والنهار؛ لأن هذا الاختلاف يكون بالنسبة إلى من في الأرض، وبالإضافة إليهم، أما هي فسجودها في مكان معين من سيرها، وفي وقت معين لا يختلف.

ثم قال -رحمه الله -: " ومن هنا يظهر الجواب عما ذكره ابن حزم، وغيره في حديث النزول⁽¹⁰⁵¹⁾، حيث قالوا: قد ثبت أن الليل يختلف بالنسبة إلى الناس، فيكون أوله ونصفه وثلاثة بالمشرق قبل أوله، ونصفه وثلاثة بالمغرب، قالوا: فلو كان

ص 353

النزول هو النزول المعروف، للزم أن ينزل في جميع أجزاء الليل، إذ لا يزال في الأرض ليل، قالوا: أو لا يزال نازلاً وصاعداً، وهو جمع بين الضدين. وهذا إنما قالوه لتخيلهم من نزوله -تعالى- ما يتخيلونه من نزول أحدهم، وهذا عين التمثيل، ثم إنهم بعد ذلك جعلوه كالواحد العاجز منهم، الذي لا يمكنه أن يجمع من الأفعال ما يعجز غيره عن جمعه.

وقد جاءت الأحاديث بأنه يحاسب خلقه يوم القيامة، كل منهم يراه مخلياً به، ويناخيه، لا يرى أنه متخلياً لغيره، ولا مخاطباً لغيره⁽¹⁰⁵²⁾.

وسياتي - إن شاء الله تعالى - إيضاح الرد على شبههم هذه وغيرها في شرح الحديث.

وفي "صحيح مسلم"، عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن قول الله -تعالى-: { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا } قال: " مستقرها تحت العرش"⁽¹⁰⁵³⁾.

وهذا يعين المقصود بالمستقر، وأنه: الموضع الذي تسجد فيه لربها، وتستأذن بمواصلة سيرها، وأن هذا يكون كل ليلة بالنسبة إلينا، ويجوز أن يكون بالنهار بالنسبة لغيرنا كأمریکا مثلاً.

وقد روى مسلم هذا الحديث مبسوطاً مبيناً، حيث قال بعد ذكر السند: " عن أبي ذر - رضي الله عنه - أن النبي - صلى الله عليه وسلم- قال يوماً: " أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟" قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: " إن هذه تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، فلا تزال كذلك، حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع، فتصبح طالعة من مطلعها، ثم تجري حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فتخر ساجدة، ولا تزال كذلك، حتى يقال لها: ارتفعي، ارجعي من حيث جئت، فترجع، فتصبح

⁽¹⁰⁵¹⁾ () سياتي شرحه - إن شاء الله تعالى - ، وهذا الكلام محله شرح حديث النزول ، ولكن لشدة ارتباطها بما ذكر في سير الشمس أحببت إثباته هنا .

⁽¹⁰⁵²⁾ () "بيان تلبس الجهمية" (2/228).

⁽¹⁰⁵³⁾ () "صحيح مسلم" (1/39).

طالعة من مطلعها، ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً حتى تنتهي إلى مستقرها تحت العرش، فيقال لها: ارتفعي، أصبحي طالعة من ص 354

مغربك، فتصبح طالعة من مغربها" فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: " أتدرون متى ذاكم؟ ذاك حين لا ينفع نفساً إيمانها، لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيراً"⁽¹⁰⁵⁴⁾.
وقد ذكر الله -تعالى- في كتابه أن الشمس والقمر يسجدان له تعالى فقال: { أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ }⁽¹⁰⁵⁵⁾.

⁽¹⁰⁵⁴⁾ () "صحيح مسلم" (1/138)، وانظر: " شرح النووي " (2/195).
⁽¹⁰⁵⁵⁾ () الآية 18 من سورة الحج .

53-قال: " حدثنا موسى، عن إبراهيم، حدثنا ابن شهاب، عن عبيد بن السباق، أن زيد بن ثابت.

وقال الليث: حدثني عبد الرحمن بن خالد، عن ابن شهاب، عن ابن السباق، أن زيد بن ثابت حدثه، قال: أرسل إليَّ أبو بكر، فتبعت القرآن، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره: { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ } (1056) حتى خاتمة براءة ". زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوزان، النجاري، الأنصاري، أبو سعيد، ويقال: أبو خارجة، قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- المدينة، وهو ابن إحدى عشرة سنة.

وكان يكتب الوحي، قال الشعبي: غلب زيد الناس على اثنتين، الفرائض، والقرآن، وكان أحد أصحاب الفتوى من الصحابة.

وقال مسروق: " قدمت المدينة، فوجدت زيد بن ثابت من الراسخين في العلم"، وفضائله كثيرة، توفي سنة 4، وقيل: 51، وقيل: 55، وقيل غير ذلك" (1057).

ومقصود البخاري - رحمه الله - من هذا الحديث: هو ذكر العرش في الآية الكريمة، حيث قال تعالى: { فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } (1058).

قال الإمام ابن جرير - رحمه الله تعالى -: " يقول - تعالى ذكره - فإن تولى، يا محمد، هؤلاء الذين جئتهم بالحق من عند ربك، من قومك، فأدبروا عنك، ولم يقبلوا ما أتيتهم به من النصيحة في الله، وما دعوتهم إليه من النور والهدى، فقل: { حَسْبِيَ اللّهُ } يكفيني ربي { لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ } لا معبود سواه { عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ } وبه وثقت، وعلى عونته اتكلت، وإليه وإلى نصرته استندت، فإنه ناصرِي، ومعيني، على من خالفني وتولى عني ومن غيركم من الناس، { وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } الذي يملك ما دونه، والملوك كلهم مماليكه، وعبيده.

وإنما عنى بوصفه - جل ثناؤه - نفسه بأنه رب العرش العظيم: الخبر عن جميع ما دونه أنهم عبيده، وفي ملكه، وسلطانه؛ لأن العرش العظيم إنما يكون للملوك، فوصف نفسه بأنه ذو العرش، دون سائر خلقه، وأنه المالك

(1056) الآية 128 من سورة براءة.

(1057) "تهذيب التهذيب" (3/399).

(1058) آخر آية من سورة براءة.

العظيم، دون غيره، وأن من دونه في سلطانه، وملكه، جار عليه حكمه وقضاؤه" (1059).

وقال ابن كثير: " وهورب العرش العظيم " أي: هو مالك كل شيء، وخالقه؛ لأن العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات، وجميع الخلائق من السماوات والأرضيين وما فيهما وما بينهما، تحت العرش، مقهورون بقدره الله -تعالى-، وعلمه محيط بكل شيء، وقدره نافذ في كل شيء، وهو على كل شيء وكيل" (1060).

وثبت عن أبي بن كعب - رضي الله عنه - أن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن (1061).

وقد تقدم أن تخصيصه -تعالى- العرش بأنه ربه، وإضافته إليه -تعالى- يدل على أمر زائد على ما في المخلوقات غيره من السماوات والأرض بأنه ربها.

وكذلك وصفه إياه بأنه عظيم وكريم ومجيد، وهذه الأوصاف والإضافة لم تأت في غير العرش من المخلوقات؛ وهذا لأنه تعالى اختاره لقربه، واستوائه عليه.

قوله: " حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره " يعني: أنه ما وجدها مكتوبة، مثبتة بالكتابة، إلا عند أبي خزيمة. وليس معنى ذلك أنه لم يحفظها إلا أبو خزيمة، فإن زيدا وأبياً، وأبا بكر، وغيرهم من الصحابة، كانوا يحفظون القرآن كله، وهو يريد من كتبها عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- بدون واسطة.

قال الحافظ: " قوله: لم أجدها مع أحد غيره " أي: مكتوبة؛ لما تقدم من أنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة.

ولا يلزم من عدم وجدانه إياها حينئذ أن لا تكون تواترت عند من لم يتلقها من النبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما زيد كان يطلب التثبت عن تلقاها بغير واسطة.

ص 357

ولعلمهم لما وجدها زيد عند أبي خزيمة تذكرها، كما تذكرها زيد، وفائدة التتبع: المبالغة في الاستظهار، والوقوف عند ما كتب بين يدي النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قال الخطابي: هذا مما يخفى معناه، ويوهم أنه كان يكتفي في إثبات الآية بخبر الشخص الواحد، وليس كذلك، فقد اجتمع في هذه الآية زيد بن ثابت، وأبو خزيمة، وعمر".

(1059) " تفسير الطبري " (78-11/77) بتحقيق محمود شاكر .

(1060) " تفسير ابن كثير " (180-4/179) ط الشعب .

(1061) انظر : المصدرين السابقين .

ثم علق الحافظ على كلام الخطابي بقوله:

"وكأنه ظن أن قولهم: لا يثبت القرآن بخبر الواحد، أي: الشخص الواحد، وليس كما ظن، بل المراد بخبر الواحد: خلاف التواتر، فلو بلغت رواية الخبر عدداً كثيراً، وفقد شيئاً من شروط المتواتر⁽¹⁰⁶²⁾، لم يخرج عن كونه خبراً لواحد.

والحق أن المراد بالنفي: نفي وجودها مكتوبة، لا نفي كونها محفوظة"⁽¹⁰⁶³⁾.

ثم ذكر أحاديث تؤيد ما قال.

وقال في موضع آخر: "والذي يظهر أن الذي أشار إليه أنه فقده، فقد وجودها مكتوبة، لا فقد وجودها محفوظة، بل كانت محفوظة عنده، وعند غيره، ويدل على هذا قوله في حديث جمع القرآن: " فأخذت أتبعه، من الرقاع والعسب"⁽¹⁰⁶⁴⁾

وقال أيضاً: " والأرجح أن الذي وجد معه آخر سورة التوبة أبو خزيمة - بالكنية- والذي وجد معه الآية من سورة الأحزاب خزيمة.

وأبو خزيمة، قيل: هو ابن أوس بن يزيد بن أحرم، مشهور بكنيته، دون اسمه، وقيل: هو الحارث بن خزيمة.

وأما خزيمة، فهو ابن ثابت ذو الشهادتين"⁽¹⁰⁶⁵⁾

⁽¹⁰⁶²⁾ () من كون الناقلين عدداً كثيراً ، يمتنع تواطؤهم على الكذب ، من أول السند إلى نهايته.

⁽¹⁰⁶³⁾ () "فتح الباري" (9/15).

⁽¹⁰⁶⁴⁾ () "الفتح" (8/518).

⁽¹⁰⁶⁵⁾ () "الفتح" (9/15).

54- قال: " حدثنا معلى بن أسد، حدثنا وهيب عن سعيد، عن قتادة، عن أبي العالية، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول عند الكرب: " لا إله إلا الله العليم الحكيم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات، ورب الأرض، ورب العرش الكريم " .

قوله: " يقول عند الكرب " الكرب - بفتح الكاف، وسكون المراء - قال الأزهري: " هو: الغم الذي يأخذ النفس، يقال: كربه الغم، وإنه لمكروب النفس، والكربة الاسم، والكريب: المكروب " (1066). وقال الجوهري: " الكربة بالضم: الغم الذي يأخذ بالنفس، وكذلك الكرب، على مثال الضرب، تقول منه: كربه الغم، إذا اشتد عليه، والكرائب: الشدائد، الواحدة: كربة " (1067).

قوله: " كان يقول عند الكرب " كان: تدل على كثرة وقوع ذلك منه - صلى الله عليه وسلم -؛ لأن لفظة " كان " تدل على الاستمرار غالباً. وقوله: " لا إله إلا الله " الإله هو: المعبود الذي تأله القلوب، وتذل له، وتحبه، وتعظمه، وتخافه، وترجوه، فالإله هو الذي يقصد بالخوف والرجاء، مع الذل والتعظيم، وكلما زاد الخوف والرجاء، والذل والتعظيم، صارت العبادة أكمل.

قال شيخ الإسلام: " الإله هو: الذي يؤله، فيعبد، محبة وإنابة، وإجلالاً وإكراماً " (1068). فقوله: " لا إله إلا الله " أي: لا أتوجه بقلبي عابداً وخاضعاً، متذلاً، خائفاً، راجياً، إلا إلى الله وحده، فهو إلهي، ومعبودي، الذي يملك نفعي وضري، وبإخلاص التأله له كمال حياتي، وسعادتي، وفي عدم ذلك الشقاء والهلاك. " فالعبد كلما كان أذل لله، وأعظم افتقاراً إليه، وخضوعاً له، كان أقرب إليه وأعز له، وأعظم لقدره عنده، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله تعالى، فأما المخلوق

فكما قيل: احتج لمن شئت تكن أسيره، واستغن عن شئت تكن نظيره، وأحسن لمن شئت تكن أميره. فأعظم ما يكون العبد قدراً وحرمة عند الخلق: إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه، فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم كنت أعظم ما يكون

(1066) " تهذيب اللغة " (10/205).

(1067) " الصحاح " (1/211).

(1068) " مجموع الفتاوى " (1/22).

عندهم، ومتى احتجت إليهم ولو بشربة ماء نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم، وهذا من حكمة الله ورحمته؛ ليكون الدين كله لله، لا يشرك به شيء. والرب -تعالى- أكرم ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه، وأفقر ما تكون إليه، وهو -تعالى- يعلم ما يصلح عبده، ويقدر على ذلك، ويريد، رحمة منه وفضلاً، وذلك صفة من جهة نفسه، لا شيء آخر جعله مريداً، راحماً، بل رحمته من لوازم نفسه، فإنه كتب على نفسه الرحمة، ورحمته وسعت كل شيء" (1069).

قوله: " العليم الحليم " أي: هو تعالى العظيم بكل شيء، فيعلم حالي. وما نزل به، ويعلم أسبابه، وما يترتب عليه، لا يخفى عليه خافية، فعلمه محيط بكل شيء.

وهو -تعالى- حليم لا يعجل بالعقوبة لمن يستحقها، بل يعفو ويتجاوز، وحلمه عن علم وحكمة، فله -تعالى- الكمال المطلق قال -تعالى-: { قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا } {42} سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا } {43} تَسْبُحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } (1070).

وكثيراً ما يأتي وصفه -تعالى- بالحلم مقروناً بالمغفرة، مما يدل على أن الحلم هو: عدم المعالجة لمن استحق العقوبة، وأنه -تعالى- يحلم على عباده، ويغفر لهم جرائمهم، ولهذا أخبر -تعالى- أنه لو يؤاخذ الناس بظلمهم وما كسبت أيديهم ما ترك على ظهر الأرض من دابةٍ، قال -تعالى-: { وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ } (1071) ص 360

قوله: " لا إله إلا الله رب العرش العظيم " كرر التوسل بإلهيته تعالى، والتبري من كل ما سواه من مألوه، وهذا أعظم الوسائل إلى الله -تعالى-، وهو إخلاص العبادة والتوجه إلى الله بصدق، ورغبة، ورهبة. ولهذا صار إخلاص التأله والدعاء لله وحده، مفزع جميع العقلاء من المؤمنين والكفار، في كل كرب وشدة، كما ذكر الله -تعالى- هذا المعنى عن السابقين من الكفار، وغيرهم من أهل الإيمان.

قال تعالى: { لِّئِنِّي أَنْجَاتَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } {63} قُلِ اللَّهُ يُجَبِّبُكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ تُنَمُّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ } (1072)، وقال -تعالى- عن الطاغية الجبار: { حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ

(1069) "مجموع الفتاوى" (40-1/39).

(1070) الآيات من 42-44 من سورة الإسراء.

(1071) الآية 61 من سورة النحل.

(1072) الآيات 63 و 64 من سورة الأنعام.

بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ } (1073)، وقال -تعالى-: { وَإِذَا مَسَّ
الْإِنْسَانَ صُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ } (1074)، وقال -تعالى- عن نبيه يونس عليه
السلام: { وَذَلَّ النَّوْنُ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي
الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ } (1075)، وهذا
كثير في القرآن، وقد تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك.

قوله: " لا إله إلا الله رب السماوات والأرض، ورب العرش الكريم " هذا
تكرير للتوسل إلى الله -تعالى- بألوهيته، وربوبيته، فبدأ بما يدل على إخلاص
التأله له -تعالى-، ثم توسل باسميه الكريمين: العليم والحليم، ثم بأنه رب
العرش العظيم، ثم بأنه رب السماوات والأرض، ورب العرش الكريم.
فاشتمل هذا الدعاء العظيم على التوجه إلى الله -تعالى- بأنواع التوحيد
الثلاثة: توحيد الإلهية، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

والربوبية نوعان: عامة، وخاصة، فهو -تعالى- رب كل شيء ومليكه،
المتصرف فيه كيف يشاء، وهو القائم على كل مخلوق بما يصلحه، ويربيه،
{ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى }، وقد جمع النوعين في هذا الحديث،
فتوسل بأنه رب

ص 361

العرش العظيم الكريم، وبأنه رب السماوات والأرض، والرب هو: المالك
المتصرف، القائم على كل مربوب بما يحتاجه من تربية في شؤون حياته
كلها.

والمقصود من الحديث: قوله: " رب العرش العظيم " وقوله: " رب
العرش الكريم " وكلاهما وصف للعرش، وصف بأنه عظيم، وبأنه كريم،
والعظمة تدل على الكبر، والسعة، والكرم يدل على الحسن، والجمال،
والسعة أيضاً.

قال الكرمانى: " وصف العرش بالعظمة، هو من جهة الكمية، وبالكرم،
أي: الحسن من جهة الكيفية، فهو ممدوح ذاتاً وصفة، وخص بالذكر لأنه
أعظم أجسام العالم، فيدخل الجميع تحته دخول الأدني تحت الأعلى، وذكر
لفظ " الرب " من بين سائر الأسماء الحسنى؛ ليناسب كشف الكروب، الذي
هو مقتضى التربية، ولفظ " الحليم "؛ لأن كرب المؤمن غالباً إنما هو على نوع
تقصير أو غفلة في الطاعات " (1076).

وربوبيته -تعالى- للعرش، مع وصفه بأنه عظيم وكريم، تفيد تخصيصاً له
عن غيره من السماوات والأرض، وذلك لأنه قد خصه بقربه، واستوائه

(1073) الآية 90 من سورة يونس .

(1074) الآية 8 من سورة الزمر .

(1075) الآية 87 من سورة الأنبياء .

(1076) " شرح الكرمانى على البخارى " (21/149).

-تعالى- عليه، ذكر شيخ الإسلام، عن أبي عمرو الطلمنكي - وهو من أئمة أهل السنة - أنه قال: " وأجمعوا - يعني أهل السنة والجماعة - على أن لله عرشاً، وعلى أنه مستو على عرشه، وعلمه، وقدرته، وتدييره بكل ما خلقه. قال: فأجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى قوله تعالى: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } (1077)، ونحو ذلك في القرآن أن ذلك علمه، وأن الله فوق السماوات بذاته مستو على عرشه، كيف شاء. قال: وقال أهل السنة في قوله: { الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى } (1078): الاستواء من الله -تعالى- على عرشه المجيد، على الحقيقة، لا على المجاز. واستدلوا بقول الله -تعالى-: { فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك } (1079)،

ص 362

وبقوله: { لتستوا على ظهوره } (1080)، وبقوله: { واستوت على الجودي } (1081)، إلا أن المتكلمين من أهل الإثبات في هذا على أقوال: فقال مالك - رحمه الله تعالى -: إن الاستواء معقول، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. وقال عبدالله بن المبارك، ومن تابعه من أهل العلم، وهم كثير: إن معنى استوى على العرش: استقر. وهو قول القتيبي. وقال غير هؤلاء: استوى، أي: ظهر. وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: استوى بمعنى: علا. وتقول العرب: استويت على ظهر الفرس، بمعنى: علوت عليه، واستويت على سقف البيت، بمعنى: علوت عليه. ويقال: استويت على السطح، بمعناه. فقوله تعالى: { استوى على العرش } بمعنى: علا على العرش. وقول الحسن (1082)، وقول مالك، من أنبل جواب وقع في هذه المسألة، وأشدّه استيعاباً، لأن فيه نبذ التكيف، وإثبات الاستواء المعقول، وقد ائتم أهل العلم بقوله واستجودوه، واستحسنوه (1083). ثم تكلم على فساد قول من تأول استوى بمعنى استولى، وقد مضى ما يغني عن ذكره. ثم قال: " وقال الثعلبي: قال الكلبي، ومقاتل: { ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ } يعني: استقر، قال: وقال أبو عبيدة: صعد.

ص 363

(1077) الآية 4 من سورة الحديد.

(1078) الآية 5 من سورة طه.

(1079) الآية 28 من سورة المؤمنون.

(1080) الآية 13 من سورة الزخرف.

(1081) الآية 44 من سورة هود.

(1082) الحسن يقول: معنى استوى: ارتفع.

(1083) إلى هنا ينتهي كلام الطلمنكي.

وقيل: استولى، وقيل: ملك، واختار هو⁽¹⁰⁸⁴⁾ ما حكاه عن الفراء وجماعة أن معناه: أقبل على خلق العرش، وعمد إلى خلقه، قال: ويدل عليه قوله: { ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ }⁽¹⁰⁸⁵⁾ أي: عمد إلى خلق السماء. وهذا من أضعف الوجوه⁽¹⁰⁸⁶⁾، فإنه قد أخبر أن العرش كان على الماء قبل خلق السماوات، والأرض، وكما مر في حديث عمران: " كان الله، ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات والأرض ".

فإذا كان العرش مخلوقاً، قبل خلق السماوات والأرض، فكيف يكون معنى استوائه عليه، بعد خلق السماوات والأرض، هو عمده إلى خلقه، مع أنه لا يعرف في اللغة "استوى" بمعنى: عمد إلى فعل كذا، لا حقيقة، ولا مجازاً، لا في النثر، ولا في النظم.

ومن قال: استوى، بمعنى عمد، ذكره في قوله تعالى: { ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ }⁽¹⁰⁸⁷⁾؛ لأنه عدى بحرف الغاية، كما يقال: عمدت إلى كذا، وقصدت إلى كذا، ولا يقال: عمدت على كذا، ولا قصدت عليه، مع أن هذا أيضاً غير معروف في اللغة، ولا هو قول أحد من مفسري السلف، بل المفسرون من السلف بخلاف ذلك.

وإنما هذا القول وأمثاله ابتدع في الإسلام، لما ظهر إنكار أفعال الرب -تعالى- التي تقوم به، ويفعلها بقدرته، ومشيئته، واختياره، فصار كل يفسر القرآن على ما يوافق قوله، واعتقاده.

ص 364

و أما السلف فأقوالهم في هذا الباب متفقة، وإن اختلفت عباراتهم، فمقصودهم واحد، وهو إثبات علو الله واستوائه على عرشه.

فإن قيل: إذا كان الله لا يزال عالياً على المخلوقات، فكيف يقال: ثم ارتفع إلى السماء وهي دخان؟ أو يقال: ثم علا على العرش؟

فالجواب: أن هذا كما أخبر أنه ينزل إلى السماء الدنيا ثم يصعد، وروي: " ثم يعرج " وكما أخبر أنه يجيء لفصل القضاء بين عباده، وهو سبحانه لم يزل فوق، فإن صعوده من جنس نزوله ومجيئه، وهو -تعالى- في نزوله ومجيئه، لا يصير شيء من المخلوقات فوقه، فهو سبحانه يصعد، وإن لم يكن منها شيء فوقه.

⁽¹⁰⁸⁴⁾ يعني الثعلبي، وهذه الأقوال منقولة من تفسيره، وهو يجمع فيه بين المتناقضات، وليس لديه تمييز لمذهب السلف.

⁽¹⁰⁸⁵⁾ الآية 11 من سورة حم فصلت.

⁽¹⁰⁸⁶⁾ بل هو باطل مخالف للنصوص الواضحة، وقد تقدم بيان بطلانه. وهذا الذي اختاره الثعلبي هو قول الجهمية والمعتزلة، ومن تبعهم من الأشعرية وغيرهم من أهل البدع.

⁽¹⁰⁸⁷⁾ الآية 11 من سورة حم فصلت.

الدرر السنية www.dorar.net

فإن قيل: فإذا كان إنما استوى على العرش بعد أن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، فقبل ذلك: هل كان على العرش، أو لم يكن؟
قيل: الاستواء علو خاص، فكل مستوٍ على شيء عالٍ عليه، وليس كل عالٍ على شيء مستوٍ عليه، ولهذا لا يقال لكل ما كان عالياً على غيره: إنه مستوٍ عليه، ولكن كل ما قيل: إنه استوى على كذا، فهو عالٍ عليه.
والذي أخبر الله -تعالى- أنه كان - خلق السماوات والأرض - الاستواء، لا مطلق العلو، مع أنه يجوز أنه كان مستوياً عليه قبل خلق السماوات والأرض، لما كان عرشه على الماء، ثم لما خلق هذا العالم كان عالياً على العرش، ولم يكن مستوياً عليه، ثم استوى عليه بعد ذلك¹⁰⁸⁸. والأصل أن علوه على المخلوقات، وصف لازم له، كما أن عظمته وكبريائه وقدرته كذلك، وأما الاستواء فهو فعل يفعله سبحانه بمشيئته وقدرته، ولهذا قال فيه: ثم استوى⁽¹⁰⁸⁹⁾.

وقال ابن عبد البر: " وأما ادعاءهم المجاز في الاستواء، وقولهم في تأويل استوى: استولى. فلا معنى له؛ لأنه غير ظاهر في اللغة، ومعنى الاستيلاء في اللغة: المغالبة، والله لا يغالبه ولا يعلوه أحد، وهو الواحد الصمد.

ص 365

ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا، إلا على ذلك، وإنما يوجه كلام الله - عز وجل - إلى الأشهر والأظهر من وجوهه، ما لم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم.

ولو ساغ ادعاء المجاز لكل مدع، ما ثبت شيء من العبارات، وجل الله عن أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب في معهود مخاطبتها، وهو العلو والارتفاع على الشيء، والاستقرار والتمكن فيه⁽¹⁰⁹⁰⁾.
وقد تقدم ذكر بعض ما قاله السلف والأئمة في ذلك، في أول الباب، والجواب عما اعتمده أهل التأويل.

⁽¹⁰⁸⁸⁾ () أو يقال: إن الاستواء بعد خلق السماوات والأرض، استواء خاص غير الذي قبل ذلك.

⁽¹⁰⁸⁹⁾ () "مجموع الفتاوى" (5/519-523) ببعض التصرف.

⁽¹⁰⁹⁰⁾ () "التمهيد" (7/131).

55-قال: " حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان، عن عمرو بن يحيى، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال النبي: " يصعقون يوم القيامة فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش".

56- " وقال الماحشون: عن عبد الله بن الفضل، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي-صلى الله عليه وسلم- قال: " فأكون أول من بعث، فإذا موسى أخذ بالعرش".

"الصعق: غشي يلحق من سمع صوتاً شديداً أو يرى شيئاً هائلاً مفزعاً"⁽¹⁰⁹¹⁾.

وفي الأبي: " الصعق، والصعقة، والصاعقة، والهلاك، والموت، وقيل: كل عذاب مهلك، وهو أيضاً: الغشية تعتري من فزع لسمع صوت {مفزع، أو رأى مهولاً} "⁽¹⁰⁹²⁾ وقد اختلف في هذا الصعق المذكور في هذا الحديث: أهو نفخة الصور للبعث، أو غيرها؟

ف قيل: أنها نفخة البعث؛ لأن النفخة الأولى، لا يحس بها الأموات، وإنما هي لموت من كان حياً، وإنهاء الدنيا، وابتداء الآخرة.

ولكن يشكل على هذا قوله -صلى الله عليه وسلم-: " فأكون أول من يفيق، فإذا موسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي، أو حوزي بصعقة الطور" ومعلوم أن موسى عليه السلام قد مات، فلا يجوز أن يكون المعنى: " فلا أدري: هل موسى مات، أم جوزي عن الموت بصعقة الطور".

وقد اختلف في النفخ في الصور: هل هو مرتان أو ثلاث؟ قال الإمام ابن جرير - رحمه الله - في قوله تعالى: {ولله الملك يوم ينفخ في الصور} "⁽¹⁰⁹³⁾

اختلف في الصور في هذا الموضع.

فقال بعضهم: هو قرن ينفخ فيه نفختان، إحداهما لفناء من كان حياً على الأرض، والثانية لنشر كل ميت، واعتلوا لقولهم ذلك، بقوله: {ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون} "⁽¹⁰⁹⁴⁾

⁽¹⁰⁹¹⁾ () "الفتح" (6/444).

⁽¹⁰⁹²⁾ () " شرح الأبي على مسلم " (6/167).

⁽¹⁰⁹³⁾ () الآية 73 من سورة الأنعام.

⁽¹⁰⁹⁴⁾ () الآية 68 من سورة الزمر.

وقال علي قوله تعالى: {فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون} (1095).

اختلف أهل التأويل في المعنى بقوله: {فإذا نفخ في الصور} من النفختين، أيهما عنى بها؟ فقال بعضهم: عنى بها النفخة الأولى.

ثم ذكر عن ابن عباس: قال: فذلك في النفخة الأولى، فلا يبقى على الأرض شيء. وروي ذلك أيضاً عن السدي.

ثم ذكر القول الثاني: أن المراد بذلك النفخة الثانية، وروي ذلك عن ابن مسعود وغيره (1096) وهذا الذي ذكره الطبري - رحمه الله - يدل على أن النفخ في الصور مرتين، الأولى لموت من كان حياً علي وجه الأرض، والثانية لبعث الموتى. وعليه يكون الإشكال في الحديث ظاهراً، وسيأتي ذكر ألفاظ الحديث في "البخاري" و"مسلم".

وقد أجاب القرطبي عن الإشكال بقوله: "المعنى: فلا أدري: أبعثه الله قبلي؟ تفضيلاً له، من هذا الوجه، كما فضل بالدنيا بالتكليم، أو كان جزاء له بصعقة الطور قدم بعثه على بعث الأنبياء، الآخرين، بقدر صعقته عندما تجلى ربه للجبل؟" (1097)

ص 368

ففي هذا يكون المعنى في قوله: "أو جوزي بصعقة الطور" أي قدم بعثه عليّ جزاء له بما حصل من صعقته في الطور، وهذا غير صحيح؛ لأمور عدة:

منها: أن الحديث على هذا يصبح فيه تكرار لا معنى له، إذ لا يكون المعنى على قول القرطبي: "فلا أدري أبعث قبلي؟ أو جوزي ببعثه قبلي بصعقة الطور".

ومنها: أن ظاهر الحديث يرد هذا؛ لأن قوله: "فلا أدري أبعث قبلي؟ أم جوزي بصعقة الطور؟" ظاهره: فلا أدري أصعق فبعث قبلي؟ أم أنه لم يصعق، وإنما جوزي عن الصعق بصعقة الطور؟ ولهذا لم يقتنع القرطبي بهذا الجواب، فذكر جواباً آخر - سيأتي - ثم قال:

وقال شيخنا أحمد بن عمر: وظاهر حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - يدل على أن ذلك إنما هو بعد النفخة الثانية، نفخة البعث، ونص القرآن يقتضي أن ذلك الاستثناء إنما هو بعد نفخة الصعق، ولهذا قال بعض العلماء: يحتمل أن يكون موسى - عليه السلام - ممن لم يمت من الأنبياء، وهذا باطل بما صح من النصوص بذكر موته.

(1095) "تفسير الطبري" (11/462) بتحقيق محمود شاكر.

(1096) "تفسير الطبري" (18/54) ط الحلبي.

(1097) التذكرة (1/208)، وهو أخذ هذا عن الحلبي كما في المنهاج، انظر: الورقة 214 من المخطوطة، وانظر المطبوع (1/432).

قال: وقال القاضي عياض: يحتمل أن يكون المراد بهذه صعقة فزع، بعد النشر، حين تنشق السماوات والأرض، قال: فتستقل الأحاديث والآيات، والله أعلم.

ثم قال: قال شيخنا أبو العباس: وهذا يردده ما جاء في الحديث أنه عليه السلام حين يخرج من قبره يلقي موسى، وهو متعلق بالعرش، وهذا عند نفخة البعث.

قلت: وسيأتي ما يوضح ذلك في روايات الحديث التي أذكرها، - إن شاء الله -.

ثم قال: " قال شيخنا أحمد بن عمر: والذي يزيح هذا الإشكال - إن شاء الله تعالى - أن الموت ليس بعدم محض، وإنما هو انتقال من حال إلى حال، ويدل على ذلك أن الشهداء بعد قتلهم، أحياء عند ربهم يرزقون، فرحين، مستبشرين، وهذه صفة الأحياء في الدنيا.

وإذا كان هذا في الشهداء، كان الأنبياء بذلك أحق، وأولى، فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق، صعق كل من في السماوات والأرض، إلا من شاء الله، فأما

ص 369

صعق غير الأنبياء فموت، وأما صعق الأنبياء فالأظهر أنه غشية، فإذا نفخ في الصور نفخة البعث، فمن مات حيي، ومن غشي عليه أفاق" (1098).

قلت: وحاصل هذا الجواب: أن الصعقة المذكورة في الحديث هي الأولى، وأن الصعق يكون للأرواح، كل ذلك باطل؛ لأنه سيأتي أن الحديث ينص على أنها نفخة البعث، ومعلوم أن الأرواح لا تموت، فكيف يكون صعق غير الأنبياء موت مع أنه زعم أن الصعق للأرواح، وكل ذلك يفتقر إلى دليل، والأدلة خلافه.

ولهذا قال ابن القيم: " وحمل الحديث على هذا لا يصح، لأنه -صلى الله عليه وسلم- تردد: هل أفاق موسى قبله، أو لم يصعق، بل جوزي بصعقة الطور؟

فالمعنى: لا أدري: أصعق أم لم يصعق؟

وقد قال في الحديث: " فأكون أول من يفيق"، وهذا يدل على أنه -صلى الله عليه وسلم- يصعق فيمن يصعق، وأن التردد حصل في موسى، هل صعق وأفاق قبله من صعقته، أو لم يصعق؟

ولو كان المراد به: الصعقة الأولى، وهي صعقة الموت، لكان -صلى الله عليه وسلم- قد جزم بموته، وتردده: هل مات موسى، أو لم يموت، وهذا باطل؛ لوجوه كثيرة، فعلم أنها صعقة فزع، لا صعقة موت، والآية لا تدل على

أن الأرواح كلها تموت، عند النفخة الأولى، وإنما تدل على أن من لم يذق الموت قبلها يموت، وأما من مات، أو من لم يكتب عليه الموت، فلا يموت (1099)

وقال السفاريني: " وصعق الأرواح عند النفخ في الصور، لا يلزم منه موتها. ففي "الصحيحين": " أن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى أخذ بقائمة العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة يوم الطور؟ "

فهذا صعق في موقف القيامة، إذا جاء الله لفصل القضاء، وأشرق الأرض بنوره، فحينئذ، يصعق الخلائق كلهم، قال تعالى: { فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون } (1100).
ص 370

ولو كان هذا الصعق موتاً، لكانت موتة أخرى (1101) ثم ذكر كلام ابن القيم السابق، وقال ابن القيم بعد ما قرر أن هذا الصعق المذكور، إنما هو في الموقف، إذا جاء رب العالمين - جل وعلا - لفصل القضاء بين عباده.

قال: " فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله في الحديث: " إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش؟ " قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا، ومنه نشأ الإشكال، ولكنه دخل فيه على الراوي، حديث في حديث، فركب بين اللفظين، فجاء هكذا، والحديثان هكذا أحدهما:

" أن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق ".
والثاني: " أنا أول من تنشق عنه الأرض، يوم القيامة "، فدخل على الراوي هذا الحديث في الحديث الآخر، وكان شيخنا أبو الحجاج المزني يقول ذلك (1102).

قلت: وهذا احتمال بعيد جداً، ويحتاج إلى دليل، ولا وجود له، إذ لا يجوز تخطئة الراوي بمجرد إشكال يعرض للإنسان في لفظ الحديث، فما قال ابن القيم - رحمه الله - هنا غير صحيح، وسيتبين ذلك عند ذكر روايات الحديث. فلفظ حديث أبي سعيد في "البخاري": " لا تخيروا الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فإذا أنا بموسى أخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري: أكان فيمن صعق؟ أم حوسب بصعقته

(1099) "الروح" (ص 36).

(1100) الآية 45 من سورة الطور.

(1101) "لوامع الأنوار البهية" (2/38).

(1102) "الروح" (ص 37).

www.dorar.net الدرر السنية

الأولى " (1103) ثم رواه في أماكن متعددة من "صحيحه" بألفاظ متقاربة، ليس فيها: " فأكون أول من تنشق عنه الأرض " إلا في هذا الموضوع. ولكن في رواية أبي هريرة: أنه -صلى الله عليه وسلم- قال: " لا تفضلوا بين أولياء الله، فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السماوات، ومن في الأرض، إلا من شاء الله، ثم
ص 371

ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من بعث، فإذا موسى أخذ بالعرش، فلا أدري: أحوسب بصعقته يوم الطور، أم بعث قبلي؟" (1104). قال الحافظ: " وقع في رواية: " إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الثانية "، وفي أخرى: " إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الأخيرة " (1105). ورواه في "التفسير" بسند آخر، مختصراً، ولفظه: " إني أول من يرفع رأسه، بعد النفخة الأخيرة، فإذا أنا بموسى، متعلق بالعرش، فلا أدري، أكذلك كان، أم بعد النفخة " (1106) ثم ذكره معلقاً في الموضوع نفسه بلفظ: " فأكون أول من بعث، فإذا موسى أخذ بالعرش " ورواه مسلم، ولفظه: " لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السماوات، ومن في الأرض، إلا من شاء الله - قال - ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من بعث، أو في أول من بعث، فإذا موسى أخذ بالعرش، فلا أدري: أحوسب بصعقة يوم الطور، أو بعث قبلي؟".

ثم رواه بسند آخر - وفيه: " فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق " (1107).

و أما حديث أبي سعيد المتقدم، في ذكر الانشقاق، فقد رواه أيضاً الإمام أحمد، فقال: حدثنا وكيع عن سفيان، عن عمرو بن يحيى، عن أبيه، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " لا تخيروا بين الأنبياء، وأنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، فأفبق، فأجد موسى متعلقاً بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري: أجزى بصعقة الطور، أو أفاق قبلي؟" (1108).

وذكر الحافظ أن في رواية محمد بن عمرو، عن أبي سلمة - عند ابن مردويه -: " أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، فأنفض المتراب عن رأسي، فآتي قائمة
ص 372

(1103) انظر: " البخاري مع الفتح " (5/70).

(1104) انظر: " الفتح " (6/451).

(1105) " الفتح " (6/444).

(1106) " الفتح " (8/551).

(1107) " مسلم " (4/1844) رقم (2373).

(1108) " المسند " (3/33).

العرش فأجد موسى قائماً عندها، فلا أدري أنفض المتراب عن رأسه قبلي، أو كان ممن استثنى الله" (1109).

فهذه الرواية تدل على أن الصعق المذكور هو النفخة الثانية في الصور، فإن قوله في رواية أبي هريرة: " فإنه ينفخ في الصور، فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من يفيق، فإذا موسى أخذ بالعرش " وفي الرواية الأخرى: " إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة، فإذا أنا بموسى متعلق بالعرش"، وفي أخرى: " إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الثانية".

وفي رواية مسلم: " ثم ينفخ فيه أخرى، فأكون أول من بعث".
فهذا واضح وصریح في أن المقصود: البعث من الموت الحاصل بنفخ الصور النفخة الثانية، وبه يتبين أن ما قاله القرطبي وغيره مما سبق ذكره، وكذا ما ذهب إليه ابن القيم، كله غير صحيح كما سبق، وكذا قول الحلبي في "المنهاج": " أن ظاهر الحديث أن هذه صعقة غشي يوم القيامة، لا صعقة الموت، الحادث عن نفخ الصور" (1110) مردود بما صرحت به الروايات المذكورة.

الصواب ما نصت عليه هذه الروايات من أن موسى عليه السلام يبعث قبل نبينا -صلى الله عليه وسلم-، وأما ترده: أصابه الصعق فبعث قبله، أو كان ممن استثنى الله - تعالى-، أو جوزي عن الصعق بصعقة الطور، كل ذلك يقتضي أنه بعث قبله.

ولكن يبقى الإشكال في أن النفخة التي استثنى الله -تعالى- منها هي الأولى، ومعلوم أن موسى عليه السلام قد مات قبلها، فكيف يصح استثناءه منها؟

فيقال: وكذا نبينا -صلى الله عليه وسلم- وسائر الأنبياء لا ينالهم ذلك، وإنما ينال من كان حياً في ذلك الوقت، ويكون الأقرب ما قاله الحلبي: " أن المعنى: إذا نفخ في الصور

ص 373

مرة أخرى، كنت أول من بعث، فأجد موسى مبعوثاً قبلي، فلا أدري: أفضل بذلك على سائر الخلق، أو أن ذلك جزاء له بصعقة الطور؟" (1111).

وهذا بناء على أن النفخ في الصور مرتان، وهو الذي تؤيده الأدلة الصحيحة، كما مر في هذه الروايات السابقة.

قال الحافظ: " ثبت في " صحيح مسلم " أنهما نفختان، ولفظه في أثناء حديث مرفوع: " ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتها، ورفع ليتها،

(1109) "الفتح" (6/445).

(1110) انظر: " المنهاج" المخطوط رقم 214، وانظر: المطبوع (1/432) وهو كثير التحريف.

(1111) انظر: " المنهاج" الورقة 214، أو المطبوع (1/432) وهذا معنى كلامه وليس لفظه.

ثم يرسل الله مطراً كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون".

وفي حديث أبي هريرة المتفق عليه: " بين النفختين أربعون"، وفي ذلك دلالة على أنهما نفختان فقط، والتغاير في كل منهما باعتبار من يسمعهما، فالأولى: يموت بها كل من كان حياً، ويغشى على من لم يموت ممن استثنى الله تعالى، والثانية: يعيش بها من مات، ويفيق بها من غشي عليه"⁽¹¹¹²⁾.

وقد ذهب إلى أنها ثلاث نفحات بعض العلماء، كالحافظ ابن كثير، وحمل قوله تعالى: {ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض} على أنها نفخة الفرع، وممن ذهب إلى ذلك القرطبي وابن العربي وغيرهما، وعمدتهم في ذلك حديث الصور، حيث صرح فيه أن النفحات ثلاث، ولكنه حديث ضعيف مضطرب، كما بينه الحافظ ابن حجر - رحمه الله - فلا يعتمد عليه لذلك، وآية الزمر واضحة الدلالة في أن النفخ في الصور مرتين.

و أما قوله تعالى: {ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض} فالظاهر أنها النفخة الأولى، ذكرها بمقدماتها، ومما يدل على أنها نفختان فقط: قوله تعالى: {يوم ترجف الراجفة (6) تتبعها الرادفة}.

ص 374

قوله: " فإذا موسى أخذ بقائمة من قوائم العرش " وفي رواية أبي هريرة: " أخذ بالعرش " أي: أنه -صلى الله عليه وسلم- يجد موسى عليه السلام بعد ما بعث، ممسكاً بأحد قوائم العرش، والمراد بالعرش: عرش رب العالمين.

ففي هذا فضل لموسى عليه السلام، حيث بعث قبل نبينا -صلى الله عليه وسلم- وهذه القبلية إما مجرد فضيلة خصه الله بها كما خص بالتكليم، وإما جزاء بالصعقة التي أصابته، يوم سأل ربه الرؤية عندما تجلى الله -تعالى- للجبل، والله أعلم.

ومما تقدم من النصوص التي ذكرها البخاري - رحمه الله - هنا وغيرها، يعلم أن الله -تعالى- خص العرش من بين مخلوقاته، بأنه استوى عليه، وأنه فوق جميع المخلوقات، وأنه له حملة، ويوم القيامة، وأنه -تعالى- تعبد من شاء من ملائكته بأن يحفوا به، ويطوفوا به، وأن حملته ومن حوله من الملائكة يسبحون الله -تعالى- ويستغفرون للمؤمنين، وأنه أول المخلوقات المعلومة لنا، فقد أخبر تعالى أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق

⁽¹¹¹²⁾ انظر " فتح الباري " (370-11/369) و (6/446) ، وانظر : الحديث الذي يشير إليه في " صحيح مسلم " (4/2258 ، 2259) رقم (2940) ، وانظر : حديث أبي هريرة في " البخاري مع الفتح " (8/551 ، 689) ، وفي " مسلم " (4/2270) رقم (2955).

السماوات والأرض، كما قال -تعالى-: {وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء} (1113).
وأنه -تعالى- كان ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السماوات والأرض.
وقد تقدم ذكر حديث عبد الله بن عمرو: "إن الله قدر مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء" وهو في "صحيح مسلم".

كما في هذه النصوص، وصف العرش بأنه عظيم، وأنه كريم، وأنه مجيد. وكثيراً ما يمدح الله -تعالى- نفسه بأنه ذو العرش، كما قال -تعالى-: {قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لايتغوا إلى ذي العرش سبيلاً (42) سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً (43) تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده لكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً} (1114).

ص 375

وقال -تعالى-: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ} (1115)، وقال -جل وعلا-: {وَهُوَ الْعَفْوَُّرُ الْوَدُودُ} {14} {ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ} (1116)، وقال -تعالى-: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} (1117)، إلى غير ذلك.

كما جاء في الحديث الصحيح ما يدل على أنه أثقل الأوزان، كما في قوله -صلى الله عليه وسلم- لجويرية: "لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته" (1118).

كما في النصوص المتقدمة أنه سقف أعلى الجنان، وهي الفردوس، وأن له قوائم، وغير ذلك مما بينته النصوص التي جاءت بها الرسل، وكل ذلك يدل على أن الله فوق العرش مستوٍ عليه، وقد اتفق على هذا الأنبياء كلهم، وذكر في كل كتاب أنزل على كل نبي، واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من جميع الطوائف، إلا من ضل الحق واتبع غير سبيل المؤمنين من الجهمية والمعتزلة والأشعرية وغيرهم.

(1113) الآية 7 من سورة هود.

(1114) الآيات 42 و43 و44 من سورة الإسراء.

(1115) الآية 15 من سورة غافر.

(1116) الآيتان 14 و15 من سورة البروج.

(1117) الآية الأخيرة من سورة براءة.

(1118) "صحيح مسلم" (4/2090).

قال: " باب قول الله -تعالى-: { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } (1119)، وقوله - جل ذكره-: { من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب } (1120).

قال الأزهرى: في عرج: " قال الله - جل وعز -: { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ }، أي: تصعد، يقال: عرج، يعرج، عرجاً.
ص 376

وقوله - جل وعز -: { مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ } (1121)، قال قتادة: ذي المعارج: ذي الفواضل، والنعم، وقيل: معارج الملائكة، وهي مصاعدها التي تصعد وتعرج فيها، ذكر ذلك أبو إسحاق.

وقال الفراء: ذي المعارج، من نعت الله؛ لأن الملائكة تعرج إلى الله، فوصف نفسه بذلك (1122).

وقال الليث: عرج يعرج، عرجاً، ومعرجاً، قال: والمعرج: المصعد، والمعرج: الطريق الذي تصعد فيه الملائكة.

قال: والمعراج: يقال: شبه السلم، أو درجة، تعرج فيه الأرواح، إذا قبضت (1123).

وقال الجوهري: " عرج في الدرجة، والسلم، يعرج، عرجاً: إذا ارتقى. والمعراج: السلم، ومنه: ليلة المعراج، والجمع: معارج، ومعاريج (1124).

وقال الراغب: " العروج: ذهاب في صعود، قال: { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } (1125)، { فظلوا فيه يعرجون } (1126)، والمعارج: المصاعد، قال: { مِّنَ

اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ } (1127)، وليلة المعراج، سميت لصعود الدعاء فيها، إشارة إلى قوله: { إليه يصعد الكلم الطيب } (1128).

قوله: سميت، لصعود الدعاء فيها، يعني: المعارج سميت لذلك، ولا يعني ليلة المعراج.

ص 377

(1119) الآية 4 من سورة المعارج.

(1120) الآية 10 من سورة فاطر.

(1121) الآية 3 من سورة المعارج.

(1122) انظر: " معاني القرآن " للفراء (3/184).

(1123) " تهذيب اللغة " (1/355).

(1124) " الصحاح " (1/328).

(1125) الآية 4 من سورة المعارج.

(1126) الآية 14 من سورة الحجر.

(1127) الآية 3 من سورة المعارج.

(1128) " المفردات " (ص 329).

وقال الطبري، في قوله -تعالى-: {ولو فتحنا عليهم باباً من السماء} (1129): " وأما قوله: {يعرجون}، فإن معناه: يرقون فيه، ويصعدون، يقال منه: عرج يعرج، عروجاً: إذا رقي وصعد" (1130).

وقال في قوله -تعالى-: {ذي المعارج}: يعني: ذا العلو، والدرجات، والفواضل والنعم" - ثم روى ذلك عن ابن عباس، وقتادة، وروى عن مجاهد، قال: معارج السماء.

ثم قال: " وقوله -تعالى-: { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } يقول -تعالى ذكره- تصعد الملائكة، والروح - وهو جبريل - عليه السلام {إليه} يعني: إلى الله - جل وعز- والهاء في قوله: {إليه} عائدة على اسم الله " (1131).

قوله: {والروح} هو: جبريل هذا هو الظاهر من سياق الآية، فيكون من عطف الخاص على العام.

وقوله تعالى: {إليه يصعد الكلم الطيب} قال مجاهد: " العمل الصالح يرفع الكلم الطيب".

قال الحافظ: " وصله الفريابي من رواية ابن نجيح، وأخرج البيهقي من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: " الكلم الطيب: ذكر الله، والعمل الصالح: أداء فرائض الله فمن ذكر الله، ولم يؤد فرائضه، رد كلامه" (1132) ورواه ابن جرير. (1133)

قلت: أثر مجاهد، رواه ابن جرير في "تفسيره"، ولفظه: " الكلام الطيب: ذكر الله، والعمل الصالح: أداء فرائضه، فمن ذكر الله في أداء فرائضه، حمل عليه ذكر

ص 378

الله، فصعد به إلى الله، ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه، رد كلامه على عمله، فكان أولى به".

وقال ابن جرير: {إليه يصعد الكلم الطيب} يقول -تعالى ذكره-: إلى الله يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه، وأداء فرائضه، والانتهاه إلى ما أمر به " (1134).

ثم روى عن ابن مسعود أنه قال: " إذا حدثناكم بحديث، أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله -تعالى-، إن العبد المسلم، إذا قال: سبحان الله وبحمده، الحمد لله، لا إله إلا الله والله أكبر، تبارك الله، أخذهن ملك، فجعلهن تحت جناحيه، ثم صعد بهن إلى السماء، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة، إلا

(1129) الآية 14 من سورة الحجر .

(1130) " تفسير الطبري " (14/11) ط. الحلبي.

(1131) " تفسير الطبري " (29/70).

(1132) " الفتح " (13/416).

(1133) " تفسير الطبري " (22/121) ط. الحلبي ، وانظر : " الأسماء والصفات " (ص 426).

1134 " تفسير الطبري " (22/120).

استغفروا لقائلهن، حتى يجيء بهن وجه الرحمن - ثم قرأ عبد الله: { إِلَيْهِ
يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } (1135) .

ثم روى قول مجاهد الذي ذكره البخاري، وروى عن الحسن، وقتادة: " لا
يقبل الله قولاً إلا بعمل، من قال وأحسن العمل، قبل الله منه " (1136) .

ومقصود البخاري بهذا الباب: ذكر بعض الأدلة على علو الله - تعالى -،
وبيان أن ذلك ثابت بكتاب الله - تعالى - وسنة رسوله - صلى الله عليه
وسلم -، وبالعقل، والفطرة، فقد فطر الله تعالى العباد على الإيمان بذلك،
وأمن الصحابة به، واتبعهم عليه كل من سلك طريق الرسل.

فالإيمان بعلو الله - تعالى - وفوقيته، فطري عقلي شرعي، ومن خالف
ذلك فقد انحرف عن طريق الرسل، وسلك في ذلك غير سبيل المؤمنين.

ولبيان أن الإيمان بذلك فطري، عقلي، ذكر قول أبي ذر، قيل أن يسلم،
أنه قال لأخيه: " أعلم لي علم هذا الرجل، الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من
السماء " كما يأتي بيانه.

ص 379

ومعلوم أن الخبر، لا يأتي إلا من مخبر، والمخبر الذي يرسل الرسل
بأوامره، ونواهيته، هو الله - جل وعلا - وهو في السماء، أي في العلو، بائن
من خلقه.

وهذه المسألة من كبار مسائل العقيدة الإسلامية، ومع ظهورها، وكثرة
الأدلة عليها وتنوعها، واتفاق الرسل والكتب وأتباع الرسل عليها، ضل فيها
طوائف كثيرة كالجهمية، والمعتزلة، وأكثر الأشعرية، ولا يزال على الضلال
فيها خلق كثير ممن يتبنى مذهب الأشعرية، والماتريدية، معتقدين أن ذلك
الضلال هو الحق وأنه مذهب أهل السنة، وأن أدلة كتب الله ووحيه إلى رسله
ظواهر تدل على التشبيه بظواهرها، فلهذا يجب صرفها عن ذلك الظاهر.

ويرى هؤلاء من اعتقد ما دل عليه القرآن والسنة بظاهريهما، أنه مشبه
ومجسم، مع أن العقل والفطر السالمة من الانحراف، يتفقان على ما دل
عليه وحى الله - تعالى -، ولهذا ترمي الأشعرية كل من اعتقد علو الله
واستواءه على عرشه على الحقيقة، بالتشبيه، والتجسيم، وأحياناً يصرحون
بكفرهم كما هو عقيدتهم في قرار نفوسهم، ومع هذا ترى كثيراً منهم رافعاً
عقيرته داعياً إلى الاتفاق والوئام، وهذا لمن يكون أبداً ما دام في الأرض
معتقداً للحق؛ لأنه لا اتفاق بين الهدى والضلال، والحق والباطل، وكيف يكون
اتفاق مع من يرى أن من اعتقد ما دلت عليه النصوص الصريحة، الواضحة
الكثيرة، أنه ضال ومشبه؟ كما سيأتي بيانه، إن شاء الله تعالى.

(1135) المرجع السابق .
(1136) "الطبري" (22/121).

قوله: " وقال أبو جمرة: عن ابن عباس، لما بلغ أبا ذر مبعث النبي - صلى الله عليه وسلم- فقال لأخيه: أعلم لي علم هذا الرجل، الذي يزعم أنه يأتيه الخبر من السماء ".
هذا التعليق قد تقدم تماماً موصولاً، في " المناقب"، وفي

"الفضائل" (1137).

ومقصوده من ذلك: بيان أن علو الله -تعالى- على خلقه، أمر مفطور عليه الخلق، ومعلوم بالعقل، والوحي جاء مؤيداً لذلك، وموضحاً له.

¹¹³⁷() انظر: " الفتح" (6/549) و(7/173).

57-قال: " حدثنا إسماعيل، حدثني مالك، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة- رضي الله عنه - أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: " يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر، وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم، وهو أعلم بهم، كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون".
"يتعاقبون": التعاقب: إتيان فريق، عقب فريق، ثم يعود الأول، بعد إتيان الثاني.

وإنما يكون التعاقب بين طائفتين، أو رجلين، ومنه: تعقيب الجيوش، بأن يرسل طائفة من الجيش إلى مدة، ثم يرسل مكانهم طائفة أخرى، ويرجع الأولون.

والضمير في قوله " فيكم " يعود إلى المخاطبين، وهم الأمة المستجابة للرسول -صلى الله عليه وسلم -.

والأظهر أن هؤلاء الملائكة غير الحفظة، كما قاله القرطبي، وأيده الحافظ، بأنه لم ينقل أن الحفظة يفارقون العبد، ولا أن حفظة الليل، غير حفظة النهار، وبغير ذلك.⁽¹¹³⁸⁾

" ويجتمعون في صلاة العصر، وصلاة الفجر " أي: يجتمع في صلاة العصر الهابطون ليبيتوا مع العباد، والذين كانوا معهم في النهار، فالفريقان يحضران صلاة العصر، وصلاة الفجر، فيصعد الذين صحبوا العباد بالنهار، عقب صلاة العصر، ويبقى الذين يبيتون معهم ليلاً، ثم بعد اجتماع الفريقين أيضاً في صلاة الفجر يصعد الذين باتوا مع العباد، ويبقى الذين نزلوا في صلاة الفجر من السماء. والله -تعالى- يسأل كل فريق عن العباد، كيف تركتم عبادي، أي: على أي حال تركتموهم؟- وهو جل وعلا - أعلم من الملائكة المصاحبين لهم بهم، ولكن يسأل -تعالى- الملائكة عنهم؛ لإظهار كرامتهم، فضلاً منه، وإحساناً إليهم، وبهذا يعلم أهمية المحافظة على هاتين الصلاتين في الجماعة.

قوله: " ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم - وهو أعلم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم يصلون، وأتيناهم، وهم يصلون".

تقدم معنى العروج، وأنه: الصعود، والارتفاع، والذهاب إلى العلو، وهذا هو محل الشاهد من الحديث؛ لأن السؤال حصل بعد صعودهم، حيث يصلون إلى المكان المحدد لهم، والله -تعالى- فوقهم، وهو -تعالى- يخاطبهم بذلك،

(1138) انظر: " الفتح " (35-2/34).

بدون واسطة، كما هو ظاهر النص، ولو كان ذلك بوحى لم يكن هناك فرق بين كونهم في السماء، أو في الأرض.

وهذا الحديث يتفق في المعنى مع قوله -تعالى-: { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } وكأن البخاري يشير بذلك إلى تفسيرها، وأن عروج الملائكة المذكور في هذا الحديث، داخل في مدلولها.

ودل قوله: " وهم أعلم بهم " أن المقصود من السؤال: إظهار كرامة المؤمنين من بني آدم، بطاعتهم لربهم، وعبادتهم إياه، والتنويه بفضلهم عند الملائكة الذين في السماء، والملائكة المسؤولون فهموا من الله -تعالى- ما أرادوه، ولهذا قالوا في الجواب: " تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون ".

وفي هذا دليل على أن من جلس في مصلاه، يذكر الله ويدعوه، أنه في صلاة، لأن الملائكة يحضرون الصلاة معهم، وبعد الفراغ منها يصعدون. قال الحافظ: " ويستفاد منه أن الصلاة أعلى العبادات؛ لأنه عنها وقع السؤال والجواب، وفيه الإشارة إلى عظم هاتين الصلاتين؛ لكونهما تجتمع فيهما الطائفتان، وفي غيرهما طائفة واحدة، والإشارة إلى شرف الوقتين المذكورين، وقد ورد أن الرزق يقسم بعد صلاة الصبح، وأن الأعمال ترفع آخر النهار، فمن كان حينئذ في طاعة، بورك في رزقه، وفي عمله.

ويترتب عليه حكمة الأمر بالمحافظة عليهما، والاهتمام بهما. وفيه تشریف هذه الأمة على غيرها، ويستلزم تشریف نبيها على غيره. وفيه الإخبار بالغيوب، ويترتب عليه زيادة الإيمان. وفيه الإخبار بما نحن فيه، من ضبط أحوالنا، حتى نتيقظ، ونتحفظ في الأوامر والنواهي، ونفرح في هذه الأوقات بقدم رسل ربنا، وسؤال ربنا عنا. ص 382

وفيه إعلامنا بحب ملائكة الله لنا، لنزداد فيهم حباً، ونتقرب إلى الله -تعالى- بذلك.

وفيه كلام الله -تعالى- مع الملائكة، وغير ذلك من الفوائد " (1139). وفيه كثرة الملائكة، وأن لكل منهم وظائف مكلفون بها، وبيان نصحهم لبني آدم، وحبهم الخير لهم، وأن استقرارهم في السماء، وإنما ينزلون إلى الأرض حسب أوامر الله لهم.

58-قال: " وقال خالد بن مخلد: حدثنا سليمان، حدثني عبدالله بن دينار، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "من تصدق بعدل تمرة، من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل".

" الصدقة: ما يخرج الإنسان من ماله، على وجه القرية، كالزكاة، لكن الصدقة -في الأصل - تقال للمتطوع به، والزكاة للواجب، وقد يسمى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبها الصدق في فعلها" (1140).
وسميت صدقة، من الصدق؛ لأنه تدل على صدق إيمان المتصدق غالباً.
قوله: " بعدل تمرة" بفتح العين، قال القاضي عياض: " العدل - بالفتح - المثل وما عادل الشيء، وكافأه، من غير جنسه، وبالكسر: ما عادله من جنسه وكان نظيره، وقيل: الفتح والكسر لغتان فيها، وهو قول البصريين" (1141).

والمعنى: من تصدق بقدر تمرة، أو بقيمتها.
قوله: " من كسب طيب " أي: تصدق بمال حلال، جيد، وإن كان قليلاً.
" ولا يصعد إلى الله إلا الطيب" تقدم هذا الحديث في الزكاة بسند متصل غير هذا، وفيه " ولا يقبل الله إلا الطيب" (1142).
فالذي يقبله الله -تعالى- يصعد إليه، فيبارك به لصاحبه، وينميه.
وهذه الجملة من الحديث هي المقصود منه هنا، حيث دل على علو الله -تعالى- وأنه فوق، وما قبله الله من الأعمال، فإنه يصعد إليه، وقد تقدم أن الملائكة تصعد إلى الله -تعالى- وتخرج إليه، والصعود والعروج سواء في المعنى، كما تقدم في كلام ابن جرير.

وقد اختار البخاري بعض النصوص في هذا الباب، التي فيها ذكر الصعود والعروج ونحوهما؛ لوضوح الدلالة في ذلك على علو الله -تعالى- كما أنه نوع

الأدلة في ذلك كما تقدم للإيضاح، وأدلة علو الله -تعالى- كثيرة جداً ومتنوعة، كما ستأتي الإشارة إلى ذلك.

قوله: " فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه"، أي: أن الله -تعالى- يقبلها من صاحبها، فيأخذها بيده اليمنى، وكلتا يديه يمين، فينميتها لصاحبها، ويبارك فيها، ويعتني بها عناية بالغة، كما يعتني أحدنا بأغلى ما لديه من المال، وأنفسه، وهو ولد الفرس، الذي يعد لمدافعة

(1140) "المفردات" للراغب (ص 278).

(1141) "المشارك" (2/69).

(1142) انظر: "الفتح" (3/378).

www.dorar.net الدرر السننية

الأعداء وقتالهم، وحماية الأعراض، والنفوس، والأموال، حتى يصير ما هو بقدر التمرة - لشدة عناية الله تعالى به - مثل الجبل.

وقد تخطب شراح الحديث ممن سلك طريق الأشاعرة، في شرح هذه الجملة، وجاءوا بما ليس له وجه، مع أن المتكلم به قد أعطي من الفصاحة والبيان والنصح للسامع، والحرص على وصول الخير إليه، ما ليس عليه مزيد، فيجب أخذ كلامه على ظاهره، والإيمان به، وإحسان الظن به، فهو - صلوات الله وسلامه عليه - أقدر على إيضاح ما يريد من هؤلاء، كما أنه - صلي الله عليه وسلم - أعلم بالله منهم، فليس كلامه بحاجة إلى تلك التأويلات الباردة⁽¹¹⁴³⁾، والتمحلات المتكلفة، كالتي ذكر ابن حجر - عفا الله عنا وعنه -.

⁽¹¹⁴³⁾ () انظر : بعض ما قاله هؤلاء المؤولة في "فتح الباري" (3/280).

59- ثم ذكر حديث ابن عباس: في دعاء الكرب. وقد تقدم في الباب قبل هذا، وفيه اختلاف في سنده ومنتنه، كما هي عاداته.

والمقصود منه هنا قول: " رب العرش العظيم " وقوله: " رب العرش الكريم "، وقد تقدم أن العرش هو سقف المخلوقات كلها، وليس فوقه مخلوق، وقد وصفه -تعالى- بأنه عظيم، وبأنه كريم، وأضافه -تعالى- إليه مما يدل على أن له خصوصية دون غيره من السماوات والأرض، كما تقدم. وقد أخبرنا -تعالى- بأنه استوى عليه فهو من دلائل علوه -تعالى- فوق خلقه.

60-قال: " حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن أبيه، عن ابن أبي نعم - أو أبي نعم، شك قبيصة -، عن أبي سعيد، قال: بعث إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بذهبية، فقسمها بين أربعة ".

وحدثني إسحاق بن نصر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان، عن أبيه، عن ابن أبي نعم، عن أبي سعيد الخدري، قال: " بعث علي، وهو في اليمن، إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- بذهبية في تربتها، فقسمها بين الأقرع بن حابس الحنظلي، ثم أحد بني مجاشع، وبين عينة بن بدر الفزاري، وبين علقمة بن علاثة العامري، ثم أحد بني كلاب، وبين زيد الخيل الطائي، ثم أحد بني نهران، فتغيظت قريش، والأنصار، فقالوا: يعطيه صناديد أهل نجد، ويدعنا -؟ قال: " إنما أتألفهم"، فأقبل رجل، غائر العينين، ناتيء الجبين، كث اللحية، مشرف الوجنتين، محلوق الرأس، فقال: يا محمد: اتق الله، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: " فمن يطيع الله إذا عصيته؟ فيأمنني على أهل الأرض، ولا تأمنوني؟" فسأل رجل من القوم قتله - أراه خالد بن الوليد - فمنعه النبي -صلى الله عليه وسلم- فلما ولي، قال النبي -صلى الله عليه وسلم-: " إن من ضئضئ هذا قوماً يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية، يقتلون أهل الإسلام، ويعدون أهل الأوثان لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد ".

أرسل النبي -صلى الله عليه وسلم- علي بن أبي طالب إلى اليمن، يدعو الله -تعالى- ويقبض الزكاة من أصحابها، ويقضي في المنازعات، وكان ذلك قبل حجة الوداع، كما ذكره البخاري في آخر المغازي، ثم إن علياً وافى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بمكة، في حجة الوداع راجعاً من اليمن، وكان قد أرسل بذهبية، تصغير ذهبية، أي قطعة من الذهب، فقسمها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بين هؤلاء الأربعة المذكورين رجاء إسلامهم، وكانوا رؤساء قبائلهم، فإذا أسلموا، أسلم تبعاً لهم خلق كثير، ولهذا أعطاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- المال ترغيباً لهم في الإسلام، وتأليفاً لقلوبهم عليه، كما بينه -صلى الله عليه وسلم- في جوابه للصحابة، الذين قالوا: " يعطيه صناديد أهل نجد، ويدعنا".

وقوله: " في تربتها" أي: أنها لم تخلص من ترابها، فليست ذهباً خالصاً؛ لأنها مختلطة بالتراب.

قيل: أنها من الخمس، واستبعد ابن حجر أن يكون من أصل الغنيمة، ويمكن أن تكون زكاة.

قوله: " فتغيظت قريش، والأنصار " من الغيظ، أي غاظها ذلك، حيث لم يعطهم منها، وفي رواية: " فغضبت " من الغضب.

" فقالوا: يعطيه صناديد أهل نجد، ويدعنا " الصناديد: جمع صنديد، وهو: الرئيس، وفي " القاموس ": الصندد { يفتح الصاد، وإسكان النون، وكسر الدال الأولى } (1144): السيد، الشجاع، أو الحليم، أو الجواد، أو الكريم " اهـ. قوله: " إنما أتألفهم " أي: أعطيتهم ليألفوا الدين، ويجتمعوا على حبه، والرغبة فيه، فأرغبهم فيه علي طريق الإحسان إليهم بالدنيا حتى يصل إلى قلوبهم، فيحبوه ويرغبوا فيه، أو لأجل ما يتحصلون عليه من الدنيا، ثم بعد ذلك لما يرجونه من جزاء الله وثوابه في الآخرة.

والتأليف من الإلف، وهو الإجماع والالتئام مع الحب. والمعنى: إني أعطيتهم؛ ليكون ذلك داعياً لهم إلى حب الإسلام، والرغبة فيه والإجماع عليه، حتى يكونوا من أنصاره، ويتبعهم على ذلك أقوامهم وعشائرتهم، فيحصل بذلك عز الإسلام، ونصره، فهذا العطاء مما يحبه الله ويشيب عليه، وهو من الإنفاق في سبيل الله -تعالى- بل من أفضله.

ووصفه الرجل المعترض على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هي أمور اتفقت فيه، وليست هذه الأوصاف الظاهرة في هذا الهالك مذمومة لذاتها.

وقوله: " فمن يطيع الله إذا عصيته؟ " يعني: أنه -صلى الله عليه وسلم- هو أحق الناس وأولاهم بطاعة الله -تعالى- وتقواه.

وهذا هو الضلال؛ أن يتصور الإنسان الطاعة معصية، فهذا الرجل المعترض تصور أن فعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- معصية، وأنه من الجور، فنصب نفسه أمراً بتقوى الله، فقال للرسول -صلى الله عليه وسلم-: " اتق الله " مع أن فعل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو تقوى، ومن أعظم الطاعات له، فهو يعطي الله، ولنصر دينه، وهداية عباده.

ص 388

قوله: " فيأمنني على أهل الأرض، ولا تأمنوني " أي يأمنني الله -تعالى- على الرسالة التي أرسلني بها إلى الأرض، ولا تأمنني أنت أيها المعترض، ومن على شاكلتك ممن ضل طريق الرشيد، لا تأمنوني على حطام الدنيا أن أضعه حيث يجب أن يوضع، على وفق أمر الله -تعالى-.

والرواية التي ذكرها في " المغازي ": " فقال: ألا تأمنوني، وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً " (1145).

وهذا اللفظ أظهر، وأوضح في المقصود، من الرواية المذكورة هنا.

(1144) ما بين المعقوفتين من حاشية " القاموس " (1/309).

(1145) انظر " الفتح " (8/67).

قال الحافظ: " وبهذا تظهر مناسبة هذا الحديث للترجمة، لكنه جرى على عادته في إدخال الحديث في الباب، للفظه تكون في بعض طرقه هي المناسبة لذلك الباب، يشير إليها، ويريد بذلك شحذ الأذهان، والبعث على كثرة الاستحضار" (1146).

قلت: ولا يخلو اللفظ المذكور من الدليل على المقصود، الذي هو علو الله -تعالى-؛ لأن قوله: " فيأمنني على أهل الأرض " يدل على أن الآمن الذي هو الله -تعالى- في السماء.

ومعنى قوله: " من في السماء " أي: الله الذي في السماء، و" في " هنا بمعنى " على " كما ذكر البيهقي، عن أبي بكر، أحمد بن إسحاق الضبعي: " أن العرب قد تضع " في " بموضع " على " قال الله -تعالى-: { فسيحوا في الأرض } (1147)، وقال: { ولأصلبكم في جذوع النخل } (1148) ومعناه: على الأرض، وعلى جذوع النخل.

فكذلك قوله: " في السماء " أي: على العرش، فوق السماء، كما صحت الأخبار عن النبي -صلى الله عليه وسلم- " (1149).
ص 389

وهذا الحديث مثل قول الله -تعالى-: { أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ } {16} أَمْ أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا } (1150).

فأما أن تكون " في " بمعنى " على " كما تقدم، أو يقصد بالسماء: العلو، أي: أمنتكم من في العلو، وكلاهما صحيح سائغ في اللغة والمعنى.

قوله: " فسأله رجل من القوم قتله، أراه خالد بن الوليد، فمنعه النبي -صلى الله عليه وسلم- " أي: استأذن الرسول -صلى الله عليه وسلم- في ذلك، وقد تقدم في المناقب أن السائل هو عمر بن الخطاب. (1151)

قال الحافظ: " لا تنافي بين الروايتين، إذ يجوز أن يكون كل واحد منهما طلب ذلك" (1152).

وقد جاء أن سبب منعه من قتله، خوف أن يقال: إن محمداً يقتل أصحابه، فيصير بذلك تنفيراً عن الدخول في الإسلام.

(1146) () "الفتح" (13/418).

(1147) () الآية 2 من سورة التوبة .

(1148) () الآية 71 من سورة طه.

(1149) () " الأسماء والصفات " (ص 421).

(1150) () الآيتان 16 و 17 من سورة الملك .

(1151) () انظر: "الفتح" (6/618).

(1152) () المرجع السابق (6/618).

قوله: " إن من ضئضى هذا، قوم يقرؤون القرآن، لا يجاوز حناجرهم " قال في "النهاية": "الضئضى: الأصل، يقال: ضئضى صدق، وضؤضؤ صدق، يريد أن يخرج من نسله وعقبه" (1153)

وفي "اللسان": "الضئضى، والضؤضؤ: الأصل، والمعدن" (1154).
والمقصود، الإخبار بأنه يأتي من جنس هذا الرجل الضال، قوم يسلكون مسلكه، يقرأون القرآن، ولكن لا يصل إلى قلوبهم، فهم لا يفهمونه على ما أريد، بل يضعونه في غير موضعه؛ لأنهم ضالون، وجاهلون، ولهذا يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية، أي: يخرجون من الإسلام بسرعة وسهولة، غير متأثرين به، كأنهم لم يدخلوه، وهذا يدل على أنهم دخلوا في الإسلام، ولكن لم يتمكن
ص 390

الإيمان في قلوبهم، ولم يفهموه على وجهه، ولهذا صار من أوصافهم: أنهم يقتلون أهل الإسلام، ويدعون الكفار عباد الأوثان، ومن أجل ذلك قال - صلي الله عليه وسلم -: " لئن أدركتهم، لأقتلنهم قتل عاد " أي لا أبقى منهم أحداً، يشير بذلك إلى قوله -تعالى- في وصف هلاك عاد: { فهل ترى لهم من باقية } (1155) ولم يرد أنه يقتلهم بالشيء الذي قتلت به عاد بعينه.
ويحتمل أن يكون من الإضافة إلى الفاعل، ويراد به: " القتل الشديد القوي، ويكون في ذلك إشارة إلى وصفه بالشدة والقوة، وبؤيده أنه وقع في طريق أخرى "قتل ثمود" (1156).

(1153) "النهاية" (3/69).

(1154) "لسان العرب" (2/503) المرتب.

(1155) الآية 8 من سورة الحاقة .

(1156) قاله الحافظ في "الفتح" (6/377).

61- ثم ذكر حديث أبي ذر الذي تقدم في الباب قبل هذا فقال: "حدثنا عياش بن الوليد، حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر، قال: سألت النبي -صلى الله عليه وسلم- عن قوله: { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } قال: " مستقرها تحت العرش " .

قد تقدم شرحه والشاهد منه هنا: أن الشمس في ارتفاعها، وأبعد ما تكون عن الأرض التي عليها المخاطبين آنذاك، تكون تحت العرش، فالمخلوقات كلها تحته، والله -تعالى- فوق العرش، فهو عالٍ على خلقه كلهم وفوقهم.

في هذا الباب والذي قبله قصد البخاري - رحمه الله تعالى - إثبات علو الله، واستواءه على العرش، كما هو ثابت في نفس الأمر، وتضافرت عليه أدلة الوحي، والعقول والفطر، وكما هو مذهب السلف من الصحابة، وأتباعهم إلى اليوم.

والنصوص التي ذكرها البخاري ظاهرة الدلالة على ذلك، وهي نزر يسير جداً من النصوص الكثيرة المتنوعة في ذلك.

قال ابن أبي العز: " ومن سمع أحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم-، وكلام السلف، وجد منه في إثبات الفوقية ما لا ينحصر.

ولا ريب أن الله - سبحانه - لما خلق الخلق، لم يخلقهم في ذاته المقدسة، فإنه الأحد الصمد، فتعين أنه خلقهم خارجاً عن ذاته.

ولو لم يتصف - سبحانه - بفوقية الذات، مع أنه قائم بنفسه، غير مخالط للخلق؛ لكان متصفاً بصد ذلك؛ لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده، وصد الفوقية: السفول، وهو مذموم على الإطلاق.

فإن قيل: لا نسلم أنه قابل للفوقية، حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها. قيل: لو لم يكن قابلاً للعلو، والفوقية، لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها، فمتى أقررتم أنه موجود قائم بنفسه، ليس وجوده ذهنياً، بل وجوده خارج الأذهان قطعاً، يتعين أن يكون متميزاً عن خلقه، عالياً عليهم.

وقد علم العقلاء كلهم بالضرورة، أن ما كان وجوده خارج الأذهان، فهو إما أن يكون داخلياً في الخلق، أو بائناً منهم خارجاً عنهم.

وإنكار ذلك إنكار لما هو أجلى وأظهر من الأمور البديهيات الضرورية، بلا ريب، فلا يستدل بدليل على وجوده، إلا كان العلم بالمباينة أظهر منه، وأوضح وأبين.

وإذا كانت صفة العلو والفوقية صفة كمال، لا نقص، ولا تستلزم نقصاً، ولا محذور فيها، ولا تخالف كتاباً، ولا سنة، ولا إجماعاً، فنفي حقيقتها يكون عين الباطل والمحال، الذي لا تأتي به شريعة أصلاً، فكيف إذا كان لا يمكن الإقرار بوجوده -تعالى-، وتصديق رسله، والإيمان بكتابه، وما جاء به رسوله، إلا بذلك؟

فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والنصوص الواردة، المتنوعة في الدلالة، على علو الله -تعالى- على خلقه، وكونه فوق عباده، التي تقرب من عشرين نوعاً:

أحدها: التصريح بالفوقية، مقروناً بأداة "من" المعينة للفوقية بالذات، كقوله -تعالى-: { يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ قَوْقِهِمْ } (1157).

الثاني: ذكر الفوقية، مجردة عن الأداة، كقوله -تعالى-: { وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ } (1158).

الثالث: التصريح بالعروج إليه، كقوله -تعالى-: { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } (1159)، وقوله -صلى الله عليه وسلم-: " فيعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم، وهو أعلم " كما تقدم.

الرابع: التصريح بالصعود إليه، كقوله -تعالى-: { إليه يصعد الكلم الطيب } (1160).

الخامس: التصريح برفعه -تعالى- بعض خلقه إليه، كقوله -تعالى-: { بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ } (1161)، وقوله: { إني متوفيك ورافعك } (1162).

ص 393

السادس: التصريح بالعلو المطلق، الدال على جميع مراتب العلوم، ذاتاً وقدراً، وشرفاً، كقوله -تعالى-: { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ } (1163)، وقوله -تعالى-: { وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } (1164)، وقوله -تعالى-: { إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ } (1165).

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه، كقوله -تعالى-: { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } (1166)، وقوله: { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } (1167)، وهو كثير.

(1157) الآية 50 من سورة النحل.
(1158) الآية 18 و 61 من سورة الأنعام.
(1159) الآية 4 من سورة المعارج.
(1160) الآية 10 من سورة فاطر.
(1161) الآية 158 من سورة النساء.
(1162) الآية 55 من سورة آل عمران.
(1163) الآية 255 من سورة البقرة.
(1164) الآية 23 من سورة سبأ.
(1165) الآية 51 من سورة الشورى.
(1166) الآية الأولى من سورة الزمر.
(1167) الآية 2 من سورة غافر.

الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات، بأنها عنده، وأن بعضها أقرب إليه من بعض، كقوله -تعالى-: {إن الذين عند ربك} (1168)، وقوله -تعالى-: {وله من في السموات والأرض ومن عنده} (1169)، ففرق تعالى بين من عنده عموماً، وبين من عنده من الملائكة، وقد تقدم قوله -صلى الله عليه وسلم-: "إن الله لما خلق الخلق كتب كتاباً، فهو عنده فوق عرشه".
التاسع: التصريح بأنه -تعالى- في السماء، كقوله تعالى: {أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور} (1170)، وتقدم أن ذلك، على وجهين، إما أن تكون "في" بمعنى "على" أو يراد بالسماء العلو، لا يجوز غير ذلك.

العاشر: التصريح برفع الأيدي إلى الله -تعالى-: كقوله -صلى الله عليه وسلم-: "إن الله يستحي من عبده، إذا رفع إليه يديه، أن يردهما صفراً" (1171).

ص 394

الحادي عشر: التصريح بالاستواء، مقروناً بأداة "على" مخصوصاً بالعرش الذي هو أعلى المخلوقات.

الثاني عشر: التصريح بنزوله -تعالى- كل ليلة إلى سماء الدنيا، والنزول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى أسفل.

الثالث عشر: الإشارة الحسية إليه في العلو، كما فعل ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في خطبته في حجة الوداع، حيث قال: "إنكم مسئولون عني، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت، فرفع إصبعه إلى السماء، وقال: اللهم اشهد" (1172).

الرابع عشر: سؤال الرسول -صلى الله عليه وسلم- بلفظ "أين الله؟" وإخباره عن قال: "الله في السماء" بأنه مؤمن (1173).

الخامس عشر: اتفاق الكتب المنزلة من الله والرسول على أن الله فوق عباده عال عليهم، كما قال -تعالى- عن فرعون: {وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب (36) أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً} (1174)؛ لأن موسى عليه السلام أخبر فرعون أن الله في السماء، فقال هذا القول ليموه على السذج أتباع كل ناعق بدون بصيرة.

(1168) آخر آية من سورة الأعراف.

(1169) الآية 19 من سورة الأنبياء.

(1170) الآية 16 من سورة الملك.

(1171) أخرجه أبو داود في "السنن" (2/165) رقم (1488)، والترمذي في الدعوات (5/217)، وابن ماجه في

"السنن" (2/1271) الحديث رقم (3865).

(1172) رواه مسلم في "صحيحه" وغيره، انظر: "مسلم" (2/890) الحديث رقم (1218)، وهو حديث جابر

الطويل في صفة الحج.

(1173) انظر: "صحيح مسلم" (1/382) الحديث رقم (537).

(1174) الآيتان 36 و 37 من سورة غافر.

السادس عشر: عروج النبي -صلى الله عليه وسلم- إليه -تعالى- وإخباره أنه تردد بينه -تعالى- وبين موسى، يطلب التخفيف من عدد الصلوات⁽¹¹⁷⁵⁾.

وقد غلط أكثر المتكلمين في مسمى السماء، حيث ظنوا أن السماء يقصد به مكان معين محاط، فتوهموا أن من قال: إن الله في السماء، أن مكاناً يحيط به أو يحويه - تعالى وتقدس-.

ص 395

قال شيخ الإسلام: " من توهم أن كون الله في السماء أن السماء تحيط به، أو تحويه، فهو كاذب أن نقله عن غيره، وضال إن اعتقده في ربه. وما فهم هذا أحد من النصوص، ولم ينقل عن أحد، ولو سئل سائر المسلمين: هل تفهمون من قول الله ورسوله: إن الله في السماء، أن السماء تحويه؟ لبادروا إلى القول: بأن هذا شيء ما خطر بالبال. فمن الضلال أن يجعل ظاهر نصوص الكتاب والسنة في ذلك دالة على الباطل والتشبيه.

بل عند الناس قولك: إن الله في السماء، وقولك: الله فوق العرش، سواء، إذ السماء إنما يراد به العلو، فالمعنى: أن الله في العلو، لا في السفلى.

وقد علم المسلمون أن كرسیه - سبحانه وتعالى - وسع السموات، والأرض، وأن الكرسي في العرش كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وأن العرش خلق من مخلوقات الله، لا نسبة له إلى عظمة الله تعالى.

فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقاً يحصره أو يحويه؟ وقد قال -تعالى-: {ولأصلبكم في جذوع النخل}⁽¹¹⁷⁶⁾، وقال -تعالى-: {فسيروا في الأرض}⁽¹¹⁷⁷⁾، بمعنى: على الأرض، وهو كلام عربي حقيقة لا مجازاً، وهذا يعلمه من عرف حقائق الحروف⁽¹¹⁷⁸⁾.

وعلو الله -تعالى- ظاهر جداً، وقد تقدم أن البخاري - رحمه الله - أشار بما ذكره في هذا الباب، إلى أن علو الله -تعالى- وفوقيته ثابت بالكتاب، والسنة، والإجماع، والعقل، والفطر.

أما ثبوته بالكتاب والسنة فواضح. وأما الإجماع: فأشار إليه بقصة زينب: أنها كانت تفتخر على أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- تقول: " زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات" فهذا يدل

(1175) "شرح الطحاوية" بتصرف (ص 256-260) الطبعة الثالثة.

(1176) الآية 71 من سورة طه.

(1177) الآية 137 من سورة آل عمران، والآية 36 من سورة النحل.

(1178) "مجموع الفتاوى" (5/106).

على الإجماع؛ لأن ذلك متقرر عندهم، ولم ينكر ذلك أحد، بل يذكر في كل مناسبة، ومن ذلك هذا الذي قاله زينب، فالإجماع عليه ظاهر، والإجماع لا يكون على خلاف المعقول، ومن أيمان العرب قولهم: " لا والذي يراني من فوق سبعة أرقعة" (1179).

وأما الفطرة، فأشار إليها بما ذكره عن أبي ذر أنه قال لأخيه، قبل أن يسلم: " أعلم لي علم هذا الرجل، الذي يأتيه الخبر من السماء" أي: يأتيه الخبر من الله الذي في السماء؛ لأنه يقول للناس: أنا رسول الله إليكم. قال شيخ الإسلام: " تبين وجوب إثبات العلو لله -تعالى- من وجوه: أحدها: أن القرآن، والسنن المستفيضة، المتواترة، وغير المتواترة، وكلام السابقين والتابعين وأهل القرون الثلاثة، مملوء بما فيه إثبات العلو لله، وأنه مستو على عرشه، بأنواع من الدلالات. فالله -تعالى- يخبرنا تارة، أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش.

وتارة يخبر بعروج الأشياء، وصعودها، وارتفاعها إليه، كقوله -تعالى-: { بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ } (1180)، { إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ } (1181)، { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ } (1182)، { إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ } (1183).

وتارة يخبر ينزولها منه، أو من عنده، كقوله -تعالى-: { وَالَّذِينَ آمَنَّا هُمْ بِالْحَقِّ } (1185)، { قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ } (1184).

{ حم } {1} { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } (1186)، { تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ } (1187).
وتارة يخبر بأنه العلي الأعلى، كقوله -تعالى-: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1188)، وقوله -تعالى-: وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (1189).

(1179) انظر: "أيمان العرب" للنجيري (ص 15).

(1180) الآية 158 من سورة النساء.

(1181) الآية 55 من سورة آل عمران.

(1182) الآية 4 من سورة المعارج.

(1183) الآية 10 من سورة فاطر.

(1184) الآية 114 من سورة الأنعام.

(1185) الآية 102 من سورة النحل.

(1186) فاتحة سورة فصلت.

(1187) فاتحة سورة الجاثية والأحقاف.

(1188) فاتحة سورة الأعلى.

(1189) الآية 255 من سورة البقرة، و الآية 4 من سورة الشورى.

وتارة يخبر بأنه في السماء، كقوله -تعالى- أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ {16} أَمْ أَمِنْتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ بَدِيرٍ (1190)، فذكر السماء دون الأرض، وكقوله -صلى الله عليه وسلم-: " ألا تأمنوني، وأنا أمين من في السماء؟" وقوله للجارية: " أين الله؟" قالت: في السماء، قال: " اعتقها، فإنها مؤمنة" ولم يعلق ذلك بالوهية أو غيرها، كما في قوله -تعالى- وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله (1191)، وقوله: وهو الله في السماوات وفي الأرض (1192)، أي: هو المألوه المعبود في السموات والأرض.

وتارة يجعل بعض الخلق عنده، دون بعض، كقوله وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته { (1193). فلو كان موجب العندية معنى عاماً، كدخولهم تحت قدرته، ومشيئته، ونحو ذلك، لكان كل مخلوق عنده، ولم يكن أحد مستكبراً عن عبادته. وأما الأحاديث، والآثار عن الصحابة، والتابعين فلا يحصيها إلا الله -تعالى-.

ص 399

فلا يخلو أن يكون ما اتفقت عليه هذه النصوص، من إثبات علو الله -تعالى- على خلقه هو الحق، أو الحق نقيضه، إذ الحق لا يخلو عن النقيضين. فإذا كان نفي العلو هو الحق، فمعلوم أن القرآن لم يبين هذا، لا نصاً، ولا مفهوماً، وكذلك الرسول -صلى الله عليه وسلم-، ولا أحد من الصحابة وأتباعهم، ولا أحد من أئمة المسلمين، ولا يمكن أحد أن ينقل عن واحد منهم شيئاً من ذلك، بل نقيضه هو المستفيض عنهم، كما هو الموافق للكتاب والسنة.

ويلزم على ذلك أن يكون الله ورسوله والمؤمنون، لم ينطقوا بالحق في هذا الباب، بل تكلموا بما يدل على الضلال، إما نصاً، أو ظاهراً. فإن قيل: هذه النصوص ما أريد بها إثبات علو الله على خلقه، وإنما أريد بها علو المكانة والقدرة.

قيل: فكان يجب على المتكلم بها أن يبين للناس الحق، الذي يجب أن يؤمن به ويعتقد، ظاهراً وباطناً، وأنه لم يرد بهذا الكلام مفهومه، ومقتضاه. فإن قيل: إنه تكلم بالمجاز، المخالف للحقيقة.

قيل: من المعلوم باتفاق العقلاء: أن المخاطب المبين إذا تكلم بمجاز، فلا بد أن يقرن بخطابه ما يدل على إرادة المعنى المجازي، فإذا كان

(1190) (الآيتان 16 و 17 من سورة الملك .

(1191) (الآية 84 من سورة الزخرف.

(1192) (الآية 3 من سورة الأنعام.

(1193) (الآية 19 من سورة الأنبياء.

الرسول - صلى الله عليه وسلم - الذي بين للناس ما نزل إليهم - يعلم أن المراد بالكلام خلاف مقتضاه وظاهره، وجب عليه أن يقرن بخطابه ما يصرف القلوب عن فهم المعنى الذي لم يرد، ولا سيما إذا كان ذلك المعنى باطلاً، ولا يجوز اعتقاده في الله - تعالى -، وهذا يجب ولو لم يخاطبهم بما يفهم منه خلاف الحق، الذي يجب اعتقاده، إذا كان مخوفاً عليهم، فكيف إذا كان في كلامه ما يفهم منه خلاف الحق" (1194).

فلا عذر لمن أنكر علو الله، ونفاة العلو والصفات، يقولون: إن هذه النصوص لم يرد بها الحقيقة والظاهر المفهوم منها، والقرينة الصارفة عن ذلك هي دلالة العقل، فاكتفى المتكلم بهذه القرينة؛ لأنها عقلية، عند كل عاقل.

ص 399

فيقال لهم: إذا كان ما تكلم به الله ورسوله، إنما يفيد مجرد الضلال، والهدى إنما يستفاد من العقول، فلماذا ينزل الله الكتاب، ويرسل الرسول؟ للعناء والشقاء؟ فإن تركهم على جاهليتهم خير لهم من أن ينزل عليهم الكتاب، ويرسل إليهم الرسول، هذا هو لازم هذا القول الباطل. ويقال أيضاً: الرسول جاء بإثبات العلو، والصفات، وذلك أظهر في العقل من قولكم.

ثم الرسول - صلى الله عليه وسلم - أما أن يتكلم بالهدى، أو بالضلال، أو يسكت عنهما.

ومعلوم أن السكوت عنهما خير من التكلم بالضلال. وبذلك يعلم بالعقل، أنه لم يسكت عن بيان الحق، والهدى، والتحذير من اعتقاده الباطل، وبذلك يتفق ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - مع العقل الصحيح، الذي لم تفسده الشياطين، والهوى المضل.

فالعقل يوافق ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا ما يقوله نفاة الصفات، وليس بين العقل الصريح والنقل الصحيح تناقض أصلاً، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه: درء تعارض العقل والنقل، وغيره.

فقولهم: إن القرينة الصارفة عن الظاهر، هي العقل، خطأ محض، إذ العقل يوافقها لا يخالفها كما توهموه، كما أن إثبات الصفات ليس فيه تشبيه كما زعموا، ولكن الأوهام وسوء الظن بالله ورسوله أرداهم.

ومن حججهم الباطلة التي حملتهم على صرف النصوص عن ظاهرها، ورأوا وجوب تأويلها لذلك، هي قاعدتهم في أن جميع الأجسام حادثة لملازمتها للأعراض التي هي الصفات، فوجب تنزيه الرب - تعالى - عن كل صفة تستلزم التركيب، أو الجسمية؛ لأن الأعراض لا تكون إلا في جسم،

(1194) "مجموع الفتاوى" (168-5/164) ملخصاً.

والجسم لا بد أن يكون مركباً من الجواهر - كما زعموا-، ولهذا قالوا: إن الاستواء والعلو، يلزم منهما النقلة، والمكان، والحركة، وهذه من صفات الأجسام.

فيقال لهم: الحياة، والعلم، والسمع، والبصر - مما جوزتم لأنفسكم أن تصفوه به- لا يعقل أن تقوم إلا بجسم، مع أنكم تسمون الصفات: أعراضاً، ولا فرق بين ما أثبتموه وما نفيتموه في المعنى، ألا يجوز لغيركم أن يصف الله -تعالى- بما وصف

ص 400

به نفسه، ووصفته به رسله بأنه -تعالى- مستو على عرشه، وعال على خلقه، وبأن له وجهاً ويدين حقيقة، ونحو ذلك مما تسمونه: أبعاضاً، تستلزم التركيب، والجسمية؟ كما افتريتموه على رب العالمين، ورميتم من وصف الله -تعالى- بما وصف به نفسه، بالتشبيه، والتجسيم، مع أنهم أقرب إلى المعقول منكم، وقد سلم لهم المنقول بدون تحريف.

قال شيخ الإسلام: " ولا ريب أن الله موجود، قائم بنفسه، وترفع إليه الأيدي عند الدعاء، كما فطر على ذلك جميع عباده، ولا ريب أنه تجوز رؤيته في الآخرة، كما أخبر بذلك في كتابه، فإذا سموا هذه المعاني تجسيمياً، فلا ينبغي لنا أن نترك ما أخبر الله به عن نفسه في كتابه، ونذهب إلى تأويلها، لمجرد هذه التسميات الحادثة المبتدعة"⁽¹¹⁹⁵⁾

وقال أيضاً: " ولفظ الظاهر فيه إجمال، واشتراك، فإن كان القائل يعتقد أن ظاهرها التمثيل بصفات المخلوقين، أو ما هو من خصائصهم، فلا ريب أن هذا غير مراد.

والسلف والأئمة لم يكونوا يسمون هذا ظاهرها، ولا يرتضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفراً، وباطلاً.

والله سبحانه - وتعالى - أعلم وأحكم من أن يكون كلامه الذي وصف به نفسه، لا يظهر منه إلا ما هو كفر، أو ضلال.

والذين يجعلون ظاهرها ذلك، يغلطون من وجهين:

أحدهما: أنهم جعلوا المعنى الفاسد، هو ظاهر نص كلام الله وكلام رسوله، ولذلك أوجبوا تأويله، ليخالف الظاهر الذي زعموا، وليس الأمر كذلك.

الثاني: أنهم ردوا المعنى الصحيح الذي هو ظاهر اللفظ؛ لاعتقادهم أنه باطل، كقولهم في الحديث: " قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن "، قالوا: لا يجوز أن يراد به الظاهر، فليس في قلوبنا أصابع.

ص 401

(¹¹⁹⁵) "مجموع الفتاوى" (45-3/43) ملخصاً.

ومعلوم أنه ليس ظاهره أن القلوب متصلة بالأصابع، ولا مماسة لها، ولا أن أصابع الرحمن في جوف العبد، ولا يفهم من قول القائل: هذا بين يدي، ما يقتضي مباشرته ليديه.

وإذا قيل: إن السحاب بين السماء والأرض، لم يقتض أن يكون مماساً للسماء، أو الأرض، ونظائر ذلك كثيرة⁽¹¹⁹⁶⁾.

وقال أبو نصر السجزي في "الإبانة": "وأئتمنا، كسفيان، ومالك، والحمادين، وابن عيينة، والفضيل، وابن المبارك، وأحمد بن حنبل، وإسحاق، متفقون على أن الله فوق العرش، وعلمه في كل مكان، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا، وأنه يغضب، ويرضى، ويتكلم بما يشاء"⁽¹¹⁹⁷⁾.

وقال ابن عبد البر في شرحه لحديث النزول: "وفيه دليل على أن الله - عز وجل - في السماء على العرش، من فوق سبع سماوات، كما قالت الجماعة، وهو من حجتهم على المعتزلة والجهمية، في قولهم: إن الله - عز وجل - في كل مكان، وليس على العرش، والدليل على صحة ما قال أهل الحق: قوله - تعالى -: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} ⁽¹¹⁹⁸⁾ وقوله - تعالى -: {اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ} ⁽¹¹⁹⁹⁾، وقوله - تعالى -: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ} ⁽¹²⁰⁰⁾، وقوله - تعالى -: {إِذَا لَابَتَّغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا} ⁽¹²⁰¹⁾، وقوله - تعالى -: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ} ⁽¹²⁰²⁾، وقوله - تعالى -: {تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ} ⁽¹²⁰³⁾، وقوله - تعالى -: {أَمِنتُمْ مِّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ} ⁽¹²⁰⁴⁾، وقوله - تعالى -: {سُبْحِ اسْمِ رَبِّكَ

ص 402

الأعلى}، وهذا من العلو، وكذلك قوله - تعالى -: {العلي العظيم} ⁽¹²⁰⁵⁾، وقوله - تعالى -: {الكبير المتعال} ⁽¹²⁰⁶⁾، وقوله - تعالى -: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ} ⁽¹²⁰⁷⁾، وقوله - تعالى -: {يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوْقِهِمْ} ⁽¹²⁰⁸⁾، والجهمي يزعم أنه أسفل.

⁽¹¹⁹⁶⁾ المصدر السابق .

⁽¹¹⁹⁷⁾ ذكره الذهبي في "سير أعلام النبلاء" (17/656).

⁽¹¹⁹⁸⁾ الآية 5 من سورة طه.

⁽¹¹⁹⁹⁾ الآية 4 من سورة ألم السجدة.

⁽¹²⁰⁰⁾ الآية 11 من سورة حم فصلت .

⁽¹²⁰¹⁾ الآية 42 من سورة الإسراء.

⁽¹²⁰²⁾ الآية 10 من سورة فاطر.

⁽¹²⁰³⁾ الآية 143 من سورة الأعراف.

⁽¹²⁰⁴⁾ الآية 16 من سورة الملك.

⁽¹²⁰⁵⁾ الآية 255 من سورة البقرة ، و الآية 4 من سورة الشورى.

⁽¹²⁰⁶⁾ الآية 9 من سورة الرعد.

⁽¹²⁰⁷⁾ الآية 15 من سورة غافر.

⁽¹²⁰⁸⁾ الآية 50 من سورة النحل.

وقال - جل ذكره -: { يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ }⁽¹²⁰⁹⁾، وقال - تعالى -: تعرج الملائكة والروح⁽¹²¹⁰⁾، وقال - تعالى - لعيسى: إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ⁽¹²¹¹⁾، وقال - تعالى -: بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ⁽¹²¹²⁾، وقال - تعالى -: قَالَ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ⁽¹²¹³⁾، وقال - تعالى -: وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ⁽¹²¹⁴⁾، وقال تعالى: لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ {2} مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ⁽¹²¹⁵⁾، والعروج: الصعود.

و أما قوله - تعالى -: { أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ }⁽¹²¹⁶⁾، فمعناه: من على السماء، يعني على العرش، وقد يكون "في" بمعنى "على" ألا ترى إلى قوله - تعالى -: { وَأَصْلَبْتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ }⁽¹²¹⁷⁾، وقوله - تعالى -: { فَسِيحُوا فِي

ص 403

الأرض أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ }⁽¹²¹⁸⁾؟ أي: على الأرض، وهذا كله يعضده قوله - تعالى -: { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ }⁽¹²¹⁹⁾، وما كان مثله مما تلونا من الآيات في هذا الباب⁽¹²²⁰⁾ اهـ.

وقال أيضاً: " وما روي عن ابن عباس في قوله - تعالى -: الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى⁽¹²²¹⁾، أنه قال على جميع برئته، فلا يخلو منه مكان".

فالجواب: أنه منكر، ونقلته مجهولون، وضعفاء، وهم لا يقبلون أخبار الآحاد العدول، فكيف يحتجون بمثل هذا الأثر الساقط؟ وأما تعلقهم بقوله - تعالى -: { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ }⁽¹²²²⁾، وقوله - تعالى -: { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ }⁽¹²²³⁾، وزعمهم أنه الله - تبارك وتعالى - في كل مكان بنفسه وذاته. فيقال لهم: أنتم لا تخالفون بأنه ليس في الأرض دون السماء، بذاته، فيجب حمل هذه النصوص على المعنى الصحيح المجمع عليه، وهو أنه في السماء إله معبود من أهل السماء، وفي الأرض إله معبود من أهل الأرض، وهو الذي قاله أهل العلم بالتفسير.

⁽¹²⁰⁹⁾ الآية 5 من سورة ألم السجدة.

⁽¹²¹⁰⁾ الآية 4 من سورة المعارج.

⁽¹²¹¹⁾ الآية 55 من سورة آل عمران .

⁽¹²¹²⁾ الآية 158 من سورة النساء.

⁽¹²¹³⁾ الآية 38 من سورة فصلت .

⁽¹²¹⁴⁾ الآية 19 من سورة الأنبياء.

⁽¹²¹⁵⁾ الآيتان 2 و 3 من سورة المعارج.

⁽¹²¹⁶⁾ الآية 16 من سورة الملك.

⁽¹²¹⁷⁾ الآية 71 من سورة طه.

⁽¹²¹⁸⁾ الآية 2 من سورة التوبة .

⁽¹²¹⁹⁾ الآية 4 من سورة المعارج .

⁽¹²²⁰⁾ " التمهيد " (130-7/129).

⁽¹²²¹⁾ الآية 5 من سورة طه.

⁽¹²²²⁾ الآية 84 من سورة الزخرف.

⁽¹²²³⁾ الآية 7 من سورة المجادلة.

وقوله -تعالى-: { مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَايِعُهُمْ } (1224) الآية، ليس فيها حجة لهم؛ لأن علماء الصحابة والتابعين، الذين روي عنهم التفسير، قالوا في هذه الآية: هو على العرش، وعلمه في كل مكان. ولم يخالفهم في ذلك من يعتد به.

ثم ذكر عن ابن مسعود: قال: " الله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم " وذكر عن الضحاك، وسفيان الثوري مثله " (1225).
ص 404

فتبين بما ذكره أن هذه الآيات التي تعلق بها نفاة العلو، تدل على عكس قولهم، فهي متفقة مع النصوص الصريحة في الدلالة على علو الله -تعالى-. من الحجج القاطعة أن الله تعالى فوق السماوات على عرشه: أن كل داع يدعو الله -تعالى- يجد في نفسه دافعاً إلى الاتجاه إلى الله فوقه، وهو أمر ضروري وقطعي، فلا يمكن لأي سائل يسأل الله ويطلب منه إلا - رفع - يديه، واتجه بقلبه إلى من يستغيث به، الذي هو عال فوق جميع مخلوقاته، مستو على عرشه، فالعلم بذلك فطري ضروري عقلي، ونصوص الشرع جاءت مؤيدة ذلك مقررة له.

قال شيخ الإسلام: " ذكر محمد بن طاهر المقدسي، عن الشيخ الجليل أبي جعفر الهمداني، أنه حضر مجلس أبي المعالي الجويني، وهو يقول: كان الله، ولا عرش { ولا مكان } وهو على ما { كان } عليه { قبل خلق المكان }، أو كلام من هذا المعنى، فقال: يا شيخ، دعنا من ذكر العرش، أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، فإنه ما قال عارف قط: يا الله، إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلو، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا؟.

فصرخ أبو المعالي، ولطم رأسه، وقال: " حيرني الهمداني " (1226). وقد تعلق نفاة العلو أيضاً: بأن الله -تعالى- لو كان في مكان، لأشبهه المخلوقات؛ لأن ما أحاطت به الأمكنة فهو مخلوق. فيقال: هذا نشأ عن القياس الفاسد، والتشبيه المستكن في نفوس هؤلاء، إذ لو آمنوا بأن الله على كل شيء قدير، وأنه ليس كمثله شيء، ما انطلت هذه الشبه وهذا الهراء على نفوسهم.

ويقال أيضاً: أستم تقرون بأن الله -تعالى- موجود قبل خلق الكون، فهو -تعالى- كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " كان الله، ولم يكن شيء معه " (1227).

(1224) الآية 7 من سورة المجادلة.

(1225) " التمهيد " (139-7/133) ملخصاً.

(1226) " الاستقامة " (1/167).

(1227) تقدم هذا الحديث مشروحاً ، وبين أن هذا اللفظ مروى بالمعنى ، و أن الصواب : " ولم يكن شيء قبله " .

ونحن وأنتم وكل العقلاء، لا نعقل وجود أحد منا، إلا في مكان، وما ليس في مكان، فهو عدم، والله بخلاف ذلك، فلا يجوز أن يقاس بخلافه كما فعلتم، قلت: لو كان في مكان لأشبه خلقه.

فإن زعموا أنه يلزم من كونه -تعالى- في العلو، التغير، والانتقال؛ لأنه، كان ولا مكان، فلما خلق المكان صار في العلو، فزال عن صفته في الأزل وصار في مكان.

قيل: وأنتم يلزمكم أقبح من ذلك، وهو زعمكم أنه -تعالى- كان، لا في مكان، ثم صار في كل مكان، فقد تغير عندكم معبودكم، وانتقل من لا مكان، إلى كل مكان، وهذا لازم لكم، لا انفكاك لكم منه.

وقولهم: كان الله، ولا مكان، وهو الآن على ما كان عليه قبل خلق المكان، كلام فاسد، متناقض، وذلك أن النفاة للاستواء والعلو، وغيرهما، على قسمين:

قسم يقول: إن الله لا فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا أمام، ولا خلف، ولا داخل العالم، ولا خارجه، وهذا لا يفهم منه إلا العدم المحض، فليس له وجود فعلي على هذا الوصف، فهو إذاً ليس له مكان أصلاً، إذ لا وجود له.

وقسم يقول: إنه في كل مكان، فيلزم أنه كان في كل مكان، قبل خلق المكان، فهو إذاً في هذا الكون كله، قبل خلقه له، وهذا قول ظاهر الفساد، إذ معناه: كان في الأمكنة، قبل خلقها.

فالحق " أن الله -تعالى- ليس كمثله شيء، لا في نفسه، ولا في فعله، ولا في صفاته، ولا في مفعولاته، فإذا رام الإنسان أن ينفي شيئاً مما يستحقه؛ لعدم نظيره في الشاهد المحسوس، صار ما يثبت به بدل نفيه أبعد عن المعقول، والمشهود" (1228).

ومن الحجج المشهورة على وجوب علو الله -تعالى-: ما تقدم في كلام ابن أبي العز: وهو أن يقال: لما خلق الله الخلق، لا بد أن يكون خلقه بائناً منه، فلا يجوز أن يكون الخالق -جل وعلا- في المخلوق، وأن يكون المخلوق حاوياً له، تعالى عن

ذلك، فلا بد أن يكون بائناً عنه، ولا يجوز أن يكون المخلوق فوق الخالق - تعالى وتقدس - فلا بد أن يكون عالياً فوق خلقه.

قال شيخ الإسلام: " معرفة القلوب، وإقرارها بفطرة الله التي فطرها عليها، أن ربها فوق العالم، ودلالة الكتاب والسنة على ذلك، وظهور ذلك في

(1228) " بيان تلبيس الجهمية " (1/147).

خاصة الأمة وعامتها، وكلام السلف في ذلك، أعظم من كونه -تعالى- يرى بالأبصار يوم القيامة، أو أن رؤيته بالأبصار جائزة.

ويشهد لهذا أن الجهمية، أول ما ظهر في الإسلام، في أوائل المائة الثانية، وكان حقيقة قولهم في الباطن: تعطيل الرب -تعالى- من الصفات كلها، ولا يصفونه -تعالى- إلا بالسلوب المحضة، التي لا تنطبق إلا على المعدوم، وكانوا في الباطن ينكرون أن يرى، أو يتكلم، أو أنه فوق العرش، أو أن يكون موصوفاً بالصفات التي جاءت بها كتب الله، أو دلت عليها مع ذلك الدلائل العقلية، لكن ما كانوا يظهر من قولهم للناس، ما هو ظاهر البطلان، وما ليس فيه شبهة، مثل نفي العلو المعروف، المتيقن من المدين بالضرورة عند العامة والخاصة، وإنما يظهر ما فيه شبهة، ولهم عليه حجة، ويكونون فيه أقل مخالفة لما يعلمه الناس من الحجج الفطرية، الشرعية، وهذا شأن كل من أراد أن يظهر خلاف ما عليه أمة من الأمم من الحق، فإنهم لا ينقضون الأصول العظيمة الظاهرة ابتداءً" (1229).

ومن المؤسف أن بعض ضلالات الذين ذكرهم الشيخ، قد ورثها كثير من علماء المسلمين، كالأشعرية الذين يزعمون أنهم أعداء لهم وخصوم، مع أنهم يتفوقون معهم على إنكار علو الله تعالى، واستوائه على عرشه، ومجيئه لفصل القضاء بين عباده، ونزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة، كما أخبر به رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

كما أنهم يؤولون الصفات إلا قليلاً، تأويلاً يؤول إلى الإنكار، مثل اليدين، والرجلين، والوجه، والرحمة، والمحبة، والضحك، والرضا، والغضب، والسخط، والمقت، وغير ذلك.

ويوافقون الجهمية في كون القرآن مخلوقاً، فإنهم يجعلون الكلام قسمين: نفسي، وهو المعنى القائمة بالنفس، وهذا هو الذي يصفون الله به، ولفظي حرفي وهو

ص 407

المكتوب في المصاحف، وهو ليس كلاماً لله عندهم، بل هو عبارة عن كلام الله، وهو مخلوق، وهذا قول الجهمية الذين كفرهم السلف من أجله. والمقصود: أن علو الله -تعالى- واستواءه على عرشه ثابت بنصوص الكتب المنزلة على رسل الله، وأما العلو فهو ثابت بذلك، وبالفطر التي عليها عباده، وبالعقول التي لم تنتكس بفعل الشياطين، وبإجماع أهل العلم والإيمان من جميع الأمم، كما تقدمت الإشارة إليه، ولم يعرف خلاف في هذه المسألة، ونحوها إلا بعدما دخل كثير من الزنادقة في الإسلام نفاقاً، وقصداً

(1229) "بيان تلبيس الجهمية" (79-2/78) بتصرف.

لإفساد الدين، بعد المائة الأولى للهجرة، وإن كان قد وجد قبل ذلك بعض المفسدين المتطرفين، الذين كان لهم الأثر السيء في الأمة.

قال شيخ الإسلام: " افترق الناس، في علو الله واستوائه، أربع فرق: الأولى: الجهمية، النفاة، يقولون: ليس داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوق، ولا تحت، وجميع الطوائف، من أهل البدع يتمسكون بنصوص، إلا الجهمية. وقسم ثان منهم يقولون: إنه بذاته في كل مكان، ويدخل فيهم الأشاعرة، وهؤلاء هم الفرقة الثانية.

الثالثة: من يقول: إنه فوق العرش، وهو في كل مكان، ويزعم أنه بذلك يجمع بين النصوص.

الرابعة: المتبعون للكتاب، والسنة، الذين أثبتوا ما أثبتته الله ورسوله، من غير تحريف، فأمنوا بالله فوق سماواته، مستو على عرشه⁽¹²³⁰⁾. وقد تقدم ذكر بعض الآيات الدالة على علو الله -تعالى- صراحة، وبعض الأحاديث مما ذكره البخاري وغيره.

ومما لم يذكره: قصة معراج الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى ربه فوق السماوات كلها، وهي ثابتة ثبوتاً قطعياً بدون ريب.

وفي حديث الرقية: " ربنا الله الذي في السماء، تقدر اسمك⁽¹²³¹⁾ ".
ص 408

وفي حديث الأوعال: " والعرش فوق ذلك، والله فوق عرشه، وهو يعلم ما أنتم عليه⁽¹²³²⁾ "

وفي "سنن أبي داود"، عن جبير بن مطعم قال: أتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أعرابي فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وجاع العيال، وهلك المال، فادع الله لنا، فإننا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، فسيح رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال: " ويحك! أتدري ما الله؟ إن الله لا يستشفع به على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، إن الله على عرشه، وإن عرشه على سماواته وأرضه هكذا، وقال بأصابعه مثل القبة⁽¹²³³⁾ ".

وفي خطبته -صلى الله عليه وسلم- في عرفة، في أعظم جمع اجتمع له -صلى الله عليه وسلم- بعدما أمر، ونهى، جعل يقول: " ألا هل بلغت؟ "

(1230) "مجموع الفتاوى" (231-5/229) ملخصاً.

(1231) رواه أبو داود في "السنن" (4/218) رقم (3892)، وأحمد في "المسند" (6/21).

(1232) رواه أبو داود (5/93) والترمذي وقال: حسن غريب (5/424) رقم (3320)، وابن ماجه (1/69) وأحمد في "المسند" (207-1/206) وغيرهم.

(1233) أخرجه أبو داود في "السنن" (5/94)، وأبو سعيد الدارمي في "الرد على الجهمية" (ص 272)، وفي الرد على المرسي (ص 447).

فيقولون: نعم، عند ذلك يرفع إصبعه إلى السماء وينكبها إليهم، ويقول: " اللهم اشهد" - غير مرة - (1234).

والنصوص في ذلك كثيرة جداً، والحق في هذه المسألة واضح جلي، بل وفي كل ما يجب لله -تعالى- وما يمتنع عليه، ومعلوم أن الله -تعالى- قد أكمل لهذه الأمة دينها على لسان رسولها، وأتم عليها النعمة بذلك، وأنزل كتابه فيه تبيان كل شيء، ومعرفته -تعالى- بما له من الأوصاف، ومعرفة ما يمتنع عليه، هي أجل أمور الدين وأعظم أصوله، فلا بد أن يكون هذا قد بين غاية البيان.

ثم إنه ليس بين علو الله -تعالى- على جميع خلقه، ومعيته لخلقه، وقربه من عباده، منافاة، فعلوه -تعالى- واستواؤه على عرشه، ثابت ثبوتاً قطعياً، كما وضح ذلك -تعالى- في كتابه، وبينه رسوله -صلى الله عليه وسلم- وكذلك معيته -تعالى- لخلقه، قد وضحا وبينها رسوله، فوجب الإيمان بذلك، فكما أنه تعالى مستوٍ على عرشه، وعالٍ على خلقه، حقيقة، فهو كذلك موصوف بالقرب والمعية على الحقيقة.

ص 409

قال شيخ الإسلام: " لا يخالف ما ثبت من علو الله، وأنه فوق العرش، معيته لخلقه، الثابت بمثل قوله: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ } (1235). وقوله - صلى الله عليه وسلم -: " إذا قام أحدكم إلى الصلاة، فإن الله قبل وجهه" (1236) ونحو ذلك.

وذلك أن الله معنا حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة، كما جمع الله بينهما في قوله -تعالى-: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ } (1237)، فأخبر -تعالى- أنه فوق العرش، يعلم كل شيء، وهو معنا أينما كنا، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث الأوعال: " والله فوق العرش، وهو يعلم ما أنتم عليه" (1238).

وذلك أن كلمة "مع" في اللغة، إذا أطلقت، لم يكن ظاهرها، في اللغة إلا المقارنة المطلقة، من غير وجوب مماسة، أو محاذاة، عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني، دلت على المقارنة في ذلك المعنى، فإنه

(1234) تقدم أنه أخرجه مسلم.

(1235) الآية 4 من سورة الحديد.

(1236) رواه البخاري في الصلاة، باب 33 (ص 75) وفي أماكن متعددة، ومسلم.

(1237) الآية 4 من سورة الحديد.

(1238) تقدم تخرجه.

www.dorar.net الدرر السنية

يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، ويقال: هذا المتاع معي، لمجامعته لك، وإن كان فوق رأسك، فالله مع خلقه حقيقة، وهو فوق عرشه حقيقة.

ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد، فقوله -تعالى-: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ }⁽¹²³⁹⁾ دل ظاهر الخطاب أن حكم هذه المعية، ومقتضاها: أنه مطلع عليكم شهيد عليكم، ومهيمن، عالم بكم، وهذا معنى قول السلف: إنه معهم بعلمه، وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته.

وقوله: { لَا تَحْزَنُ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا }⁽¹²⁴⁰⁾، حق على ظاهره، ودلت الحال ص 410

على أن حكم هذه المعية: الاطلاع، والنصر، والتأييد، ومثلها قوله: { إِنِّي مَعَكُمْ }⁽¹²⁴¹⁾، وقوله -تعالى-: { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ }⁽¹²⁴²⁾ حق، وحكمها النصر، والتأييد⁽¹²⁴³⁾.

والمعية نوعان: عامة وخاصة.

فالأولى: هي المذكورة في مثل قوله تعالى: { وَهُوَ مَعَكُمْ أَيَّنَ مَا كُنْتُمْ }⁽¹²⁴⁴⁾

والثانية: هي المذكورة في مثل قوله تعالى: { إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى }⁽¹²⁴⁵⁾، فهذه خاصة بأنبيائه وأوليائه، وعباده المؤمنين، فهو -تعالى- معهم دون أعدائهم، ومعهم بسمعه ورؤيته، ونصره وتأييده، كما أنه -تعالى- معهم بإحاطته وقبضته.

والمعية لا تدل على المخالطة، والممازجة، وإنما تدل على المصاحبة، كما قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: " اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل"⁽¹²⁴⁶⁾.

فهو - سبحانه - مع المسافر في سفره، ومع أهله في وطنه، وهو فوق عرشه، وكل ذلك على ظاهره، غير محتاج إلى تأويل، ولا يلزم منه أن تكون ذاته مختلطة بذوات خلقه -تعالى- الله وتقدس عن ذلك -؛ وذلك لأن المفهوم من المعية في اللغة العربية: المصاحبة والمقارنة، حكمها حسب مورد الخطاب، فقوله -تعالى-: { مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ }⁽¹²⁴⁷⁾ أي: على الإيمان، لا أن ذواتهم حالة في ذاته، بل هم مصاحبون له ومتبعون له على

⁽¹²³⁹⁾ الآية 4 من سورة الحديد.

⁽¹²⁴⁰⁾ الآية 40 من سورة التوبة .

⁽¹²⁴¹⁾ الآية 46 من سورة طه.

⁽¹²⁴²⁾ الآية 128 من سورة النحل .

⁽¹²⁴³⁾ " مجموع الفتاوى " (102/5-104).

⁽¹²⁴⁴⁾ الآية 4 من سورة الحديد.

⁽¹²⁴⁵⁾ الآية 46 من سورة طه.

⁽¹²⁴⁶⁾ رواه مسلم في " الصحيح " (2/978) الحديث رقم (1342) ورواه غيره.

⁽¹²⁴⁷⁾ الآية 29 من سورة الفتح.

الإيمان، وقوله: { فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ } يدل على موافقتهم في الإيمان، وموالاتهم.

فالله -تعالى- مع عباده، يراهم، ويسمع كلامهم، وهو محيط بهم، وعلمه بهم من لوازم معيته لهم، وليست المعية هي العلم كما يتوهمه بعض الناس، فعلمه -

ص 411

تعالى - محيط بكل شيء ولا يختلف أو يتغير، ولذلك صارت المعية إلى خاصة، وعامة، وكل واحدة لها مقتضاها وحكمها، فمن مقتضى العامة: المراقبة، والتخويف، والاطلاع على جميع التصرفات، وما تكنه الصدور.

ومن مقتضى الخاصة: النصر، والتأييد، والحفظ. وتفسير من فسرهما بالعلم من السلف، يقصد بيان أن الله ليس مختلطاً بخلقه أو حالاً فيهم، أو أن شيئاً من مخلوقاته تحويه، أو تظله، أو تقله - تعالى وتقدس -.

و أما القرب، فقد جاء على صيغتين: الإفراد، نحو قوله -تعالى-: { وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ } (1248)، وكما في حديث أبي موسى المتقدم: "إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته".

وهو -تعالى- فوق عرشه، ويقرب ممن يشاء من خلقه، كيف يشاء، كما قرب من موسى - عليه السلام - حين كلمه، وهو فوق عرشه، فوق السماوات كلها، فلا تنافي بين علوه، وقربه ومعيته؛ لأنه تعالى أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وهو محيط بكل شيء، وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، تعالى الله عن ظنون السوء الكاذبة.

فعلو الله العلي العظيم، واستواؤه على عرشه، ومعيته وقربه، كل ذلك ثابت له، حق على ظاهره، كما أخبر به -تعالى- عن نفسه، وأخبرت به رسله، فالكل ثابت لله -تعالى- في الكتب الإلهية، وفي نصوص الأنبياء.

و أهل الفطرة العقلية السليمة، من الأولين والآخرين، يقولون: إنه -تعالى- فوق عرشه، عال على خلقه، وهو معهم، بعلمه ورؤيته، وسمعه وإحاطته، وقبضته وهيمنته عليهم. ومع أنبيائه وأوليائه بذلك، وبنصره، وتأييده، وحفظه. ومعيته -تعالى- من صفاته الخاصة به.

ص 412

و أما الصيغة الأخرى للقرب: صيغة الجمع، كقوله -تعالى-: { وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ } (1249)، وهذا يقصد به لغة العرب: الواحد العظيم، الذي

(1248) الآية 186 من سورة البقرة .

(1249) الآية 16 من سورة ق.

له عبيد يطيعونه، ويسارعون في أمره، وإذا وقع الفعل منهم عن أمره قال: نحن فعلنا، كما يقول الرئيس: نحن أمرنا بكذا، والله -تعالى- رب الملائكة، وخالقهم، وخالق أفعالهم، وهم ممثلون لأمره: { لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ }⁽¹²⁵⁰⁾، { لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ }⁽¹²⁵¹⁾، مع أنه -تعالى- غني بذاته عن ملائكته، وجميع خلقه، وهو الذي أقدر خلقه على ما يفعلون، وأعطاهم القدرة على ذلك، وإذا شاء سلبهم ذلك، فإذا قال -تعالى-: { وَتَحَنُّنٌ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ }⁽¹²⁵²⁾، إذا كان المراد الملائكة، كان من هذا الباب.

والمقصود: أن علو الله -تعالى- ثابت له بالفعل، وأدلة الكتاب، وما بلغه الرسول -صلى الله عليه وسلم- أمته، وثابت بالضرورة الفطرية، والأدلة عليه لا تحصى، ومنكره منكر للمعلوم بالضرورة من الدين، والمعلوم بالضرورة العقلية الفطرية، وليس بين علو الله واستوائه على عرشه، وبين معيته لخلقه، ولأوليائه وأنبيائه، وقربه منهم تعارض.

تم الجزء الأول من الشرح ويليه الجزء الثاني وأوله:

باب قول الله تعالى: { وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ } {22} إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ

⁽¹²⁵⁰⁾ () الآية 6 من سورة التحريم.

⁽¹²⁵¹⁾ () الآية 27 من سورة الأنبياء.

⁽¹²⁵²⁾ () الآية 85 من سورة الواقعة.